صورة الآخر في الشعر العربي



دكتور
فوزي عيسى
أستاذ الأدب العربي
رئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

صورة الآخر في الشعر العربي

د. فوزي عيسى
أستاذ الأدب العربي
رئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب جامعة الإسكندرية

٢٠١٠

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٢٣١٤٦

مقدمة

لم تحـظ صورة "الآخر" في الشعر العربي بدراسات وافية بالرغم مـن أهميتها، وظلت هذه الصورة يكتنفها الغموض والتعتيم لاسيما أن مفهوم "الآخر" ذاته يثير كثيراً من الجدل ويسمح بالاختلاف حوله ويبدو في نظـر الكـثيرين غير محدَّد على نحو دقيق حيث يرى بعض النقاد أن مفهـوم الآخر هو المضاد للذات والوجه المقابل أو النقيض لها، وتأسيسا على ذلك، فإنهم يوسعون دائرة المفهوم بحيث يشمل كل من يغاير الذات على الإطلاق، وإذا طبقنا ذلك على الشعر فإن الممدوح والمهجو والمرثي والمرأة وغيرهم يندرجون في هذا الإطار وهو ما يمثل إشكالية حقيقية في الدرس الأدبي.

إن مفهوم "الآخر" ــ من وجهة نظرنا ــ يبدو أكثر تحديدا فنعني بـه : الأجـنبي المضاد للذات العربية والذي فرضت الظروف السياسية والاجتماعـية والجغرافـية والحضـارية أن يكون هناك اتصال وتماس وعلاقات وجوار بين الطرفين.

إن علاقة العرب بهذا الآخر علاقة قديمة ترجع إلى ما قبل الإسلام حيـث اتصل العرب بالفرس والروم عن طريق الجوار من خلال إمارتي الغساسـنة والحيرة وتوطدت هذه الصلات عن طريق التجارة، وبرزت صورة "الآخر" في الشعر الجاهلي بجوانبها المختلفة، وكان الأعشى أكثر شـعراء العصـر الجاهلي استحضارا لصورة "الآخر" حيث نجد الحضور

الفارسي قوياً في شعره. وفي المقابل أخذت صورة "الروم" تبرز في الشعر العربي بعد أن وجّه العرب غزواتهم إلى بلاد الروم منذ عهد الخلفاء الراشدين مروراً بالعصر الأموي وصولاً إلى العصر العباسي الذي احتدم فيه الصراع بين العرب والروم وشهد تحولاً سلبياً في العلاقة بين الطرفين وانعكس ذلك على الشعر فصوَّر المعارك وهزائم الروم وجبن قوادهم وجنودهم وسبي رجالهم ونسائهم، وتسجيل الوقائع التاريخية والمواقع، وبررت صورة الروم بشكل مكثف في شعر ثلاثة من كبار شعراء العصر العباسي هم أبو تمام والمتنبي وأبو فراس الحمداني، وقد احتفت الدراسة بتتبع صورة الروم في شعرهم. كما وقفت على الحضور الفارسي في شعر البحتري من خلال وقفته أمام إيوان كسرى في سينيته.

وركزت الدراسة على حضور الآخر في شعر المتنبي حيث كان لهذا الحضور تجليات عديدة، وأسهم في هذا الحضور عدة عوامل، منها كثرة أسفاره ورحلاته واتساع ثقافته ومعاصرته للصراع المحتدم بين العرب والروم، وتجلّي حضور "الآخر" في شعر المتنبي ممثلاً في أجناس شتى، منها العجم والفرس والروم والترك والديلم والأكراد واليهود. وتنوعت صورة الآخر في شعره بين الإيجاب والسلب وصدر في مواقفه عن اعتزاز وتعصب وانتماء لكل ما هو عربي.

وعلى نحو ما طمحت الدراسة إلى تجلية صورة (الآخر) في المشرق، فقد سعت كذلك إلى تجليتها في المغرب، فخصصنا مبحثاً لتتبع صورة الممالك المسيحية في الشعر الأندلسي حيث بررت صورة (الروم)

بوصفهم أعداء يمثلون خطراً على الإسلام، وانعكس ذلك على الأدب، فصوَّر الشعر الأندلسي الغزوات والمعارك والحروب واحتفى بتسجيل الوقائع التاريخية والأماكن الجغرافية والسفارات المتبادلة ورسم مشاهد عديدة لملوك الروم وقوادهم واحتفت الدراسة بوجه خاص بتتبع صورة الآخر في شعر ابن دراج القسطلي الذي صنع صنيع المتنبي في وصف الوقائع التاريخية والناس والأماكن والسفارات والوفود والعلاقات الدبلوماسية المتبادلة حيث أمدَّنا الشعر بمادة طريفة نادرة في هذا المجال على النحو الذي نجده في سفارة الشاعر الدبلوماسي يحيى بن حكم الجياني الملقب بالغزال إلى بلاد الروم حيث أعجب بملكة القسطنطينية "ثيودورا Theodora " وكان له معها قصص ونوادر سجلها في شعره في لقطات نادرة عكست الأجواء الحضارية ومدي التقارب والاختلاف بين الطرفين.

وخصصنا مبحثاً يعني بتتبع صورة الآخر في دائرة الحب حيث شاعت بعض قصص الحب بين شعراء عرب وأسبانيات مُسيحيات مثل قصة حب الشاعر الأندلسي ابن الحداد لفتاة نصرانية من مستعربي الأندلس وكانت هذه العلاقة رمزاً للتسامح والتلاقي وسمحت لنا من خلال الشعر بالوقوف على الأجواء المسيحية بتفاصيلها المختلفة.

وهناك مبحث آخر تتبعنا فيه صورة اليهود في الشعر الأندلسي حيث ارتفع نفوذهم في بعض الفترات وقويت شوكتهم في غرناطة في

عصر ملوك الطوائف ونشأ تيار مناهض لنفوذهم واحتفظ الشعر بصورة سلبية لهم، وتجلى ذلك بصفة خاصة في شعر أبي إسحاق الإلبيري.

ولم تشأ الدراسة أن تكتفي بتتبع صورة الآخر في الشعر القديم بل وصلتها بالشعر العربي الحديث حيث اتخذت علاقة الشعراء بـ"الآخر" صوراً جديدة من التفاهم والتصالح والتسامح والحوار وتعمقت هذه الصورة وازدادت ملامحها وضوحاً وبروزاً تبعاً لتطور الإنجازات العلمية وتوسع تقنيات الاتصال مما سهّل السفر والتنقل وأدى إلى اختصار المسافات والحدود الجغرافية بين الأمم والدول وأسهم في مدِّ جسور التفاهم والتلاقي بين الثقافات والحضارات المختلفة حيث تحول العالم إلى قرية كونية صغيرة.

وعلى نحو ما اهتمت الدراسة بالتركيز على تجلية صورة "الآخر" عند أبرز الشعراء قديماً، فقد اهتمت كذلك بالصنيع ذاته في الشعر الحديث، فركزت على ثلاثة شعراء برزت صورة "الآخر" في شعرهم بشكل واضح وهم: شوقي وعمر أبو ريشة وإبراهيم العريّض، وهم يمثلون بيئات شعرية عربية مختلفة.

وقد خصصنا مبحثاً يعنى باستجلاء صورة (الغرب) في شعر شوقي، ورصدنا فيه المؤثرات العامة والخاصة التي أسهمت في تشكيل هذه الصورة، ومنها انفتاح مصر على أوربا منذ القرن التاسع عشر واهتمامها بإرسال البعثات إليها وإسهام حركة التعريب في تحقيق هذا التواصل. بالإضافة إلى المؤثرات الخاصة التي تمثلت في اتصال شوقي

بالغرب من خلال بعثته إلى فرنسا التي أتاحت له التزود بالثقافة الفرنسية والتنقل بين دول الغرب والوقوف على إنجازاته الحضارية.

وقد أطلت صورة الغرب في شعر شوقي إطلالات قوية وكان لها حضور مكثف، فنجد فيه صوراً للبلدان والمجتمعات والمدن التي زارها، ومنها فرنسا وانجلترا وإسبانيا وسويسرا وبلجيكا، كما نجد فيه وصفاً لـلمعالم الحضارية التي شاهدها في بعض دول الغرب واحتفاءً بمدينة باريس بصفة خاصة إذ اهتمّ بتقديم صورها الحضارية والعلمية والأدبية وأشاد بما أرسته من مبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة وأثنى على بعض أعلامها وأدبائها ومفكريها ووصف بعض معالمها مثل ميدان (الكونكورد) وتغنى ببعض متنزهاتها مثل (غاب بولون).

وتتبعنا كذلك صورة إسبانيا كما رآها شوقي في منفاه وانبهاره بحضارة الأندلس ووصف معالمها وقصورها، كما احتفى شوقي بمدينة (روما) بوصفها عاصمة الحضارة الرومانية القديمة وأشاد بحضارة اليونان وما أنجزته في مجال العمران والفلسفة، ورسم صوراً مضيئة لمدينة (أثينا).

أما صورة انجلترا فلها وجهان في شعر شوقي، أحدهما ينطوي على مدح وإعجاب بحضارتها، والآخر يدين فيه سياستها الاستعمارية وممارساتها العدوانية ضد الشعوب.

وتمثل اهتمام شوقي بـ"الآخر" في جانب آخر من شعره هو الاحتفاء بعباقرة الغرب ونوابغه من ساسة وعلماء وفلاسفة ومفكرين وأدباء وفنانين وغيرهم، وقد شغل هذا الجانب مساحة واسعة من شعر

شوقي، فاختص من فلاسفة اليونان القدماء كلّاً من سقراط وأرسطو، وعبَّر عن إعجابه بـ" هومير" شاعر الإلياذة، وأشاد بـ"تولستوي" أديب روسيا العظيم، وأثنى على شكسبير ثناءً عظيماً وعبَّر عن إعجابه بفكتور هوجو، واستدعى شخصية الرسام العالمي (رفائيل) وشخصية الموسيقار العالمي (فردي) وأشاد بـ"أديسون" مخترع المصباح الكهربائي. كما احتفى شوقي بنوابغ الغرب من الساسة والزعماء لا سيما (نابليون) كما التفت إلى ساسة آخرين منهم روزفلت وإدوارد السابع وغليوم الثاني واللورد كرومر وغيرهم. وتفاعل شوقي مع الأحداث الكبرى التي شهدها الغرب وتعاطف مع كل نموذج إنساني أسهم في خدمة البشرية وأكد إيمانه بالحضارة التي تحقق الخير والتقدم للإنسانية.

وخصصنا مبحثاً كذلك لصورة "الآخر" في شعر عمر أبي ريشة، حيث أتاحت له ثقافته وكثرة أسفاره وتنقلاته في دول العالم المختلفة من خلال عمله الدبلوماسي سفيراً لبلاده أن ينفتح على العالم ويتصل بحضارته وثقافته اتصالاً مباشراً جعل صورة "الآخر" تبدو في شعره بشكل واضح وتمثل تياراً بارزاً فيه، فرسم مشاهد عديدة للناس الأجانب رجالاً ونساء، ووصف المعابد التي زارها، والمعالم السياحية والأماكن التاريخية ومشاهداته في الأرجنتين وأسبانيا والهند والنمسا وكشمير ونيبال وغيرها.

أما إبراهيم العريّض فهو أحد هؤلاء الفرسان الثلاثة الذين يمثلون همزة الوصل بين الحضارة العربية والحضارات الأجنبية، حيث تعددت

منابع ثقافته، فتأسس وعيه الثقافي في الهند التي عاش فيها طفولته وصدراً من صباه وأجاد اللغة الإنجليزية وعاد إلى وطنه ليعمل مدرساً لها في مدارسها في إحدى مراحل حياته، وكتب بها شعراً إلى جانب كتابته الشعر بالعربية وأجاد لغات أخرى غيرها مما أتاح له ترجمة رباعيات الخيام وهيأه للانفتاح على الآخر الثقافي.

وختمنا الدراسة بمبحث عن صورة "الآخر" في القصيدة العربية المعاصرة وتتبعنا فيه موقف الشاعر العربي المعاصر من هذا "الآخر" الدخيل الذي اغتصب أرضه وانتهك مقدساته، وهو موقف عام ينطلق من الرفض ويعكس توجه الوجدان الجمعي للأمة العربية.

وعلى هذا النحو تطمح هذه الدراسة إلى استجلاء صورة "الآخر" في شعرنا العربي كما تمثلت في شعر أبرز الشعراء العرب الذين أتاحت لهم ظروفهم وثقافاتهم ورحلاتهم الاتصال المباشر بالآخر والتعرف إلى ثقافته وعاداته وصفاته ومدى التقارب أو الابتعاد عنه، وموقف هؤلاء الشعراء منه: قبولاً وتسامحاً أم رفضاً ونفياً؟ وهل اختلفت نظرة الشاعر القديم للآخر عن نظرة الشاعر الحديث؟ وغير ذلك من تساؤلات تسعى الدراسة إلى الإجابة عنها وتجليتها. والله الموفق.

حضور الآخر في الشعر القديم

كسرى أخذ بعض الرهائن من قومه حين أغار الحارث بن وعلة على بلاد الفرس ومقابلة هذا الطلب بالرفض حتى وإن ترتب على ذلك ملاقاة الفرس وقتالهم، يقول الأعشى:(١)

مَن مُبلِغٌ كِسرى إِذا ما جاءَهُ ... عَنّي مَآلِكَ مُخمِشاتٍ شُرَّدا
آلَيتُ لا نُعطيهِ مِن أَبنائِنا ... رُهناً فَيُفسِدَهُم كَمَن قَد أَفسَدا
حَتّى يُفيدَكَ مِن بَنيهِ رَهينَةً ... نَعشٌ وَيَرهَنَكَ السَماكُ الفَرقَدا
إِلّا كَخارِجَةَ المُكَلِّفِ نَفسَهُ ... وَابنَي قَبيصَةَ أَن أَغيبَ وَيَشهَدا
أَن يَأتِياكَ بِرُهنِهِم فَهُما إِذاً ... جُهِدا وَحُقَّ لَخائِفٍ أَن يُجهَدا
كَلّا يَمينَ اللَهِ حَتّى تنزلوا ... مِن رَأسِ شاهِقَةٍ إِلَينا الأَسوَدا
لَنُقاتِلَنَّكُمُ عَلى ما خَيَّلَت ... وَلَنَجعَلَنَّ لِمَن بَغى وَتَمَرَّدا
ما بَينَ عانَةَ وَالفُراتِ كَأَنَّما ... حَشَّ الغُواةُ بِها حَريقاً موقَدا

ويمضي الأعشى فيفخر بقومه وشجاعتهم وحسن بلائهم في الحروب ويخاطب كسرى بلهجة الواثق بقدرته، المعتز بكرامته مستخفاً به، متنبئاً بهزيمته حيث لم ينفعه تاجه المعتصب به، يقول:(٢)

فَاقعُد عَلَيكَ التاجُ مُعتَصِباً بِهِ ... لا تَطلُبَنَّ سَوامَنا فَتَعَبَّدا
فَلَعَمرُ جَدِّكَ لَو رَأَيتَ مَقامَنا ... لَرَأَيتَ مِنّا مَنظَراً وَمُؤَيَّدا

---

(١) ديوان الأعشى الكبير : ٥٣-٥٤

(٢) ديوان الأعشى : ٥٤

ويحتفل الأعشى في غير قصيدة بالنصر المؤزَّر الذي أحرزه قومه على الفرس في يوم "ذي قار"، يصف المعركة حين أقبل جيش كسرى بعتاده الضخم وقواده الغطارفة وقد علقوا في آذانهم "النطف" وهي اللآلي والجواهر دلالة على السيادة والعظمة وقد دارت رحى الحرب واستخدم الفرس أسلحتهم "النشّاب" ولكن خيل قوم الأعشى وفرسانهم وسيوفهم أعملت فيهم القتل حتى قُتل منهم عدد كبير، يقول الأعشى مفتخراً بهزيمة الفرس:[1]

وَجُندُ كِسرى غَداةَ الحِنوِ صَبَّحَهُم ... مِنّا كَتائِبُ تُزجي المَوتَ فَانصَرَفوا

جَحاجِحٌ وَبَنو مُلكٍ غَطارِفَةٌ ... مِنَ الأَعاجِمِ في آذانِها النُطَفُ

إِذا أَمالوا إِلى النُشّابِ أَيدِيَهُم ... مِلنا بِبيضٍ فَظَلَّ الهامُ يُختَطَفُ

وَخَيلُ بَكرٍ فَما تَنفَكُّ تَطحَنُهُم ... حَتّى تَوَلَّوا وَكادَ اليَومُ يَنتَصِفُ

لَو أَنَّ كُلَّ مَعَدٍّ كانَ شارَكَنا ... في يَومِ ذي قارَ ما أَخطاهُمُ الشَرَفُ

وفي قصيدة أخرى للأعشى تبرز صورة "الهامرز" قائد الفرس المنهزم في يوم "ذي قار" أمام بني شيبان عند "حنو قراقر" بالقرب من الكوفة، وقد أقبل جيش الفرس بعتاده وأعلامه ولكنهم منوا بهزيمة كبيرة بعد معركة حامية الوطيس. يقول الأعشى:[2]

فِدىً لِبَني ذُهلِ ابنِ شَيبانَ ناقَتي ... وَراكِبُها يَومَ اللِقاءِ وَقَلَّتِ

هُمُ ضَرَبوا بِالحِنوِ حِنوِ قُراقِرٍ ... مُقَدِّمَةَ الهامَرزِ حَتّى تَوَلَّتِ

---

(١) ديوان الأعشى : ١١٣-١١٤

(٢) المصدر نفسه: ٣٧-٣٨

فَللَّـــهِ عَيـــنا مَن رَأى مِن عِصابَةٍ أَشَـــدَّ عَلى أَيدي السُقاةِ مِنَ الَّتي
أَتَـــتهُم مِـــنَ البَطحاءِ يَبرُقُ بَيضُها وَقَـــد رُفِعَـــت راياتُها فَاستَقَلَّت
فَـــثاروا وَثُـــرنا وَالَمنِـــيَّةُ بَينَـــنا وَهاجَـــت عَلَيـــنا غَمرَةٌ فَتَجَلَّت
وَقَد شَمَّرَت بِالناسِ شَمطاءُ لاقِحٌ عَـــوانٌ شَـــديدٌ هَمزُها فَأَضَلَّت
كَفَـــوا إِذ أَتى الهامَرزُ تَخفِقُ فَوقَهُ كَظِـــلِّ العُقابِ إِذ هَوَت فَتَدَلَّت
وَأَحَموا حِمى ما يَمنَعونَ فَأَصبَحَت لَـــنا ظُعُـــنٌ كانَت وُقوفاً فَحَلَّت
أَذاقوهُـــمُ كَأســـاً مِنَ المَوتِ مُرَّةً وَقَـــد بَذَخَت فُرسانُهُم وَأَذَلَّت
سَـــوابِغُهُم بيضٌ خِفافٌ وَفَوقَهُم مِنَ البيضِ أَمثالُ النُجومِ استَقَلَّت
وَلَـــم يَـــبقَ إِلّا ذاتُ رَيعٍ مُفاضَةٌ وَأَســـهَلَ مِـــنهُم عُصبَةٌ فَأَطَلَّت
فَصَـــبَّحَهُم بِالحِـــنوِ حِـــنوِ قُراقِرٍ وَذي قارِهـــا مِنها الجُنودُ فَفُلَّتِ
عَـــلى كُـــلِّ مَحبوكِ السَراةِ كَأَنَّهُ عُقابٌ هَوَت مِن مَرقَبٍ إِذ تَعَلَّت
فَجادَت عَلى الهامَرزِ وَسطَ بُيوتِهِم شَآبيبُ مَوتٍ أَسبَلَت وَاستَهَلَّت

وتـــبرز صـــورة القيل هامرز قائد الفرس المنهزم يوم ذي قار في قصـــيدة أخرى للأعشى وقد جاء بجيشه لينتقم من قوم الشاعر فكانت الهزيمة من نصيبه والقتل عقاباً له. يقول الأعشى:[1]

أَرادوا نَحـــــتَ أَثلَتِـــــنا وَكُـــنّا نَمـــنَعُ الخُطُمـــا
وَكـــانَ الـــبَغيُ مَكـــروهاً وَقَـــولُ الجَهـــلِ مُنـــتَحِما
فَـــباتوا لَـــيلَهُم سَـــمَراً لِيُســـدوا غِـــبَّ مـــا نَجَمـــا

(١) ديوان الأعشى : ١٧٦-١٧٧

فغَبّوا نَحوَنا لَجِباً يَهُدُّ السَهلَ وَالأَكَما

سَوابِغَ مُحكَمِ الماذِ يِ شَدّوا فَوقَها الحُزُما

فَجاءَ القَيلُ هامَرزٌ عَلَيهِم يُقسِمُ القَسَما

يَذوقُ مُشَعشَعاً حَتّى يُفيءَ السَبيَ وَالنَعَما

فَلاقى المَوتَ مُكتَنِعاً وَذُهلاً دونَ ما زَعَما

أُباةَ الضَيمِ لا يُعطو نَ مَن عادَوهُ ما حَكَما

أَبَت أَعناقُهُم عِزّاً فَما يُعطونَ مَن غَشَما

عَلى جُردٍ مُسَوَّمَةٍ عَوابِسَ تَعلُكُ اللُجُما

تَخالُ ذَوابِلَ الخَطِّ يِ في حافاتِها أَجَما

قَتَلنا القَيلَ هامَرزاً وَرَوَّينا الكَثيبَ دَما

ويعدُّ الأعشى أكثر شعراء العصر الجاهلي استحضاراً لصورة "الآخر" في شعره وذلك يرجع إلى كثرة تنقلاته ورحلاته وأسفاره طلباً للتكسب بشعره مما أتاح له الاتصال بحضارة الآخرين وثقافاتهم وعاداتهم عن قرب، وقد أشار في شعره إلى كثرة أسفاره فقال:[١]

وَقَد طُفتُ لِلمالِ آفاقَهُ عُمانَ فَحِمصَ فَأوريشَلِم

أَتَيتُ النَجاشِيَّ في أَرضِهِ وَأَرضَ النَبيطِ وَأَرضَ العَجَم

فَنَجرانَ فَالسَروَ مِن حِميَرٍ فَأَيَّ مَرامٍ لَهُ لَم أَرُم

وَمِن بَعدِ ذاكَ إِلى حَضرَمَوتَ فَأَوفَيتُ هَمّي وَحيناً أَهُم

---

(١) ديوان الأعشى : ١٧١-١٧٢

"وهذه الرحلات المتعددة، والأسفار الكثيرة، لم تُفد الأعشى مالاً فقط، وإنما أحرز من ورائها سعة الأفق ورحابة المعرفة، حيث رأى بيئات مختلفة، وعاشر أقواماً مختلفي المشارب والعادات، وشاهد في أثناء رحلاته المناظر الطبيعية الجديدة الخلابة وسمع أخباراً، واكتسب عادات وطبائع، مـــا كان ليعرفها لولا أن رحل وسافر، وانعكس كل ذلك لدى الأعشى لـــيكون ثروة في الفكر وغني في التصوير وحضارة في التناول وتنوعاً في الآداء، ففـــي شعره البيئات المتنوعة، والأنماط المعيشية المختلفة والعادات المتباينة"[١]

ويستحضر الأعشى صورة ساسان مؤسس دولة ساسان الفارسية وكســـرى شاهنشاه ملك الملوك عند الفرس وكذلك شخصية (مورق) أحـــد ملوك الروم بوصفهم يمثلون أعظم حضارتين في عصره وذلك في معرض تأكيد حقيقة أنه لا شيء أو لا أحد يخلد أمام سطوة الدهر، فكل الحضارات والبشر والأشياء والأحياء تؤول إلى الفناء. يقول:[٢]

فَمـــا أَنتَ إِن دامَت عَلَيكَ بِخالِدٍ   كَما لَم يُخَلَّد قَبلُ ساسا وَمورَقُ
وَكِسرى شَهنشاهُ الَّذي سارَ مُلكُهُ   لَـــهُ ما اِشتَهى راحٌ عَتيقٌ وَزَنبَقُ

ويكـــثر الأعشـــى من استحضار معالم حضارة الآخر كالقصور الضخمة الباذخة بغرض الاعتبار والعظة وتأكيد خضوع الحضارات لمنطق الفناء والانسحاق أمام الدهر، فيستحضر صورة حصن(الأبلق) الشاهق،

---

(١) عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى، د. عباس عجلان، دار المعارف، ١٩٨١ ص٥١.

(٢) ديوان الأعشى : ١١٨

وقصور سليمان بن داود ويحتفي بوصفهما، إذ كانت ذات (أزج) عالٍ وهـو ضـرب مستطيل من الأبنية وقد شيدت بالحجارة الصلبة المتينة وزُينت بالمشارب أو المقصورات وامتلأت بمباهج الحياة من حور كالدمي وجـوارٍ وأوعـية من الفضة ولكن يد الدهر لم تلبث أن سلبته الحياة، ويسـتخدم الأعشـى بعض مفردات اللغة الفارسية مما يعكس أثر هذه الثقافة في شعره فيقول:(١)

وَلا عادِيـا لَم يَمنَعِ المَوتَ مالُهُ ... وِردٌ بتَـيماءَ الـيَهودِيِّ أبلَـقُ

بَـناهُ سُـلَيمانُ بنِ داوُودَ حِقبَةً ... لَـهُ أَزَجٌ عـالٍ وَطَـيٌّ مُوَثَّقُ

يُـوازي كُبَـيداءَ السَماءِ وَدونَهُ ... بَلاطٌ وَداراتٌ وَكِلسٌ وَخَندَقُ

لَـهُ دَرمَكٌ في رَأسِهِ وَمَشارِبٌ ... وَمِسـكٌ وَرَيحانٌ وَراحٌ تُصَفَّقُ

وَحورٌ كَأَمثالِ الدُمى وَمَناصِفٌ ... وَقِـدرٌ وَطَبّاخٌ وَصاعٌ وَدَيسَقُ

فَـذاكَ وَلَم يُعجِز مِنَ المَوتِ رَبَّهُ ... وَلَكِـن أَتـاهُ المَوتُ لا يَتَأَبَّقُ

وفي السياق ذاته يستحضر الأعشى صورة قصر ريمان وكان قصراً عظـيماً للأحـباش في اليمن وقد استولى عليه الفرس بعد معركة حامية بقيادة (وهرز) القائد الفارسي الذي تطيَّر من دخول القصر منكّس الرأس فأمر بهدم بابه ليدخله رافعاً راية النصر. وقد وصف الأعشى هذا القصر بعـد أن صـار خراباً خاوياً من أهله، خالياً من مظاهر الأبهة والحياة. يقول:(٢)

---

(١) ديوانه : ١١٨

(٢) ديوانه : ٢٦-٢٧

يـــا مَـــن يَـــرى رَيمانَ أَمــ ـــسى خاوِيـــاً خَـــرِباً كِعابُـــه
أَمســـى الثَعالِـــبُ أَهلَـــهُ بَعـــدَ الَّذيـــنَ هُـــمُ مَآبُـــه
مِـــن ســـوقَةٍ حَكَـــمٍ وَمِـــن مَلِـــكٍ يُعَـــدُّ لَـــهُ ثَوابُـــه
بَكَـــرَت عَلَـــيهِ الفُرسُ بَعـــ ـــدَ الحُـــبشِ حَـــتّى هُدَّ بابُه
فَـــتَراهُ مَهـــدومَ الأَعـــا لي وَهـــوَ مَســـحولٌ تُـــرابُه
وَلَقَـــــد أَراهُ بِغِـــــبطَةٍ في العَـــيشِ مُخضَـــرّاً جَـــنابُه

ويقف الأعشى الموقف ذاته أمام قصر (الحَضْر) وهو قصر الفيزان ملـــك قضـــاعة وكان موقعه بين دجلة والفرات وقد ضرب به المثل في الروعة والفخامة واستولى عليه (شاهبور) ابن الهرمز ملك الفرس، يقول الأعشى:[1]

أَلَـــم تَـــرَي الحَضـــرَ إِذ أَهلُهُ بِـــنُعمى وَهَـــل خالِدٌ مَن نَعِم
أَقـــامَ بِـــهِ شـــاهَبورُ الجُـــنو دَ حَولَـــينِ يَضـــرِبُ فيهِ القُدُم
فَمـــــا زادَهُ رَبُّـــــهُ قُـــــوَّةً وَمِـــثلُ مُجـــاوِرِهِ لَـــم يُقِـــم
فَلَمّـــــا رَأى رَبُّـــــهُ فِعلَـــــهُ أَتـــاهُ طُـــروقاً فَلَـــم يَنـــتَقِم

ومـــن مظاهر الحضور الفارسي في شعر الأعشى وصف مظاهر الحـــياة الفارســـية كالأعياد والأزياء والأزهار وأدوات الطرب ومجالس الشراب وغيرها على النحو الذي نجده في هذا المثال الذي يحتشد بالأسماء

---

(١) ديوان الأعشى : ١٧٢

والأوصـــاف الفارســية للأزهار وآلات الغناء في معرض وصف مجالس شراب. يقول:[1]

بكَــأسٍ وَإبــريقٍ كَأَنَّ شَرابَهُ إذا صُـــبَّ في المِصحاةِ خالَطَ بَقَّما
لَــنا جُلَّسانٌ عِندَها وَبَنَفسَجٌ وَسيسِــنبَرٌ وَالمَــرزَجوشُ مُنَمنَما[2]
وَآسٌ وَخِــيرِيٌّ وَمَروٌ وَسَوسَنٌ إذا كانَ هِنزَمنٌ وَرُحتُ مُخَشَّما[3]
وَشاهَسفَرِمْ وَالياسَمينُ وَنَرجِسٌ يُصَــبِّحُنا في كُــلِّ دَجنٍ تَغَيَّما[4]
وَمُســتُقُ سينينٍ وَوَنٌّ وَبَربَطٌ يُجاوِبُــهُ صَــنجٌ إذا مــا تَرَنَّما[5]
وَفِتيانُ صِدقٍ لا ضَغائِنَ بَينَهُم وَقَــد جَعَلــوني فَيسَحاهاً مُكَرَّما

هكذا تحتشد القطعة بأسماء الأزهار الفارسية كالبنفسج والسيسنبر والآس والمرزجوش في مناسبة عيد فارس يسمى (الهترمن) وقد احتفل به الأعشـى مع ندمائه في مجلس شراب وغناء على آلات الموسيقى والغناء كالبربط والصنج والونّ لينقلنا الأعشى إلى أجواء فارسية خالصة.

---

(١) ديوان الأعشى: ١٦٤-١٦٥

(٢) السيســنبر: لفظة فارسية وهي نوع من الريحان، والمرزجوش: لفظة فارسية وهو شراب مفيد.

(٣) الهترمن: من أعياد النساطرة.

(٤) الشاهسفرم: الريحان.

(٥) المستق: آلة موسيقية يضرب بها ، والبربط: العود

وتـــتردد في شــــعر الأعشى كذلك أسماء بعض الأزياء والملابس الفارسية كالشيدارة وهي ملاءة أو عباءة ليس لها كم تلبسها المرأة، وقد أشار إليها في معرض تغزله بفتاة حسناء، فقال:(١)

إذا لَبِسَـــت شَيدارَةً ثُمَّ أَبرَقَت ... بِمِعصَمِها وَالشَمسُ لَمّا تَرَجَّلِ
وَأَلوَت بِكَفٍّ في سِوارٍ يَزينُها ... بَــنانٌ كَهُدّابِ الدِمَقسِ المُفَتَّلِ
رَأَيــتَ الكَريمَ ذا الجَلالَةِ رانِياً ... وَقَد طارَ قَلبُ المُستَخِفِّ المُعَذَّلِ

وهكـــذا كان للعنصر الفارسي حضور مكثف في شعر الأعشى، فصوَّر ملك الفرس وقوَّادهم في عظمتهم وفتوحاتهم وصراعهم مع العرب وهزيمـــتهم في موقعـــة (ذي قـــار)، وصوَّر الأماكن والقصور في سياق الاعتـــبار، واحـــتفي بأجواء الحياة الفارسية ومظاهر الحضارة في الأعياد والأزياء والأزهار وغيرها.

حضور الروم في الشعر:

اتجه العرب بفتوحاتهم بعد الإسلام شرقاً وغرباً، ووجهوا غزواتهم إلى بـــلاد الروم، وأخذت صورة (الروم) تبرز في الشعر العربي منذ عهد الخلفـــاء الراشدين، ونجد الشاعر عبد الله بن سبرة الحرشي وهو أحد من شـــاركوا في تلك الغزوات ينظم قصيدة نادرة يصف فيها مبارزة جرت بينه وبين قائد رومي يُسمى (أرطبون) وذلك في غزوة (فلطاس) وكانت مبارزة عنيفة انتهت بقطع يد ابن سبرة اليمني، وقد وصف الشاعر العربي

---

(١) ديوان الأعشى : ١٦٢-١٦٣

هذا القائد الرومي بشعره الكثيف وزرقة عينيه وقد أصابه الصلع برغم أنه لم يشمط. يقول:[1]

ويلُ امِّ جارٍ غداة الروع فارقني ... أَهــون عــليَّ به إذا بانَ فانقطعا
يُمــنى يديَّ غدت منّي مفارقةً ... لم أســتطع يــوم فلطاس لها تبعا
وقــائل غــابَ عن شأني وقائلةٍ ... هــلاّ اجتنبــتَ عدو الله إذ صُرِعا
ومــا ضننتُ عليها أن أُصاحِبَها ... لقد حرصتُ على أن نستريح معا
وكــيف أركــبه يسعى بمُنصُلِه ... نحــوي وأعجــز عنه بعدما وقعا
ما كان ذلك يوم الرَّوع من خلقي ... ولــو تقــارب منّي الموت فاكتنعا
ويــلُ أمِّــهِ فارِساً أجلت عشيرته ... حامى وقد ضيّعوا الأحساب فارتجعا
يمشــي إلى مستَميتٍ مثله بطلٍ ... حــتى إذا أمكنا سيفيهما امتصعا
كلٌّ يَنوءُ بِماضي الحدّ ذي شطبٍ ... جــلا الصــياقِلُ عــن دُرِّيّه الطبعا
حاسيته الموتَ حتى اشتفّ آخِرهُ ... فمــا استكانَ لما لاقى ولا جزِعا
كــأنّ لِمّــتَهُ هُــدّابُ مُخملة ... أحــمُّ أزرقُ لم يَشمط وقد صلعا
وإن يكــن أرطبون الروم قطّعها ... فــإنّ فــيها بحمــد الله منــتفعا
فــإنّ يكن أرطبون الروم قطّعها ... فقــد تركــتُ بهــا أوصاله قِطعا
بنانَــتين وُجذمُــوراً أُقــيم بها ... صــدرَ القــناةِ إذا ما آنسوا فَزَعا

(١) الأمالي ١: ٤٧-٤٨

والقصـــيدة تعبر عن موقف إنساني نادر تعرض له الفارس العربي المجاهد وبارز القائد الرومي وأبلى بلاء حسناً حتى فقد يده اليمنى ولكن ذلك لم يفتّ من عضده و لم يفقده جلده وإيمانه.

وقـــد اتســـعت الفـــتوحات العربية في عهد الدولة الأموية حتى وصلت الجيوش العربية إلى مملكة الصين وبلغت سمرقند والصغد وما وراء خراســـان وبرزت صورة الترك بوصفهم أعداء العرب، ووصف الشاعر ثابـــت قطنة ظفر العرب بالترك في إحدى المعارك مشيراً إلى ما جاء في الحديث الشريف:"كأنكم بالترك وقد جاءتكم على براذين مخذمة الآذان" فقال يفتخر بالنيل من ملك الترك أو أحد عظمائهم الذي يلقبه بـــ"الملك الهمام"(١)

فَدَت نَفسي فَوارِسَ مِن تَميمٍ　　　غَـــداةَ الـــرَوعِ في ضَنْكِ المَقامِ
فَلَـــولا اللَهَ لَيسَ لَهُ شَريكُ　　　وَضَـــربي قَونـــسَ المَلِكِ الهُمامِ
إِذَن لَسَـــعَت نِساءَ بَنّي دَثارٍ　　　أَمـــامَ الـــتُركِ بادِيَـــةَ الخِـــدامِ

وتـــتردد صـــورة (الترك) وقد انهزموا وولوا الأدبار وكان قائد الجـــيش العربي في تلك المعركة هو "سعيد الحرشي" وتغنى الشعراء بهزيمة الترك فقال أحدهم:(٢)

إذا ســـعيد سار في الأخماس
في رهـــج يـــأخذ بالأنفاس

---

(١) تاريخ الطبري ٨: ١٦٣

(٢) نفس المصدر ٨: ١٦٩

دارت على الترك أمر الكاس
وطارت الترك على الأحلاس
ولّــوا فــراراً عطّــل القياس

وبــرزت صــورة (خاقــان) ملك الترك والقائد التركي(نيلان) ويصــف الشرعبي الطائي أحد من كانوا يحاربون في الجيش العربي —ما كان يلاقيه الجند من أهوال وهم منقطعون في تلك البقاع البعيدة ويصور بأس الترك وقوتهم وانخذال العرب أمامهم فيقول:[١]

تذكــرت هنداً في بلاد غريبة   فيا لك شوقاً هل لشملك مجمع
تذكــرها والشاس بيني وبينها   وشــعب عصــام والمنايا تطلع
بــلاد بها خاقان جم زحوفه   ونــيلان في ســبعين ألفاً مقنع
إذا دب خاقان وسارت جنوده   اتتــنا المــنايا عند ذلك تشرع

وكــان الأمويــون يجاهدون لتأمين حدودهم من ناحية، ونشر الإسلام خارجَ حدودهم من ناحية أخرى، فكانوا يغزون ثغور الروم فيما يُعــرف بـــــ"الصــوائف" ووصــلت طلائعهم إلى أنطاكية وحدود القسطنطينية، وكانت الحرب سجالاً بين العرب والزوم، ويصف النابغة الشــيباني حصار الجيش العربي لمدينة (طرندة) الرومية بقيادة مسلمة بن عبد الملك وانتهاء هذا الحصار بسقوط المدينة فيقول:[٢]

أَخــزى طُــرَندَةَ مِــنهُ وابِلَ بَرِدٌ   وَعَســكرٌ لَم تَقُدهُ العُزَّلُ الجوفُ

---

(١) تاريخ الطبري ٨: ٩٥

(٢) ديوان النابغة الشيباني: ٥١

مـا زالَ مَسلمةُ الَميمونُ يَحصرُها وَركـنُها بِثِقالِ الصَخرِ مَقذوفُ
وَقَد أَحاطَت بِها أَبطالُ ذي لَجَبٍ كَمـا أَحاطَ بِرَأسِ النَخلَةِ الليفُ
حَتّى عَلَوا سورَها مِن كُلِّ ناحِيَةٍ وَحانَ مَن كانَ فيها فَهوَ مَلهوفُ
فَأَهلُهـا بَـينَ مَقتولٍ وَمُستَلَبٍ وَمِـنهُمُ مُوثَـقٌ في القِدِّ مَكتوفُ

وقـد اتخـذ الصـراع بين العرب والروم أبعاداً أعمق في العصر العباسـي وتبارى الشعراء في تصوير هذا الصراع ووصفوا معارك الثغور الـتي احتدمت بين الجانبين، وصوَّروا هزائم الروم وفرار بعض قوادهم، ونجد حضوراً مكثفاً للروم في شعر ثلاثة من كبار شعراء العصر العباسي: أبي تمام والمتنبي وأبي فراس الحمداني وهو ما سنتناوله بالتفصيل:

صور الروم في شعر أبي تمام:

قُـدِّر لأبي تمـام أن يعاصر الخلافة العباسية في عصرها الذهبي، فكانـت من القوة والمنعة بمكان، حتى بسطت سلطانها على بلاد كثيرة، وصـارت دولة مرهوبة الجانب، وقد احتدم الصراع بين العرب والروم آنـذاك وكـثرت معارك الثغور وغزوات العرب في أرض الروم وإلحاق الهـزيمة بهم في وقائع كثيرة مما ألهب خيال الشعراء ومنهم أبو تمام الذي "وثـق بابـاً جديـداً في الشعر العربي هو شعر الحرب، وفتق في نطاق الموضوع معاني مستحدثة لم تعرف من قبل"[1].

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة: ٦٦٩.

ولعل أول شعر قاله أبو تمام في تصوير الصراع بين العرب والروم قصيدته التي صور فيها معركة خاضها المأمون ضد الروم وفتح فيها حصن قرة، وقد وصف فيها قوة جيش المأمون وكثرة عدده حتى لقد ملأ الفضاء بحيث لا يستطيع المرء أن يدرك أوله من آخره، يقول:(١)

فَنَهَضتَ تَسحَبُ ذَيلَ جَيشٍ ساقَهُ   حُسنُ اليَقينِ وَقادَهُ الإقدامُ
مُثعَنجِرٍ لَجِبٍ تَرى سُلّافَهُ   وَلَهُم بِمُنخَرِقِ الفَضاءِ زِحامُ(٢)
مَلَأَ المَلا عُصباً فَكادَ بِأَن يُرى   لا خَلفَ فيهِ وَلا لَهُ قُدّامُ
بِسَواهِمٍ لُحُقِ الأَياطِلِ شُزَّبٍ   تَعليقُها الإِسراجُ وَالإِلجامُ

وينتقل أبو تمام إلى وصف المعركة الدامية معبراً بالصورة المجسدة عن شراستها واحتدامها، ويتكيء على الاستعارة في تشخيص (المعنوى) ويوميء إلى المعاني الدينية، فيستدعي صورة الصيام ونقيضها حيث يتخيل الموت شخصاً مفطراً يلتهم الأرواح، بينما الفرسان مشغولون بالقتال، صائمون عن الأكل والشراب حتى جاءت البشرى بالنصر وسيق ملوكهم وقوادهم إلى المأمون أسرى أذلاء وتشتت جنود الروم بين صرعى وجرحى. يقول أبو تمام:(٣)

حَتّي نَقَضتَ الرومَ مِنكَ بِوَقعَةٍ   شَنعاءَ لَيسَ لِنَقضِها إِبرامُ

---

(١) ديوان أبي تمام، تحقيق د. محمد عبده عزام ٣: ١٥٦-١٥٧

(٢) مثعنجر: استعارة من السيل والمطر، يقال اثعنجر السيل والمطر إذا جاء بكثرة.
والسلاف: الذين يتقدمون الجيش.

(٣) ديوان أبي تمام ٣: ١٥٦-١٥٧

فِي مَعــرَكٍ أَمّــا الحِمــامُ فَمُفطِرٌ | فِي هَبوَتَــيهِ وَالكُمــاةُ صِـيامُ
وَالضَــربُ يُقعِــدُ قَرمَ كُلِّ كَتيبَةٍ | شَــرِسِ الضَريبَةِ وَالحُقوفُ قِيامُ
فَفَصَــمتَ عُروَةَ جَمعِهِم فيهِ وَقَد | جَعَلَــت تَفَصَّمُ عَن عُراها الهامُ
أَلقَــوا دِلاءً في بُحــورِكَ أَسلَمَت | تَــرَعاتِها الأَكرابُ وَالأَوذامُ[1]
مــا كــانَ لِلإِشراكِ فَوزَةُ مَشهَدٍ | وَاللَــهُ فــيهِ وَأَنــتَ وَالإِسلامُ
لَمّــا رَأَيــتَهُمُ تُســاقُ مُلوكُهُم | حِــزَقاً إِلَــيكَ كَــأَنَّهُم أَنعامُ
جَرحى إِلى جَرحى كَأَنَّ جُلودَهُم | يُطــلى بِهــا الشَيّانُ وَالعُلّامُ[2]
مُتَســاقِطي وَرَقِ الثِــيابِ كَأَنَّهُم | دانــوا فَــأُحدِثَ فيهِمِ الإِحرامُ
أَكرَمــتَ سَــيفَكَ غَــربَهُ وَذُبابَهُ | عَــنهُم وَحُقَّ لِسَيفِكَ الإِكرامُ
فَــرَدَدتَ حَدَّ المَوتِ وَهوَ مُرَكَّبٌ | فِي حَــدِّهِ فَــارتَدَّ وَهــوَ زُؤامُ

هكـــذا تبدو صورة الروم وهم أذلاء صاغرون وقد تبدَّد شملهم ووقعـوا بـين قتـيل وأسير وجريح وقد تمزقت ثيابهم وغطت الدماء أجسادهم وتجرعوا مرارة الهزيمة. وقد رأى أبو تمام أن الصراع بين العرب والـروم صـراع ديني يقوم على ثنائية (الإيمان مقابل الشرك) ولم تخل القطعـة من صنعة أبي تمام والعناية بالتشخيص من خلال أبنية الاستعارة والتشبيه.

---

(١) حوض ترع أي مملوء، والوذم: سير من جلد أو نحوه والكرب: خيط مفتول، والمعنى أنهم كادوك برأي خانهم كما خانت هذه الدلاء المملوءة أوذامها وأكرابها.

(٢) الشيان: دم الأخوين، والعلام: الحناء، وفيه قلب، أراد تطلى بالشيان والعلام.

ونشهد صورة أخرى لانسحاب الروم أمام الجيش العربي بقيادة أبي سـعيد محمد بن يوسف الثغري وهو من أبرز القواد الذين أبلوا بلاء حسناً في الصراع بين العرب والروم وفي معارك الثغور بصفة خاصة وقد "أمضـى أيامه منذ ولاه المعتصم على أرمينية سنة ٢٢٠هـ إلى موته في خلافـة المتوكل سنة ٢٣٧هـ يبني الحصون ويقاتل الروم"(١) ويتغنى أبو تمـام بشـجاعة هذا القائد العربي المظفر فيصف غزوه للروم وتوغله في ديارهم وهو يقود الجياد القوية التي تشبه الصقور في سرعتها وانقضاضها عـلى الأعداء بقرى (درولية) وقد مضى بجنده وخيله كالإعصار المدمر حتى حاصر أسوار (القسطنطينية) وأضرم النيران حول قراها وأفزع الروم في (الخليج) يقصد (خليج البسفور. ومع أنه لم يحاصره إلا أن أهلها باتوا في رعـب وفزع حين رأوا شرر النيران التي يستضئ بها العسكر خلف الخليج فصاروا يشعرون أنهم مطوقون محاصرون. وإن لم يحصروا، خوفاً من بطش أبي سعيد وانتقامه، يقول:(٢)

قُـدتَ الجِـيادَ كَـأَنَّهُنَّ أَجادِلٌ ... بِقُـرى دَرَولِـيَةِ لَهـا أَوكارُ
حَتّى اِلتَوى مِن نَقعِ قَسطَلِها عَلى ... حـيطانِ قُسـطَنطينَةَ الإِعصارُ
أَوقَـدتَ مِن دون الخَليجِ لِأَهلِها ... نـاراً لَهـا خَلفَ الخَليجِ شَرارُ
إِلّا تَكُن حُصِرَت فَقَد أَضحى لَها ... مِن خَوفِ قارِعَةِ الحِصارِ حِصارُ
لَـو طاوَعَتكَ الخَيلُ لَم تَقفُل بِها ... وَالقُفـلُ فـيهِ شَباً وَلا مِسمارُ

---

(١) الحدود الإسلامية البيزنطية،د. فتحي عثمان ٣: ٢٨٩.

(٢) ديوان أبي تمام : ٢: ١٦٩.

ويصف أبو تمام حال الروم حين غزاهم أبو سعيد، فقد أدركوا أنهم عاجزون أمامه، فدفعهم الجبن والخوف إلى الفرار، فكان فرارهم عذراً ولكن ذلك لم ينفعهم أو ينجيهم من نار الوغى وبأس جيش أبي سعيد الجرار فخشعوا لصولته وقد اشتدت وطأة حوافر الخيل التي تضرب الأرض فصارت تصيح كما تخور البقر لأنها لا تستطيع أن تقلهم لثقلهم عليها، وقد عرف أبو سعيد وجيشه الطريق جيداً، فإن غزا مبكراً أرشدته الأماكن والجبال المرتفعة التي عليها الأعلام، وإن سرى ليلاً اهتدى بالنجوم وهم مصممون على الوصول إلى أهدافهم في بلاد الروم، يقول:[1]

لَمّا لَقوكَ تَواكَلوكَ وَأَعذَروا ... هَرَباً فَلَم يَنفَعهُمُ الإِعذارُ[2]

فَهُناكَ نارُ وَغى تُشَبُّ وَهاهُنا ... جَيشٌ لَهُ لَجَبٌ وَثَمَّ مُغارُ

خَشَعوا لِصَولَتِكَ الَّتي هِيَ عِندَهُم ... كَالمَوتِ يَأتي لَيسَ فيهِ عارُ

لَمّا فَصَلتَ مِنَ الدُروبِ إِلَيهِمِ ... بِعَرَمرَمٍ لِلأَرضِ مِنهُ خُوارُ

إِن يَبتَكِر تُرشِدهُ أَعلامُ الصُوى ... أَو يَسرِ لَيلاً فَالنُجومُ مَنارُ

فَالحَمَّةُ البَيضاءُ ميعادٌ لَهُم ... وَالقُفلُ حَتمٌ وَالخَليجُ شِعارُ

ويفتن أبو تمام في تصوير الحالة النفسية للروم وما أصابهم من خوف ورعب، فقد أدركوا أن غزو أبي سعيد لهم يعنى هلاكهم واجتثاثهم واستئصال شأفتهم، وقد ظهرت ملامح الرعب عليهم فصار

---

(١) ديوان أبي تمام ٢: ١٧٠-١٧١.

(٢) تواكلوك: أي تواكلوا نحوك، أي فزعوا منك ووقف كل واحد منهم خلف الآخر.

مشـــيهم همساً ونداؤهم بالإشارة، وحديثهم أو تناجيهم سراً خوفاً من بطش أبي سعيد وانتقامه، يقول:

عَلِمـــوا بِأَنَّ الغَزوَ كانَ كَمِثلِه غَـــزواً وَأَنَّ الغَـــزوَ مِـــنكَ بَوارُ
فَالمَشـــيُ هَمسٌ وَالنِداءُ إِشارَةٌ خَـــوفَ اِنتِقامِكَ وَالحَديثُ سِرارُ

ويتحول أبو تمام بخطابه إلى (منويل) قائد الروم، فيسخر من جبنه ومـــا حـــلَّ به من ذعر حتى ليتمنى لو أن كل مدينة صارت جبلاً منيعاً يحـــتمي بـــه، وكل حصن أصبح غادراً يختبئ فيه، ولكن أبا تمام يمعن في تـــرويعه وتخويفه مؤكداً له أنه لن يكون بمنجاة من بطش أبي سعيد، فإن بقاءه في مكانه شرٌّ له وأصعب عليه من الفرار، فهو مقضي عليه لا محالة، وقـــد جـــاء وقـــت الانتقام حيث يرى عجاج الموت وتسد آذانه جلبة المعركة، يقول:(١)

إِلّـــا تَـــنَل مَنويلَ أَطرافُ القَنا أَو تُـــثنَ عَنهُ البيضُ وَهيَ حِرارُ
فَلَقَـــد تَمَـــنّى أَنَّ كُلَّ مَدينَةٍ جَـــبَلٌ أَصَـــمُّ وَكُلَّ حِصنٍ غارُ
إِلّـــا تَفِرَّ فَقَد أَقَمتَ وَقَد رَأَت عَيـــناكَ قِدرَ الحَربِ كَيفَ تُفارُ
في حَيثُ تَستَمِعُ الهَريرَ إِذا عَلا وَتَـــرى عَجاجَ المَوتِ حينَ يُثارُ
فَاُنظُـــر بِعَينِ شَجاعَةٍ فَلَتَعلَمَن أَنَّ المُقـــامَ بِحَيـــثُ كُنتَ فِرارُ

ويصور أبو تمام قائد الروم وهو في موقف الذل والخيبة في تهكم لاذع وسخرية مرة فإذا رأي فلول جيشه المنهزم وقد جاءوا يشكون إليه

---

(١) ديوانه ٢: ١٧١-١٧٢

مـــا حـــل بهـــم من هزيمة لم يكن عنده مدد يمدهم به إلا البكاء الغزير وتعزيـــتهم بضرب الأمثال التي تنطوي على المذلة نحو (الصبر أجمل ولا مهرب من القضاء والمقدور كائن وبعض الشر أهون من بعض) يقول:[1]

لَمّـــا أَتَـــتكَ فُلولُهُم أَمدَدتَهُم بِسَـــوابِقِ العَـــبَراتِ وَهيَ غِزارُ
وَضَرَبتَ أَمثالَ الذَليلِ وَقَد تَرى أَن غَـــيرُ ذاكَ النَقضُ وَالإِمرارُ
الصَـــبرُ أَجمَلُ وَالقَضاءُ مُسَلَّطٌ فَارضَـــوا بِـــهِ وَالشَرُّ فيهِ خِيارُ

ويمضي أبو تمام في خطابه لقائد الروم (منويل) قائلاً: هيهات لك الفـــرار فقد جاذب أعنة خيولكم فارس مغوار، فقد جذبتموها لتهربوا، وجذبهـــا هو فغلبكم، فإذا حثثتم خيولكم على السير الشديد فعل المنهزم منعكم أبو سعيد ومضى في طلبك ولو اعترض دونك له النار لاقتحمها بنفسه ولم يحجم إلا أن تعترض نار جهنم فتحرقك بلظاها عقاباً من الله حتى يثأر منك، يقول:

هَـــيهاتَ جـــاذَبَكَ الأَعِنَّةَ باسِلٌ يُعطـــي الأَسِـــنَّةَ كُلَّ ما تَختارُ
فَمَضى لَو أن النارَ دونَكَ خاضَها بِالسَـــيفِ إِلّـــا أَن تَكونَ النارُ
حَـــتّى يَؤوبَ الحَقُّ وَهُوَ المُشتَفي مِـــنكُم وَمـــا لِلدينِ فيكُم ثارُ

ويرى أبو تمام أن البطولة تجسدت في هذا القائد المغوار، فيرسم- مـــن خلاله- صورة البطل الشجاع الذي يحمي الثغور ويبث الرعب في قلوب الأعداء، ويقض مضاجعهم، وهو يقظ دائماً يخافه المشركون وتعنو

---

(١) ديوانه ٢: ١٧١-١٧٢

له جباه الجبابرة، وهو في رباط أو جهاد دائم إما بالتوغل في بلاد الروم مجاهداً وغازياً، وإما بإعمال الفكر فيما يذلهم ويكسر شوكتهم، يقول:

لَمّــا حَلَلــتَ الـثَغرَ أَصبَحَ عالِياً   لِلرومِ مِن ذاكَ الجِوارِ جُوارُ[1]

وَاِستَيقَنوا إِذ جاشَ بَحرُكَ وَارتَقى   [illegible] الــزَئيرُ وَعَزَّ ذاكَ الزارُ[2]

أَن لَســتَ نِعمَ الجارُ لِلسُنَنِ الأُولى   إِلّا إِذا ما كُنتَ بِئسَ الجارُ

يَقِــظٌ يَخــافُ المُشرِكونَ شَذاتَهُ   مُتَواضِــعٌ يَعـنو لَــهُ الجَبّارُ

ذُلُــلٌ رَكائِــبُهُ إِذا ما اِستَأخَرَت   أَســفارُهُ فَهُمومُــهُ أَســفارُ

هُــوَ كَوكَــبُ الإِسلامِ أَيَّةَ ظُلمَةٍ   يَخرِق فَمُخُّ الكُفرِ فيها رارُ[3]

غادَرتَ أَرضَهُمُ بِخَيلِكَ في الوَغى   وَكَــأَنَّ أَمــنَعَها لَها مِضمارُ

وَأَقَمــتَ فــيها وادِعــاً مُتَمَهِّلاً   حَــتّى ظَنَــنّا أَنَّهــا لَكَ دارُ

ويصــور أبو تمام في قصيدة ملحمية هزيمة أخرى للروم على يد القــائد العربي المظفر أبي سعيد الثغري في معركة "وادي عقرقس" حيث اجتاح الجيش العربي بعض المدن الرومية مثل (درولية) و(فروق) ووصل إلى خلــيج البوسفور واقتحم بعض الحصون والمواقع الرومية وقد أحرز نصراً مؤزراً وحاز من الغنائم ما لم يجده من قبل في معارك بــ"مرو" في موضــعين هما (ماشان) و(الزريق) ولولا أن خيله أعيت وكلّت لواصل

---

(١) الجوار (مخففة الهمزة): الضجيج أي علا ضجيجهم.

(٢) الزار (مخففة الهمز) من الزئير.

(٣) استعار للكفر مخاً وجعله رارا، أي ذائباً مثل مخ المهزول.

غـــزوه حـــتى يصل إلى أقصى بلاد الروم، يقول أبو تمام مصوراً انطلاق الخيول واقتحامها المدن الرومية:[1]

وَطِئَت هامَةَ الضَواحي إِلى أَن ... أَخَـــذَت حَقَّهـــا مِـــنَ القَبذوقِ[2]
أَلهَبَتها السِياطُ حَتّى إِذا استَنَّـ ... ـــت بِإِطلاقِها عَلى الناطَلوقِ[3]
سَـــنَّها شُـــزَّباً فَلَمّا استَباحَت ... بِالـــبقلار كُـــلَّ سَـــهبٍ وَنيقِ[4]
سارَ مُستَقدِماً إِلى البَأسِ يُزجي ... رَهَجـــاً باسِـــقاً إِلى الإِبســـيقِ[5]
ثُـــمَّ أَلقـــى عَلى دَرَولِيَةَ البَر ... كَ مُحِلّـــاً بِالـــيُمنِ وَالتَوفـــيقِ
فَحَـــوى ســـوقَها وَغادَرَ فيها ... سوقَ مَوتٍ طَمَت عَلى كُلِّ سوقِ
فَهُمُ هارِبونَ بَينَ حَريقِ السَـ ... ـيـــفِ صَـــلتاً وَبَـــينَ نـــارِ الحَريقِ
واجِداً بِالخَليجِ ما لَم يَجِد قَطُّ ... بِمـــا شـــانَ لا وَلا بِالـــرَزيقِ
لَـــم يَعُقـــهُ بَعـــدَ المَقاديرِ عَنهُ ... غَـــيرُ سِـــترٍ مِـــنَ الـــبِلادِ رَقـــيقِ
وَلَـــوَ انَّ الجِـــيادَ لَم تَعصِهِ كا ... نَ لَدَيـــهِ غَـــيرَ البَعـــيدِ السَـــحيقِ

ويشير أبو تمام إلى عظمة تلك الموقعة التي هزّت أصداؤها أرجاء (القســطنطينية) عاصـــمة الـــروم وجعلت البطريق ملك الروم يستغيث ويســـتنجد بأنصـــاره دون جدوى وقد كثر أسرى الروم وقتلاهم وقد

---

(١) ديوانه ٢: ٤٣٤-٤٣٥

(٢) القبذوق: مدينة رومية.

(٣) الناطلوق: منطقة الأناضول

(٤) البقلار: في أرض الروم

(٥) الأبسيق : مدينة رومية.

تجلت عظمة القائد أبي سعيد وحسن إدارته للحرب إذ يعلو صوته ساعة الجد ويهدر كالفنيق في الأمر والنهي، ويكرر أبو تمام ما سبق أن ردده من أنه كان باستطاعة أبي سعيد أن يتوغل إلى أبعد حدود الروم، لو ساعدته الخيل على بلوغ مرامه، فلم يكن صعباً عليه أن يواصل فتوحاته في تلك البلاد يقول:[١]

وَقعَـةٌ زَعزَعَـت مَدينَةَ قُسطَنـ ـطينَ حَتّى ارتَجَّت بِسورِ فُروقِ[٢]
وَوَحَـقِّ القَـنا عَلَـيهِ يَميـناً هِـيَ أَمضـى مِنَ الحُسامِ الفَتيقِ
أَن لَـو اَنَّ الـذِراعَ شَدَّت قُواها عَضُـدٌ أَو أُعيـنَ سَهمٌ بِفوقِ[٣]
مـا رَأى قُفلَها كَما زَعَموا قُفـ ـلاً وَلا البَحرَ دونَها بِعَميقِ[٤]
غَيرُ ضَنكِ الضُلوعِ في ساعَةِ الرَو عِ وَلا ضَـيِّقٌ غَـداةَ المَضـيقِ
ذاهِبُ الصَوتِ ساعَةَ الأَمرِ وَالنَهـ ـيِ إِذا قَـلَّ ثُمَّ هَدرُ الفَنيقِ
كَـم أَسـيرٍ مِـن سِرِّهِم وَقَتيلٍ رادِعِ الـثَوبِ مِن دَمٍ كَالخَلوقِ
يَسـتَغيثُ البِطريقَ جَهلاً وَهَل تَط ـلُـبُ إِلّـا مُـبَطرِقَ البِطريقِ

ويشيد أبو تمام بانتصار أبي سعيد في معركة (وادي عقرقس) في بلاد الروم ويراها تفوقت على وقائع العرب الكبرى في الجاهلية كوقعة يوم التحالف أو يوم (فضة) الذي حلقت فيه بكر بن وائل شعورها

---

(١) ديوانه ٢: ٤٣٦-٤٣٧

(٢) قال الصولي: فروق قرب القسطنطينية.

(٣) أي لو ساعدته الخيل لم يكلّ عن بلوغ هدفه.

(٤) القفل: بلد في أرض الروم.

وتحالفت على الموت ، ويشير أبو تمام إلى ما لحق بالروم من هزيمة ساحقة وإلى استخدام جيش أبي سعيد (المنجنيق) في تلك الموقعة، فيقول:[1]

وَبَــوادي عَقَــرقُسٍ لَــم تُعَــرِّد عَــن رَسيمٍ إلى الوَغى وَعَنيقِ[2]
جَــأَرَ الدينُ وَاِستَغاثَ بِكَ الإِســـ لامُ لِلنَصــرِ مُســتَغاثَ الغَريقِ
يَــومُ بَكــرِ بــنِ وائِلٍ بِقِضاتٍ دونَ يَــومِ المُحَمَّــرِ الــزِنديقِ
يَــومُ حَلقِ اللِمّاتِ ذاكَ وَهَذا الــ يَــومُ في الرومِ يَومُ حَلقِ الحُلوقِ
أَطعَمَ السَيفَ نِصفَهُم وَرَمى النِصــ فَ بِــرَأيٍ صــافي النِجارِ عَريقِ
وَأَصــاخوا كَأَنَّمــا كانَ يَرميــ هِــم بِــذاكَ التَدبيرِ مِن مَنجَنيقِ
فَــوَرَبِّ البَيتِ العَتيقِ لَقَد طَحــ طَحتَ مِنهُم رُكنَ الضَلالِ العَتيقِ

ويعــزف أبو تمام على قيثارة النصر، فيتغنى بغزوتين مشهورتين اجــتاح فــيهما أبو سعيد قريتين كبيرتين من قرى الروم هما (صاغرى) و(أوقضــى) وكانتا في فصل الشتاء المعروف في بلاد الروم ببرده القاتل، وقــد خاف هذا القائد الفذُّ على جنوده من أن يلحقهم مكروه من البرد فقفل عائداً بهم خوفاً وحرصاً على حياتهم وقد أبغض المطر وانهجام البرد الذي منعه من مواصلة غزواته وفتوحاته. يقول:[3]

كَرُمَت غَزوَتاكَ بِالأَمسِ وَالخَيــ لُ دِقــاقٌ وَالخَطــبُ غَيرُ دَقيقِ
حــينَ لا جِلدَةُ السَماءِ بِخَضرا ءَ وَلا وَجــهُ شَــتوَةٍ بِطَلــيقِ

---

(١) ديوانه :٢: ٤٤٠-٤٤١

(٢) الرسم والعنيق: ضربان من السير.

(٣) ديوانه ٢: ٤٤٢-٤٤٣

أورَثْـــت صاغِرى صَغاراً وَرَغماً وَقَضَت أو قَضى قُبَيلَ الشُروقِ

كَم أَفاءَت مِن أَرضِ قُرَّةَ مِن قُرَّ ةِ عَـــينٍ وَرَبـــرَب مَـــرموقِ

ثُمَّ آبت وَأَنتَ خَوفَ الغَمامِ الـــ ـــغَطِّ ذو فِكرَةٍ وَقَلبٍ خَفوقِ

لا تُبالي بَوارِقَ البيضِ وَالسُمـــ ـــرِ وَلَكِن باليَتَ لَمعَ البُروقِ

تَشـــنَأُ الغَيـــثَ وَهوَ حَقٌّ حَبيبٍ رُبَّ حَـــزمٍ في بِغضَـــةِ المَوموقِ

لَـــم تَخَوَّف ضَرَّ العَدُوِّ وَلا بَغـــ يـــاً وَلَكِن تَخافُ ضَرَّ الصَديقِ

تلـــك هي صفات القائد العربي أبي سعيد الذي يجسد البطولة في أعظـــم صورها وأشكالها، فهو (الأنموذج) للقائد القوي الشجاع الذي يتحلى بصفات القيادة كالحصافة وحسن التدبير ورجاحة العقل والرحمة والـــرأفة بجـــنوده والإخلاص في حماية الدين، فلا غرو أن يتغنى أبو تمام بأيامـــه الحســـان وفـــتوحاته وغزواته وأن يلهج بصفاته، ويشيد بمآثره ومناقبه، ولا يفوته أن يعبر له عن حبه المفرط الذي يصل إلى درجة الوله والذهول يقول أبو تمام:(١)

إِنَّ أَيّـــامَكَ الحِســـانَ مِنَ الرَو مِ لَحُمـــرُ الصَبوحِ حُمرُ الغَبوقِ

مُعلَمـــاتٌ كَأَنَّها بِالدَمِ المُهـــ راقِ أَيّـــامُ الـــنَحرِ وَالتَشـــريقِ

فَإِلَـــيكُم بَني الضَغائِنَ عَن سا كِـــن بَـــينِ السِماكِ وَالعَيّوقِ

الـــنَقِيِّ الـــوِلادَةِ الطَيِّبِ التُر بَـــةِ وَالمُســـتَنيرِ مَسرى العُروقِ

أَنـــا وَلهانُ في وِدادِكَ ما عِشـــ ـــتُ وَنَشوانُ فيكَ غَيرُ مُفيقِ

---

(١) ديوانه ٢: ٤٤٢-٤٤٣

وقـد خلَّد أبو تمام انتصار أبي سعيد على الروم في موقعة (وادي عقرقس) في قصيدة أخرى قال في مطلعها:[1]

عَسـى وَطَنٌ يَدنو بِهِم وَلَعَلَّما ... وَأَن تُعتَـبَ الأَيّامُ فيهِم فَرُبَّما
لَهُم مَنزِلٌ قَد كانَ بِالبيضِ كَالمَها ... فَصيحُ المَغاني ثُمَّ أَصبَحَ أَعجَما

ويتغنى أبو تمام بانتصار أبي سعيد في وقعة (عقرقس) حيث جدع أنـف الكفر والضلال ويذكر أسماء المواقع والحصون التي اجتاحها مثل (ميمذ) و(البذ) فيقول:

جَدَعـتَ لَهُم أَنفَ الضَلالِ بِوَقعَةٍ ... تَخَرَّمـتَ في غَمّائِها مَن تَخَرَّما
لَئِن كانَ أَمسى في عَقَرقُسَ أَجدَعا ... لَمِن قَبلُ ما أَمسى بِمَيمَذَ أَخرَما
ثَلمـتَهُم بِالمَشـرَفِيِّ وَقَلَّمـا ... تَـثَلَّمَ عِـزُّ القَـومِ إِلّا تَهَدَّما
قَطَعـتَ بَنانَ الكُفرِ مِنهُم بِمَيمَذٍ ... وَأَتبَعـتَها بِالرومِ كَفّاً وَمِعصَما
وَكَـم جَـبَلٍ بِالبَذِّ مِنهُم هَدَدتَهُ ... وَغـاوٍ غَوى حَلَّمتَهُ لَو تَحَلَّما

ويصـف أبو تمام المعركة حين التقى الجمعان ونجحت خطة أبي سعيد في الإيقاع بالعدو ليلاً، فانهزموا وتفرق شملهم يقول:

وَلَمّـا اِلتَقى البِشرانِ أَنقَعَ بِشرُنا ... لِبِشرِهِم حَوضاً مِنَ الصَبرِ مُفعَما
وَسـاعَدَهُ تَحتَ البَياتِ فَوارِسٌ ... تَخـالُهُمُ في فَحمَـةِ اللَيلِ أَنجُما
وَقَـد نَـثَرَتهُم رَوعَةٌ ثُمَّ أَحدَقوا ... بِـهِ مِـثلَما أَلَّفـتَ عِقداً مُنَظَّما

---

(١) ديوانه ٣: ٢٣٢

ويسلم أبو تمام بتفاصيل ما جرى في تلك المعركة ويشيد بجهود قائدين من قواد أبي سعيد هما (بشر) و(محمد بن معاذ) ويشير إلى أنهما واجها مقاومة شرسة من الروم حتى كادا أن ينهزما لولا أن أدركهما أبو سعيد فجاء النصر على يديه فكان مثالاً للقائد الملهم، يقول:

غَـداةَ التَقى الزَحفانِ أَنَّهُما هُما ... رَأى الرومُ صُبحاً أَنَّها هِيَ إِذ رَأَوا

منيَّـته لَمّـا رَأَوا أَنَّهـا هـيا ... رَأَيـتُهم لَم يَدفَعُـوا بِنفُوسِـهم

لَأَعجَـزَ رَيعـانَ المُنى وَالتَوَهُّما ... فَأُعطيـتَ يَومـاً لَو تَمَنَّيتَ مِثلَهُ

لَقَـد زَجَرَ الإِسلامُ طائِرَ أَشأَما ... لَحِقـتَهُما في سـاعَةٍ لَو تَأَخَّرَت

تَـنُصُّ مِنَ الإِلهامِ خِلناكَ مُلهَما ... فَلَـو صَحَّ قَولُ الجَعفَرِيَّةِ في الَّذي

ويصـف أبـو تمام هزيمة الروم في (وادي عقرقس) ويحدد زمان المعركة بيوم(السبت) الذي كان يوم النصر والبهجة، ولولا أن المسلمين يعظمون يوم الجمعة (العروبة) ويجعلونها كالعيد، لاتخذوا (السبت) عيداً وموسماً، يقول:

فَقَد وَجَدوا وادي عَقَرقُسَ مُسلِما ... فَـإِن يَـكُ نَصرانِيّاً النَهرُ آلِسٌ

سُـباتاً ثَـوَوا مِنهُ إِلى الحَشرِ نُوَّما ... بِهِ سُبِتوا في السَبتِ بِالبيضِ وَالقَنا

لَـنا عُمُـرَ الأَيّـامِ عيداً وَمَوسِما ... فَلَـو لَم يُقَصِّر بِالعَروبَةِ لَم يَزَل

لَـهُ ابـنٌ كَيَومِ السَبتِ إِلّا تَبَسَّما ... وَمـا ذَكَـرَ الدَهرُ العَبوسُ بِأَنَّهُ

ويصف أبو تمام ما حلَّ بالروم في هذا اليوم حيث صارت جثثهم وأشلاؤهم غذاء للطيور الجارحة والوحوش، وغدوا وليمة شهية في ذلك اليوم الذي كان عرساً للإسلام ومأتما للكفر:

وَلَم يَبقَ في أَرضِ البَقّارَ طائِرٌ وَلا سَبعٌ إِلّا وَقَد باتَ مولِما
وَلا رَفَعوا في ذَلِكَ اليَومِ إِثلِباً وَلا حَجَراً إِلّا رَأَوا تَحتَهُ دَما[1]

ويصور أبو تمام غزوة قام بها أبو سعيد في فصل الشتاء والثلوج تغطي الطرق وقد أقتحم حصون العدو في الشمال قادماً من الجنوب، ويعبر عن هذا الحدث بالصورة تعبيراً أخاذاً، فيشخص الشتاء في صورة من له وجه عبوس متجهم، وقد عصفت الرياح الجليدية الممطرة فأصابت وجه الشمس بالشحوب ولكن أبا سعيد تحدَّى هذا الجوّ الرهيب وقدم بجيشه من الجنوب إلى الشمال حاملاً سهام الموت للعدو، طاعناً الشتاء في أخدعيه حتى صار كالناقة المسنة ونجح في اجتياح حصون العدو وأصلاهم سعيراً وأفسد خططهم في الإيقاع بجيشه على غرة في البيات، فخاب مسعاهم أمام هذا القائد شيخ السياسة وصاحب الخيرات والتجارب في خوض المعارك إذ وصفه أبو تمام بـ"قشعم السياسة" وشبهه في حنكته وخبرته بالمسن من النسور، كما وصفه بـ(حية الليل) التي تسري في الظلمات لابتلاع فراخ الطائر وهو وصف ربما لم يستعمله أحد قبل الطائي لأن العرب تقول:(حية الوادي وحية الجبل و لم تقل: حية الليل) وقد استخدمه أبو تمام ليكون أدهى في وصف أبي سعيد وكأنه لا ينام الليل طلباً للعدو وكأن حزمه يضئ بالليل فيصير كاليوم الشامس كما يتضح من قوله (يشمس الحزم منه) وهي صورة جديدة

---

(١) الإثلب: التراب والحجارة

جمع فيها أبو تمام بين الشمس والليل فاتصفت بالغرابة والجدة، يقول أبو تمام واصفاً هذه الغزوة الشتائية[1]

لَقَــد انصَــعتَ وَالشِتاءُ لَهُ وَجـ ـــهٌ يَراهُ الكُماةُ جَهماً قَطوبا
طاعِــناً مَــنحَرَ الشَــمالِ مُتِــيحاً لِــبِلادِ العَــدُوِّ مَوتــاً جَنوبا
في نَــيالٍ تَكــادُ تُــبقي بِخَدِّ الـ ـشَمسِ مِن ريحِها البَليلِ شُحوبا
سَــبَراتٍ إِذا الحُــروبُ أُبيخَــت هاجَ صِنَّبرُها فَكانَت حُروبا[2]
فَضَــرَبتَ الشِــتاءَ في أَخدَعَــيهِ ضَــربَةً غادَرَتــهُ عَوداً رَكوبا
لَــو أَصَــخنا مِــن بَعدِها لَسَمِعنا لِقُلــوبِ الأَيّــامِ مِنكَ وَجيبا
كُلُّ حِصنٍ مِن ذي الكَلاعِ وَأَكشو ثــاءَ أَطلَقتَ فيهِ يَوماً عَصيبا[3]
وَصَــليلاً مِــنَ السُــيوفِ مُــرِنّاً وَشِــهاباً مِــنَ الحَــريقِ ذَنوبا
وَأَرادوكَ بِالبَــياتِ وَمَــن هـ ـــذا يُرادي مُتالِعاً وَعَسيبا[4]
فَــرَأَوا قَشــعَمَ السِياسَــةِ قَد ثَقـ ـقَــفَ مِــن جُندِهِ القَنا وَالقُلوبا
حَــيَّةُ اللَــيلِ يُشــمِسُ الحَزمُ مِنهُ إِن أَرادَت شَمسُ النَهارِ الغُروبا

ويصــور أبو تمام في قصيدة أخرى هزيمة (توفيل) قائد الروم أمام جــيش خالد بن يزيد وفراره من مواجهته وقد ظل الردى يلاحقه كأنه مشــغوف بــه وقد أخذ يطلب العفو بإنفاذ الكتب والرسل ولكن دون

---

(١) ديوانه ١: ١٦٥-١٦٨

(٢) السبرات: الغدوات الباردات. والصنبر: شدة البرد. وأبيخت : سكنت

(٣) الكلاع وأكشوثاء: حصنان في بلاد الروم.

(٤) متالع وعسيب : جبلان.

جدوى، ويصوره بطريقة لا تخلو من التهكم وقد أخذ يتخبط وارتعدت فرائصه وضاقت الدنيا في وجهه فظل لا يلوى على شيء، ونار الخوف والكرب تلفح قلبه وقد فقد ثقته حتى بنفسه، يقول:[١]

وَلَمّـــا رَأى توفـــيلُ رايـــاتكَ الَّتي ... إذا مـــا اتلَأَبَّت لا يُقاوِمُها الصُلبُ[٢]
تَوَلّـــى وَلَـــم يَألُ الرَدى في اِتِّباعِهِ ... كَـــأَنَّ الـــرَدى في قَصدِهِ هائِمٌ صَبُّ
كَـــأَنَّ بِـــلادَ الـــرومِ عُمَّت بِصَيحَةٍ ... فَضَمَّت حَشاها أَو رَغا وَسطَها السَقبُ[٣]
بِصـــاغِرَةِ القُصوى وَطِمَّينِ وَاقتَرى ... بِـــلادَ قَـــرَنطاووسَ وابِلُكَ السَكبُ
غَـــدا خائِفاً يَستَنجِدُ الكُتبَ مُذعِناً ... عَلَـــيكَ فَـــلا رُسلٌ ثَنَتكَ وَلا كُتبُ
وَما الأَسَدُ الضِرغامُ يَوماً بِعاكِسٍ ... صَـــريمَتَهُ إِن أَنَّ أَو بَصبَصَ الكَلبُ[٤]
وَمَـــرَّ وَنـــارُ الكَـــربِ تَلفَـــحُ قَلبَهُ ... وَمـــا الـــرَوحُ إِلّا أَن يُخامِرَهُ الكَربُ
مَضـــى مُدبِـــراً شَطرَ الدَبورِ وَنَفسُهُ ... عَـــلى نَفسِهِ مِن سوءِ ظَنٍّ بِها إِلبُ[٥]
جَفا الشَرقَ حَتّى ظَنَّ مَن كانَ جاهِلاً ... بِديـــنِ النَصـــارى أَنَّ قِبلَـــتَهُ الغَـــربُ

وتلفتنا هذه السخرية من (توفيل) لا سيما في البيت الأخير الذي يصور فيه فراره شطر الغرب حتى ليظن الجاهل بالنصرانية أن قبلة الصلاة عندهم هي الغرب لا الشرق.

---

(١) ديوانه ١: ١٨٩-١٩١

(٢) اتلأبت : استقامت.

(٣) السقب: ولد الناقة التي عقرها ثمود فصارت شؤماً عليهم، فكأن الروم كذلك.

(٤)بصبص الكلب بذنبه: إذا حركه تقرباً للإنسان ومداراه.

(٥) إلب : تألبوا عليه.

قصيدة أبي تمام في فتح عمورية

نظم أبو تمام قصيدته في فتح عمورية والإشادة بانتصار المعتصم على البيزنطيين، وكان (تيوفيل) إمبراطور بيزنطة قد أغار على زبطرة[١] وأعالى الفرات ونكّل بأهلها، فأمر المعتصم بإعداد جيش قاده بنفسه للانتقام من الروم وكان المنجمون قد زعموا أن المعتصم لا يفتح عمورية ونصحوه بعدم الخروج لتشاؤمهم بظهور نجم ذي ذنب، وراسلته الروم بأنّا نجد في كتبنا أنه لا تُفتح مدينتنا إلا في وقت إدراك التين والعنب، وبيننا وبين ذلك شهور يمنعك من المقام بها البرد والثلج، فلم يعبأ المعتصم بذلك ، وخرج بجيشه متوغلاً في بلاد الروم في آسيا الصغرى، فأحرق المدن واستباح القرى ووطئت الجيوش أنقرة فخربها حتى وصل إلى عمورية فحاصرها وكان يدافع عنها فيما يروي تسعون ألفاً فضربها بالمجانيق وفتحها عنوة وأضرم فيها النيران، فكان فتحاً عظيماً وانتصاراً كبيراً. وقد عبر أبو تمام عن ابتهاجه بهذا النصر المؤزر واستهل قصيدته بالإشارة إلى تخرصات المنجمين وما زعموه عن ظهور المذنب مؤكداً أن الفيصل للقوة والعقل وليس في الاستسلام لكتب التنجيم والتنبؤ والخرافة، يقول أبو تمام[٢]:

السَيفُ أَصدَقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِ   في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ

---

(١) زبطرة : مدينة بين سميساط والحدث في الطريق إلى بلاد الروم.

(٢) ديوانه ١: ٤٠-٧٣

بيضُ الصَفائحِ لا سودُ الصَحائِفِ في مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِيَبِ
وَالعِلمُ في شُهُبِ الأَرماحِ لامِعَةً بَينَ الخَميسَينِ لا في السَبعَةِ الشُهُبِ
أَينَ الرِوايَةُ بَل أَينَ النُجومُ وَما صاغوهُ مِن زُخرُفٍ فيها وَمِن كَذِبِ
تَخَرُّصاً وَأَحاديثاً مُلَفَّقَةً لَيسَت بِنَبعٍ إِذا عُدَّت وَلا غَرَبِ
عَجائِباً زَعَموا الأَيّامَ مُجفِلَةً عَنهُنَّ في صَفَرِ الأَصفارِ أَو رَجَبِ
وَخَوَّفوا الناسَ مِن دَهياءَ مُظلِمَةٍ إِذا بَدا الكَوكَبُ الغَربِيُّ ذو الذَنَبِ
وَصَيَّروا الأَبرُجَ العُليا مُرَتَّبَةً ما كانَ مُنقَلِباً أَو غَيرَ مُنقَلِبِ
يَقضونَ بِالأَمرِ عَنها وَهيَ غافِلَةٌ ما دارَ في فُلُكٍ مِنها وَفي قُطُبِ
لَو بَيَّنَت قَطُّ أَمراً قَبلَ مَوقِعِهِ لَم تُخفِ ما حَلَّ بِالأَوثانِ وَالصُلُبِ

ونلاحظ أن أبا تمام لم يبدأ قصيدته بداية تقليدية وإنما بدأها بما يناسب هذا الفتح المبين وأفرد الأبيات العشرة الأولى لما سبق الفتح من ملابسات وظنون غيبية تبناها المنجمون وأوهموا الناس بصحتها، وكانت هذه المزاعم كفيلة بتخويف المعتصم وقادته لولا حكمته وثقته بقوته وتصديقه بالقول المأثور " كذب المنجمون ولو صدقوا" وعندما تحقق النصر وثبت كذب المنجمين كانت الفرحة بالفتح طاغية وكان على أبي تمام أن يطيل في تهكمه وسخريته بما أشاعه المنجمون ليكون في ذلك درس وعبرة ويشيد أبو تمام بهذا الفتح المبين ويصفه بـ(فتح الفتوح) ويراه أكبر من الشعر والخطب فهو من معالم الإسلام وليس كل الفتوح مثله، وكأن السماء ابتهجت واحتفلت به بالغيث والرحمة وارتدت الأرض أثوابها القشيبة احتفالاً وتعظيماً وابتهاجاً ، يقول:

فَــتحُ الفُتوحِ تَعالى أَن يُحيطَ بِهِ نَظمٌ مِنَ الشِعرِ أَو نَثرٌ مِنَ الخُطَبِ
فَــتحٌ تَفَــتَّحُ أَبــوابُ السَماءِ لَهُ وَتَــبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِها القُشُبِ

ويتوجه أبو تمام بالخطاب إلى يوم النصر الذي حدثت فيه وقعة عمورية لجلاله وعظمته ويعمد إلى الاستعارة لتشخيص المعنى فيشبه المنى المعسولة التي تحققت بالفتح بالنياق التي حفل ضرعها باللبن، ويتغنى بما تحقق للإسلام من عز ومجد، فقد صعد نجمه بينما تصدَّع بنيان الكفر وانهارت دعائم الروم ، وقد كانت عمورية كالأم التي تجمعهم وتضمهم كما تضم الأم ولدها ، فلو استطاعوا لافتدوا خرابها بكل أم لهم ولدتهم وكل أب يقول:

يــا يَــومَ وَقعَةِ عَمّورِيَّةَ اِنصَرَفَت مِــنكَ المُنى حُفَّلاً مَعسولَةَ الحَلَبِ
أَبقَيــتَ جَدَّ بَني الإِسلامِ في صَعَدٍ وَالمُشرِكينَ وَدارَ الشِركِ في صَبَبِ
أُمٌّ لَهُم لَو رَجَوا أَن تُفتَدى جَعَلوا فِداءَهــا كُــلَّ أُمٍّ مِــنهُمُ وَأَبِ

ويحتفي أبو تمام في تجسيد هذا الحدث العظيم بالصورة ويتوسل بالاستعارة والتشبيه والكناية لتشخيص المجردات والمعنويات، ويصور استعصاء المدينة وامتناعها عن فاتحيها قبل المعتصم، فيشبهها بامرأة شابة تتيه بجمالها وشبابها وقد خطبها العظماء فلم يحظوا بها، فاستعصت على ملوك الفرس وتبابعة اليمن وظلت بكراً لم تفترعها أكف الحادثات منذ عهد الإسكندر أو قبله حتى لقد شابت ذوائب الليالي وهي لم تزل شابة حتى صارت كأنها زبدة السنين ولكنها لم تبخل بشبابها على المعتصم

ففـــتحها وكان الفتح خطباً مدلهماً على الروم من ناحية وتفريجاً للكرب عـــلى الفاتحين من ناحية أخرى ، وقد كان غزو (أنقرة) نصراً للمعتصم وشـــؤماً عـــلى عموريـــة، وكأنها لما خربت وهي أخت عمورية أعدتها بالجـــرب، فـــإذا الهزيمة تلحق بها ، وإذا أبطالها وفرسانها تتلطخ جباههم وذوائبهم بالدماء.

يقول أبو تمام:

وَبَــرزَةِ الوَجــهِ قَد أَعيَت رِياضَتُها ... كِسرى وَصَدَّت صُدوداً عَن أَبي كَرِبِ
بِكــرٌ فَمــا افتَرَعتَها كَفُّ حادِثَةٍ ... وَلا تَرَقَّــت إِلَــيها هِمَّــةُ الــنُوَبِ
مِن عَهدِ إِسكَندَرٍ أَو قَبلَ ذَلِكَ قَد ... شابَت نَواصي اللَيالي وَهيَ لَم تَشِبِ
حَــتّى إِذا مَخَّضَ اللَهُ السِنينَ لَها ... مَخــضَ البَخيلَةِ كانَت زُبدَةَ الحِقَبِ
أَتَــتهُمُ الكُــربَةُ السَوداءُ سادِرَةً ... مِــنها وَكــانَ اسمُها فَرّاجَةَ الكُرَبِ
جَــرى لَهــا الفَألُ بَرحاً يَومَ أَنقَرَةٍ ... إِذ غودِرَت وَحشَةَ الساحاتِ وَالرُحَبِ
لَمّا رَأَت أُختَها بِالأَمسِ قَد خَرِبَت ... كــانَ الخَرابُ لَها أَعدى مِنَ الجَرَبِ
كَــم بَينَ حيطانِها مِن فارِسٍ بَطَلٍ ... قــاني الذَوائِــبِ مِن آني دَمٍ سَرَبِ
بِسُــنَّةِ السَــيفِ وَالخَطِيِّ مِن دَمِهِ ... لا سُــنَّةِ الدينِ وَالإِسلامِ مُختَضِبِ

ويخاطب أبو تمام (المعتصم) القائد المظفر الذي غادر أرض المعركة وقد أضرم النيران في المدينة في ذلك اليوم العصيب فذلّ صخرها وخشبها للنار ويفتن في وصف حريقها ليلاً معتمداً على ما يسميه د.شوقي ضيف (قـــانون الأضـــداد) وهو استمداد تخلق في تضاعيفه هذا الخيال بل الحلم العجيب ، فهو في الليل البهيم ويتصور كأن في الصبح المضيء، بل هو في

الضحى المنير، وكأنما خلع الليل ثيابه بل كأن الشمس لم تغب ولم تغرب، بـل لقـد غربت ولم تلبث أن أشرقت في ربوع عمورية ، فيا للحلم ويا لروعته[1].

يقول أبو تمام:

لَقَـد تَرَكـتَ أَمـيرَ المُؤمِنينَ بِها ... لِلـنارِ يَوماً ذَليلَ الصَخرِ وَالخَشَبِ
غادَرتَ فيها بَهيمَ اللَيلِ وَهوَ ضُحىً ... يَشُـلُّهُ وَسـطَها صُبحٌ مِنَ اللَهَبِ
حَـتّى كَأَنَّ جَلابيبَ الدُجى رَغِبَت ... عَـن لَونِها وَكَأَنَّ الشَمسَ لَم تَغِبِ
ضَـوءٌ مِـنَ النارِ وَالظَلماءِ عاكِفَةٌ ... وَظُلمَةٌ مِن دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ
فَالشَـمسُ طالِعَةٌ مِن ذا وَقَد أَفَلَت ... وَالشَـمسُ واجِبَةٌ مِن ذا وَلَم تَجِبِ

وتنعكس فرحة أبي تمام ونشوته بالنصر على لغته الشعرية وإيقاعاته فنحس بها تتراقص متجاوبة مع هذه الفرحة بالنصر من خلال هذه الصورة الرائعة التي تتجسد فيها بطولة المعتصم في أبهى صورها ، يقول:

تَدبـيرُ مُعتَصِـمٍ بِاللَـهِ مُنـتَقِمٍ ... لِلَّـهِ مُرتَقِـبٍ في اللَـهِ مُرتَغِـبِ
لَـم يَغـزُ قَوماً وَلَم يَنهَض إِلى بَلَدٍ ... إِلّـا تَقَدَّمَـهُ جَـيشٌ مِنَ الرَعَبِ
لَو لَم يَقُد جَحفَلاً يَومَ الوَغى لَغَدا ... مِن نَفسِهِ وَحدَها في جَحفَلٍ لَجِبِ
رَمـى بِـكَ اللَـهُ بُرجَيها فَهَدَّمَها ... وَلَـو رَمى بِكَ غَيرُ اللَهِ لَم يُصِبِ

ويشـير أبو تمام إلى رواية تاريخية تذكر أن امرأة هاشمية قالت في ذلك اليوم وهي مسبيَّة: وا معتصماه، فنُقل إليه ذلك الحديث، فاستجاب

---

(١) العصر العباسي الأول ، د. شوقي ضيف ،ط.دار المعارف : ٢٨٥

لندائها وقد صرفه عن ثغور الحسان ما في قلبه من أمر الثغور التي أُبيحت وتمكّـــن العدو منها حتى شحذ قوته وأنفذ جيشه وهدم بنيان الكفر و لم يعرج على صغائر الأمور التي يكنى عنها بـــ (الأوتاد والطُّنب) يقول:

لَبّيـــتَ صَوتاً زِبَطرِيّاً هَرَقتَ لَهُ ... كَـــأسَ الكَرى وَرُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ
عَداكَ حَرُّ الثُغورِ المُستَضامَةِ عَن ... بَـــردِ الثُغورِ وَعَن سَلسالِها الحَصِبِ
أَجَبـــتَهُ مُعلِـــناً بِالسَيفِ مُنصَلِتاً ... وَلَـــو أَجَبـــتَ بِغَيرِ السَيفِ لَم تُجِبِ
حَتّى تَرَكتَ عَمودَ الشِركِ مُنعَفِراً ... وَلَـــم تُعَـــرِّجِ عَلى الأَوتادِ وَالطُنُبِ

ويصـــور أبـــو تمام وقع الهزيمة على (تيوفيل) قائد البيزنطيين الذي حاول أن يغري المعتصم بالأموال ليرجع عنه وهو لا يعلم أن المعتصم أنفق الذهب الكثير الذي هو أكثر من الحصى ليس رغبة فيما يبذله(تيوفيل) من ذهب بل لينتقم منه ويقابله بسوء صنيعه، فهدف المعتصم في (المسلوب) لا الغـــنائم والذهـــب، وتذكر بعض الروايات أن ملك الروم حاول افتداء عموريـــة بكل ما يستطيع حتى إنه قبل فتحها وإحراقها بعث إلى المعتصم بوفد يحمل رسالة مضمونها:" إن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدَّوا أمرى وأنا أبنيها بمالي ورجالي،وأود من أخذ من أهلها، وأخلى جملة من في بلاد الـــروم من الأسارى ، وأبعث إليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب الـــبطارق[1]. وعـــندما بـــاءت محاولات (تيوفيل) بالفشل وشاهد أهوال المعـــركة وأدركته الهزيمة لم يجد أمامه إلا الفرار بفلوله وقد ألجمت الرماح

(١) أبوتمام الطائي : حياته وحياة شعره:١٤١.

منطقة فكفَّ عن الكلام بينما استعرت أحشاؤه من الفزع والرعب، فأخذ يسابق الرياح وكأنه موكلٌ بالسير في الآفاق وهو يعدو عدوا سريعاً كذكر النعام (الظليم) في نفاره وشدة سرعته. يقول أبوتمام:

لَمّا رَأى الحَربَ رَأيَ العَينِ توفلِسٌ ... وَالحَربُ مُشتَقَّةُ المَعنى مِنَ الحَرَبِ[1]

غَدا يُصَرِّفُ بِالأَموالِ جِريَتَها ... فَعَزَّهُ البَحرُ ذو التَيّارِ وَالحَدَبِ[2]

هَيهاتَ زُعزِعَتِ الأَرضُ الوَقورُ بِهِ ... عَن غَزوِ مُحتَسِبٍ لا غَزوِ مُكتَسِبِ

لَم يُنفِقِ الذَهَبَ المُربي بِكَثرَتِهِ ... عَلى الحَصى وَبِهِ فَقرٌ إِلى الذَهَبِ

إِنَّ الأُسودَ أُسودَ الغيلِ هِمَّتُها ... يَومَ الكَريهَةِ في المَسلوبِ لا السَلَبِ

وَلّى وَقَد أَلجَمَ الخَطِّيُّ مَنطِقَهُ ... بِسَكتَةٍ تَحتَها الأَحشاءُ في صَخَبِ

أَحذى قَرابينُهُ صَرفَ الرَدى وَمَضى ... يَحتَثُّ أَنجى مَطاياهُ مِنَ الهَرَبِ

مُوَكَّلاً بِيَفاعِ الأَرضِ يُشرِفُهُ ... مِن خِفَّةِ الخَوفِ لا مِن خِفَّةِ الطَرَبِ

إِن يَعدُ مِن حَرِّها عَدوَ الظَليمِ فَقَد ... أَوسَعتَ جاحِمَها مِن كَثرَةِ الحَطَبِ

ويمتزج التاريخ بالفن فيشير أبو تمام إلى ما قيل من أنَّ حماة المدينة من الروم كانوا تسعين ألفاً، ويردد ما روى من أن الروم بعثوا برسلهم إلى المسلمين يريدون خديعتهم، يقولون لهم:" إنا نرى في كتبنا أن مدينتنا هذه لا تُفتح قبل نضج التين والعنب وأنها لا يفتحها إلا أبناء زناء " فضحك المعتصم وقال :" أما فتحها قبل نضج التين والعنب فذلك ما سأفعله إن

---

(١) الحرب (بفتح الحاء والراء) الغضب.

(٢) الحدب (بفتح الدال) الأمواج.

شـــاء الله، وأمـــا أنها لا يفـــتحها إلا أبناء الزنا فمعي من أبناء الروم الكفاية."[1]

ويردد أبو تمام ما روته الحقائق التاريخية فيقول:

تِسعونَ أَلفاً كَآسادِ الشَرى نَضِجَت ... جُلودُهُـــم قَبلَ نُضجِ التينِ وَالعِنَبِ

ويختم أبو تمام قصيدته بالدعاء للمعتصم بأن يكافئ الله سعيه عمّا أســـداه للدين من جلائل الأعمال ويصور بطولته تصويراً بديعاً، فيرى أن (الـــراحة الكـــبرى) لا تتأتى إلا على جسر من التعب والمشقة والمجالدة والمجـــاهدة ويرى أن فتوحاته تمتُّ بنسب قريب إلى أيام بدر ،وأنها أذلت الروم ورفعت هامات العرب وجلّت وجوههم، يقول:

خَلـــيفَةَ اللَـــهِ جازى اللَهُ سَعيَكَ عَن ... جُـــرثومَةِ الدينِ وَالإِسلامِ وَالحَسَبِ

بَصُـــرتَ بِالـــراحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها ... تُـــنالُ إِلّـــا عَـــلى جِسرٍ مِنَ التَعَبِ

إِن كـــانَ بَينَ صُروفِ الدَهرِ مِن رَحِمٍ ... مَوصـــولَةٍ أَو ذِمـــامٍ غَـــيرِ مُنقَضِبِ

فَـــبَينَ أَيّـــامِكَ الـــلاتي نُصِرتَ بِها ... وَبَـــينَ أَيّـــامِ بَـــدرٍ أَقرَبُ النَسَبِ

أَبقَـــت بَني الأَصفَرِ المِمراضِ كَاسِمِهِمُ ... صُفرَ الوُجوهِ وَجَلَّت أَوجُهَ العَرَبِ[2]

والقصيدة بناء ملحمي شاهق بل هي كما وصفها د. شوقي ضيف "أم ملاحمه"[3]، وهي كما وصفها د. الشكعة" من عيون الشعر العربي"[4].

---

(1) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري د. محمد نجيب البهبيتي ص ٤٩٧.

(2) الممراض: الكثير المرض ، أي أن صفرتهم كانت من مرض لا من خلقة.

(3) العصر العباسي الأول :٢٨٣.

(4) الشعر والشعراء في العصر العباسي : ٦٧٠.

وقد بلغ فيها أبو تمام الغاية من الإبداع والقدرة على الوصف والتصوير "وهو فيها مبتهج ابتهاجاً لا حدَّ له بهذا الفتح المبين[١]. وقد شحنها بعواطفه الدينية والقومية ، وإنه ليهدر فيها هدير الظافر المبتهج الذي تبددت أمامه جحافل الأعداء وانجابت غياهب الظلام وحلت مكانها أضواء النصر في مكان"[٢].

وعلى هذا النحو كان للروم هذا الحضور الكبير في شعر أبي تمام ، فصور هزائمهم أمام جيوش المسلمين ، ووصمهم بالكفر والشرك ، وصور ملوكهم وبطارقتهم وقوادهم وقد انهزموا وخشعوا لصولة المسلمين ، وسخر من (منويل) قائد الروم و(توفيل) إمبراطور بيزنطة وأكثر من ذكر الأماكن والمدن الرومية التي غزاها العرب مثل درولية وعقرقس وقسطنطين وفروق وعمورية والأبسيق والزريق وقبذوق وماشان والناطلوق وصاغري (صقارية) وأوقفي والكلاع وأكشوثاء والبقلار وخليج البوسفور ونهر آلس وغيرها.

الحضور الفارسي في شعر البحتري:

يتمثل الحضور الفارسي في شعر البحتري من خلال سينيته في وصف إيوان كسرى وتعدُّ من عيون الشعر العربي وقد نالت إعجاب النقاد من قدامى ومحدثين، فقال ابن المعتز "ليس للعرب سينية مثلها[٣]"

---

(١) العصر العباسي الأول :٢٨٣.

(٢) المرجع السابق:٢٨٥.

(٣) أخبار أبي تمام للصولي، ص ٧٢.

وعدَّها د. شوقي ضيف "من روائع الشعر العباسي"[١] ووصفها د. الشكعة بأنه "تعد فريدة في بابها براعة وصف ورقة حس، وينبوع سحر، وإعجاز شعر"[٢] وعدَّها من معالم شعره ونفيس قصائده، وثمين فرائده"[٣] ووصفها أنـــيس المقدسي بأنها "من عيون الشعر العربي"[٤]، وقال عنها محقق ديوان البحتري حسن كامل الصيرفي إنها "تعتبر من أروع ما في الشعر العربي"[٥]، وقـــال عنها محمد صبري إنها "أجل قصيدة في الشعر العربي وتعد بحق من آيـــات الشعر الخالدة"[٦]. وإنها:"زحزحت ذلك الحد الدقيق الذي يفصل بين الفحولة والعبقرية". [٧]

ويرى بعض الباحثين أن البحتري نظم قصيدته عقب مقتل المتوكل مباشرة، ولكن الصواب في تقديرى ما ذهب إليه محقق ديوان البحتري من "أنها نظمت بعد هذا الحادث بثلاث وعشرين سنة أي في سنة ٢٧٠ هـــ، فـــإن البحتري لم يتجه إلى إيوان كسرى عقب مقتل المتوكل بل اتجه إلى الحجاز فحج وعاد من حجّه ليمدح المنتصر.. وإذا تقصينا ذكر الإيوان في شـــعر البحتري وجدنا أنه وارد في قصائده التي نظمها في سنة ٢٧١ هـــ

(١) العصر العباسي الثاني ، ص ٢٢٩.
(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص ٧٢٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٧٢٥.
(٤) أمراء الشعر في العصر العباسي، ص ٢٥٢.
(٥) ديوان البحتري ٢ : ١١٥٢.
(٦) أبو عبادة البحتري، ص ١٠٤.
(٧) المرجع السابق، ص ١٢٦.

أي بعـــد مروره بالإيوان، فهو يقول في مدح ابن ثوابة في البيت ١٩ من القصيدة رقم ٥٠:[١]

قَد مَدَحنا إِيوانُ كِسرى وَجِئنا نَســـتَثيبُ النُعمى مِن اِبنِ ثَوابَه

ويقول في القصيدة رقم ٨٦٣ وهو يمدح عبدون بن مخلد:

زَورَةٌ قُيِّضَـــت لِإِيوانِ كِسرى لَـــم يُـــرِدها كِسرى وَلا إِيوانُه

نظـــم البحتري قصيدته إذن وهو في قمة نضجه الفني وقد تجاوز الســـبعين مـــن عمره حين قام برحلة إلى المدائن ووقف أمام أطلال إيوان كسرى الذي كان أعجوبة عصره، وقال عنه ياقوت: إنه "قصر الأكاسرة بالمدائن، كان من عجائب الدنيا، لم يزل قائماً إلى أيام المكتفي في حدود ســـنة ٢٩٠هــ" كما ذكر أنه تعاون على بنائه عدة ملوك، وقال إنه رآه وقد بقي منه طاق الإيواء ووصفه بأنه "عظيم جداً" وهو يعرف الآن باسم طاق كسرى" ويقع على مسافة ٣٠ كيلو متراً جنوبي بغداد، وعرض هذا الطاق٢٥ متراً وارتفاعه ٣٧ متراً.[٢]

فـــالإيوان بهـــذا المعنى يحمل عدة دلالات، فهو شاهد على عظمة الحضارة الفارسية، وشاهد كذلك على أنه لم ينج من سطوة الدهر، فقد تحول إلى أطلال بعد أن كان شامخاً، وصار قفراً بعد أن كان يعج بالحياة وينـــبض بالعز والسلطان، وهو من ناحية أخرى مرادف للأطلال الجاهلية التي طالما وقف أمامها الشعراء متباكين انقضاء الزمن ورحيل الأحبة.

---

(١) ديوان البحتري ٢: ١١٥٢ (هامش الصفحة)

(٢) معجم البلدان١: ٢٩٤-٢٩٥.

وقف البحتري أمام هذا البناء الشاهق ليتعزى به ويتأسى ويسترجع ماضيه ويحاسب نفسه ويطهرها مما علق بها من أوضار ودنس، وقد استهل قصيدته بقوله:[1]

صُنتُ نَفسي عَمّا يُدَنِّسُ نَفسي ... وَتَرَفَّعتُ عَن جَدا كُلِّ جِبسِ
وَتَماسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهـ ... ـرُ التِماساً مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي
بُلَغٌ مِن صُبابَةِ العَيشِ عِندي ... طَفَّفَتها الأَيّامُ تَطفيفَ بَخسِ
وَبَعيدٌ ما بَينَ وارِدِ رِفهٍ ... عَلَلٍ شُربُهُ وَوارِدِ خِمسِ
وَكَأَنَّ الزَمانَ أَصبَحَ مَحمو ... لاً هَواهُ مَعَ الأَخَسِّ الأَخَسِّ
وَاشتِرائي العِراقَ خُطَّةُ غَبنٍ ... بَعدَ بَيعي الشَآمَ بَيعَةَ وَكسِ
لا تَرُزني مُزاوِلاً لِاختِباري ... بَعدَ هَذي البَلوى فَتُنكِرَ مَسّي
وَقَديماً عَهِدَتني ذا هَناتٍ ... آبِياتٍ عَلى الدَنِيّاتِ شُمسِ
وَلَقَد رابَني نُبُوُّ اِبنِ عَمّي ... بَعدَ لينٍ مِن جانِبَيهِ وَأُنسِ
وَإِذا ما جُفيتُ كُنتُ حَرِيّاً ... أَن أُرى غَيرَ مُصبِحٍ حَيثُ أُمسي

لقد بدأ البحتري قصيدته بجملة فعلية تامة الأركان تقرر حقيقة هامة تتصل بحياة البحتري مؤداها أنه صان نفسه عن كل ما يدنسها ويعيبها وترفع عن استجداء كل"جبس" وهو وصف للجبان واللئيم والفاسق والثقيل الروح وكأنه يرى أن كل من مدحهم تنطبق عليهم تلك الصفات وكأن البحتري استهل قصيدته بالمصالحة مع الذات وكأن وقفته

---

(١) ديوان البحترى ٢: ١١٥٢ وما بعدها.

أمـــام الأطلال الكسروية أزالت الغشاوة من حول عينيه، ووضعت أمامه الحقيقة المجردة ونبهته إلى أنه أخطأ في حق نفسه حين أراق ماء وجهه أمام ممدوحيه بدافع الملق والنفاق والمال، ولكنه اكتشف في وقت متأخر وبعد أن بلــغ الشــيخوخة أنه دفع ثمناً باهظاً من كرامته وأحس أنه خسر ذاته وانغمـــس في حمأة الدنس، فقد مدح من لا يستحقون المديح، وتقلب في مواقفه من أجل إرضاء ممدوحيه، وارتكب خطيئة حين مدح المنتصر الذي شـــارك في قتل أبيه المتوكل في حضور البحتري، وحين وقف أمام الإيوان الذي تحول إلى أطلال أدرك أن كل شيء يفني ويتهاوى ويشيخ وآمن أن احترام الذات وتطهيرها أثمن من أموال الدنيا جميعاً، ولعل في تكرار كلمة (نفسي) ما يؤكد صحوة الشاعر وتشبثه بذاته التي فقدها زمناً طويلاً.

لقـــد أحـــس البحـــتري أن نفسه قد تهدمت وتحولت إلى أطلال كـــالإيوان الذي يقف أمامه ونراه في البيت الثاني يبدو متماسكاً ثابتاً أمام سطوة الدهر الذي يستهدفه ويسعى إلى انتكاسته وتعاسته.

وحين ينظر البحتري إلى ما حصده في رحلة العمر الممتدة فلا يجد إلا مـــا يكفيه من أسباب العيش ولا يفضل منه شيء، فقد بخست الأيام مكاســـبه وما جمعه من مال وما تمتع به من شباب وعافية وطففت ذلك كله أي نقصته غبناً وظلماً.

ويُمـــثل البحـــتري حاله وهو في شظف من العيش بصورة بدوية فيعقد مقارنة بين من يعيش مرفهاً ينعم بطيب العيش ولينه وبين من يعاني الظمـــأ والجوع، والبون بعيد بين نوعين من الإبل، الإبل التي رفهت أي

وردت الماء والمرعى متى شاءت، والإبل الظماء التي ترعى ثلاثة أيام وترد الماء في اليوم الرابع كناية عن طائفتين من البشر، إحداهما تعاني الحرمان وضيق العيش وهي التي ينسب البحتري نفسه إليها، والأخرى كالإبل المرفهة التي تنعم بطيب العيش، ونحن نستغرب أن يكون هذا هو حال البحتري الذي أثرى من التكسب بمدائحه ثراء فاحشاً، وامتلك الضياع والأراضي إلا أن يكون الدهر قد سلب منه كل شيء وهو ما يفسر حملته على الدهر الذي استهدفه وناله بخطوبه وها هو يحمل مرة أخرى على الزمان فيراه يميل مع أنذال الناس، ويظلم خيارهم.

وفي معرض محاسبة النفس ومراجعتها يشعر البحتري بالندم لأنه ترك (الشام) موطنه وأقام أكثر عمره في العراق، وهو ما يعني الخسران والنقصان في معرض البيع والشراء، فلو استدبر ما فات من عمره لقنع بالعيش في وطنه، وصان نفسه عن التبذل والامتهان والمذلة.

هل تعرض البحتري لمحنة في أخريات حياته جردته من كل شيء؟ إن المصادر التي ترجمت له لم تُفصح عن شيء من ذلك؟ ولكن البحتري يشير في البيت السابع إلى ما يشبه ذلك فيستخدم لفظ (البلوى) وهو ما يوحي بأن أمراً جللاً قد أصابه، أو أنه تعرض لمحنة ما، وقد جاء الخطاب غير محدد في صيغة النهي "لا ترزني" فمن ذا الذي يجرب البحتري ويختبره بعد هذه البلوى؟ لعله الدهر أو شخص ما وإن كان البحتري يبدو واثقاً من قدرته على مواجهة الخطوب، فكل من يحاول اختباره وابتلاءه سيراه أبياً عنيفاً منكر الجانب، ولقد كان هذا دأبه في كل حال، فقد تمتع بخصال

عنيدة لا ترضى بالخسيس الدون وتأنف من الدنايا والمذلة وكأنه يسترجع طباعه المتأصلة في نفسه قبل أن يشينها التكسب وإراقة ماء الوجه.

ويشكو البحتري في البيت التاسع من جفاء ابن عمه ونفوره منه وإعراضه عنه بعد ما عهده فيه من لين وألفة. وقد ذهب بعض الشراح إلى أنه يقصد بقوله:(ابن عمي) الراهب عبدون بن مخلد، فهو من أصل يمني مثله يرجع نسبه إلى الحارث بن كعب، فهو مذحجي، والشاعر طائي، ويستدلون على ذلك بأن البحتري نظم هذه القصيدة في الحقبة التي زار فيها عبدون بن مخلد ووجه إليه القصيدة رقم (٧٥٢) التي يعتذر له فيها ويقول:

مِن عَطاءِ الإلَهِ بَلَّغتُ نَفسي   صَونَها ثُمَّ مِن عَطاءِ ابنِ عَمّي

ويقول فيها:

وَكَأَنَّ الإِعراضَ عَنّي قَضاءٌ   فاصِلٌ عَن أَلِيَّةٍ مِنكَ حَتمِ

وقد ذكر هذه العمومة في قصائد (٢٢٢) و (٢٣٠)[١]

وهناك من يرى أنه "ربما كان يريد به الخليفة المنتصر، فالبحتري قحطاني يمني، والخليفة عدناني، وقحطان وعدنان كأنهما أخوان، لأنهما أبوا العرب، وعليه يكون البحتري قد قال هذه القصيدة بعد مقتل المتوكل وإعراض المنتصر عنه، بعد أن هجاه في رثاء أبيه.[٢]

---

(١) الرأي لمحقق ديوان البحتري ٢ : ١١٥٢(هامش الصفحة)

(٢) الرأي للدكتور أحمد بدوي في كتاب (البحتري) ص ٩٨(هامش رقم ٧)

ويرى د. شوقي ضيف أنه يرمز بنبو ابن عمه عنه لقتل المتوكل "فإن أحداً من أهل بيته أو من أبناء عمومته لم ينصره، بل لقد اشترك ابنه وولي عهده المنتصر في مؤامرة قتله.[1]

ولعل الرأي الأول هو الأقرب إلى الصحة، وربما تعرضت علاقته بان عمه الراهب عبدون بن مخلد إلى أزمة شديدة بسبب خذلانه في العطاء حين مدحه أو غير ذلك مما أثر في نفسية البحتري ودعاه إلى صون نفسه عن التبذل، وهو ما أشار إليه بعد ذلك حين تحدث عن صون نفسه عن عطاء ابن عمه ولذلك عبَّر البحتري عن رد فعله إزاء هذا الجفاء في البيت العاشر بأنه يرحل عن هذا المكان سريعاً، فلا يصبح فيه حتى يمسى في سواه دلالة على ما يتصف به من عزة نفس وإباء، ولا نستبعد أن تكون رحلة البحتري إلى "المدائن" ووقفته أمام إيوان كسرى بسبب هذا الجفاء بينه وبين ابن عمه أو نتيجة للهموم التي تكالبت عليه، فأراد أن ينفس عن نفسه لا سيما وقد تقدم به العمر وحاصره المشيب "واستيقظ من غفوته الطويلة ليجد نفسه أمام واقع نفسي أليم، تسيطر عليه فيه الكآبة، ويدب في نفسه الأسى، فراح يفكر في الزمن، ويفكر أيضاً في نفسه، وحاول أن يكتشف لأحزانه "معادلاً موضوعياً" يطمئن إلى صلاحيته لتصوير حقيقة تجربته، فوجد ضالته قائمة أمامه، شهد لها الزمن بالصمود طويلاً، كما شهد عليها بالانهيار والتدهور، وكأنها بلغت أيضاً سن المشيب الذي أصابه، وعندئذ وقف البحتري يستبطن ذاته، ويسقط معاناته النفسية على

---

(١) العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف:٢٢٩.

"إيـــوان كسرى" دون حاجة إلى كسب رضا خليفة ما، أو حرص على تقليد شاعر من الأسلاف أو من معاصريه، كما كان في غير هذه القصيدة مـــن شعره. وقد أفسح "الإيوان" المجال لإفراغ التجربة الحزينة للبحتري، فهو مقر الأكاسرة بالمدائن عاصمة الفرس وكان من عجائب الدنيا."(١)

ولـــنا وقفة مع الدفقة الثانية من القصيدة التي يصف فيها البحتري رحلته إلى (المدائن) عاصمة الفرس القديمة، يقول:

حَضَرَت رَحلِيَ الهُمومُ فَوَجَّهـــ ـــتُ إِلى أَبيَضِ المَدائِنِ عَنسي
أَتَسَـــلّى عَـــنِ الحُظوظِ وَآسى لِمَحَـــلٍّ مِـــن آلِ ساسانَ دَرسِ
أَذكَرِتنـــيهُمُ الخُطوبُ التَوالي وَلَقَـــد تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسي
وَهُـــمُ خافِضونَ في ظِلِّ عالٍ مُشرِفٍ يَحسِرُ العُيونَ وَيُخسي
مُغلَـــقٍ بابُـــهُ عَلى جَبَلِ القَبـــ ـــقِ إِلى دارَتَي خِلاطٍ وَمُكسِ
حِلَلٌ لَم تَكُ كَأَطلالِ سُعدى في قِفـــارٍ مِـــنَ البَسابِسِ مُلسِ
وَمَســـاعٍ لَـــولا المُحاباةُ مِنّي لَـــم تُطِقها مَسعاةُ عَنسٍ وَعَبسِ
نَقَـــلَ الدَهرُ عَهدَهُنَّ عَنِ الـــ جِـــدَّةِ حَتّى رَجَعنَ أَنضاءَ لُبسِ
فَكَأَنَّ الجِرمازَ مِن عَدَمِ الأُنـــ ـــسِ وَإِخلالِـــهِ بَنِـــيَّةُ رَمسِ
لَـــو تَـــراهُ عَلِمتَ أَنَّ اللَيالي جَعَلَـــت فـــيهِ مَأتَماً بَعدَ عُرسِ
وَهـــوَ يُنبيكَ عَن عَجائِبِ قَومٍ لا يُشـــابُ البَـــيانُ فيهِم بِلَبسِ

---

(١) سينية البحتري. البعد النفسي والمعارضة، د.عبد الله التطاوي، دار غريب للطباعة، ص١٦-١٧.

إن البحـــتري يصـــدِّر أبياته بصورة مجازية أخاذة، وهي الماثلة في قوله:"حضرت رحلى الهموم" فقد ربط الهموم التي حاصرته والأحزان التي اســتبدت به بالرحل وجعلهما في علاقة تلازم، وقد دفعته هذه الهموم إلى الـــرحلة إلى المدائـــن ممتطياً ناقته القوية الصلبة، وقد وجد في هذه الرحلة تعـــزية وسلوى لا عن الهموم فحسب بل عن (الحظوظ) و(المقادير) فإن هذه الأطلال الكسروية خير شاهد على أن كل شيء يؤول إلى الفناء ولا يدوم على حال، فما كان شامخاً جديداً طالته يد الدهر فدرس وعفا أثره، ولكن ما الذي ذكّره بآل ساسان، وما الذي جعله يستحضر سيرة أكاسرة الفـــرس؟ إن البحـــتري يعزو ذلك إلى "الخطوب التوالى"، وما أشد هذه الخطوب التي عاصرها البحتري وتجذرت بصورتها القاتمة في ذاكرته، فهو لم يـــنس حادثة مقتل المتوكل أمام عينيه وقد سفك الترك دمه بمباركة ابنه المنتصر، وهو لم ينس كيف دالت دولة الفرس القديمة بأمجادها وحضارتها، ولم ينس زوال سلطانهم في الخلافة العباسية وإحلال الترك محلهم، ولم ينس كذلـــك الخطـــوب التي تعرض لها بعض الوزراء والكتاب والشعراء وما صادفهم من محن أودت بحياتهم.

إن كـــل هذه الصور الحزينة ظلت محفورة في ذاكرة البحتري وإن كانت صورة (آل ساسان) أشد حضوراً وإلحاحاً على ذاكرته. إنه يتذكر أيام مجدهم وهم يعيشون في رغد ونعيم وقد اتسعت مملكتهم بحدودها وما يكتنفها من شواهق الجبال وقد بنى أنوشروان سوراً عظيماً يحيط بمملكته وقـــد ألحقـــه بقمم الجبال وجعل عليه باباً منيعاً بحيث لا يجرؤ أحد على

الاقتراب منه . إنه يتذكر الأكاسرة العظام وهم يسكنون قصورهم الباذخة الفخمة التي ارتفعت حتى يصعب على العيون المجردة أن تتبين ارتفاعها فترتد كليلة حسيرة إذا نظرت إليها وحاولت أن تحيط بها.

ويشير البحتري إلى اتساع مملكة الفرس وامتدادها شمالاً من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية أو من جبل (القبق) أو القوقاز إلى (خلاط) و (مكس) من حدود أرمينية من ناحية البسفور وقد امتدت حولها الأسوار وتحصنت وأغلقت أبوابها.

ولا يستنكف البحتري وهو العربي أرومة أن يقارن بين حياة الفرس الناعمة وحياة العرب الخشنة المتقشفة، فيعترف بتفوق الفرس الحضاري، فالبون شاسع بين حضارة الفرس القديمة وما خلفوه من آثار ومنازل وبين "أطلال سعدى" وغيرها المنتشرة في قفار موحشة لا حياة فيها.

ويمضي البحتري في مفاضلته دون تعصب أو تحيز كاشفاً عن سلوكه المتحضر وتجرده من الهوى والعصبية فيرى أن مفاخر الفرس ومكارمهم لا تقدر عليها القبائل العربية، يستوى في ذلك (عنس) التي ترمز إلى القبائل اليمنية، و(عبس) التي ترمز إلى القبائل العدنانية أو المضرية في نجد.

وهناك بعد نفسي نستطيع في ضوئه أن نفسر تعريض البحتري بالقبائل العربية والإشادة بتفضيل الفرس على العرب وهو تفريغ شحنة الغضب والثورة المتأججة في أعماقه بسبب أزمة "الجفاء" التي كان لها أثر

كبير في نفسه، بالإضافة إلى ما عاصره من أحداث وفتن ومؤامرات جعلته ناقماً على العرب.

وإذا كـــان البحتري قد شكا من استهداف الدهر له، وتصدى له حـــين زعـــزعه وحاول أن ينتكسه وينال منه، فإنه لم ينس صورة الدهر بســـطوته وجبروته، فقد استهدف "آل ساسان" فقوَّض دولتهم، وأحال حـــالهم، فصـــار الجديد قديماً وأبلى منازلهم وقصورهم بعد الجدة فغدت دوارس ترتدي ثياباً بالية.

ويشـــبه البحتري إيوان كسرى ويعني بالفارسية (كرمازى) وعرَّبه فسماه "الجرماز" يشبهه حين رآه طللاً دارساً قد خلا من الأنس أو الإنس ومـــن الـــترف والنعيم وكل مظاهر الحياة بقبر ضخم يقف شاهداً على حضارة الفرس التي قوَّضها الدهر.

إن من يرى هذا الإيوان العظيم وقد تحول إلى أطلال وصار يشبه القـــبر الضخم يدرك أن الزمن أحال كل ما كان فيه من أعراس إلى مآتم. إنـــه يســـتخدم الصورة بدلالتها النفسية التي توحي بالوحشة والانقباض والكدر، وترصد التحول من ألق الحياة إلى سكون الموت.

وبالرغم مما أصاب الإيوان من ضربات الدهر فإنه يظل شاهداً على عظمة حضارة الفرس وما أنجزوه من معجزات وعجائب لا يستطيع البيان أن يغض الطرف عنها أو يبخسها حقها أو يقصر عن وصفها.

ونأتي إلى هذه اللوحة الرائعة التي يتحفنا بها البحتري، وفيها يقول:

وَإِذا مارَأَيـــتَ صـــورَةَ أَنطـــا ... كِـــيَّةَ ارتَعـــتَ بَـــينَ رومٍ وَفُـــرسِ

وَالمَـــنايا مَواثِـــلٌ وَأَنوشَـــرِ وانَ يُزجى الصُفوفَ تَحتَ الدِرَفسِ

في اخضِرارٍ مِنَ اللِباسِ عَلى أَصــ فَــرَ يَخــتالُ في صَــبيغَةِ وَرسِ

وَعِــراكُ الــرِجالِ بَــينَ يَدَيهِ في خُفُــوتٍ مِنهُم وَإِغماضِ جَرسِ

مِــن مُشيحٍ يَهوى بِعامِلِ رُمحٍ وَمُلِــيحٍ مِــنَ السِــنانِ بِــتُرسِ

تَصِــفُ العَــينُ أَنَّهُم جِدُّ أَحيا ءٍ لَهُــم بَيــنَهُم إِشــارَةُ خُــرسِ

يَغتَــلي فــيهِم إِرتِــيابي حَتّى تَــتَقَرّاهُمُ يَــدايَ بِلَمــسِ

لقــد انبهر البحتري بما نُقش على إيوان كسرى من رسوم وصور ونقوش تسجل أمجاد الفرس وانتصاراتهم، ومنها رسوم معركة أنطاكية التي دارت رحاهــا بين الفرس والروم سنة ٥٤٠ هــ ميلادية، وقد جسدت شــجاعة الفــرس ومجدهم الحربي، وقد ظلت هذه النقوش تحتفظ بألوانها وخطوطهــا الــتي أبدعتها عبقرية الرسام الفارسي، وقد وقف البحتري مشدوها مسحوراً أمام براعة هذه النقوش وجمالها ودقتها والقدرة البارعة عــلى تجسيدها حتى ليخيل للناظر أنه يرى المعركة رأي العين، وقد أبدى البحتري مهارة عجيبة في وصف ما رآه وفي التعبير عن أحاسيسه إزاء ما يشاهده.

لقــد شاهد البحتري صور معركة أنطاكية وكأنها تجسدت أمامه فولــدت لديــه إحساســاً بالرعب والرهبة وهو يشاهد جموع الفريقين المتحاربين من فرس وروم.

إنه يرى كسرى قائد الفرس وهو يقود جيشه ويحث جنوده على الهجوم تحت الراية الفارسية العظمى وقد ارتدى زيَّه الأخضر وامتطى صهوة جواده بلونه الضارب إلى الصفرة وقد اختال في لونه المائل إلى الحمرة، وقد أخذ الجنود يقتتلون بين يديه وهم صامتون لاصوت لهم ولا جلبة بينما شبح الموت يرفرف حولهم، والفرسان يتوزعون بين مهاجم ومدافع، ومقبل ومدبر، فمنهم من يهوى بسنان رمحه في خوف وحذر، ومنهم من يتقي نصل الرماح والسيوف بالتروس الفولاذية، وقد خُيِّل إلى البحترى من دقة الرسوم أنه يرى معركة حقيقية وفرساناً أحياء يقتتلونِ في صمت، وقد وصل الظن أو الشك به إلى درجة اليقين حتى يقترب من هذه الصور أو الرسوم فيلمسها بيديه ويتحسسها في رهبة وخشوع ليقطع الشك باليقين.

وبقدر ما أبدع الرسام الفارسي في نقوشه ورسومه، بقدر ما أبدع البحتري في الوصف والتصوير" فهو قدير على تصوير ما يرى، تصويراً ينقل إليك الصورة، لتتأثر بها كما تأثر، ثم لا يقف عند حدود هذا التصوير، بل يصف لك إحساسه وشعوره إزاء ما يصف، فهو يشرك عينه وقلبه في رسم ما يريده".[1]

وينقلنا البحترى من أجواء معركة أنطاكية إلى هذا المشهد الحلمي العجيب، يقول:

قَد سَقاني وَلَم يُصَرِّد أَبو الغَو ثِ عَلى العَسكَرَينِ شَربَةَ خُلسِ

---

(١) البحتري، د. أحمد بدوي : ٥٥.

مِــن مُــدامٍ تَظُنُّها وَهيَ نَجمٌ   ضَــوءَ اللَيلَ أَو مُجاجَةُ شَمسِ
وَتَــراها إِذا أَجَــدَّت سُــروراً   وَارتِــياحاً لِلشــارِبِ المُتَحَسّي
أُفرِغَت في الزُجاجِ مِن كُلِّ قَلبٍ   فَهــيَ مَحــبوبَةٌ إِلى كُلِّ نَفسِ
وَتَوَهَّمــتُ أَنَّ كِسرى أَبَرويـــ   ـــزَ مُعــاطِيَّ وَالبَلَهبَذَ أُنسي
حُلُــمٌ مُطبِقٌ عَلى الشَكِّ عَيني   أَم أَمــانٍ غَيَّرنَ ظَنّي وَحَدسي

إن هذا المقطع الخمري لا ينفصل عن بنية القصيدة كما قد يتوهم البعض وإنما يتلاحم معها ، فهو موظف توظيفاً فنياً جيداً في خدمة هذا العمل الفني الفريد، فقد اندمج البحتري في التجربة وانصهر في بوتقة الحدث انصهاراً تاماً، فلجأ إلى الخمر بوصفها وسيلة للانفصال عن الواقع الكئيب الذي عاشه، وتوهم- وابنه أبو الغوث يسقيه المدام بكثرة في شربة مختلسة سريعة أو عاجلة لكي تحدث أثرها بسرعة- توهم البحتري بعد أن لعبت الخمر بلبِّه أنه سافر في الزمن الماضي البعيد، فعاش في زمن الحضارة الفارسية، وصورت له الخمر أنه صار شاعر كسرى ونديمه، وأنه يعاطيه الخمر في مجلس الشراب بينما (البلهبذ) مغنى كسرى يطربه ويشنف آذانه بأعذب الألحان، وقد قال الفرس إن كسرى كان له ثلاثة أشياء لم يكن لملك قبله ولا بعده مثلها: فرسه "شبديز" وجاريته "شيرين" ومغنيه وعوَّاده "بلهبذ"(١) وقد هيأت الخمر للبحتري هذا العالم الحلمي اللذيذ، وخلخلت له مفاصل الزمن، فعاش في زمن كسرى ورحل عن زمن الاستجداء

---

(١) ديوان البحتري ٢: ١١٥٨ (هامش الصفحة رقم٣٣.

والجفوة والصراعات وهيمنة الترك الذين لا حضارة لهم ولا حظّ من الفن والرسم والغناء والمعمار، وقد رحل البحتري بفعل الخمر إلى زمن الحضارة وعــاش فــيه حــتى أفــاق ليتساءل عما إذا كان ما رآه أضغاث أحلام وخــيالات أم كانت أماني داعبت ظنونه وأفكاره؟ وها هو البحتري يفيق من حلمه على مشهد الإيوان الماثل أمام عينيه، يقول:

وَكَأَنَّ الإيوانَ مِن عَجَبِ الصَنـــعَةِ جَوبٌ في جَنبِ أَرعَنَ جِلسِ
يُتَظَـــنّى مِـــنَ الكَآبَـــةِ إِذ يَـــبــــدو لِعَينَي مُصَبِّحٍ أَو مُمَسّي
مُـــزعَجاً بِالفِـــراقِ عَن أُنسِ إِلفٍ عَـــزَّ أَو مُـــرهَقاً بِتَطليقِ عرسِ
عَكَسَـــت حَظُّهُ اللَيالي وَباتَ الـــمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحسِ
فَهـــوَ يُـــبدي تَجَلُّـــداً وَعَلَـــيهِ كَلكَلٌ مِن كَلاكِلِ الدَهرِ مُرسي
لَـــم يَعِبهُ أَن بُزَّ مِن بُسُطِ الديـــباجِ وَاِستَلَّ مِن سُتورِ الدِمَقسِ
مُشـــمَخِرٌّ تَعلـــو لَـــهُ شُـــرُفاتٌ رُفِعَت في رُؤوسِ رَضوى وَقُدسِ
لابِســـاتٌ مِـــنَ البَياضِ فَما تُبـــصِـــرُ مِـــنها إِلّا غَلائِلَ بُرسِ
لَـــيسَ يُـــدرى أَصُنعُ إِنسٍ لِجِنٍّ سَـــكَنوهُ أَم صُـــنعُ جِنٍّ لِإِنسِ
غَـــيرَ أَنّـــي أراه يَشـــهَدُ أَن لَم يَـــكُ بانـــيهِ في المُلوكِ بِنِكسِ

إن البحتري يرى "الإيوان" شاهداً على ما بلغته الحضارة الفارسية مـــن رقـــي وعظمة، فهو قد بلغ الغاية في دقة الصنعة والتشييد حتى صار إحـــدى المعجزات، وهو يبدو لضخامته كأنه نُحتَ أو قُدَّ في جبل عالٍ عالٍ، ويصوره وقد غدا طللاً ، فقد لفَّته الكآبة، وجلّله الحزن حتى ليبدو

كمن أزعجه الفراق عن أنس إلف عزيز، أو كمن أصابه الحزن والإرهاق لفراق عروسه وقد عكست حظَّه الليالي فغابت عنه كواكب السعد وأطبقت عليه كواكب النحس وسوء الطالع، وهو يُبدي التجلد والتماسك ويقف محتفظاً بجلاله وروعته برغم آثار الزمن البادية عليه، وكأن البحتري يسقط معاناته وأحزانه وهمومه على الإيوان الذي ظلّ شامخاً متجلداً برغم أحداث الليالي وصروف الزمن، ولم يعبه أن تعرّى من الفخامة والأبهة ونُزعت عنه بسط الديباج وأستار الحرير النفيسة، فقد ظلّ يحتفظ بكبريائه، وما زال مشمخراً شامخاً، ترتفع شرفاته حتى تطاول في ارتفاعها جبال "رضوى" و"القدس" وقد اختالت في ثيابها البيضاء التي امتدت إليها يد الزمن فلا يُبصر الرائي منها إلا غلائل قطنية كالتي تُلبس تحت الثياب، وبرغم ما أصاب الإيوان فإنه لدقة بنائه وروعته يبدو كالمعجزة حتى إن المرء يحار فيمن بناه : هل شيّده الإنس ليسكنه الجن أم صنعه الجن للإنس؟ وهو في الحالتين يشهد أن من بناه من الملوك لم يكن ضعيفاً ذليلاً ولم يقصر عن غاية النجدة والكرم وكأن البحتري يغمز ويلمز من عهد فيهم الدناءة والخسة ممن اتصل بهم أو من وصفهم في مطلع القصيدة بالجبن واللؤم والخسة وترفع عن استجدائهم.

وينشط خيال البحتري مرة أخرى فيسافر به إلى ماضي هذا الإيوان، يقول:

فَكَأَنّي أرى المَراتِبَ وَالقَو مَ إذا ما بَلَغتُ آخِرَ حِسّي

وَكَأَنَّ الوُفودَ ضاحينَ حَسرى مِن وُقوفٍ خَلفَ الزِحامِ خُنسِ

وَكَأَنَّ القِيانَ وَسطَ المَقاصيـ ـرِ يُرَجِّعنَ بَينَ حُوٍّ وَلُعسِ
وَكَأَنَّ الَّذي يُريدُ اتِّباعاً طامِعٌ في لُحوقِهِم صُبحَ خَمسِ
عُمِّرَت لِلسُرورِ دَهراً فَصارَت لِلتَعَزّي رِباعُهُم وَالتَأَسّي
فَلَها أَن أُعينَها بِدُموعٍ موقَفاتٍ عَلى الصَبابَةِ حُبسِ

لقد ارتدّ البحتري بطرفه وخياله إلى ذلك الزمن الماضي الذي كان يعج فيه الإيوان بالحياة فيتخيل الوفود وقد جاءت من كل حدب وصوب كاشفين عن رءوسهم وقد ازدحموا بأبوابه بين سابقٍ ولاحق، ويتخيل مشهد القيان والجواري الجميلات ذوات اللعس (وهو سواد استحسنوه في الشفاه) وقد وقفن وسط المقاصير يعزفن ويتغنين ويرددن ويرجّعن الألحان الجميلة، وكأن الذي يطمع في إدراك هؤلاء الوفود أو اللحاق بهم لن يستطيع ذلك إلا بعد أن يقطع خمس ليال، وكأن ذلك اللقاء كان أول أمس، وكذلك كان الفراق، وهذه الديار التي كانت عامرة بالسرور دهراً صارت أطلالاً وخراباً ورمزاً للأسى والحزن الذي لا ينتهي وهو ما جعل البحتري يفقد تماسكه ويبكيها بكاءً حاراً ينمُّ عن إكباره وإعزازه لذلك المجد الذي انقضى، والملك الذي ولّى، والحضارة التي اندثرت برغم أن الديار ليست دياره وأنه لا ينتمي إلى جنس الفرس:

ذاكَ عِندي وَلَيسَت الدارُ داري بِاِقتِرابٍ مِنها وَلا الجِنسُ جِنسي
غَيرَ نُعمى لِأَهلِها عِندَ أَهلي غَرَسوا مِن زَكائِها خَيرَ غَرسِ
أَيَّدوا مُلكَنا وَشَدّوا قُواهُ بِكُماةٍ تَحتَ السَنَّورِ حُمسِ

وَأَعـــانوا عَـــلى كَتائِـــبِ أَريا		طَ بِطَعـــنٍ عَلى النُحورِ وَدَعسِ
وَأَراني مِن بَعدُ أَكلَفُ بِالأَشـــ		رافِ طُـــرّاً مِن كُلِّ سِنخٍ وَأُسِّ

إن البحـــتري يكشـــف عن الدوافع التي حملته على الوفاء للفرس والإشـــادة بحضارتهم والاعتراف بفضلهم، فلهم فضل لا يُنكر حين أعانوا قومـــه اليمنيين قديماً في حروبهم ضد الأحباش بقيادة (أرياط) حتى هُزموا شر هزيمة، بالإضافة إلى أن البحتري يعلو فوق العصبية ويكلف بالأشراف من كل الأجناس، وقد وجد في آل ساسان مثالاً للشرف العظيم، وكأنه يُعـــرض بالأتراك الذين لم يكونوا أصحاب حضارة والذين أفسدوا الحياة السياسية في عصره وكانوا سبباً مباشراً في انهيار الخلافة العباسية.

إن قصيدة البحتري لم تكن رحلة إلى "المكان" فحسب، بل كانت أيضاً رحلة في "الزمان" ورحلة في أعماق "الذات"، وإذا كان البحتري قد وجـــد في (المكـــان) تعزية وتسلية وسلوى، فقد ارتحل بخياله إلى الزمن الماضي لينفصل عن الواقع الكئيب الذي حاصره ذاتياً وسياسياً واجتماعياً، وقـــد وجد البون شاسعاً بين الفرس الذين شيدوا حضارة عظيمة وأعانوا قومـــه وأسهموا في تشييد الخلافة العباسية وازدهار الحضارة العربية ونالهم كـــثير مـــن الأذى وتعرضوا للمحن والنكبات، وبين ما فعله الأتراك في عصـــره بالعباســـيين والعرب عامة من تنكيل وتخريب وتقويض لدعائم الخلافـــة، فدفعه هذا الواقع الأليم إلى الفرار إلى الماضي وتوهم العيش فيه والتلذذ بسيرته وذكرياته، وقد زكّى ذلك شعوره الداخلي بالقهر والضياع وإحساسه بأنه مدح من لا يستحقون المدح، وأراق ماء وجهه على أعتاب

الأراذل والأخسـاء، فكـان هذا التصالح مع الذات وإن كان قد جاء في وقت متأخر حين غلبه الشيب وقلّت طموحاته وتلاشت أطماعه.

وقـد خلـع البحـتري أحاسيسه على الأيوان فكان كالمرآة التي انعكست عليها صورة ذاته، فشعور البحتري بالكآبة والتعاسة نضح على الديـوان فصـار تجلله الكآبة حتى يخيل للرائي أنه فارق حبيباً عزيزاً أو انفصـل عن عروس يحبها، وشعور البحتري بتقلب الزمن وتبدل أحواله يقابله حال الإيوان الذي عكست حظه الليالي، وصمود البحتري وتماسكه في مواجهـة المحن وتقلبات الدهر، يقابله تجلد الإيوان برغم كلاكل الدهر الـتي أطبقت على صدره، وإذا كان الإيوان قد تجرد من بسط الديباج، فكذلـك تجرد البحتري من الثراء وصار "كوارد الخمس" ولنقرأ الأبيات الآتية مرة أخرى:

يُتظَـنّى مِـنَ الكَآبَـةِ إذ يَبـ ـدو لِعَينَي مُصَبِّحٍ أَو مُمَسّي

مُـزعَجاً بِالفِراقِ عَن أُنسِ إِلفٍ عَـزَّ أَو مُـرهَقاً بِتَطليقِ عِرسِ

عَكَسَت حَظَّهُ اللَيالي وَباتَ الـ مُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحسِ

فَهـوَ يُـبدي تَجَلُّـداً وَعَلَيهِ كَلكَلٌ مِن كَلاكِلِ الدَهرِ مُرسي

لَـم يَعِبهُ أَن بُزَّ مِن بُسُطِ الديـ باجِ وَاِستَلَّ مِن سُتورِ الدِمَقسِ

فمـن يقـرأ هذه الأبيات بمعزل عن صورة الإيوان يخيل إليه أن البحتري يستبطن ذاته ويشكو سوء حاله، وحين رأى الإيوان وقد عصف به الدهر خلع أحاسيسه عليه ورأى فيه صورة ذاته.

والبحتري مصوّر بارع، وقد أدرك القدماءَ هذه الصفة فيه فوصفوا فنه بأنه "سلاسل الذهب وفي الطبقة العليا".(١)

وقد برع البحتري في تصوير الإيوان، كما برع في تصوير معركة أنطاكية التي نقشت على جدران الإيوان، وكما تجلت عبقرية النحات الفارسي في تلك النقوش والرسوم، فكذلك تجلت عبقرية البحتري في تصوير هذه المعركة متوسلاً بالصورة ومعبراً بها، فاستخدم الصور الحركية حين تخيل أنوشروان "يزجي الصفوف"، واستخدمها كذلك في هذه الصورة الأخاذة:

مِن مُشيحٍ يَهوى بِعامِلِ رُمحٍ   وَمُليحٍ مِنَ السِنانِ بِتُرسِ

واستخدم الحركة في وصف عراك الفرسان وفي حركة يديه وهو يتقرّى النقوش باللمس، وأجاد البحتري في استخدام الصور اللونية كقوله:

في اِخضِرارٍ مِنَ اللِباسِ عَلى أَصـ   ـفَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرسِ

واستخدم "اللون" في هذه الصورة الرائعة للخمر:

من مدام تخالها ضوء نجمٍ   نورَّ الليل أو مجاجةَ شمس

واستخدم "اللون" كذلك في هذه الصورة:

لابِساتٌ مِنَ البَياضِ فَما تُبـ   ـصِرُ مِنها إِلّا غَلائِلَ بُرسِ

واستخدم البحتري المحسنات البديعية في غير تكلف، وكان للتضاد أثره في إبراز المعنى ونقيضه، كقوله:

---

(١) وفيات الأعيان ٥: ٧٦.

لَـو تَـراهُ عَلِمتَ أنّ اللَيالي   جَعَلَت فيهِ مَأتَماً بَعدَ عُرسِ

وقوله:

نَقَلَ الدَهرُ عَهدَهُنَّ عَنِ الـ   ـجِدَّةِ حَتّى غدون أَنضاءَ لُبسِ

وتؤدي المقابلة دوراً بارزاً في تجسيد الهوة الشاسعة بين النقيضين، كقوله:

وَبَعيدٌ مابَينَ وارِدِ رِفهٍ   عَلَلٍ شُربُهُ وَوارِدِ خِمسِ

ويتآزر الجناس مع العناصر الموسيقية الأخرى في إثراء النغم وإحداث التوافقات الصوتية، كالمجانسة بين(عنس) و(عبس) في قوله:

وَمَساعٍ لَولا المُحاباةُ مِنّي   لَم تُطِقها مَسعاةُ عَنسٍ وَعَبسِ

ولا يخفي على القارئ ما يلحظه من تردد حرف السين بكثرة لا في البيت السابق وحده بل في القصيدة كلها حتى ليبدو أشبه بالمفتاح الموسيقى للسينية.

ويتكئ البحتري في تشبيهاته التي يوظفها في تشكيل صوره على حرف التشبيه (كأن)، كقوله:

وَكَأَنَّ الزَمانَ أَصبَحَ مَحمو   لاً هَواهُ مَعَ الأَخَسِّ الأَخَسِّ

وقوله:

فَكَأَنَّ الجِرمازَ مِن عَدَمِ الأُنـ   ـسِ وَإِخلالِهِ بَنِيَّةُ رَمسِ

ويؤدي خيال الشاعر النشط إلى تراكم التشبيهات وتعاقبها باستخدام أداة التشبيه ذاتها، كقوله:

فَكَأَنّي أرى المَواكِبَ وَالقَو ... مَ إذا ما بَلَغتُ آخِرَ حِسّي
وَكَأَنَّ الوُفودَ ضاحينَ حَسرى ... مِن وُقوفٍ خَلفَ الزِحامِ وَخُنْسِ
وَكَأَنَّ القِيانَ وَسطَ المَقاصيـ ... ـرِ يُرَجِّعنَ بَينَ حُوٍّ وَلُعسِ
وَكَأَنَّ اللِقاءَ أَوَّلَ مِن أَمـ ... ـسِ وَوَشكَ الفِراقِ أَوَّلَ أَمسِ
وَكَأَنَّ الَّذي يُريدُ اتِّباعاً ... طامِعٌ في لِقائِهِم صُبحَ خَمسِ

وقد سبق البحتري الشعراء المعاصرين في استخدام تقنية "القطع" أو "الارتداد" التي نراها في الدراما السينمائية، ولعل خير مثال على ذلك مشهد القطع الخمري الذي ارتدَّ به البحتري إلى زمن الساسانيين.

حضور الروم في شعر أبي فراس الحمداني:

تعرض أبو فراس الحمداني لمحنة الأسر وعاش فترة من حياته أسيراً في القسطنطينية نظم فيها رومياته. والروميات هي القصائد التي قالها أبو فراس وهو أسير في بلاد الروم.

وقد تضاربت الآراء حول قصة الأسر، فهناك من قال إن أبا فراس أسر مرتين وأن زمن الأسر فيهما استغرق سبع سنوات وأشهراً[١]، وهناك من قال إنه أسر مرة واحدة وظل في أسره أربع سنوات[٢].

وقد أورد ابن خلكان روايتين مختلفتين حول هذه الحادثة، فنقل عن أبي الحسن على بن الزراد الديلمي أن الروم أسرت أبا فراس في بعض

---

(١) تاريخ الأدب العربي، حنا فاخوري، ص ٤٣٠.

(٢) عصر الدول الإمارات د. شوقي ضيف ٧٠٨.

وقائعهـــا، وهـــو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، ونقلته إلى خرشـــنة، ثم منها إلى القسطنطينية، وذلك في سنة ثمان وأربعين وثلثمائة، وفداه سيف الدولة في سنة خمس وخمسين.

وذكر ابن خلكان أن الناس خطأوا هذه الرواية، وقالوا إن أبا فراس أسر مرتين، فالمرة الأولى بمغارة الحكل في سنة ثمان وأربعين وثلثمائة، وما تعـــدوا بـــه خرشنة وهي قلعة في بلاد الروم، وفيها يقال إنه ركب فرسه وركضه برجله، فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات.

والمرة الثانية أسره الروم على منبج في شوال سنة إحدى وخمسين، وحملوه إلى القسطنطينية، وأقام في الأسر أربع سنين[١].

وتشـــغل الروميات حيزاً لا بأس به من ديوان أبي فراس، وليس في وســـعنا أن نرتبها ترتيباً تاريخياً لأنها لا تتضمن تواريخ محددة، ولا تشتمل على سياق تاريخي متتابع، ومع ذلك نستطيع أن نحدد أولى رومياته، وهي القصيدة التي قالها لما اقتيد إلى خرشنة بعد أسره مباشرة، وفيها يقول:[٢]

إِن زُرتُ خَرشَـــنَةً أَســـيرا ... فَلَكَـــم أَحَطـــتُ بِهـــا مُغيرا
وَلَقَـــد رَأَيـــتُ الـــنارَ تَنـــ ... تَهِـــبُ المَـــنازِلَ وَالقُصـــورا
وَلَقَـــد رَأَيتُ السَبيَ يُجـــ ... ـــلَـــبُ نَحوَنـــا حُوّاً وَحورا
نَخـــتارُ مِـــنهُ الغـــادَةَ الـــ ... حَســـناءَ وَالظَـــبيَ الغَريـــرا

---

(١) وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس . ط. بيروت ٢: ٥٩.

(٢) ديوان أبي فراس (ط.دار صادر) ١٥٥- ١٥٦.

إن طــــالَ لَيـــلي في ذُرا ... كَ فَقَــد نَعِمـتُ بِــهِ قَصيرا

وَلَــئِن رُميـتُ بِحـادِثٍ ... فَلَأُلفِـيَنَّ لَــهُ صَـبورا

صَـبراً لَعَـلَّ اللَــهَ يَفـ ... ـتَحُ هَــذِهِ فَـتحاً يَسيرا

مَــن كــانَ مِثلي لَم يَبِت ... إِلّــا أَسـيراً أَو أَمـيرا

لَيسَـت تَحُـلُّ سَـراتُنا ... إِلّــا الصُـدورَ أَوِ القُـبورا

ويبدو أبو فراس متجلداً ربما لأنه لم يتوقع أن يمتحن بطول مدة الأسر، ويعلو صوت الفخر، ويرى أن هذا الأسر شيء عارض لا يؤثر في إنجازاته، فطالما أغار على قلعة خرشنة الرومية ورماها بالدمار وسبى نساءها غير أن هذا الصوت لم يظل على حدته، فتقلب بين الارتفاع والحدة وكثيراً ما أصابه الوهن واليأس لما قاساه من ألم ووحدة ومرارة.

وتمثل الروميات ديواناً مستقلاً بذاته، منفرداً بخصوصية تجربته وطبيعة موضوعاته. وقد اتسعت الروميات للتعبير عن تجربة الأسر بما اختزنته من مرارة وقسوة وحزن وغضب ويأس وأمل .

لقد كان لوقوع أبي فراس في الأسر صدى كبير في نفوس أصدقائه وأعدائه على السواء نظراً لمكانته السياسية والاجتماعية والأدبية. وقد اهتبل أعداؤه حادثة الأسر فاتهموه بالتقصير والخمول، وأنحوا عليه بالائمة، وحملوه تبعة ما حدث، وكانت هذه الأقاويل تصل إلى سمع أبي فراس وهو في أسره فتضاعف آلامه وأحزانه، ووجد نفسه في موقف الدفاع والتبرير، فاهتم في رومياته بتفنيد تهم الحساد، ودحض أقاويل الخصوم، ويعتمد

خطابه التبريري على عدة حجج ، منها أن أي فارس-مهما كانت شجاعته- معرض للأسر والقتل، وأن بنى الوغى بين سليب بالرماح وسالب"، وهو يبسط قضيته بطريقة منطقية هادئة، فيعرض أقاويل خصومه، ويردفها بدفاعه.يقول(١):

تَكاثَرَ لُوّامي عَلى ما أَصابَني كَأَن لَم تَكُن إِلّا لِأَسري النَوائِبُ
يَقولونَ لَم يَنظُر عَواقِبَ أَمرِهِ وَمِثلِيَ مَن تَجري عَلَيهِ العَواقِبُ
أَلَم يَعلَمِ الذُلّانُ أَنَّ بَني الوَغى كَذاكَ سَليبٌ بِالرِماحِ وَسالِبُ
وَأَنَّ وَراءَ الحَزمِ فيها وَدونَهُ مَواقِفَ تُنسى دونَهُنَّ التَجارِبُ
أَرى مِلءَ عَينَيَّ الرَدى فَأَخوضُهُ إِذِ المَوتُ قُدّامي وَخَلفي المَعايِبُ

صورة الروم في روميات أبي فراس:

ينتمي أبو فراس من حيث النسب إلى أصول رومية، فقد اقترن أبوه سعيد بن حمدان برومية وأنجب منها ابنه الحارث، ولم يكن أبو فراس على وفاق مع الروم، فقد ساءت صلته بهم في سياق الصراع الذي احتدم بين الروم والحمدانيين. وشارك أبو فراس في الحرب ضد الروم وأبلى فيها بلاء حسناً إلى أن أسر ومعه سبعون فارساً وقد أبى أن يخلع دروعه وسلاحه وتقبل الروم ذلك على مضض، وأشار أبو فراس إلى ذلك في رائيته الشهيرة فقال(٢):

---

(١) ديوانه ص ٣٦.

(٢) ديوان أبي فراس، ص ١٦١.

يَمُــنّونَ أن خَلّــوا ثِــيابي وَإِنّما عَلَــيَّ ثِـيابٌ مِــن دِمائِهِمُ حُمرُ
وَقــائِمُ سَـيفٍ فيهِمُ اندَقَّ نَصلُهُ وَأَعقــابُ رُمحٍ فيهِمُ حُطم الصَدرُ

ويصدر أبو فراس في رومياته عن كراهية شديدة للروم، ويرسم لهم صـــوراً مـــزرية، ويصفهم بأوصاف ذميمة، وهو شعور طبيعي في سياق العـــداء والصراع والأسر، فهو حين يسأل سيف الدولة المفاداة بأحد قواد الروم الأسرى يصفه ب"كلب الروم" ويستحثه على الفداء، ويستثير غيرته وحميته، فيقول:(١)

فَــلا كانَ كَلبُ الرومِ أَرأَفَ مِنكُمُ وَأَرغَــبَ في كَســبِ الثَناءِ المُخَلَّدِ
وَلا بَلَــغَ الأَعــداءُ أَن يَتَناهَضوا وَتَقعُــدَ عَــن هَــذا العَلاءِ المُشَيَّدِ
أَأَضــحَوا عَلى أَسراهُمُ بِيَ عُوَّداً وَأَنــتُم عَــلى أَســراكُمُ غَيرُ عُوَّدِ

وفي ســعيه الحثيث وإلحاحه الدائم على إقناع سيف الدولة ببذل الفداء تبرز هذه الصورة الكريهة للروم(٢):

أُناديكَ لا أَنّي أَخافُ مِنَ الرَدى وَلا أَرتَجــي تَــأخيرَ يَومٍ إِلى غَدِ
وَقَد حُطِّمَ الخَطِّيُّ وَاختَرَمَ العِدى وَفُلِّــلَ حَــدُّ المَشــرَفِيِّ المُهَــنَّدِ
وَلَكِــن أَنِفتُ المَوتَ في دارِ غُربَةٍ بِأَيدي النَصارى الغُلف مِيتَةَ أَكمَدِ

ويـــنظر أبو فراس للآخر (الروم) باعتبارهم (كفاراً) وهو ما يجعل علاقته بهم تقوم على الإنكار والرفض والرغبة في استئصال شأفتهم ولذلك

---

(١) ديوانه ص ٨٤.

(٢) ديوانه ص ٨٣.

نـــراه يحذر وهو في الأسر سيف الدولة من خروج الدمستق بجيشه لغزو الشام ويدعوه إلى الغضب لدين الله فيقول:

سَيفَ الهُدى مِن حَدِّ سَيفِكَ يُرتَجى ... يَــومٌ يُــذِلُّ الكُفــرَ لِلإيمــانِ
هَذي الجُيوشُ تَجيشُ نَحوَ بِلادِكُم ... مَحفوفَــةً بِالكُفــرِ وَالصُلبانِ
غَضَــباً لِديــنِ اللَهِ أَن لاتَغضَبوا ... لَــم يَشــتَهِر في نَصرِهِ سَيفانِ
حَــتّى كَــأَنَّ الوَحيَ فيكُم مَترَلٌ ... وَلَكُــم تُخَصُّ فَضائِلُ القُرآنِ
قَــد أَغضَبوكُم فَاِغضَبوا وَتَأَهَّبوا ... لِــلحَربِ أُهــبَةَ ثائِرٍ غَضبانِ

وفي إحدى رومياته يصف أبو فراس لقاء جمعه بالدمستق ويعبر فيه أبـــو فـــراس عن استيائه حين رأى الدمستق ينكره وقد أثار هذا الموقف حفيظته فأخذ يذكر الدمستق بإنجازاته وبطولاته، فيقول[1]:

تَــأَمَّلَني الدُمُســتُقُ إِذ رَآني ... فَأَبصَــرَ صــيغَةَ اللَيثِ الهُمامِ
أَتُــنكِرُني كَأَنَّكَ لَستَ تَدري ... بِــأَنّي ذَلِــكَ الــبَطَلُ المُحامي
وَأَنّــي إِذ نَزَلــتُ عَلى دُلوكٍ ... تَرَكــتُكَ غَــيرَ مُتَّصِلِ النِظامِ
وَلَمّــا أَن عَقَدتُ صَليبَ رَأيي ... تَحَلَّــلَ عِقــدُ رَأيِكَ في المَقامِ
وَكُنــتَ تَرى الأَناةَ وَتَدَّعيها ... فَــأَعجَلَكَ الطِعانُ عَنِ الكَلامِ
وَبِــتُّ مُؤَرَّقــاً مِن غَيرِ سُقمٍ ... حَمى جَفنَيكَ طيبَ النَومِ حامِ
وَلا أَرضــى الفَتى مالَم يُكَمِّل ... بِــرَأيِ الكَهــلِ إِقــدامَ الغُلامِ

---

(١) ديوانه ص ٢٧٥-٢٧٦.

فَــلا هُنِّئــتَها نُعمى بِأَسري		وَلا وُصِــلَت سُعودُكَ بِالتَمامِ

إن هــذه الأبيات تعكس رؤية الآخر للذات (تأملني الدمستق إذ آني...) (أتــنكرني كأنك لست تدري...) فالدمستق وهو أعلى سلطة حاكمــة في بلاد الروم ينكر وجود أبي فراس، وكأنه ينكر وجود العرب الحضاري وينظر إليهم نظرة ازدراء وكأنه لا يعترف بهم أو بوجودهم وهو ما دفع أبا فراس للدفاع عن الوجود العربي وتأكيد حضور الذات لمواجهة إنكار الآخر.

وتحــتفي الروميات بجانب من أنضر ما نقع عليه في الشعر، ونعني بذلــك المناظرات التي جرت بين أبي فراس والدمستق (رومان الثاني) وقد دارت هذه المناظرات حول العقيدة وإجادة العرب لفنون الحرب والقتال، فــنجد أبا فراس يعرض بمناظرة في الدين جرت بينه وبين الدمستق ويحمل على الروم، فيرميهم بسهام من الهجاء المقذع يقول:

أَمــا مِــن أَعجَبِ الأَشياءِ عِلجٌ		يُعَــرِّفُني الحَــلالَ مِــنَ الحَرامِ
وَتَكــنُفُهُ بِطارِقَــةٌ تُــيوسٌ		تُــبارى بِالعَــثانينِ الضِــخامِ
لَهُــم خِلَقُ الحَميرِ فَلَستَ تَلقى		فَــتىً مِــنهُم يَســيرِ بِلا حِزامِ
يُــريغونَ العُــيوبَ وَأَعجَــزَتهُم		وَأَيُّ العَيــبِ يوجَدُ في الحُسامِ
وَأَصــعَبُ خُطَّــةٍ وَأَجَــلُّ أَمرٍ		مُجالَسَــةُ اللِــئامِ عَلى الكِرامِ

إن أبــا فــراس يرسم في هذه الأبيات صورة منفرة مزرية للآخر (العلج) أو(الدمستق) الذي يسعى في حواره أو مناظرته أن يعرف أبا فراس

بالحلال والحرام وهو ما ينطوي على مفارقة مفعمة بالسخرية والتعجب، ويحمل أبو فراس على (البطارقة) حملة ضارية فيستهزئ بهم وهم أصحاب المكانة الدينية المميزة في قومهم- ويشبههم بالتيوس وهو تشبيه له دلالته، كما يصمهم بالغباء والبلادة حين يشبه أخلاقهم بأخلاق الحمير، ويصف من كانوا في مجلس المناظرة من الروم بـ"اللئام"، وهكذا يصدر أبو فراس في نظـرته للـروم عـن كراهية ويقف منهم موقف الرفض والسخرية والاستلاب.

وتـتحدث الرومـيات عـن مناظرة أخرى وقعت بين أبي فراس والدمسـتق، وفيها قال الدمستق لأبي فراس:" إنما أنتم كتاب لا تعرفون الحـرب، فـرد علـيه أبو فراس قائلاً: نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام"[1]. وأنشأ أبو فراس قصيدة سخر فيها من الدمستق ووصـفه بأنـه"ضخم اللغاديد" وراح يذكره بانتصارات الحمدانيين على الروم وبمن وقع منهم أسيراً وقتيلاً في استحضار مكثف لأسماء قواد الروم وفرسانهم وبطارقتهم وأقيالهم. يقول[2]:

أَتـزعمُ ياضَـخمَ اللَغـاديدِ أَنَّنا ... وَنَحـنُ أُسودُ الحَربِ لانَعرِفُ الحَربا

فَوَيلَـكَ مَن لِلحَربِ إِن لَم نَكُن لَها ... وَمَـن ذا الَّذي يُمسي وَيُضحي لَها تِربا

وَمَـن ذا يَلُـفُّ الجَيشَ مِن جَنَباتِهِ ... وَمَـن ذا يَقـودُ الشُمَّ أَو يَصدُمُ القَلبا

وَوَيلَـكَ مَن أَردى أَخاكَ بِمَرعَشٍ ... وَجَلَّـلَ ضَـرباً وَجـهَ والِدِكَ العَضبا

---

(١) ديوانه ص ٤٢.

(٢) ديوانه ص ٤٢-٤٣.

وَوَيلَكَ مَن أخلى ابنَ أُختِكَ موثِقاً وَخَلاكَ بِاللَقّانِ تَبتَدِرُ الشَعبا
أَتوعِدُنا بِالحَربِ حَتّى كَأَنَّنا وَإِيّاكَ لَم يُعصَب بِها قَلبُنا عَصبا
فَسَل بَردَساً عَنّا أَخاكَ وَصِهرَهُ وَسَل آلَ بَرداليسَ أَعظَمُكُم خَطبا
وَسَل قُرقواساً وَالشَميشَقَ صِهرَهُ وَسَل سِبطَهُ البَطريقَ أَثبَتُكُم قَلبا
وَسَل صيدَكُم آلَ المَلايِنِ إِنَّنا نَهَبنا بِبيضِ الهِندِ عِزَّهُمُ نَهبا
وَسَل آلَ بَهرامٍ وَآلَ بَلَنطَسٍ وَسَل آلَ مَنوالَ الجَحاجِحَةَ الغُلبا
وَسَل بِالبُرُطسيسِ العَساكِرَ كُلَّها وَسَل بِالمَنُسطَرياطِسِ الرومَ وَالعُربا
أَلَم تُفنِهِم قَتلاً وَأَسراً سُيوفُنا وَأُسدَ الشَرى المَلأى وَإِن جَمُدَت رُعبا؟
بِأَقلامِنا أُحجِرتَ أَم بِسُيوفِنا؟ وَأُسدَ الشَرى قُدنا إِلَيكَ أَمِ الكُتبا
تَرَكناكَ في بَطنِ الفَلاةِ تَجوبُها كَما انتَفَقَ اليَربوعُ يَلتَثِمُ التُربا
تُفاخِرُنا بِالطَعنِ وَالضَربِ في الوَغى لَقَد أَوسَعَتكَ النَفسُ يا اِبنُ اِستِها كِذبا
رَعى اللَهُ أَوفانا إِذا قالَ ذِمَّةً وَأَنفَذَنا طَعناً وَأَثبَتَنا قَلبا
وَجَدتُ أَباكَ العِلجَ لَمّا خَبَرتُهُ أَقَلَّكُمُ خَيراً وَأَكثَرَكُم عُجبا

وقد استهلَّ أبو فراس قصيدته بهذه الصورة الساحرة للدمستق حين وصفه بأنه "ضخم اللغاديد" ونظر إليه نظرة احتقار في قوله:

لَقَد جَمَعَتنا الحَربُ مِن قَبلِ هَذِهِ فَكُنّا بِها أُسداً وَكُنتَ بِها كَلبا

إن هـذه الصورة تجسد علاقة الذات بالآخر تجسيداً تاماً، فالأسد الـذي يرمـز إلى العرب بما يحمله من دلالات القوة والشجاعة والملوكية

تقابله صورة الكلب الذي يرمز من وجهة نظر أبي فراس إلى الروم بما توحي به الصورة من احتقار ووضاعة.

إن مثل هذه المناظرات الشعرية لون طريف جديد عرف طريقه إلى الشعر ونفحه بنفحات خاصة.

إن أبا فراس -في قصيدته- يستعرض جانباً من جوانب الصراع بين العرب والروم ويستحضر أسماء ملوك الروم وقوادهم الذين ذاقوا مرارة الهزائم وشملت هذه القائمة كلا من الدمستق وابن أخته وبرداس وهو قائد قسطنطين السابع ملك القسطنطينية و(قرقواس) وهو قائد أرمني من قواد الدمستق والشميشق صهره وآل برداليس وآل الملايين وهم آل البطريق قسطنطين وكذلك آل بهرام وآل بلنطس وآل منويل وآل برطسيس وغيرهم ممن وعتهم ذاكرة أبي فراس وحرص على ذكرهم ليدحض فرية الدمستق الذي زعم بأن العرب قوم لا يعرفون الحرب، فكان استعراض أسمائهم خير دليل على تفنيد هذه المزاعم .

إن علاقة الذات بالآخر في شعر أبي فراس تقوم على العداء والإنكار والتعالي، فكلاهما يسعى إلى محو الآخر وازدرائه واحتقاره:

يَمُنّونَ أن خَلّوا ثِيابي وَإِنَّما عَلَيَّ ثِيابٌ مِن دِمائِهِمُ حُمرُ

وتتأكد علاقة التنافر والعداء والرفض حين يخاطب أبو فراس سيف الدولة بقوله:

وَلَكِن أَنِفتُ المَوتَ في دارِ غُربَةٍ بِأَيدي النَصارى الغُلفُ ميتَةَ أَكمَدِ

فَلا تَترُكِ الأَعداءَ حَولي لِيَفرَحوا وَلا تَقطَعِ التَسآلَ عَنّي وَتَقعُدِ

فـــأبو فراس يعبر عن إحساس الذات الرافضة للآخر، الكارهة له، وهو الإحساس الذي تضاعف من خلال محنة الأسر التي اكتوى بنيرانها.

الآخر في شعر المتنبي

للآخر تجليات عديدة في شعر المتنبي، وقد أسهم في هذا الحضور الكثيف عدة عوامل، منها كثرة أسفاره ورحلاته.ومنها اتساع ثقافته، ومعاصرته للصراع المحتدم بين العرب والروم.

ويتجلى حضور "الآخر" في شعر المتنبي في أجناس شتى، منها: العجم والفرس والروم والترك والديلم والأكراد واليهود.

العجم:

يتردد مفهوم "العجم" عند المتنبي في إشارة إلى الأجناس الأخرى غير العربية، ويرى أن هناك تبايناً واضحاً بين العرب والعجم في العادات والطبائع واللغة والثقافة ولذلك فإن العرب إذا ملكهم العجم لم يفلحوا.

وينظر المتنبي إلى العجم نظرة سلبية عدائية، فيسلبهم المفاخر والحسب والأمجاد، ويرى أنه لا ذمم لهم ولا عهد ولا أمان ، ويحمل على عبيد الخلفاء من الأتراك الذين كانوا يؤمرون على الناس، فيقول:[1]

وَإِنَّما النـاسُ بِالمُلوكِ وَما ... تُفلِحُ عُربٌ مُلوكُها عَجَمُ
لا أَدَبٌ عِندَهُم وَلا حَسَبٌ ... وَلا عُهودٌ لَهُم وَلا ذِمَمُ
بِكُلِّ أَرضٍ وَطِئتُها أُمَمٌ ... تُرعى لِعَبدٍ كَأَنَّها غَنَمُ

---

(١) ديوان المتنبي (بشرح البرقوقي) ٤ : ١٧٩.

ويعكس شعر المتنبي تعصباً واضحاً لكل ما هو عربي، بل إنه ليرفض مظاهر الحضارة وينحاز إلى البادية بكل ما فيها، ويفضل المرأة البدوية على الحضرية لأن حسن أهل الحضارة متكلف مصنوع. أما حسن البدويات فهو فطري غير مجلوب أو متكلف. يقول:[١]

مـا أَوجُهُ الحَضَرِ المُستَحسَناتُ بِهِ كَأَوجُهِ البَدَوِيّاتِ الرَعابيبِ[٢]
حُسنُ الحَضارَةِ مَجلوبٌ بِتَطرِيَةٍ وَفي البَداوَةِ حُسنٌ غَيرُ مَجلوبِ

وانحياز المتنبي للعرب يأتي غالباً على حساب الآخر؛ فممدوحه "النموذج" أو "المثال" يكون عظيماً أينما كان حتى لو حلَّ في دولة عظيمة كفارس لزحزح كسرى عن مكانه، ولو حلَّ في الروم لنحَّى قيصر عن عرشه وصار مكانه:[٣]

إِن حَلَّ في فُرسٍ فَفيها رَبُّها كِسرى تَذِلُّ لَهُ الرِقابُ وَتَخضَعُ
أَو حَلَّ في رومٍ فَفيها قَيصَرٌ أَو حَلَّ في عُربٍ فَفيها تُبَّعُ

وبرغم العداء المتبادل بين العرب والروم وما جرى بينهما من معارك وحروب طاحنة، فإن المتنبي لا ينكر حضارة الروم ويعترف بمهارتهم في الفنون وحذقهم في الصناعة، وقد عبَّر عن ذلك في معرض وصفه لثياب من الديباج أهديت له وكانت ناسجتها من الروم قد نقشت

(١) ديوانه ١ : ٢٩١.

(٢) الرعابيب: جمع رعبوبة وهي المرأة الممتلئة.

(٣) ديوان المتنبي ٣ : ٢٠.

علـيها صور ملوك الروم وصورهًا وصورة جواريها وزينتها بصور للخيل ونقوش أخرى لأشياء جاءت مثالاً للحذق والمهارة، وفي ذلك يقول:[١]

ثـيابُ كَـريمٍ ما يَصونُ حِسانَها   إذا نُشِـرَت كانَ الهِباتُ صِوانَها
تُريـنا صَـناعُ الرومِ فيها مُلوكَها   وَتَجلـو عَلَيـنا نَفسْـها وَقِيانَها
وَلَم يَكفِها تَصويرُها الخَيلَ وَحدَها   فَصَـوَّرَتِ الأَشـياءَ إِلّـا زَمانَها
وَمـا اِدَّخَـرَتها قُـدرَةً في مُصَوِّرٍ   سِـوى أَنَّها ما أَنطَقَت حَيَوانَها

ويعـبر المتنبي في غير موضع من شعره عن إعجابه بحضارة الإغريق ومـا أنجبـته من علماء أفذاذ في الطب والفلسفة، ويشير إلى "جالينوس" الطبيب اليوناني المشهور وبراعته في الطب ووصف الأدوية، فيقول:[٢]

لَمّـا وَجَدتُ دَواءَ دائي عِندَها   هانَـت عَلَيَّ صِفاتُ جالينوسا

ويستحضـر المتـنبي شخصية "جالينوس" مرة أخرى في معرض الحكمـة والـتأمل وتأكيد حقيقة حتمية الموت حيث لا ينجو منه إنسان مهمـا كان قدره، فيموت الراعي الجاهل كما يموت الطبيب الحاذق، بل ربمـا زاد راعي الضأن عمراً على جالينوس في "مفارقة" بالغة الدلالة على تناقضات الحياة:

يَموتُ راعي الضَأنِ في جَهلِهِ   مَوتَـةَ جاليـنوسَ في طِـبِّهِ
وَرُبَّمـا زادَ عَـلى عُمـرِهِ   وَزادَ في الأَمـنِ عَـلى سِـربِهِ

---

(١) ديوانه ٤: ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه٢: ٣٠٥

ويستحضر المتنبي أعلام الحضارة اليونانية: أرسططاليس والإسكندر وبطليموس في معرض مــدح ابن العمــيد، فيشبهه بهم في علمه وحكمته وسعة ملكه، فيقول:[١]

مَــن مُـبلِغُ الأَعرابِ أَنّي بَعدَها ... شاهَدتُ رَسطاليسَ وَالإِسكَندَرا

وَمَلِلــتُ نَحــرَ عِشارِها فَأَضافَني ... مَن يَنحَرُ البِدَرَ النُضارَ لِمَن قَرى

وَسَــمِعتُ بَطليموسَ دارِسَ كُتبِهِ ... مُــتَمَلِّكاً مُتَــبَدِّياً مُتَحَضِّــرا

وفي ســياق المــدح أيضــاً يستدعي المتنبي عدة شخصيات دينية وتاريخــية كشخصــية الإسكندر فيقول على سبيل الغلو إن ذا القرنين لو استعمل رأي الممدوح لأضاءت له الظلمات، ويشير إلى "عازر" وهو رجل مــن بني إسرائيل أحياه الله تعالى بدعاء عيسى عليه السلام، ولكن المتنبي يعمــد إلى الغلو المذموم فيقول إن عازر لو قتل بسيف الممدوح في الحرب لأعجز عيسى إحياؤه، ويستحضر في السياق ذاته صورة المجوس عبدة النار ويمضي في غلوائه فيقول:[٢]

بَشَــرٌ تَصَــوَّرَ غايَــةً في آيَــةٍ ... تَــنفي الظُــنونَ وَتُفسِدُ التَقْيِيسَا

وَبِــهِ يُضَـــنُّ عَــلى البَرِيَّةِ لا بِها ... وَعَلَــيهِ مِــنها لا عَلَــيها يوسى

لَــو كانَ ذو القَرنَينِ أَعمَلَ رَأيَهُ ... لَمّــا أَتى الظُلُماتِ صِرنَ شُموسا

أَو كانَ صادَفَ رَأسَ عازَرَ سَيفُهُ ... في يَــومِ مَعــرَكَةٍ لَأَعــيا عيسى

---

(١) ديوان المتنبي ٢ : ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) نفس المصدر ٢: ٣٠٦: ٣٠٧.

أَو كـــانَ لُـــجُّ البَحرِ مِثلَ يَمينِهِ ... مـــا انشَقَّ حَتّى جازَ فيهِ موسى
أَو كـــانَ لِلـــنيرانِ ضَـــوءُ جَبينِهِ ... عُـــبِدَت فَصارَ العالَمونَ مَجوسا

وفي ســياق العظــة والعبرة وتأكيد حقيقة الفناء يستحضر المتنبي شخصية خوفو وخفرع صاحبي الهرمين مؤكداً أن الفناء حتم على البشر مهمـــا كـــان قدرهـــم وأن الآثار تبقى بعد رحيل أصحابها للدلالة على حضارتهم وقوتهم. يقول:(١)

تَصـــفو الحَياةُ لِجاهِلٍ أَو غافِلٍ ... عَمّـــا مَضـــى فيها وَما يُتَوَقَّعُ
وَلِمَـــن يُغالِطُ في الحَقائِقِ نَفسَهُ ... وَيَســـومُها طَلَبَ المُحالِ فَتَطمَعُ
أَيـــنَ الَّـــذي الهَرَمانِ مِن بُنيانِهِ ... مـــا قَومُـــهُ ما يَومُهُ ما المَصرَعُ
تَـــتَخَلَّفُ الآثـــارُ عَن أَصحابِها ... حيـــناً وَيُدرِكُهـــا الفَناءُ فَتَتبَعُ

الفرس:

للفرسِ حضور واضح في شعر المتنبي، فقد كانت له رحلة إلى بلاد فـــارس بعد أن رحل عن مصر سنة ٣٥٠هــ قاصداً الكوفة فوصلها سنة ٣٥١هــــ وأقـــام فيها فترة قصد بعدها بغداد وكانت تحت حكم معز الدولـــة الـــبويهي ولكن مقامه لم يطب فيها فسافر إلى أرّجان قاصداً ابن العمـــيد فمدحه بأربع قصائد وذهب منها إلى(شيراز) حيث اتصل بعضد الدولـــة ومدحـــه بثماني قصائد، وعاد منها محملاً بالهدايا والتحف ليلقي

---

(١) ديوانه ٣: ١٣.

حـــتفه في طـــريقه إلى الكوفة على يد فاتك الأسدي ورجاله وذلك في رمضان سنة ٣٥٤ هـــ[١]

ويـــنظر المتـــنبي إلى الفرس نظرة إكبار وتقدير، ويعبر عن إعجابه بالحضارة الفارسية، وهو ما نلمسه في مدائحه لابن العميد، وقد تصادف أن حضـــر عيد النيروز وهو أحد أعياد الفرس المهمة، فنظم قصيدة يهنئه فـــيها بهـــذا العيد حيث شخص (العيد) فجعله زائراً يفد على ابن العميد ويظفـــر منه بنظرة يتزوَّد بها إلى العام المقبل حيث يفارقه آخر اليوم آسفاً حزيناً على فراقه، ويصف المتنبي مقامه في بلاد فارس في عيد النيروز وقد غمرت الفارسيين الفرحة والبهجة ويشير إلى مشاركته أهل الفرس عاداتهم في صباح ذلك العيد إذ كان من عادتهم يوم النيروز أن يتخذوا أكاليل من النـــبات والزهر يضعونها فوق رؤوسهم وقد اكتست الأرض في هذا العيد بمـــثل هـــذه الأكاليل من الزهر، وتزينت الجبال والوهاد ولبست حللها القشيبة احتفالاً بالنيروز، وفي ذلك يقول المتنبي:[٢]

جـــاءَ نَيروزُنـــا وَأَنـــتَ مُرادُه ... وَوَرَت بِـــالَّذي أَرادَ زِنـــادُه

هَـــذِهِ الـــنَظرَةُ الَّتي نالَها مِنـــ ... ـــكَ إِلى مِثلِها مِنَ الحَولِ زادُه

يَنـــثَني عَـــنكَ آخِـــرَ اليَومِ مِنهُ ... ناظِـــرٌ أَنـــتَ طَـــرفُهُ وَرُقادُه

نَحنُ في أَرضِ فارِسٍ في سُرورٍ ... ذا الصَـــباحُ الَّذي نَرى ميلادُه

---

(١) انظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي للبديعي ١ : ٢٢١.

(٢) ديوان المتنبي ٢ : ١٤٨-١٤٩.

عَظَّمَتهُ مَمالكُ الفُرسِ حَتّى ... كُلُّ أَيّامِ عامِهِ حُسّادُه

ما لَبِسنا فيهِ الأَكاليلَ حَتّى ... لَبِسَتها تِلاعُهُ وَوِهادُه

ويرى المتنبي في ابن العميد نموذجاً لامتزاج الثقافتين: العربية والفارسية، فهو عربي اللسان، حكيم كالفلاسفة، فارسي الإقامة، فأعياده فارسية كالنيروز والمهرجان . يقول:(١)

عِندَ مَن لا يُقاسُ كِسرى أَبو سا ... سانَ مُلكاً بِهِ وَلا أَولادُه

عَرَبِيٌّ لِسانُهُ فَلسَفِيٌّ ... رَأيُهُ فارِسِيَّةٌ أَعيادُه

كُلَّما قالَ نائِلٌ أَنا مِنهُ ... سَرَفٌ قالَ آخَرٌ ذا اِقتِصادُه

ونرى الحضور الفارسي في قصيدة أخرى للمتنبي يمدح فيها علي ابن صالح الروذباريّ الكاتب وهو فارسي الأصل، ينسب إلى بلدة "روذبار" من بلاد العجم، فيشيد بأمجاد الفرس من خلاله، ويشير إلى انتمائه إلى "أبرويز" أحد أكاسرة الفرس، فهو من أولاد ملوك الفرس أصحاب التيجان المصوغة من الجواهر، وهو بمكارمه وصفاته يعلو كل أصل شريف ويفوق الشمس شرفاً ونسباً، وكأن الياقوت والدر المنظوم نظمت من حلاوة لفظه، وقد شغلته المعالى والمآثر عن الحسان من النساء:(٢)

لَيسَ كُلُّ السَراةِ بِالروذَبارِي ... وَلا كُلُّ ما يَطيرُ بِبازِ

---

(١) ديوان المتنبي ٢ : ١٥٠.

(٢) نفس المصدر ٢: ٢٨٦-٢٨٧

فارِسِيٌّ لَهُ مِنَ المَجدِ تاجُ ... كانَ مِن جَوهَرٍ عَلى أَبرَوازِ
نَفسُهُ فَوقَ كُلِّ أَصلٍ شَريفٍ ... وَلَوَ آنّي لَهُ إِلى الشَمسِ عازي
وَكَأَنَّ الفَريدَ وَالدُرَّ وَاليا ... قوتَ مِن لَفظِهِ وَسامَ الرِكازِ
شَغَلَت قَلبَهُ حِسانُ المَعالي ... عَن حِسانِ الوُجوهِ وَالأَعجازِ

ويشير المتنبي في معرض مدح الروزباري إلى شهرة سُكَّر مدينة الأهواز وهي كور بين البصرة وفارس فيقول:[1]

تَقضَمُ الجَمرَ وَالحَديدَ الأَعادي ... دونَهُ قَضمَ سُكَّرِ الأَهوازِ

ويشيد المتنبي بقوم الممدوح من الفرس ويراهم نماذج للكرم والمآثر والسيادة، فقد فتحوا كثيراً من البلاد، وملكوا الأرض، وانقادت لهم الشعوب انقياد الدواب الذلول تمشي بغير مهماز، وأطاعتهم الجيوش، وهابهم الناس وصارت لهم الكلمة العليا والقول الفصل. يقول المتنبي:[2]

وَبِآبائِكَ الكِرامِ التَأَسّي ... وَالتَسَلّي عَمَّن مَضى وَالتَعازي
تَرَكوا الأَرضَ بَعدَ ما ذَلَّلوها ... وَمَشَت تَحتَهُم بِلا مِهمازِ
وَأَطاعَتهُمُ الجُيوشُ وَهيبوا ... فَكَلامُ الوَرى لَهُم كَالنُحازِ

وتبرز في شعر المتنبي شخصية عضد الدولة بوصفه نموذجاً للقائد الشجاع الذي يحمى حدود الدولة الفارسية ويقهر أعداءها:[3]

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٨٨.

(٢) ديوان المتنبي ٢: ٢٩١.

(٣) نفس المصدر ٤ :٣٩٣.

حَمـــى أَطرافَ فارِسَ شَمَّرِيٌّ يَحُـــضُّ عَلى التَباقي بِالتَفاني

بِضَـــربٍ هـــاجَ أَطرابَ المَنايا سِوى ضَربِ المَثالِثِ وَالمَثاني

الأكراد:

ورد ذكر الأكراد في شعر المتنبي في غير موضع، فقد أشار إليهم في مدح ابن العميد فوصفه بأنه أفصح العرب، وجعل الأكراد أفصح الناس في قومهـــم مشـــبهاً إيـــاهم بالأعراب معبراً عن إشكالية ثقافية تتصل باللغة بوصفها أداة للتعبير والتفاهم، فالممدوح الذي يمثل نموذج الفصاحة اللغوية العربية يقف في مواجهة نموذج آخر للفصاحة ممثلاً في لغة أخرى هي لغة الأكراد. يقول:(١)

خَلَـــقَ اللَهُ أَفصَحَ الناسِ طَرّاً في مَكـــانٍ أَعـــرابُهُ أَكـــرادُه

ويـــبدو أن الشعوبية كانت تطلُّ برأسها بين الفينة والفينة في عصر سيف الدولة، فثمة رواية تقول إنه قد جرى ذكر ما بين العرب والأكراد مـــن الفضل، فقال سيف الدولة للمتنبي: ما تقول في هذا وما تحكم يا أبا الطيب؟ فقال:(٢)

إِن كُنـــتَ عَن خَيرِ الأَنامِ سائِلاً فَخَيرُهُـــم أَكـــثَرُهُم فَضـــائِلا

مَـــن أَنتَ مِنهُم يا هُمامَ وائِلا الطاعِـــنينَ في الوَغـــى أَوائِـــلا

وَالعـــاذِلينَ في الـــنَدى العَواذِلا قَـــد فَضَـــلوا بِفَضلِكَ القَبائِلا

---

(١) ديوان المتنبي ٢ : ١٥٧.

(٢) نفس المصدر ٣ : ٢٣٢.

الترك:

أظهـــر المتنبي تعاطفه مع الأتراك في قصيدة يعزي فيها سيف الدولة عن عبده (يماك) التركي وقد مات سنة أربعين وثلثمائة، وكانت له حظوة عند سيف الدولة فحزن عليه حزناً شديداً وواساه المتنبي فقال:(١)

لا يُحـــزِنُ اللَـــهُ الأَمـــيرَ فَـــإِنَّني ... سَآخُذُ مِن حالاتِـــهِ بِنَصيبِ
وَمَن سَرَّ أَهلَ الأَرضِ ثُمَّ بَكى أَسىً ... بَكـــى بِعُيونٍ سَـــرَّها وَقُلوبِ
وَإِنّـــي وَإِن كـــانَ الدَفـــينُ حَبيبَهُ ... حَبيـــبٌ إِلى قَلـــبي حَبيبُ حَبيبي
وَقَـــد فـــارَقَ الـــناسُ الأَحِبَّةَ قَبلَنا ... وَأَعـــيا دَواءُ المَـــوتِ كُلَّ طَبيبِ

ويردد المتنبي اسم (يماك) مملوك سيف الدولة التركي ويُظهر تعاطفه مـــع الأتـــراك من خلاله، فيرى أن (يماك) أبقى بموته في قلبه صبابة وحباً ومـــودة إلى كـــل تركي، فهو نموذج لأصالة الأتراك ويشير إلى صفاتهم، فالترك يوصفون ببياض الوجوه وضيق الجفون، ويشيد بشجاعته في القتال وفروسيته في النزال، ولذلك حزنت عليه السيوف والخيل والقسي:(٢)

لَـــأَبقى يَمـــاكٌ في حَشايَ صَبابَةً ... إِلى كُـــلِّ تُركِيِّ النِجارِ جَليبِ
وَمـــا كُـــلُّ وَجهٍ أَبيَضٍ بِمُبارَكٍ ... وَلا كُـــلُّ جَفـــنٍ ضَيِّقٍ بِنَجيبِ
لَـــئِن ظَهَـــرَت فيـــنا عَلَيهِ كَآبَةٌ ... لَقَد ظَهَرَت في حَدِّ كُلِّ قَضيبِ
وَفي كُـــلِّ قَوسٍ كُلَّ يَومِ تَناضُلٍ ... وَفي كُلِّ طِرفٍ كُلَّ يَومِ رُكوبِ

---

(١) ديوان المتنبي ١: ١٧٤-١٧٥

(٢) ديوانه ١: ١٧٦

الديلم:

ويحضر (الديلم) في شعر المتنبي من خلال شخصية ملكهم (وهشوذان) الذي هزمه عضد الدولة هزيمة نكراء وقد أشاد المتنبي بهذا النصر الذي أحرزه عضد الدولة فقال:[1]

يا عَضُداً رَبُّهُ بِهِ العاضِدِ ... وَسارِياً يَبعَثُ القَطا الهاجِدِ
وَمُمطِرَ المَوتِ وَالحَياةِ مَعاً ... وَأَنتَ لا بارِقٌ وَلا راعِدِ
نِلتَ وَما نِلتَ مِن مَضَرَّةِ وَهـ ... ـشوذانَ ما نالَ رَأيُهُ الفاسِدِ

ويحتفي المتنبي بوصف هزيمة ملك الديلم حيث لم تحمه قلاعه المسماة (الطرم) التي ملأها الحجاج وأحاط بها فأخفاها عن الأنظار وبدت من خلال غبار الخيل كأنها بعير أضلّه طالبه، ويصف فرار (وهشوذان) وإسراعه في الهرب كأنه نعامة شرود، وقد أنكرته الأرض فلم يجد بها مستقراً، ولم تغنه المباني المشيدة عن عقاب عضد الدولة، ويشير إلى صفات قوم وهشوذان فيقول:[2]

ما كانَتِ الطَرمُ في عَجاجَتِها ... إِلّا بَعيراً أَضَلَّهُ ناشِدِ
تَسأَلُ أَهلَ القِلاعِ عَن مَلِكٍ ... قَد مَسَخَتهُ نَعامَةً شارِدِ
تَستَوحِشُ الأَرضُ أَن تَقِرَّ بِهِ ... فَكُلُّها مُنكِرٌ لَهُ جاحِدِ
فَلا مُشادٌ وَلا مَشيدٌ حَمى ... وَلا مَشيدٌ أَغنى وَلا شائِدِ

---

(١) ديوان المتنبي ٢: ١٧٧

(٢) ديوانه ٢ : ١٧٩-١٨٠.

فاغـتَظ بِقَومٍ وَهشوذَ ما خُلِقوا إِلّـا لِغَيـظِ العَـدوِّ وَالحاسِدِ
رَأوكَ لَمّـا بَلَـوكَ نابِـتَةً يَأكُلُها قَـبلَ أَهلِـهِ الـرائِدِ

وتتردد أصداء هزيمة ملك الديلم مرة أخرى حيث أنفذ إليه ركن الدولـة جيشاً من الري فهزمه واستولى على بلده، ويخاطب المتنبي ملك الديلم في لهجة مفعمة بالسخرية فيقول:[1]

أَرَضيتَ وَهشُوَذانُ ما حَكَمَت أَم تَستَـزيدُ لِـأُمِّكَ الهَـبَلُ
وَرَدَت بِـلادَكَ غَـيرَ مُعمَدَةٍ وَكَأَنَّهـا بَـينَ القَـنا شُـعَلُ
وَالقَـومُ في أَعـيانِهِم خَـزَرٌ وَالخَـيلُ في أَعـيانِها قَـبَلُ
فَـأَتَوكَ لَـيسَ بِمَن أَتَوا قِبَلٌ بِهِـم وَلَـيسَ بِمَـن نَأَوا خَلَلُ
لَـم يَـدرِ مَـن بِالرَيِّ أَنَّهُمُ فَصَـلوا وَلا يَـدري إِذا قَفَلـوا
فَأَتَيـتَ مُعـتَزِماً وَلا أَسَـدٌ وَمَضَـيتَ مُـنهَزِماً وَلا وَعِـلُ
تُعطـي سِـلاحَهُمُ وَراحَهُمُ مـا لَـم تَكُـن لِتَـنالَهُ المُقَـلُ
أَسـخى المُلوكِ بِنَقلِ مَملَكَةٍ مَـن كـادَ عَـنهُ الرَأسُ يَنتَقِلُ

هكذا سخر المتنبي من شخصية ملك الديلم فوصمه بالجبن والخور وشـبهه بالوعل المنهزم وقد خشي أن تقطع رأسه فضحى بمملكته وتخلى عن ملكه لينجو بنفسه بعد أن هزمته جيوش ركن الدولة بأقل مجهود.

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٢- ٢٤.

اليهود:

عبَّر المتنبي عن رأيه في اليهود في معرض قصيدة يدافع فيها عن نفسه بعد أن وشى به قوم إلى السلطان، فحبسه، فكتب إليه من الحبس ينفي عن نفسه التهمة ويرجوه ألا يقبل زور الكلام وشهادة غير العدول والاستماع إلى كيد الوشاة ولجاجة الحاقدين. وفي هذا السياق يستحضر صورة اليهود فيجعل خصومه يهوداً وهم ليسوا كذلك في الحقيقة، ويراهم أهل زور ووشاية وعداوة ومكيدة ولجاج، يقول المتنبي:[1]

وَكُنتُ مِنَ الناسِ في مَحفِلٍ ... فَها أَنا في مَحفِلٍ مِن قُرودِ
تُعَجِّلُ فِيَّ وُجوبَ الحُدودِ ... وَحَدّي قُبَيلَ وُجوبِ السُجودِ
وَقيلَ عَدَوتَ عَلى العالَميـ ... ـنَ بَينَ وِلادي وَبَينَ القُعودِ
فَما لَكَ تَقبَلُ زورَ الكَلامِ ... وَقَدرُ الشَهادَةِ قَدرُ الشُهودِ
فَلا تَسمَعَنَّ مِنَ الكاشِحينَ ... وَلا تَعبَأَنَّ بِمَحكِ اليَهودِ
وَكُن فارِقاً بَينَ دَعوى أَرَدتُ ... وَدَعوى فَعَلتُ بِشَأوٍ بَعيدِ

تلك هي صورة اليهودي كما استقرت في ذاكرة المتنبي، وهي الصورة الحقيقية أو الواقعية التي تستند إلى الواقع، وتؤكدها الحقائق التاريخية.

:

(١) ديوانه ٢ : ٦٧-٦٨.

الروم:

عاصر المتنبي الصراع الذي احتدم بين الحمدانيين والبيزنطيين وصحب بسيف الدولة في حروبه "وكانت أول قصيدة له عند لقائه في حربه للروم، وآخر قصيده له عند فراقه (في حربه للروم) وأكثر شعره خلالهما قد قاله في هذه الحرب. وإن هذه القصائد فوق ما حوته من قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق في فن المعاني والأسلوب وسمو في الصنعة، فإنها تجمع في أبياتها قيمة تاريخية وجغرافية عالية القدر، وتعد وثائق في غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسي والتحقيق الأدبي عن عصر سيف الدولة.[١]

وتحتشد روميات المتنبي وسيفياته بوصف المعارك مع الروم وتصوير هزائمهم ووصف جيوش الروم وقوادهم وجنودهم وبطارقتهم وسباياهم ومدنهم وحصونهم وقلاعهم وغير ذلك.

وصف المعارك:

برع المتنبي في وصف الحروب التي خاضها سيف الدولة ضد الروم لعبقريته الفنية –من ناحية- ولأنه "كان يشهد الحروب بنفسه مع سيف الدولة، ومن ثم جاء وصفه للحروب متميزاً عن وصف غيره من الشعراء لممارسته وخبرته للحروب ومعايشته واحتكاكه بأحداثها".[٢]

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب، د. ذكي المحاسني ص ٣٠٣.

(٢) شعر المتنبي –دراسة فنية- د.مصطفى أبو العلا : ٢٠٢.

وقد أدرك القدماء براعة المتنبي في وصف المعارك فقال ابن الأثير: إنه"إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها، وأشجع من أبطالهـــ، وقامـــت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى تظن أن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا"(١)

ومـــن أوائـــل القصـــائد التي نظمها المتنبي في وصف المعارك التي خاضـــها سيف الدولة ضد الروم قصيدته في وصف معركة (خرشنة) التي حدثـــت ســـنة ٣٣٩هـــ. بالقرب من بحيرة الحدث، وانتصر فيها سيف الدولة في الجولة الأولى ثم انهزم في الجولة الثانية، وتذكر الرواية التاريخية أن ســـيف الدولـــة مرَّ في هذه الغزوة بمدينة (سمندو) وعبر نهر (آلس)، ونزل عـــلى (صـــارخة) وهـــي مدينة هناك، فأحرق ربضها وكنائسها وربض خرشـــنة وما حولها وأقام بمكانه أياماً، ثم عبر نهر آلس راجعاً فلما أمسى ترك السواد وأكثر الجيش، وسرى حتى جاز خرشنة، وانتهى إلى بطن لقان ظهـــر الغد، فلقي الدمستق في ألوف من الخيل، فلما رأى الدمستق أوائل خـــيل المســـلمين ظـــنها سرية لها، فانتشب القتال بين الفريقين، فانهزم الدمســـتق، وقتل من فرسانه خلق كثير، وأسر من بطارقته وزرازرته نيف وثمـــانون، وأفلت الدمستق وعاد سيف الدولة إلى عسكره وسواده حتى وصل إلى عقبة –تعرف بمقطعة الأثغار– فصادفه العدو على رأسها، فأخذ ســـاقة الناس يحميهم، ولما انحدر بعد عبور الناس ركبه العدو، فجرح من الفرســـان جماعـــة، ونزل سيف الدولة على بردي –وهو نهر بطرسوس–

(١) المثل السائر لابن الأثير: ٢٢٨

وأخذ العدو عليه عقبة المسير -وهي عقبة طويلة- فلم يقدر على صعودها لضيقها وكثرة العدو بها، فعدل متياسراً في طريق وصفه بعض الأدلة، وجاء العدو آخر النهار من خلفه، فقاتل إلى العشاء، وأظلم الليل، وتساند أصحاب سيف الدولة: أي أخذوا في سند الجبل يطلبون سوادهم. فلما خفت عنه أصحابه سار حتى لحق بالسواد تحت عقبة -قريبة من بحيرة الحدث- فوقف وقد أخذ العدو الجبلين من الجانبين، وجعل سيف الدولة يستنفر الناس فلم ينفر أحد، ومن نجا من العقبة نهاراً لم يرجع، ومن بقي تحتها لم تكن فيه نصرة؛ وتخاذل الناس وكانوا قد ملوا السفر، فأمر سيف الدولة بقتل البطارقة وبقية الأسرى، فكانوا مئات، وانصرف؛ واجتاز أبو الطيب آخر الليل بجماعة من المسلمين بعضهم نيام بين القتلى من التعب، وبعضهم يحركوهم فيجهزون على من تحرك منهم، فقال يصف ذلك:[١]

غَيري بِأَكثَرِ هَذا الناسِ يَنخَدِعُ   إِن قاتَلوا جَبُنوا أَو حَدَّثوا شَجُعوا

ويصف المتنبي هزيمة الروم في الجولة الأولى حيث أسرع سيف الدولة بجيشه حتى نزل بأرباض خرشنة وقد جلب الشقاء على الروم فقتل منهم خلقاً كثيراً وأحرق صلبانهم وخرَّب بيعهم. وأخذ أموالهم وسبى نساءهم وأقام المنابر بمدينة (صارخة) الرومية وأدّوا بها الصلوات (يوم الجمعة)، يقول:[٢]

قادَ المَقانِبَ أَقصى شُربِها نَهَلٌ   عَلى الشَكيمِ وَأَدنى سَيرِها سِرَعُ

---

(١) ديوان المتنبي ٣ : ٣٣٣.

(٢) نفس المصدر ٣ : ٣٣٣-٣٣٤.

لا يَعــتَقي بَلَــدٌ مَسراهُ عَن بَلَدٍ كَــالمَوتِ لَــيسَ لَهُ رِيٌّ وَلا شِبَعُ
حَــتّى أَقامَ عَلى أَرباضِ خَرشَنَةٍ تَشــقى بِهِ الرومُ وَالصُلبانُ وَالبِيَعُ
لِلسَبيِ ما نَكَحوا وَالقَتلِ ما وَلَدوا وَالنَهبِ ما جَمَعوا وَالنارِ ما زَرَعوا
مُخــلىً لَهُ المَرجُ مَنصوباً بِصارِخَةٍ لَــهُ المَــنابِرُ مَشــهوداً بِها الجُمَعُ
يُطَمِّــعُ الطَيرَ فيهِم طولُ أَكلِهِمُ حَــتّى تَكــادُ عَلى أَحيائِهِم تَقَعُ
وَلَــو رَآهُ حَوارِيّوهُــمُ لَبَــنوا عَــلى مَحَبَّتِهِ الشَرعَ الَّذي شَرَعوا

وتــبرز صــورة (الدمستق) Domestique " وهو لقب إمبراطور القســطنطينية ومعــناه (الخادم الأعظم لجيش الشرق) أو (القائد الأعظم لجــيش آسيا، وكان لقب قسطنطين ماليينوس السابع ملك القسطنطينية، وهو المعاصر لسيف الدولة"[١].

ويشــير المتنبي إلى انخداع الدمستق حين رأى كتائب سيف الدولة فظنها قليلة ولكن نظره خانه حين وجد الأمر على خلاف ما ظنَّ:[٢]

ذَمَّ الدُمُســتُقُ عَينَيهِ وَقَد طَلَعَت ســودُ الغَمامِ فَظَنّوا أَنَّها قَزَعُ[٣]
فــيها الكُماةُ الَّتي مَفطومُها رَجُلٌ عَــلى الجِــيادِ الَّتي حَولِيُّها جَذَعُ

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب، د. ذكي المحاسني: ٢٦٩.

(٢) ديوان المتنبي : ٣ : ٣٣٥.

(٣) القزع : المتفرق من السحاب، واحدها : قزعة.

ويصـــف المتـــنبي مسيرة جيش سيف الدولة في أرض الروم حيث عبرت خيله نهر (آلس) وبلغت (اللقان) وهو موضع في بلاد الروم قبل أن تبتلع ما شربته من ماءِ النهر مبالغة في وصف شدة ركضها:

تَذري اللُقانُ غُباراً في مَناخِرِها ... وَفي حَـــناجِرِها مِن آلِسٍ جُرَعُ

ويـــردد المتنبي لفظة (العلج) في وصف جنود الروم —ويعني الرجل الغلـــيظ مـــن كفار العجم— فإذا استعان العلج بآخر حالت بينهما رماح المسلمين:

إِذا دَعا العِلجُ عِلجاً حالَ بَينَهُما ... أَظمى تُفارِقُ مِنهُ أُختَها الضِّلَعُ

ويكنى المتنبي عن الدمستق بـــ(ولد الفقاس) إشارة إلى جده حيث لقي ما لقيه من هرب وفرار:

أَجَـــلُّ مِن وَلَدِ الفُقّاسِ مُنكَتِفٌ ... إِذ فـــاتَهُنَّ وَأَمضى مِنهُ مُنصَرِعُ

ويصـــف المتـــنبي ما أصاب جنود الروم الناجين من فزع ورعب واضـــطراب نفسي انعكس على لون وجوههم، فهم يشربون الخمر وقد اصـــفرت وجوههم رعباً فلا تستطيع الخمر أن تحيل ألوانهم إلى الحمرة مع إدمانهم عليها:

وَما نَجا مِن شِفارِ البيضِ مُنفَلِتٌ ... نَجـــا وَمِـــنهُنَّ في أَحشائِهِ فَزَعُ

يُباشِـــرُ الأَمنَ دَهراً وَهوَ مُختَبَلٌ ... وَيَشرَبُ الخَمرَ حَولاً وَهوَ مُمتَقَعُ

إنها صورة بالغة الدلالة والإيحاء لما تخلفه الحرب من أثر على الجنود المـــنهزمين حيث يصابون باختبال العقل واضطراب الأعصاب والذهول

وغــير ذلك من أمراض وأعراض يظلون يعانون منها بعد نجاتهم وهو ما يحــدث كذلــك في عصرنا الراهن مما يقتضي علاج الجنود المنهزمين في مصحات نفسية ومعاناتهم من آثار الحرب أوقاتاً طويلة.

ويصــف المتنبي البطارقة وهم قواد الروم وفرسانهم وقد وقع كثير منهم في الأسر وقد كبّلوا بالأغلال من أيديهم وأرجلهم فإن أرادوا المشي أوجعتهم القيود وإذا أرادوا النوم لم يستطيعوا وقد أضحت المنايا تنتظر أمر ســيف الدولــة بقــبض أرواحهم. يقول المتنبي مصوراً ما أصاب هؤلاء البطارقة من مذلة وهم في الأسر:

كَم مِن حُشاشَةِ بِطريقٍ تَضَمَّنَها ... لِلــباتِرات أَمــينٌ مالَــهُ وَرَعُ
يُقــاتِلُ الخَطــوَ عَنهُ حينَ يَطلُبُهُ ... وَيَطرُدُ النَومَ عَنهُ حينَ يَضطَجِعُ
تَغــدو المَــنايا فَلا تَنفَكُّ واقِفَةً ... حَــتّى يَقولَ لَها عودي فَتَندَفِعُ

ويعــالج المتنبي –بذكاء– التحول الذي حدث في المعركة بوقوع أســرى من جيش سيف الدولة في قبضة الدمستق، فيصم هؤلاء الأسرى بالخــيانة والــتخاذل والخسة وأنهم نالوا جزاء خيانتهم، وليس للروم أن يفخــروا بوقوع هؤلاء الأسرى في قبضتهم لأنهم جبناء بل هم كالأموات أو الجثث العفنة التي لا تأكلها سوى الضباع مشيراً بذلك إلى إقدام هؤلاء الأسرى الجبناء على إلقاء أنفسهم بين قتلى الروم خوفاً منهم ليوهموا الروم بأنهم قتلى، يقول:[1]

---

(١) ديوان المتنبي ٣ : ٣٣٨- ٣٣٩.

قُــلْ لِلدُّمُسْتُقِ إِنَّ المُسلِمينَ لَكُم ... خانوا الأَميرَ فَجازاهُم بِما صَنَعوا

وَجَدتُموهُــمْ نِــياماً في دِمائِكُمُ ... كَــأَنَّ قَــتلاكُمُ إِيّــاهُمُ فَجَعوا

ضَعفى تَعِفُّ الأَيادي عَن مِثالِهِمِ ... مِنَ الأَعادي وَإِن هَمّوا بِهِم نَزَعوا

لا تَحسَبوا مَن أَسَرتُم كانَ ذا رَمَقٍ ... فَلَــيسَ يَــأكُلُ إِلّا المَيِّتَ الضَبُعُ

إن المتنبي لم يشأ أن يخاطب الدمستق مباشرة وإنما خاطبه عن طريق وسـيط (قـل للدمستق) لكراهيته له ونفوره منه لا سيما في هذا الموقف الذي أحسَّ فيه الدمستق بالزهو لوقوع بعض أسرى المسلمين في قبضته.

ويصـف المتـنبي —في قصيدة أخرى- هزيمة الدمستق أمام سيف الدولة في معركة (مرعش) وهي حصن من أعمال ملطية وقد جاء إلى هذا (الثغر) يُمنّي نفسه بالنصر، فلما رأى جيش سيف الدولة لاذ بالفرار وترك جـنوده صرعى وغنم المسلمون أمواله، وتلك عاقبة من يقوم على الحرب وفي طبعه الجبن. يقول المتنبي:(1)

سَـراياكَ تَـترى وَالدُمُستُقُ هارِبٌ ... وَأَصـحابُهُ قَتلى وَأَموالُهُ نُهبى

أَرى مَرعَشـاً يَستَقرِبُ البُعدَ مُقبِلاً ... وَأَدبَرَ إِذ أَقبَلتَ يَستَبعِدُ القُربا

كَـذا يَترُكُ الأَعداءَ مَن يَكرَهُ القَنا ... وَيَقفُلُ مَن كانَت غَنيمَتُهُ رُعبا

ويشـير المتنبي إلى استعداد (الدمستق) للحرب وقد أخذ أهبته لها ووقـف بجنوده في ثغر (اللقان) بالأناضول، وقد أشرعوا رماحهم وركبوا خـيولهم المطهمـة القوية، ودارت رحى المعركة واختلطت الرماح كما

---

(1) ديوان المتنبي 1: 188.

يختلط أهداب العين أعاليها بأسفلها عند النوم ولكنه –الدمستق– ولّى الأدبار حين أدرك الهزيمة، وقد أخذ يلمس جنبه ويتحسس جسده غير مصدق أنه ما زال على قيد الحياة وقد أخذ الرعب بتلابيبه وترك وراءه العذارى والبطاريق والرهبان والقرابين والصلبان من هول ما رأى:

وَهَــل رَدَّ عَــنهُ بِاللُقانِ وُقوفُهُ   صُــدورَ العَــوالي وَالمُطَهَّمَــةَ القُبّا
مَضى بَعدَما التَفَّ الرِماحانِ ساعَةً   كَمــا يَتَلَقّى الهُدبُ في الرَقدَةِ الهُدبا
وَلَكِــنَّهُ وَلّــى وَلِلطَعــنِ سَورَةٌ   إِذا ذَكَــرَتها نَفسُــهُ لَمَــسَ الجُنبا
وَخَلّى العَذارى وَالبَطاريقَ وَالقُرى   وَشُــعثَ النَصارى وَالقَرابينَ وَالصُلبا

ويشير المتنبي كذلك إلى قيام سيف الدولة ببناء سور قلعة (مرعش) بعد هزيمة الدمستق وقد ارتفع هذا السور ارتفاعاً عظيماً وكأنه يطاول الكواكب، وعجزت الطيور فزعاً عن التقاط الحبوب من فوقه كما عجزت الرياح الهوج عن النيل من هذا السور العظيم، ويصور خيل سيف الدولة وهي تعدو فوق جبال هذه القلعة وقد غطت الثلوج دروبها، يقول المتنبي:[1] -

فَأَضحَت كَأَنَّ السورَ مِن فَوقِ بَدئِهِ   إِلى الأَرضِ قَد شَقَّ الكَواكِبَ وَالتُربا
تَصُــدُّ الرِياحُ الهوجُ عَنها مَخافَةً   وَتَفــزَعُ مِنها الطَيرُ أَن تَلقُطَ الحَبّا

---

(١) ديوان المتنبي ١: ١٩٢-١٩٣.

وَتَردي الجِيادُ الجُردُ فَوقَ جِبالِها   وَقَد نَدَفَ الصِنَّبرُ في طُرقِها العُطبا[1]

كَفى عَجَباً أَن يَعجَبَ الناسُ أَنَّهُ   بَنى مَرعَشاً تَبّاً لِآرائِهِم تَبّا

ويصف المتنبي معركة أخرى دارت رحاها بين العرب والروم سنة ٣٤٢هـ، وكان سيف الدولة قد رحل من حلب إلى ديار مضر لاضطراب البادية بها، فنزل حران وأخذ رهائن بني عقيل وقشير وبلعجلان، ثم حدث له بها رأي في الغزو، فعبر الفرات إلى دلوك إلى قنطرة صنجة إلى درب القلة، فشن الغارة، فعطف عليه العدو فقتل كثيراً من الأرمن ورجع إلى ملطية، وعبر قباقب حتى ورد المخاض على الفرات، ورحل إلى سميساط، فورد الخبر بأن العدو في بلد المسلمين، فأسرع إلى دلوك وعبرها، فأدركه راجعاً على جيحان، فهزمه وأسر قسطنطين بن الدمستق، وخرج الدمستق على وجهه، واستهل المتنبي قصيدته بقوله:[2]

لَيالِيَّ بَعدَ الظاعِنينَ شُكولُ   طِوالٌ وَلَيلُ العاشِقينَ طَويلُ

يُبِنَّ لِيَ البَدرَ الَّذي لا أُريدُهُ   وَيُخفينَ بَدراً ما إِلَيهِ سَبيلُ

ويحتفي المتنبي برسم المشاهد التي تصور هزيمة الروم فيتخيل الخيل كالسحائب التي تمطر السيوف والأسنة على رؤوس الروم فتغتسل الأرض من دمائهم المسفوكة ويعقب ذلك مشهد السبايا من نساء الروم اللاتي وقعن في الأسر وهن ينتحبن وقد شققن ثياهن تفجعاً على قتلاهن،

---

(١) الصنبر: السحاب البارد، يشبه الثلج بقطن ندفه فيها برد الشتاء وصقيعه . والعطب: القطن.

(٢) ديوان المتنبي ٣ : ٢١٨.

ويصف في مشهد ثالث الخيل وقد قفلت بموضع من بلاد الروم هو حصن (مــوزار) فظــنوا أنها ستتجاوزهم وتعود إلى بلادها مكتفية بما حققته في معــركة (الــدرب) فإذا بها تخوض في دمائهم وتحرق كل موضع وطئته وتترك الروم صرعى والديار أطلالاً :[1]

سَــحائِبُ يُمطِرنَ الحَديدَ عَلَيهِمُ ... فكُــلُّ مَكانٍ بِالسُيوفِ غَسيلُ
وَأَمســى السَــبايا يَنتَحِبنَ بِعَرقَةٍ ... كَــأَنَّ جُيوبَ الثاكِلاتِ ذُيولُ
وَعــادَت فَظَــنّوها بِمَوزارَ قُفَّلاً ... وَلَــيسَ لَها إِلّا الدُخولَ قُفولُ
فَخاضَت نَجيعَ الجَمعِ خَوضاً كَأَنَّهُ ... بِكُــلِّ نَجــيعٍ لَم تَخُضهُ كَفيلُ
تُســايِرُها النيرانُ في كُلِّ مَسلَكٍ ... بِهِ القَومُ صَرعى وَالدِيارُ طُلولُ

ويمضــي المتنبي في وصف إغارات جيش سيف الدولة على ثغور الــروم، فقــد عطفت الخيول على (ملطية) وخاضت في دماء أهلها حتى ثكلــت (ملطــية) أهلها وغذت الخيول العربية السير فعبرت نهر (قباقب) وأضــعفت مياهه بكثرة قوائمها وشدة تزاحمها، وأفزعت نهر (الفرات)، وأغارت على ثغرين آخرين في بلاد الروم هما: (هنريط) و (سمنين) وباتت بحصــن (الــران) وقــد أنهكها التعب ثم واصلت المسير في أودية مجهولة وتجــاوزت (سميســاط) حتى وصلت إلى حصن (مرعش) ليلاً وهي ثغر بالقــرب مــن أنطاكــية وقد علم سيف الدولة أن الروم يعيثون في بلاد

---

(١) ديوان المتنبي ٣: ٢٢٣

المسلمين فساداً ويقتلون أهلها، فتقدَّم الجيش لملاقاتهم ورأوا سيف الدولة في المقدمة فامتلأت قلوبهم رعباً:[1]

وَكَرَّت فَمَرَّت في دِماءِ مَلَطيَةٍ … مَلَطيَةُ أُمٌّ لِلبَنينِ ثَكولُ
وَأَضعَفنَ ما كُلِّفنَهُ مِن قُباقِبٍ … فَأَضحى كَأَنَّ الماءَ فيهِ عَليلُ
وَرُعنَ بِنا قَلبَ الفُراتِ كَأَنَّما … تَخِرُّ عَلَيهِ بِالرِجالِ سُيولُ
يُطارِدُ فيهِ مَوجَهُ كُلُّ سابِحٍ … سَواءٌ عَلَيهِ غَمرَةٌ وَمَسيلُ
تَراهُ كَأَنَّ الماءَ مَرَّ بِجِسمِهِ … وَأَقبَلَ رَأسٌ وَحدَهُ وَتَليلُ
وَفي بَطنِ هِنريطٍ وَسِمنينَ لِلظُبى … وَصُمِّ القَنا مِمَّن أَبَدنَ بَديلُ
طَلَعنَ عَلَيهِم طَلعَةً يَعرِفونَها … لَها غُرَرٌ ما تَنقَضي وَحُجولُ
تَمَلُّ الحُصونُ الشُمُّ طولَ نِزالِنا … فَتُلقي إِلَينا أَهلَها وَتَزولُ
وَبِتنَ بِحِصنِ الرانِ رَزحى مِنَ الوَجى … وَكُلُّ عَزيزٍ لِلأَميرِ ذَليلُ
وَفي كُلِّ نَفسٍ ما خَلاهُ مَلالَةٌ … وَفي كُلِّ سَيفٍ ما خَلاهُ فُلولُ
وَدونَ سُمَيساطَ المَطاميرُ وَالمَلا … وَأَودِيَةٌ مَجهولَةٌ وَهُجولُ
لَبِسنَ الدُجى فيها إِلى أَرضِ مَرعَشٍ … وَلِلرومِ خَطبٌ في البِلادِ جَليلُ
فَلَمّا رَأَوهُ وَحدَهُ قَبلَ جَيشِهِ … دَرَوا أَنَّ كُلَّ العالَمينَ فُضولُ
وَأَنَّ رِماحَ الخَطِّ عَنهُ قَصيرَةٌ … وَأَنَّ حَديدَ الهِندِ عَنهُ كَليلُ
فَأَورَدَهُم صَدرَ الحِصانِ وَسَيفَهُ … فَتىً بَأسُهُ مِثلُ العَطاءِ جَزيلُ

---

(١) ديوان المتنبي ٣ : ٢٢٤-٢٢٧

فَــوَدَّعَ قَــتلاهُم وَشَــيَّعَ فَلَّهُــم بِضَربِ حُزونُ البَيضِ فيهِ سُهولُ

وتطــل في قصيدة المتنبي صورة (قسطنطين) ابن الدمستق وقد وقع في الأسر وكبّلت الأصفاد ساقيه بينما انشغل أبوه عنه بالفرار، فنجا بنفسه وترك ابنه للهلاك، فكيف يثق به أخلائه ويركن إليه أصحابه وجنوده بعد أن خــذله ابنه وتركه للرماح؟ لقد عجز عن إنقاذه ونصرته وألهته الجراح الــتي أصــابت وجهه، وليس له من نصير سوى الصراخ والعويل، يقول المتنبي:[1]

عَــلى قَلبِ قُسطَنطينَ مِنهُ تَعَجُّبٌ وَإِن كــانَ في ســاقَيهِ مِنهُ كُبولُ
لَعَلَّــكَ يَومــاً يــا دُمُستُقُ عائِدٌ فَكَــم هــارِبٍ مِمّــا إِلَيهِ يَئولُ
نَجَوتَ بِإِحدى مُهجَتَيكَ جَريحَةً وَخَلَّفــتَ إِحدى مُهجَتَيكَ تَسيلُ
أَتُســلِمُ لِلخَطِّــيَّةِ ابــنَكَ هارِباً وَيَســكُنَ في الدُنــيا إِلَيكَ خَليلُ
بِوَجهِــكَ مــا أَنساكَهُ مِن مُرِشَّةٍ نَصــيرُكَ مِــنها رَنَّــةٌ وَعَويــلُ

وكان لهذا الحدث أصداؤه الكبرى، فتناوله المتنبي في قصيدة أخرى وصــف فيها مسير جيش سيف الدولة من نهر (جيحان) ببلاد الروم إلى (آمد) وهي بلد من الثغور، واستحضر قصة أسر (قسطنطين) ابن الدمستق حيــث عدَّ الابن يوم أسره مماتاً بينما فرَّ والده وعدَّ يوم نجاته مولداً برغم

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٧-٢٢٨.

هزيمته وترك ابنه وجيوشه أسرى قهراً منه وعجزاً، وكان الابن فداء لأبيه الذي لم تكن الرماح تطلب أحداً سواه:[١]

لِذَلِكَ سَمّى ابنُ الدُمُستُقِ يَومَهُ مَماتاً وَسَمّاهُ الدُمُستُقُ مَولِدا
سَرَيتَ إِلى جَيحانَ مِن أَرضِ آمِدٍ ثَلاثاً لَقَد أَدناكَ رَكضٌ وَأَبعَدا
فَوَلّى وَأَعطاكَ ابنَهُ وَجُيوشَهُ جَميعاً وَلَم يُعطِ الجَميعَ لِيُحمَدا
عَرَضتَ لَهُ دونَ الحَياةِ وَطَرفِهِ وَأَبصَرَ سَيفَ اللَهِ مِنكَ مُجَرَّدا
وَما طَلَبَت زُرقُ الأَسِنَّةِ غَيرَهُ وَلَكِنَّ قُسطَنطينَ كانَ لَهُ الفِدا

ويرسم المتنبي مشهداً نادراً للأب المكلوم (الدمستق) وقد ترهبن ولبس المسوح بعد أن كان يلبس الدروع، وقد انقطع عن الحياة واعتكف في الدير وصار يمشي على العكاز تائباً بعد أن كان لا يرضى مشى الجياد الشقر السريعة "وكان ذلك دأب القادة البيزنطيين حين يخسرون الحروب فيلجأون إلى الديارات للسلوى"[٢]، ولا يفوته أن يسخر من الدمستق فيرى أن توبته وإقلاعه عن الحرب لم تكن إلا بعد أن تركت الحرب آثارها على وجهه، وبعد أن أصاب الرمد جفونه من كثرة غبار المعارك. يقول المتنبي:[٣]

فَأَصبَحَ يَجتابُ المُسوحَ مَخافَةً وَقَد كانَ يَجتابُ الدِلاصَ المُسَرَّدا[٤]

---

(١) ديوانه ٢ : ٥-٦.

(٢) شعر الحرب في أدب العرب: ٢٨٧.

(٣) ديوانه ٢: ٦

(٤) الدلاص : الدروع . المسرد: المنسوج.

وَيَمشي بِهِ العُكّازُ في الدَيرِ تائِباً   وَما كانَ يَرضى مَشيَ أَشقَرَ أَجرَدا
وَما تابَ حَتّى غادَرَ الكَرُّ وَجهَهُ   جَريحاً وَخَلّى جَفنَهُ النَقعُ أَرمَدا

ويصــدر المتنبي عن عداء صريح للروم فيصفهم في قصيدة أخرى بأنهم"الشقيُّون، ويؤمن بأهمية أخذ المبادرة والمبادأة معهم، وغزوهم في عقر دارهم ويرى أن الصراع بينهم وبين العرب لن ينتهي وإذا كانت دماؤهم قــد بــردت فوق "اللقان" فلابد أن ينال العرب منهم ويواصلوا حربهم ويتبعوا ما برد من دمائهم دماً حاراً ساخناً، وفي ذلك يقول المتنبي بعد أن عزم سيف الدولة على لقاء الروم في (السنبوس) سنة ٣٤٠هــ:[١]

وَقَــد عَلِــمَ الرومُ الشَقِيّونَ أَنَّنا   إِذا مــا تَرَكنا أَرضَهُم خَلفَنا عُدنا
وَأَنّا إِذا ما المَوتُ صَرَّحَ في الوَغى   لَبِسنا إِلى حاجاتِنا الضَربَ وَالطَعنا
تَعُدُّ القُرى وَالمُس بِنا الجَيشَ لَمسَةً   نُــبارِ إِلى ما تَشتَهي يَدُكَ اليُمنى
فَقَــد بَرَدَت فَوقَ اللُقانِ دِماؤُهُم   وَنَحــنُ أُناسٌ نُتبِعُ البارِدَ السُخنا

ويصف المتنبي الروم بــ"الطغاة" ويطلق الوصف ذاته على ملكهم وينذر كتائبهم بالهزيمة والموت، فيقول:[٢]

يَشُــقُّ بِــلادَ الرومِ وَالنَقعُ أَبلَقٌ   بِأَســيافِهِ وَالجَوُّ بِالنَقعِ أَدهَمُ
إِلى المَلِكِ الطاغي فَكَم مِن كَتيبَةٍ   تُســايِرُ مِنهُ حَتفَها وَهيَ تَعلَمُ

---

(١) ديوان المتنبي ٤ : ٣٠٠- ٣٠١

(٢) ديوان المتنبي ٤ : ٢١١

ويـــرى المتنبي أن أشقى البلاد هي التي أهلها الروم ويردد مصطلح (الفـــرنجة) ويصـــف هزائمهمَ في يوم (اللقان) و (هنريط) حيث ساقهم أســـرى حـــتى ابيضـــت أرض آمد من كثرة ما امتلأت به من الجواري والغـــلمان الأســـرى وألحق الهزيمة كذلك بأهل (الصفصاف) و"سابور" وأحـــرقهما حتى صارت الصخور رماداً. يقول المتنبي في استحضار رائع للغزوات وأماكنها في بلاد الروم:[1]

وَأَشــقى بِـــلادِ اللَهِ ما الرومُ أَهلُها ... بِهَـــذا وَما فيها لِمَجدِكَ جاحِدُ
شَــنَنتَ بِهـــا الغـــاراتِ حَتّى تَرَكتَها ... وَجَفنُ الَّذي خَلفَ الفَرَنجَةِ ساهِدُ
مُخَضَّــبَةٌ وَالقَـــومُ صَـــرعى كَأَنَّها ... وَإِن لَم يَكونوا ساجِدينَ مَساجِدُ
تُنَكِّسُـــهُم وَالســـابِقاتُ جِـــبالُهُم ... وَتَطعَـــنُ فـــيهِم وَالرِماحُ المَكايِدُ
وَتُضحي الحُصونُ المُشمَخِرّاتُ في الذُرى ... وَخَيـــلُكَ في أَعنـــاقِهِـــنَّ قَـــلائِدُ
عَصَـــفنَ بِهِـــم يَومَ اللُقانِ وَسُقنَهُم ... بِهِـــنريطَ حَتّى ابيَضَّ بِالسَبيِ آمِدُ
وَأَلحَقـــنَ بِالصَفصافِ سابورَ فَانهَوى ... وَذاقَ الـــرَدى أَهلاهُما وَالجَلامِدُ

وكثيراً ما يستحضر المتنبي في المشاهد التي يصور فيها هزائم الروم مشـــهد السبايا من نساء الروم، كأن يشير إلى أن جيش سيف الدولة قد عصـــف بالروم وأتى عليهم حتى لم يبق منهم غير النساء وبنات البطاريق اللاتي وقعن في السبي فلم يملك آباؤهن إلا البكاء عليهن :[2]

---

(١) ديوان المتنبي ٢ : ٣٩٦-٣٩٧

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٣٩٨.

فَلَم يَبقَ إِلّا مَن حَماها مِنَ الظُبا لَمـــى شَفَتَيها وَالثُدِيُّ النَواهِدُ
تُبَكّي عَلَيهِنَّ البَطاريقُ في الدُجى وَهُـــنَّ لَدَيـــنا مُلقَياتٌ كَواسِدُ

ويصـــف –في مشهد آخر– حسان النصارى وقد وقعن في السبي ووقفن في صفوف بخد ودهن الأسيلة المهيأة للطم والإهانة، فيقول:(١)

وَمِـــن عـــاتِقٍ نَصرانَةٍ بَرَزَت لَهُ أَســـيلَةِ خَدٍّ عَن قَريبٍ سَتُلطَمُ
صُفوفاً لِلَيثٍ في لُيوثٍ حُصونُها مُـــتونُ المَذاكي وَالوَشيجُ المُقَوَّمُ

ويطلـــق المتنبي وصف (العلوج) على الرعية من الروم وهم الغلاظ مـــن كفـــار العجـــم وقـــد يردد وصف (النصارى) في إشارة إلى الروم كقوله:(٢)

بِـــأَرضٍ تَهلِـــكُ الأَشواطُ فيها إِذا مُلِئَـــت مِنَ الرَكضِ الفُروجُ
تُحـــاوِلُ نَفسَ مَلكِ الرومِ فيها فَـــتَفديهِ رَعِيَّـــتُهُ العُلـــوجُ
أَبِالغَمَـــراتِ توعِدُنـــا النَصارى وَنَحـــنُ نُجومُهـــا وَهِيَ البُروجُ

ويكـــرر المتـــنبي وصـــف الـــروم بـــ(العلوج)، في موضع آخر، فيقول:(٣)

نَظَرَ العُلوجُ فَلَم يَرَوا مَن حَولَهُم لَمّـــا رَأَوكَ وَقـــيلَ هَذا السَيِّدُ
بَقِيَـــت جُموعُهُمُ كَأَنَّكَ كُلُّها وَبَقيـــتَ بَيـــنَهُمُ كَأَنَّكَ مُفرَدُ

---

(١) ديوان المتنبي ٤: ٢١١

(٢) المصدر نفسه ١ : ٣٦١

(٣) ديوان المتنبي٢: ٥٨.

ويتردد اسم (الدمستق) كثيراً في روميات المتنبي، فيصوره غير راضٍ بحكم السيوف والرماح في الحرب التي حكمت بهزيمته، ويهدده ويتوعده بالهزيمة في (سمندو) وهي قلعة بالروم ، فإذا أحجم عن اللقاء وآثر الهرب، فسيتبعه الجيش في الخليج، إشارة إلى خليج القسطنطينية، وفي ذلك يقول المتنبي:[(١)]

رَضينا وَالدُمُستُقُ غَيرُ راضٍ ... بِما حَكَمَ القَواضِبُ وَالوَشيجُ

فَإِن يُقدِم فَقَد زُرنا سَمَندو ... وَإِن يُحجِم فَمَوعِدُهُ الخَليجُ

ويتغنى المتنبي بهزيمة الروم في معركة (الحدث الحمراء) التي دارت رحاها سنة ٣٤٣ هـ وذلك في قصيدته المشهورة التي يستهلها بقوله:[(٢)]

عَلى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ ... وَتَأتي عَلى قَدرِ الكِرامِ المَكارِمُ

وَتَعظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صِغارُها ... وَتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

وكان سيف الدولة قد سار نحو ثغر الحدث لبنائها، وكان أهلها قد سلموها إلى الدمستق بالأمان سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فنزلها سيف الدولة يوم الأربعاء ثامن عشر جمادي الأخرى سنة ثلاث وأربعين، وبدأ من يومه فوضع الأساس وحفر أوله بيده، فلما كان يوم الجمعة نازله الدمستق في نحو خمسين ألف فارس وراجل، ووقع القتال يوم الاثنين سلخ جمادى الأخرى من أول النهار إلى العصر، فحمل عليه سيف الدولة بنفسه

---

(١) ديوان المتنبي ٢: ٣٦٢

(٢) المصدر نفسه ٤ :٩٤

في نحـــو خمسمائة من غلمانه، فظفر به وقتل ثلاثة آلاف من رجاله وأسر خلقاً كثيراً، فقتل بعضهم وأقام حتى بني الحدث، ووضع بيده آخر شرفة منها في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب، فقال هذه القصيدة يمدحه، وأنشده إياها في ذلك اليوم في الحدث.[١]

ويصف المتنبي قلعة (الحدث) التي بناها سيف الدولة في بلاد الروم بـــــ(الحمراء) لأنها احمرَّت بدمائهم، ويتساءل فيما يشبه تجاهل العارف: هـــل تعرف هذه القلعة لونها؟ وهل تعلم أي الساقيين لها: أجماجم الروم الـــتي سقتها بالدم، أم السحائب التي سقتها بالماء؟ ويجيب بأن السحائب البيض هطلت عليها قبل نزول سيف الدولة بها فسقتها بالماء وهو ما يعني أن المعـــركة جرت في فصل الشتاء، فلما اقترب منها سيف الدولة سقتها جماجم الروم بالدماء:

هَـــلِ الحَدَثُ الحَمراءُ تَعرِفُ لَونَها ... وَتَعلَـــمُ أَيُّ الســـاقِيَينِ الغَمائِمُ
سَـــقَتها الغَمـــامُ الغُرُّ قَبلَ نُزولِهِ ... فَلَمّـــا دَنا مِنها سَقَتها الجَماجِمُ

ويشير المتنبي إلى أن بناء القلعة تواصل أثناء المعركة حيث كانت رمـــاح المسلمين تشتجر مع رماح الروم والمنايا كالبحر المتلاطم الأمواج، وكانت القلعة موطناً للقلاقل والفتن والاضطرابات من قبل الروم وكأن بها مسّـــاً مـــن الجنون، فجعل سيف الدولة جثث الروم المعلقة فوق حيطانها :

(١) ديوان المتنبي ٤: ٩٤

كالتمائم التي أذهبت ما كان بها من جنون، وهي صورة نابضة بظلالها الشعبية الموروثة. يقول:

بَناها فَأَعلى وَالقَنا تَقرَعُ القَنا ... وَمَوجُ المَنايا حَولَها مُتَلاطِمُ
وَكانَ بِها مِثلُ الجُنونِ فَأَصبَحَت ... وَمِن جُثَثِ القَتلى عَلَيها تَمائِمُ

ويشير المتنبي كذلك إلى اشتراك الروس مع الروم في تلك المعركة فيقول:

وَكَيفَ تُرَجّي الرومُ وَالروسُ هَدمَها ... وَذا الطَعنُ آساسٌ لَها وَدَعائِمُ

ويصف المتنبي جيش الروم الجرار الذي ضمَّ أجناساً مختلفة من أوربا وقد أقبلوا مدججين في السلاح وقد وضعت على خيولهم الجواشن التي تغطي قوائمها وكأنها تسير بلا قوائم، ويحتفي بوصف كثرة سلاح هذا الجيش الذي يحدده (بلاشير) في هذه المعركة بخمسمائة ألف من الجنود المنظمين[1]، ويقول المتنبي إن هذا الجيش لكثرته طبق الأرض وبلغت أصوات جنوده السماء، وبدت هذه الأصوات الشديدة المتداخلة كصوت الرعد، وقد تجمع في هذا الجيش جنسيات عديدة مختلفة اللغات لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم إلا من خلال المترجمين:

أَتَوكَ يَجُرّونَ الحَديدَ كَأَنَّهُم ... سَرَوا بِجِيادٍ ما لَهُنَّ قَوائِمُ
إِذا بَرَقوا لَم تُعرَفِ البيضُ مِنهُمُ ... ثِيابُهُمُ مِن مِثلِها وَالعَمائِمُ
خَميسٌ بِشَرقِ الأَرضِ وَالغَربِ زَحفُهُ ... وَفي أُذُنِ الجَوزاءِ مِنهُ زَمازِمُ

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب: ٢٩١ (هامش٢)

تَجَمَّعَ فيهِ كُلُّ لِسنٍ وَأُمَّةٍ فَما تُفهِمُ الحُدّاثَ إِلّا التَراجِمُ

ويصف المتنبي اشتداد المعركة وضراوتها فقد تكسر من السيوف ما لم يكن قاطعاً وفرَّ من الفرسان من لا يقدر على المصادمة والمواجهة وذوّبت النيران كلَّ رديء ومغشوش من السلاح، و لم يبق إلا كل من كان شجاعاً من المحاربين وأصيلاً من السلاح، يقول:

فَلِلَّهِ وَقتٌ ذَوَّبَ الغِشَّ نارُهُ فَلَم يَبقَ إِلّا صارِمٌ أَو ضُبارِمُ

تَقَطَّعَ مالا يَقطَعُ الدِرعَ وَالقَنا وَفَرَّ مِنَ الأَبطالِ مَن لا يُصادِمُ

ويشير المتنبي إلى خطة سيف الدولة الحربية حيث نجح في ضمَّ جناحي جيش الروم: الميمنة والميسرة على القلب فأهلك الجميع وحمل بالسيوف على هاماتهم فانفلتت وصارت إلى لَبّاتهم وتحقق النصر، يقول:

ضَمَمتَ جَناحَيهِم عَلى القَلبِ ضَمَّةً تَموتُ الخَوافي تَحتَها وَالقَوادِمُ

بِضَربٍ أَتى الهاماتِ وَالنَصرُ غائِبٌ وَصارَ إِلى اللَبّاتِ وَالنَصرُ قادِمُ

ويحتفي المتنبي بوصف تفاصيل المعركة حيث تشير الروايات إلى أنه كان يشارك مع سيف الدولة فيها وكان يحارب إلى جانبه(١)، فيشير إلى أن سيف الدولة نثر جثث قتلى الروم فوق جبل الأحيدب وقد أعجب هذا المشهد المتنبي فشبهه بالدراهم المنثورة على العروس، ويشير كذلك إلى أن سيف الدولة تتبع فلول الروم الفارين بخيله في رءوس الجبال وقد كثرت الجثث وصارت طعاماً للطير، يقول:

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب: ٢٩٢

نَـثَرتَهُمُ فَـوقَ الأُحَيدِبِ كُلِّهِ   كَما نُثِرَت فَوقَ العَروسِ الدَراهِمُ
تَدوسُ بِكَ الخَيلُ الوُكورَ عَلى الذُرى   وَقَـد كَثُرَت حَولَ الوُكورِ المَطاعِمُ

ويرسم المتنبي صورة تهكمية للدمستق الذي لم يع الدرس في معركة (الحـدث) و لم يتعظ من خسائره الفادحة، حيث تشير الرواية الرومية إلى أنه خسر في تلك المعركة ثلاثة آلاف قتيل[1]، وأسر سيف الدولة جمعاً من الـبطارقة والأراكـنة Archontes فقتلوا في أيدي العرب، وقتل من هذه الوقعة (ابن بنت برداس فوكاس قائد الروم وصهره كوديس الأعور وأسر قائد بلدى ليكاندوس وتزامندوس وسجن، وهما بلدان بيزنطيان خطيران). أما نيسيفور فوكاس —وكان يومئذ أحد القواد في جيش أبيه فلم ينج إلا باختـفائه في نفق حتى إذا سطا الليل فرَّ تحت ظلامه ولحق بفلول جيشه المتقطع في الدرب، المحثحث خطاه نحو القسطنطينية".[2]

ويصف المتنبي هذه الوقائع من خلال هذا المشهد التهكمي للدمستق مازجاً التاريخ بالفن مزجاً جميلاً، فيتعجب من حماقة الدمستق الذي أصرَّ —بـرغم هـزائمه المتكررة- على ملاقاة سيف الدولة ولا يلبث أن يولى الأدبـار وقـد أخذ قفاه يلوم وجهه على إصراره على الإقدام وتعريضه للمهانة والمذلة.

ويـرى المتنبي أن الدمستق أجهل من البهائم، لأنها إذا شمَّت ريح الأسد وقفت و لم تتقدم، وهو يرى سيف الدولة الذي يشبه الأسد ويأتيه

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب: ٢٨٩

(٢) نفس المرجع : ٢٨٩

مقاتلاً ثم ينهزم دون أن يرتدع بفجيعته بابنه وابن صهره. ويمعن المتنبي في الإزراء بالدمستق فيصوره وقد أسرع في الفرار وهو يشكر أصحابه وأهله من الأسرى والقتلى لأن السيوف اشتغلت بهم عنه، فكأنهم كانوا فداء له، ويصـــوره مرة أخرى وقد استبدَّ به الرعب إذا سمع صوت وقع السيوف وهي تقطع هامات أصحابه وأنه قد فرح بما غنمه جيش سيف الدولة من أصحابه وأمواله وأمتعته وأسلحته لأنها افتدته وكانت سبباً في نجاته. يقول المتنبي:[1]

أَفي كُـلِّ يَـومٍ ذا الدُّمُسـتُقُ مُقـدِمٌ   قَفـاهُ عَـلى الإِقدامِ لِلوَجهِ لائِمُ
أَيُـنكِرُ ريـحَ اللَيـثَ حَـتّى يَذوقَهُ   وَقَـد عَرَفَت ريحَ اللُيوثِ البَهائِمُ
وَقَـد فَجَعَـتهُ بِابـنِهِ وَابـنِ صِهرِهِ   وَبِالصِهرِ حَملاتُ الأَميرِ الغَواشِمُ
مَضى يَشكُرُ الأَصحابَ في فَوتِهِ الظُبى   بِمـا شَـغَلَتها هامُهُم وَالمَعاصِمُ
وَيَفهَـمُ صَـوتَ المَشـرَفِيَّةِ فـيهِمِ   عَلى أَنَّ أَصواتَ السُيوفِ أَعاجِمُ
يُسَـرُّ بِمـا أَعطـاكَ لا عَـن جَهالَةٍ   وَلَكِـنَّ مَغـنوماً نَجا مِنكَ غانِمُ

ويعبر المتنبي عن رأيه في الصراع بين العرب والروم، فيتجاوز الرؤية الفردية ولا يراها حرباً بين ملك الروم ونظيره العربي، بل يراها حرباً بين التوحيد والشرك، وفي ذلك يقول مخاطباً سيف الدولة:[2]

وَلَسـتَ مَلـيكاً هازِماً لِنَظيرِهِ   وَلَكِـنَّكَ التَوحيدُ لِلشِركِ هازِمُ

---

(١) ديوان المتنبي ٤: ١٠٦

(٢) ديوان المتنبي ٤: ١٠٧.

وبالرغم من الهزيمة النكراء التي منى بها الروم في معركة الحدث الحمراء، فإنهم لم يصرفوا أنظارهم عنها وظلوا يحلمون باستردادها من أيدي العرب لأهميتها الاستراتيجية "لأنها باب الطريق إلى القسطنطينية[1]، فعادوا للإغارة عليها سنة ٣٤٤هـ وبلغ سيف الدولة أن جيوش الروم قد نزلوا على حصن الحدث ونصبوا عليه مكايد ولكن سيف الدولة ردَّهم على أعقابهم، ونظم المتنبي قصيدة في ذلك اعترف فيها بقوة الروم وكثرة عددهم ولكن جيش سيف الدولة كان أكثر قوة ومنعة، ويشير إلى ما كان من إقدام الروم على حصار القلعة وكيف أفسد سيف الدولة خططهم، فكلما باغتوها وهمّوا بالاستيلاء عليها سبقهم جيش سيف الدولة وصرفهم عنها، يقول:[2]

حالُ أَعدائِنا عَظيمٌ وَسَيفُ الـ ... دَولَةِ ابنُ السُيوفِ أَعظَمُ حالا

كُلَّما أَعجَلوا النَذيرَ مَسيراً ... أَعجَلَتهُ جِيادُهُ الإِعجالا

فَأَتَتهُم خَوارِقَ الأَرضِ ما تَحـ ... ـمِلُ إِلّا الحَديدَ وَالأَبطالا

ويحتفي المتنبي بسرد الوقائع التاريخية، فيشير إلى أن حملة الروم على قلعة الحدث كانت بقيادة ابن ليون ملك الروم، ويشير إلى أنه حشد جمعاً كبيراً من الروم والصقالب والبلغار وكان هدفهم تخريب القلعة وهدم

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب: ٢٩٣.

(٢) ديوان المتنبي ٣ : ٢٥٤.

ســـورها وكان ذلك حافزاً لسيف الدولة على تقوية السور والارتفاع به، يقول:[1]

لا أَلُــومُ ابــنَ لاوُنٍ مَلِكَ الرو م وَإن كــانَ مــا تَمَنّى مُحالا
أَقلَقَــتهُ بَنِــيَّةٌ بَــينَ أُذنَــيـ ــــهِ وَبــانٍ بَغى السَماءَ فَنالا
كُلَّمــا رامَ حَطَّها اتَّسَعَ البَنْــ ـــيُ فَغَطّــى جَبينَهُ وَالقَذالا
يَجمَعُ الرومَ وَالصَقالِبَ وَالبُلــ غَــرَ فــيها وَتَجمَــعُ الآجالا
قَصَــدوا هَــدمَ سورِها فَبَنوهُ وَأَتَــوا كَــي يُقَصِّــروهُ فَطالا
وَاستَجَرّوا مَكايِدَ الحَربِ حَتّى تَــرَكوها لَهــا عَلَــيهِم وَبالا

ويلتفـــت المتنبي إلى أهمية الحرب النفسية في هزيمة الروم، فقد نزلوا في الأمـــاكن التي قُتل فيها أصحابهم وأهلهم في المعركة السابقة فبكوهم وندبوا أعمامهم وأخوالهم وتوقعوا أن يلقوا مصيرهم، ويورد المتنبي صوراً مرعـــبة في سياق الحرب النفسية، فيصف ذعرهم وهم يرون الرياح تحمل إلـــيهم جـــذاذات من شعر هامات أقاربهم القتلى وتنثر عليهم ما بقي من أشلائهم وكأنها تنذرهم بأن يصيروا مثلها، وسيطرت عليهم تلك الخيالات المفـــزعة، فتخـــيلوا الرماح تطعنهم متتابعة قبل أن يحدث ذلك في الحقيقة واســـتبد بهـــم الخوف ففروا هاربين من الحرب. يقول المتنبي واصفاً هذه المشاهد المرعبة:[2]

---

(١) ديوان المتنبي ٣: ٢٥٧.

(٢) نفس المصدر ٣ : ٢٦٠-٢٦١

نَــزَلوا في مَصــارِعٍ عَــرَفوها يَــندُبونَ الأَعمــامَ وَالأَخــوالا

تَحمِــلُ الــريحُ بَينَهُم شَعَرَ الها مِ وَتَــذري عَلَــيهِمِ الأَوصــالا

تُــنذِرُ الجِســمَ أَن يُقــيمَ لَدَيها وَتُــريهِ لِكُــلِّ عُضــوٍ مِــثالا

أَبصَروا الطَعنَ في القُلوبِ دِراكاً قَــبلَ أَن يُبصِــروا الــرِماحَ خَيالا

وَإِذا حاوَلَــت طِعــانَكَ خَــيلٌ أَبصَــرَت أَذرُعَ القَــنا أَمــيالا

بَسَــطَ الرُعــبَ في اليَمينِ يَميناً فَــتَوَلّوا وَفي الشِــمالِ شِــمالا

يَــنفُضُ الرَوعُ أَيدِياً لَيسَ تَدري أَسُــيوفاً حَمَلْــنَ أَم أَغــلالا

وتــؤدي الحكمــة دورها في تصوير ما يتصف به الروم من جبن متجاوزاً الخاص إلى العام:(١)

وَإِذا مــا خَــلا الجَبانُ بِأَرضٍ طَلَــبَ الطَعــنَ وَحدَهُ وَالنِزالا

ويردد المتنبي هذه الصورة المرعبة لقتلى الروم في قصيدة أخرى فقد كثرت أعداد هؤلاء القتلى وتناثرت هاماتهم وأشلاؤهم حتى أطارت الريح شــعورهم عــلى أشجار الجبال فاسودَّت بها حتى كأن الغربان غطّتها، وتخضــبت أوراق الشــجر بدمائهم فصُبغت باللون الأحمر، وصارت –لحمرتها– أشبه بثمار النارنج في الأغصان، يقول:(٢)

قَــد سَوَّدَت شَجَرَ الجِبالِ شُعورُهُم فَكَــأَنَّ فــيهِ مُسِــفَّةَ الغِــربانِ

وَجَــرى عَلى الوَرَقِ النَجيعُ القاني فَكَأَنَّــهُ الــنارَنجُ في الأَغصــانِ

---

(١) ديوان المتنبي ٣: ٢٦٢

(٢) المصدر نفسه ٤: ٣١٦.

والبيـــتان من قصيدة أنشدها المتنبي عند منصرف سيف الدولة من بـــلاد الروم سنة ٣٤٥هـــ وأنشده إياها بآمد، وأشاد في مطلعها بحكمة سـيف الدولة ورجاحة عقله وتقديم الرأي وصوت العقل على الشجاعة، وفيها يقول:[١]

الـــرَأيُ قَبلَ شَجاعَةِ الشُجعانِ ... هُـــوَ أَوَّلٌ وَهِـــيَ المَحَـــلُّ الثاني

فَـــإِذا هُمـــا اجتَمَعا لِنَفسٍ مِرَّةٍ ... بَلَغَـــت مِـــنَ العَلياءِ كُلَّ مَكانِ

ويصف المتنبي مسيرة الجيش لملاقاة الروم حيث انطلقت الخيول من (منـبج) بالشام وأسرعت كأن أرجلها بمنبج وأيديها بحصن الران في بلاد الـــروم وقد عبرت نهر (أرسناس) في أرض الروم وهو شديد البرودة يجعل الفحـــل كالخصـــي لشدة برده، وقد أخذت الرياح الباردة تجلد الخيول كالســـكاكين وقد صار الجيش فريقين: أحدهما عبر النهر والآخر لم يعبره ولكـــل فـــريق عجاج أو غبار يتطاير واستطاع سيف الدولة أن يعبر هذا الـــنهر بمـــياهه الفضـــية وأخذ يقاتل الروم حتى سالت دماؤهم في النهر فصـــارت مـــياهه حمراء، وكثر السبي والغنم حتى فُتلت حبال السفن من ذوائب سبايا الروم وبُنيت السفن من خشب الصلبان. يقول المتنبي:[٢]

في جَحفَـــلٍ سَتَرَ العُيونَ غُبارُهُ ... فَكَأَنَّمـــا يُبصِـــرنَ بِـــالآذانِ

يَـــرمي بِهـــا البَلَدَ البَعيدَ مُظَفَّرٌ ... كُـــلُّ البَعـــيدِ لَـــهُ قَريبٌ دانِ

---

(١) ديوان المتنبي ٤: ٣٠٧.

(٢) نفس المصدر ٤: ٣١٠-٣١١

فكأنّ أرجلَها بتُربةِ مَنبجٍ	يَطرَحنَ أيديَها بحِصنِ الرانِ
حتّى عَبَرنَ بأرسَناسَ سَوابحاً	يَنشُرنَ فيهِ عَمائمَ الفُرسانِ
يَقمُصنَ في مِثلِ المُدى مِن باردٍ	يَذَرُ الفُحولَ وَهُنَّ كَالخِصيانِ
وَالماءُ بَينَ عَجاجَتَينِ مُخَلِّصٌ	تَتَفَرَّقانِ بِهِ وَتَلتَقِيانِ
رَكَضَ الأَميرُ وَكَاللُجَينِ حَبابُهُ	وَثَنى الأَعِنَّةَ وَهوَ كَالعِقيانِ
فَتَلَ الحِبالَ مِنَ الغَدائِرِ فَوقَهُ	وَبَنى السَفينَ لَهُ مِنَ الصُلبانِ
وَحَشاهُ عادِيَةً بِغَيرِ قَوائِمٍ	عُقمَ البُطونِ حَوالِكَ الأَلوانِ

لقد تغنى المتنبي في هذه القصيدة بانتصار سيف الدولة على الروم في معركة (الدرب) "وهي آخر معركة وصفها المتنبي لسيف الدولة مع الروم"[1]، وقد نظم في تلك المناسبة قصيدة أخرى هي آخر ما أنشده بحلب سنة ٣٤٥ أشار في مطلعها إلى قصة المعركة فذكر أنه تردد بحضرة سيف الدولة أن البطريق –وكان لقباً لأعظم قواد الروم– أقسم عند ملكه أنه يعارض سيف الدولة في (الدرب) وسأله أن ينجده ببطارقته وعدده، ففعل وجهزه بجيش عظيم فأسرع سيف الدولة إلى لقائه وهزمه شر هزيمة، وأشار(بلاشير) إلى تفاصيل تلك المعركة، "فروى أن سيف الدولة ترك حلب لهذه الغزوة في ١٤ المحرم سنة ٣٤٥ الموافقة ٢٨ نيسان سنة ٩٥٦ ، فمر على الرقة ثم على حران وأران وأركنين وبلغ هنريط. وفي المحرم الموافق ١١ مايس بلغ حصن زياد (وهو اليوم خربوط) على الشاطئ

---

(١) شعر الحرب في أدب العرب: ٢٩٣

الأيسـر من الفرات الشرقي في الشمال الشرقي من هنريط Anzitene. ثم أرسـل مـن يتعرف له أحوال الروم على نهر أرسناس، ثم عبر النهر إلى جـيوش البيزنطـيين وهم بقيادة (يوحنا تزيميسيس) في تل البطريق. وتل البطريق على الشاطئ الأيمن من الفرات الغربي، فهزم الروم وسحقهم وعاد فعـبر الـنهر بعد أن أحرق أرباض الروم ثم حمل على الروم حملة لاحقة فأهلكهم وأسر منهم سبعة آلاف أسير وقتل منهم مقتلة. وفي عشية اليوم الـثاني دخـل سيف الدولة آمد وفيها أنشده شاعره المتنبي هذه القصيدة الميمية المستوحاة من المعركة"[1]

ويشير المتنبي في مطلع قصيدته إلى تلك الحادثة التاريخية ويتهكم من قسم البطريق (شميشيق) فيقول:[2]

عُقبى اليَمينِ عَلى عُقبى الوَغى نَدَمُ	مـاذا يَـزيدُكَ في إِقدامِكَ القَسَمُ
وَفي الـيَمينِ عَـلى ما أَنتَ واعِدُهُ	مـا دَلَّ أَنَّـكَ في المـيعادِ مُتَّهَمُ
آلى الفَـتى ابِـنُ شُمُشقيقٍ فَأَحنَثَهُ	فَتىً مِنَ الضَربِ تُنسى عِندَهُ الكَلِمُ
وَفـاعِلٌ ما اشِتَهى يُغنيه عَن حَلِفٍ	عَلى الفِعالِ حُضورُ الفِعلِ وَالكَرَمُ
أَينَ البَطاريقُ وَالحَلفُ الَّذي حَلَفوا	بِمَفرَقِ المَلكِ وَالزَعمُ الَّذي زَعَموا
وَلّـى صَـوارِمَهُ إِكـذابَ قَولِهِمِ	فَهُـنَّ أَلسِـنَةٌ أَفواهُهـا القِمَمُ

(١) المتنبي، بلاشير ص ١٨٠-١٨١ نقلاً عن المرجع السابق ص ٢٩٧ هامش٢

(٢) ديوان المتنبي ٤: ١٢٩-١٣١

ويتتبع المتنبي مسيرة جيش سيف الدولة قاصداً بلاد الروم حيث غزا (تل بطريق) و(سروج) و(حصن الران) و(سمنين) و(هنريط) و(أرسناس):[1]

كَتَلٍّ بِطَريقِ المَغرورِ ساكِنُها ... بِأَنَّ دارَكَ قِنَّسرينُ وَالأَجَمُ
فَلَم تُتِمَّ سَروجٌ فَتحَ ناظِرِها ... إِلّا وَجَيشُكَ في جَفنَيهِ مُزدَحِمُ
وَالنَقعُ يَأخُذُ حَرّاناً وَبَقعَتَها ... وَالشَمسُ تَسفِرُ أَحياناً وَتَلتَثِمُ
سُحبٌ تَمُرُّ بِحِصنِ الرانِ مُمسِكَةٌ ... وَما بِها البُخلُ لَولا أَنَّها نِقَمُ
جَيشٌ كَأَنَّكَ في أَرضٍ تُطاوِلُهُ ... فَالأَرضُ لا أَمَمٌ وَالجَيشُ لا أَمَمُ
وَشُزَّبٌ أَحمَتِ الشِعرى شَكائِمَها ... وَوَسَّمَتها عَلى آنافِها الحَكَمُ
حَتّى وَرَدنَ بِسِمنينٍ بُحَيرَتَها ... تَنِشُّ بِالماءِ في أَشداقِها اللُجُمُ
وَأَصبَحَت بِقُرى هِنريطَ جائِلَةً ... تَرعى الظُبى في خَصيبٍ نَبتُهُ اللِمَمُ
وَجاوَزوا أَرسَناساً مُعصِمينَ بِهِ ... وَكَيفَ يَعصِمُهُم ما لَيسَ يَنعَصِمُ

ويشير المتنبي إلى عبور الجيش بقيادة سيف الدولة نهر (أرسناس) وهو يشق مياهه الباردة بصدور الخيل قاصداً (تل بطريق) الرومية فأعمل القتل في سكانها وأحرق مساكنها:[2]

وَما يَصُدُّكَ عَن بَحرٍ لَهُم سَعَةٌ ... وَما يَرُدُّكَ عَن طَودٍ لَهُم شَمَمُ
ضَرَبتَهُ بِصُدورِ الخَيلِ حامِلَةً ... قَوماً إِذا تَلِفوا قُدماً فَقَد سَلِموا

---

(١) ديوان المتنبي ٤: ١٣١-١٣٥.

(٢) نفس المصدر ٤: ١٣٧.

تَجفَّــلُ المَوجُ عَن لَبّاتِ خَيلِهِمِ كَمــا تَجَفَّلُ تَحتَ الغارَةِ النَعَمُ
عَــبَرتَ تَقدُمُهُــم فيهِ وَفي بَلَدٍ سُــكّانُهُ رِمَــمٌ مَسكونُها حُمَمُ

ويرســم المتنبي صورة هزلية لقائد الروم (ابن شمشيق) وقد أخذت يمينــه الــتي حلف بها تبتسم سخرية وقد لاذ بدروعه مختفياً من مطاردة الفرسان وراء الشجر، ولو ظهر لهم لكان طعاماً شهياً لكواسر الطير:(١)

وَأَســلَمَ ابــنُ شُمُشــقيقٍ أَلِيَّــتَهُ أَلّــا انثَنى فَهوَ يَنأى وَهيَ تَبتَسِمُ
لا يَــأمُلُ النَفسَ الأَقصى لِمُهجَتِه فَيَســرِقُ الــنَفَسَ الأَدنى وَيَغتَنِمُ
تَــرُدُّ عَــنهُ قَــنا الفُرسانِ سابغَةٌ صَــوبُ الأَســنَّةِ في أَثنائِها دِيَمُ
تَخُــطُّ فــيها العَوالي لَيسَ تَنفُذُها كَــأَنَّ كُــلَّ سِــنانٍ فَوقَها قَلَمُ
فَلا سَقى الغَيثُ ما واراهُ مِن شَجَرٍ لَو زَلَّ عَنهُ لَوارَت شَخصَهُ الرَخَمُ

وهكــذا وظف المتنبي فنه للتشفي من قائد الروم المنهزم والسخرية مــن أفعالــه وتصوير جبنه وفراره للنجاة بنفسه بعد أن لقي جيشه هزيمة نكراء.

سفراء الروم:

رســم المتنبي في شعره صوراً للسفراء والرسل الذين أوفدهم ملوك الروم إلى البلاط الحمداني يطلبون الهدنة وافتداء أسراهم، وقد رآها المتنبي مناســبة للتشفي والزهو، فصوَّر وفد الروم الذي وفد على سيف الدولة عقــب معــركة خرشنة ووصفهم وهم يسيرون فوق أشلاء جنود الروم

---

(١) ديوان المتنبي ٤: ١٤٠.

القتـــلى ويدوسون فوق هاماتهم وقد أرسلهم ملك الروم بدافع الاجتداء والتملق، فقال:

رَأى مَلِكُ الرومِ ارتِياحَكَ لِلنَدى   فَقــامَ مَقــامَ المُجتَدي المُتَمَلِّقِ
وَكاتَــبَ مِن أَرضٍ بَعيدٍ مَرامُها   قَريبٍ عَلى خَيلٍ حَوالَيكَ سُبَّقِ
وَقَد سارَ في مَسراكَ مِنها رَسولُهُ   فَمــا ســارَ إِلّا فَوقَ هامٍ مُفَلَّقِ

ويصـــف المتـــنبي استقبال سيف الدولة لسفير الروم وهو يخطو في (السماط) وقد استبدَّ به الخوف فيقول:

وَأَقبَلَ يَمشي في السماطِ فَما دَرى   إِلى البَحرِ يَمشي أَم إِلى البَر يَرتَقي

وفي قصـــيدة أخـــرى يصف المتنبي قدوم سفارة أخرى إلى سيف الدولة أرسلها ملك الروم قسطنطين السابع سنة ٣٤٣هـــ برئاسة رسوله (رودس) وقيل : إنه الحاكم (بول Lemagester Paul)[١]. وكان هدف هذه السفارة فك أسر ابن ملك الروم، ويشير المتنبي في مستهل قصيدته إلى الرســـائل الـــتي أرسلها ملك الروم إلى سيف الدولة وما تضمنته من ثناء ويشـــبهها بالدروع التي يتخذها ملك الروم لحماية نفسه عن قتال سيف الدولة له، ويراها دليلاً على الخضوع والاستسلام، يقول:[٢]

دُروعٌ لِمَلكِ الرومِ هَذي الرَسائِلُ   يَــرُدُّ بِهــا عَن نَفسِهِ وَيُشاغِلُ
هِــيَ الزَرَدُ الضافي عَلَيهِ وَلَفظُها   عَلَــيكَ ثَــناءٌ ســابِغٌ وَفَضائِلُ

---

(١) المتنبي لبلاشير ص ١٧٤ نقلاً عن شعر الحرب في أدب العرب: ٢٨٧.

(٢) ديوان المتنبي ٣: ٢٣٢-٢٣٥.

ويصدر المتنبي في قصيدته عن إحساس بالزهو والتشفي، والسخرية من رسل الروم، فيتساءل متعجباً ساخراً: كيف اهتدوا إلى الطريق وغبار المعـــركة لم يســـكن، ومن أي منهل يسقون خيولهم وقد امتلأت الأنهار بدماء قتلى الروم ولم تصفُ منها بعدُ:

وَأَنّى اِهتَدى هَذا الرَسولُ بِأَرضِهِ وَما سَكَنَت مُذ سِرتَ فيها القَساطِلُ
وَمِن أَيِّ ماءٍ كانَ يَسقي جِيادَهُ وَلَـــم تَصفُ مِن مَزجِ الدِماءِ المَناهِلُ

ويصور المتنبي سفير ملك الروم وقد تملكه الرعب حتى تخيل السيف واقعـــاً علـــيه وقد انفصل رأسه عن عنقه وارتعدت مفاصله من الخوف والذعر ويصفه وهو يسير بين صفين من الجند بين يدي سيف الدولة وقد تملكته الهيبة فأخذ ينظر بإحدى عينيه إلى سيف الدولة وبالأخرى إلى سيفه فانشطرت نفسه بين التأميل والخوف أو الحياة والموت:

أَتـــاكَ يَكـــادُ الرَأسُ يَجحَدُ عُنقَهُ وَتَنقَدُّ تَحتَ الذُعرِ مِنهُ المَفاصِلُ
يُقَـــوِّمُ تَقـــويمُ السَـــماطَينِ مَشيَهُ إِلَـــيكَ إِذا مـــا عَوَّجَتهُ الأَفاكِلُ
فَقاسَـــمَكَ العَيـــنَينِ مِنهُ وَلَحظَهُ سَـــمِيُّكَ وَالخِلُّ الَّذي لا يُزايِلُ
وَأَبصَرَ مِنكَ الرِزقَ وَالرِزقُ مُطمِعٌ وَأَبصَرَ مِنهُ المَوتَ وَالمَوتُ هائِلُ

ويحتفي المتنبي بوصف مراسم استقبال سفير ملك الروم في لقطات تســـجيلية وثائقية نادرة، فيشير إلى أن السفير أو الرسول قبَّل الأرض بين يـــدي سيف الدولة ثم قبَّل كُمَّه وسط فرسان سيف الدولة الذين يقفون متصـــاغرين هيبة له، فنال الرسول بذلك شرفاً عظيماً لم يحظ بمثله الملوك،

ولكـــنه لم يـــبلغ هذا الشرف لمنزلته بل تعطفاً من سيف الدولة واستجابة لطلب الرسول:

وَقَــبَّلَ كُمَّــاً قَبَّلَ التُربَ قَبلَهُ   وَكُــلُّ كَمِــيٍّ واقِــفٌ مُتَضائِلُ
وَأَســعَدُ مُشتاقٍ وَأَظفَرُ طالِبٍ   هُمــامٌ إِلى تَقبــيلِ كُمِّكَ واصِلُ
مَكــانٌ تَمَــنّاهُ الشِفاهُ وَدونَهُ   صُــدورُ المَذاكي وَالرِماحُ الذَوابِلُ
فَمــا بَلَّغَــتهُ مــا أَرادَ كَرامَةٌ   عَلَــيكَ وَلَكِن لَم يَخِب لَكَ سائِلُ

ويمضـــي المتنبي في وصف مشهد الاستقبال، فيشير إلى إكبار الروم لهـــذا الرسول الذي سعى ليحميهم من الحرب، ويصف لهفة جيش الروم وقواده لمعرفة نتائج هذه السفارة وأملهم في استجابة سيف الدولة لرغبتهم في الهدنـــة والفـــداء، ويشير إلى تحول موقف الرسول حيث أقبل حاملاً رســـائلهم، ناطقاً بما يتردد على ألسنتهم، فلما عاد إليهم عذلهم ولامهم على محاربتهم سيف الدولة وعدم خضوعهم له:

وَأَكــبَرَ مِــنهُ هِمَّـــةً بَعَثَت بِهِ   إِلَيكَ العِدى وَاستَنظَرَتهُ الجَحافِلُ
فَأَقــبَلَ مِن أَصحابِهِ وَهوَ مُرسَلٌ   وَعــادَ إِلى أَصــحابِهِ وَهوَ عاذِلُ

ويصـــف المتنبي ردود أفعال سفراء الروم ورسلهم بعد لقاء سيف الدولـــة، فهـــم يشـــعرون بالتصاغر والتضاؤل وتهون نفوسهم لما عاينوه وشـــاهدوه مـــن المهابة والفخامة، وقد سعت هذه الوفود أملاً في عفوه وخوفاً من مغبة الهزيمة وما ينالهم من قتل وأسر:

إِذا عايَنَــتكَ الرُســلُ هانَت نُفوسُها   عَلَــيها وَما جاءَت بِهِ وَالمُراسِلُ
رَجــا الرومُ مَن تُرجى النَوافِلُ كُلُّها   لَدَيــهِ وَلا تُرجى لَدَيهِ الطَوائِلُ

فَإن كانَ خَوفُ القَتلِ وَالأَسرِ ساقَهُم   فَقَد فَعَلوا ما القَتلُ وَالأَسرُ فاعِلُ

وللمتنبي قصيدة رائية ارتجلها سنة ٣٤٣هـ بمناسبة إرسال سفارة أخرى وكان يوماً مشهوداً حيث جلس سيف الدولة لرسول ملك الروم ولم يستطع المتنبي أن يصل إليه لشدة تزاحم الناس للاحتفال بهذه المناسبة، وعاتبه سيف الدولة على تأخره وانقطاعه فارتجل أمامه قصيدته تلك، وذكر فيها أن وصفه لهذا اليوم دون أن يشاهد المراسم التي جرت فيه يعد ظلماً له لأن صدق الوصف منوط بالمشاهدة، ويصف المتنبي فرحة ملك الروم لعفو سيف الدولة لأن هذا العفو يُعدّ ظفراً له وانتصاراً يحق له فيه أن يرفع عينيه بعد أن ظلّ مطرقاً منكس الرأس استخذاءً وخوفاً، كما يحق له أن يفتخر بين الملوك إن أجابه سيف الدولة عن رسائله؛ لأن الروم هم المستفيدون بالهدنة والصلح حيث تستريح رقابهم من السيوف، وسيظل أعداء سيف الدولة الآخرون ينتظرون قراره بالغزو أو الصلح، وفي ذلك يقول المتنبي:[1]

ظُلمٌ لِذا اليَومِ وَصفٌ قَبلَ رُؤيَتِهِ   لا يَصدُقُ الوَصفُ حَتّى يَصدُقَ النَظَرُ
تَزاحَمَ الجَيشُ حَتّى لَم يَجِد سَبَباً   إِلى بِساطِكَ لي سَمعٌ وَلا بَصَرُ
فَكُنتُ أَشهَدَ مُختَصٍّ وَأَغيَبَهُ   مُعايِناً وَعِياني كُلُّهُ خَبَرُ
اليَومَ يَرفَعُ مَلكُ الرومِ ناظِرَهُ   لِأَنَّ عَفوَكَ عَنهُ عِندَهُ ظَفَرُ
وَإِن أَجَبتَ بِشَيءٍ عَن رَسائِلِهِ   فَما يَزالُ عَلى الأَملاكِ يَفتَخِرُ

(١) ديوان المتنبي ٢: ٢٠١

قَـدِ استرَاحَت إلى وَقتٍ رِقابُهُمُ   مِـنَ السـيَوفِ وَباقي القَومِ يَنتَظِرُ

وتــبرز صــورة رسل الروم في قصيدة أخرى نظمها المتنبي لثلاث عشــرة بقين من المحرم سنة ٣٤٤هـــ بمناسبة ورود فرسان الثغور ومعهم رسول ملك الروم يطلب الهدنة وأنشدها أمام سيف الدولة بحضرتهم وقت دخولهــم، ويشير فيها إلى تقاطر رسل الملوك وتواليهم على سيف الدولة مثل سحّ الغمام فزعاً وخضوعاً واستجارة به؛ يقول:[١]

أَراعَ كَـذا كُـلَّ المُلوكِ هُمامُ   وَسَـحَّ لَـهُ رُسلَ المُلوكِ غَمامُ

ويؤكـد المتنبي في قصيدته ما يلقاه هؤلاء الرسل في كنف سيف الدولة من أمن ورعاية، فهم آمنون ما داموا في حماه بينما يفتقد ملوكهم الأمان، فلا تنام أجفانهم خوفاً وذعراً:

تَـنامُ لَدَيكَ الرُسلُ أَمناً وَغِبطَةً   وَأَجفـانُ رَبِّ الرُسلِ لَيسَ تَنامُ

حِـذاراً لِمُعرَوري الجِيادِ فَجاءَةً   إِلى الطَعـنِ قُـبلاً ما لَهُنَّ لِجامُ

ويشـير إلى قـدرة سيف الدولة على اتخاذ القرار برفض الهدنة أو الموافقة عليها، ويؤكد على الشيم العربية الأصيلة التي تقضي بأن من يلوذ بالكـرماء وجبت له الذمة، وطالما قصده رسل الروم راجين العفو والهدنة فقد حرمت إراقة دمائهم وقد أدركوا أنهم مهزومون في الحرب فعمدوا إلى الرسـل والكتب يتلطفون بها طلباً للصلح وتعلقاً بحب الحياة برغم ما في أساليبهم من مذلة:

---

(١) ديوان المتنبي ٤: ١٠٩-١١٢

إلى كــم بردّ الرُسل عمّا أتوا لَهُ   كَــأَنَّهُمُ فــيما وَهَبــتَ مَلامُ
وَإِن كُنتَ لا تُعطي الذِمامَ طَواعَةً   فَعَــوذُ الأَعــادي بِالكَريمِ ذِمامُ
وَإِنَّ نُفوســاً أَمَّمَــتكَ مَنــيعَةٌ   وَإِنَّ دِمــاءً أَمَّلَــتكَ حَــرامُ
إِذا خــافَ مَلكٌ مِن مَليكٍ أَجَرتَهُ   وَسَــيفَكَ خافوا وَالجِوارَ تُسامُ
لَهُــم عَنكَ بِالبيضِ الخِفافِ تَفَرُّقٌ   وَحَولَكَ بِالكُتبِ اللِطافِ زِحامُ
تَغُــرُّ حَــلاواتُ النُفوسِ قُلوبَها   فَتَختارُ بَعضَ العَيشِ وَهُوَ حِمامُ

ويــرى المتنبي أن وفود رسل الروم لطلب الصلح يقترن بالإذلال والمهانة، لأنهم تشفعوا بفرسان الثغور ووسطوهم في طلب الهدنة وهو ما لم يجرءوا على طلبه بأنفسهم فكان ذلك منّاً من هؤلاء الفرسان وتفضلاً:

فَلَــو كانَ صُلحاً لَم يَكُن بِشَفاعَةٍ   وَلَكِــنَّهُ ذُلٌّ لَهُــم وَغَــرامُ
وَمَــنٌّ لِفُرســانِ الــثُغورِ عَلَيهِمِ   بِتَبلــيغِهِم مــا لا يَكــادُ يُرامُ
كَتائِــبُ جاؤوا خاضِعينَ فَأَقدَموا   وَلَو لَم يَكونوا خاضِعينَ لَخاموا

لقد اقترنت الهدنة بإذلال الروم لأنها كانت مشروطة بجلائهم عن قــراهم ونــزوحهم عن أرضهم، فإذا خرقوا الهدنة كانت سيوف سيف الدولة في انتظار رقابهم وكان مصيرهم القتل أو السبي:

مَتى عاوَدَ الجالونَ عاوَدتَ أَرضَهُم   وَفــيها رِقــابٌ لِلسُيوفِ وَهامُ
وَرَبَّــوا لَكَ الأَولادَ حَتّى تُصيبَها   وَقَــد كَعَبَــت بِنتٌ وَشَبَّ غُلامُ

وعـــلى هذا النحو افتنَّ المتنبي في رسم تلك المشاهد الواقعية لرسل ملـــوك الروم ووفودهم وهم يتقاطرون على البلاط الحمداني طلباً للهدنة والصلح وهم في موقف الضعف والخزي والمهانة.

حضور الأماكن الأجنبية في شعر المتنبي:

كان المتنبي كثير الأسفار والتنقل جرياً وراء طموحه وأحلامه في المجد والثراء، فشرَّق وغرَّب واحتفى بوصف الأماكن التي شاهدها وكثر ترددها في شعره حتى بذَّ الشعراء الآخرين في ذلك، وأصبحت هذه الأماكن تمثل معجماً طريفاً يعكس رؤيته لتلك الأماكن وامتزاجها بعاطفته في حالتي الرضا والسخط والحب والكراهية والسلم والحرب.

حضور الأماكن الفارسية:

للأماكن الفارسية حضور واضح في شعر المتنبي حيث ارتحل إلى بلاد فارس وشاهد بعض مدنها ووصف الأماكن التي زارها ومن أشهرها (شعب بوان) الذي وصفه وصفاً في قصيدة قال فيها:[1]

مَغاني الشَعبِ طيباً في المَغاني ... بِمَنزِلَةِ الرَبيعِ مِنَ الزَمانِ
وَلَكِنَّ الفَتى العَرَبِيَّ فيها ... غَريبُ الوَجهِ وَاليَدِ وَاللِسانِ
مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَو سارَ فيها ... سُلَيمانٌ لَسارَ بِتَرجُمانِ
طَبَت فُرسانَنا وَالخَيلَ حَتّى ... خَشيتُ وَإِن كَرُمنَ مِنَ الحِرانِ
غَدَونا تَنفُضُ الأَغصانُ فيها ... عَلى أَعرافِها مِثلَ الجُمانِ
فَسِرتُ وَقَد حَجَبنَ الشَمسَ عَنّي ... وَجِبنَ مِنَ الضِياءِ بِما كَفاني
وَأَلقى الشَرقُ مِنها في ثِيابي ... دَنانيراً تَفِرُّ مِنَ البَنانِ
لَها ثَمَرٌ تُشيرُ إِلَيكَ مِنهُ ... بِأَشرِبَةٍ وَقَفنَ بِلا أَواني

---

(١) ديوان المتنبي ٤: ٣٨٣-٣٨٩

وَأَمْـواهٌ تَصِـلُ بِهـا حَصاها صَليلَ الحَلْيِ في أيدي الغَواني

وَلَـو كانَـت دِمَشقَ ثَنى عِناني لَبيقُ الـثُردِ صينِيُّ الجِفانِ

يَلَنجوجِيُّ مـا رُفِعَت لِضَيفٍ بِـهِ الـنيرانُ نَدِّيُّ الدُخانِ[1]

تَحِـلُّ بِـهِ عَـلى قَلبٍ شُجاعٍ وَتَـرحَلُ مِنهُ عَن قَلبٍ جَبانِ

مَـنازِلُ لَـم يَـزَل مِنها خَيالٌ يُشَيِّعُني إِلى النوبَـنذَجانِ[2]

إِذا غَـنّى الحَمـامُ الـوُرقُ فيها أَجابَـتهُ أَغـانِيُّ القِيانِ

وَمَـن بِالشِعبِ أَحوَجُ مِن حَمامٍ إِذا غَـنّى وَنـاحَ إِلى البَيانِ

وَقَـد يَـتَقارَبُ الوَصـفانِ جِدّاً وَمَوصـوفاهُما مُتَـباعِدانِ

يَقـولُ بِشِـعبِ بَـوّانٍ حِصاني أَعَـن هَذا يُسارُ إِلى الطِعانِ

أَبوكُـم آدَمٌ سَـنَّ المَعاصـي وَعَلَّمَكُـم مُفارَقَـةَ الجِـنانِ

هـذه القصيدة ذات طبيعة خاصة لأنها من القصائد القليلة النادرة التي تصور رؤية الشاعر العربي القديم للعالم الخارجي، فالمتنبي في رحلته إلى بـلاد فارس توقف عند (شعب بوان) وهو متنزه قريب من بلدة (شيراز) ويعد من أجمل متنزهات الدنيا بما فيه من شجر كثيف ورياض مثمرة ومياه جارية. إنه يصور الطبيعة الخلابة في أبهى صورها ومناظرها.

---

(١) اليلنجوجي : عود الطيب أو البخور نسبة إلى اليلنجوج.

(٢) النوبنذجان: مدينة فارسية.

وقـــد انبهر المتنبي بهذه اللوحة الطبيعية الساحرة فرآها في سحرها وطيـــب هوائهـــا تفضل سائر الأمكنة كما يفضل الربيع سائر الفصول والأزمنة فرأى فيها ربيعاً دائماً متجدداً يحفل بالبهجة والمسرة.

ويصور المتنبي مشاعره وقد حلَّ غريباً على هذه المدينة الأجنبية التي تختلف عن المدن العربية في لغتها وعاداتها وأزيائها، ويكني نفسه بـــ(الفتى العربي) وهو وصف له دلالته في ترسيخ روح الانتماء والاعتزاز بالعروبة.

إنه يبدو في هذه البلاد غريب الوجه في عيون أهلها، فلا أحد يعرفه ولا يعرف أحداً، وهو ببشرته العربية السمراء ينفرد عن الوجوه الشيرازية الشقراء، وهو غريب اليد لأنه يكتب بخط غير خطهم، فهو يكتب بالعربية وهم يكتبون بالفارسية، وهو خالي الوفاض لا يملك شيئاً في تلك الأرض، وهو غريب اللسان يتكلم بلغة غير لغة هؤلاء القوم.

إنهـــا صورة دالة تعكس وضع الفتى العربي الغريب في تلك البلاد الأجنبـــية حيث يبدو في حالة انفصال تام عن هذا المجتمع الغريب لافتقاد وسائل التفاهم والتواصل مما يوحي بتغلغل الإحساس بالغربة.

ويـــتوقف المتنبي وقفة إعجاب مطولة أمام شعب بوان، فيتخيله في إعجازه وبديع حسنه كملاعب الجن جرياً على عادة العرب حين يعجزهم وصـــف شـــيء فينسبونه إلى الجن أو إلى قوة خارجية خارقة على نحو ما صنع البحتري في وصف إيوان كسرى، ويستحضر المتنبي في هذا السياق صورة النبي سليمان لاستدعاء الأجواء الخيالية أو الأسطورية التي اقترن بها، وفي إشارة إلى تصوره عن (ملاعب الجنة) وكأن سكان الشعب من الجن

العباقرة الذين يتكلمون بلغة بعيدة عن الأفهام حتى لو سار سليمان في تلك البلاد لاحتاج إلى ترجمان يوافقه برغم علمه بلغات الكائنات من جن وإنس وطير.

ويشير المتنبي إلى انجذاب الفرسان والخيل إلى هذا المكان الساحر فقد استمالهم بروعته وخصوبته فطاب لهم المقام فيه وتعلقوا به حتى خشي على الخيل من الحران وعدم مبارحة المكان برغم أنها خيول كريمة لا تعرف الحران.

ويصور المتنبي الأجواء الخيالية لتلك الطبيعة الساحرة. فيصف تنزهه فيها في الصباح الباكر بين الأشجار الكثيفة والرياض المزهرة وقد تساقطت قطرات الندى على الأغصان فصارت تنفضها على أعراف الخيول كأنها حبات اللؤلؤ. وهي صورة لونية حركية تمتزج فيها حركة سير الجياد بحركة اهتزاز الأغصان مع المشاكلة بين لون كرات الندى الثلجية الصغيرة وحبات الجمان.

ويصف المتنبي المنظر الطبيعي بدقة متناهية من خلال خيال فنان مبدع مصور. وهو لا يكتفي بوصف المنظر الطبيعي بل يضع نفسه داخل اللوحة، فيصف سيره بين هذه الأشجار الكثيفة التي حجبت ضوء الشمس عنه ولكنها منحته من ضياء نورها وأزهارها ما يكفيه من نور مما أشاع جواً خيالياً ساحراً.

ويستطرد المتنبي في وصفه هذا الجو الخيالى البديع، فيصف أشعة الشمس وهي تنفذ من خلال الشجر فتتسلل إلى ثيابه كأنها دنانير ذهبية

ظنها حقيقية وحاول إمساكها ولكنها فرت من بين أصابعه، وهي صورة تعكس الجو الخيالي الذي استغرق المتنبي كما تشي بدلالات نفسية تتعلق بولع المتنبي بالذهب.

ويفتن الخيال الشعري في تصوير مفردات تلك الطبيعة، فتجذبه الثمار العجيبة المتدلية من الأغصان بقشورها المتناهية الرقة حتى ليخيل للرائي أنها أشربة بلورية شفافة تشير إليه وتغريه بالشراب وهي واقفة بغير أوان.

وفي صورة صوتيه لونية رائعة يلتفت إلى أصوات المياه وهي تجري في الغدران وتصطك بالحصى الفضي كأنها صليل الحلي في معاصم النساء.

وفي تلك الأجواء الساحرة تستحضر مخيلة الشاعر المغترب صورة غوطة دمشق في معرض المقارنة ويتخيل لو أنه كان هناك لاستضافه كريم من كرمائها وأذهب جوعه بأكلة عربية خالصة (الثريد الموضوع في الجفان).

وفي سياق"الاسترجاع" تستحضر مخيلة الشاعر المغترب صورة العربي الكريم الذي يوقد النيران للأضياف بالعود (اليلنجوجي) الذي تفوح رائحته بالند من دخانه، وهي صورة عطرية شمّية يستكمل بها لوحة الأجواء الخيالية.

إن المتنبي وهو يعبر عن إنبهاره بهذا العالم الخارجي الساحر لا ينفصل عن عالمه الأصلي، فيستدعي مفرداته وأجواءه وثقافته. لقد أحس أن هذا العالم الخارجي برغم جماله وسحره يفتقد الروح العربية والأجواء

العربية والكرم العربي، ولذلك استحضر صوره (غوطة دمشق) كمعادل موضوعي لشعب بوان.

لقد اختلطت الصورتان في مخيلة الشاعر الغريب في بلاد الفرس وطفت صورة الأرض العربية المتجذرة في وجدانه وذاكرته فإذا بها تتبعه وتصحبه حيثما حل:

مَنازِلُ لَم يَزَل مِنها خَيالٌ   يُشَيِّعُني إِلى النوبَندَجانِ

إن خيال دمشق ومنازل أحبته والطبيعة العربية الخلابة لم تفارق مخيلة المتنبي، فظلت تصاحبه في نومه وصحوه، وتتراءى له وهو يتنقل بين المدن الفارسية.

إن غناء الحمام العجمي يمتزج بغناء القيان الدمشقية ويتجاوب معها في إشارة للتقارب والتماذج بين الحضارتين العربية والفارسية. وقد جمعت (العجمة) بين الحمام وأهل شعب بوان مع اختلاف الجنس وتباعد الموصوفات.

وفي سياق (الاستعجام) يستنطق الشاعر المغترب فرسه فينكر عليه أن يكون هذا المكان الجميل قاعدة للحرب والاقتتال بين البشر، وتأتي الحكمة البليغة على لسان الجواد الأعجم –في مفارقة بديعة– فيعيب على الإنسان السير في طريق الحرب وارتكاب المعاصي، ويرى أن أبناء آدم يصنعون هذا الصنيع اقتداء بأبيهم الذي سن لهم اقتراف الذنوب والمعاصي فأخرج من الجنة.

إنه صوت الشاعر الحكيم يختفي وراء قناع صوت الفرس الأعجمي ليعبر عن إدانته لسلوك البشر العدواني ويؤكد رؤيته السمحة وقيمه المثالية في الحب والسلام.

لقـــد أوحى (شعب بوان) للمتنبي بهذه الرؤية الإنسانية الحكيمة، وأزعجـــه أن تشوه هذه الطبيعة الجميلة التي منحها الله للإنسان بالحرب والعدوان والاقتتال بين البشر.

إن رؤيـــة المتنبي للعالم الخارجي -من خلال شعب بوان- لم تقف عـــند حـــدود الإعجاب بجمال الطبيعة ولكنه نفذ من خلالها إلى تأكيد اعتزازه بالقيم العربية في الكرم والضيافة كما ألهمته بطرح رؤيته الإنسانية في نشر السلام والمحبة في قلوب البشر جميعاً.

وتكشف القصيدة من ناحية أخرى عن قدرة المتنبي على التصوير البارع والخيال المبدع.

ومـــن الأماكن الفارسية التي وصفها المتنبي (دشت الأرزن) وهو موضع بأرض فارس بالقرب من شيراز تحفُّ به الجبال وفيه غاب ومروج ومـــياه، وقـــد شاهده المتنبي حين خرج إليه في صحبة عضد الدولة للتنزه والصـــيد، وكانـــت الوحوش إذا اعتصمت بالجبال أخذت عليها الرجال المضـــايقة، فـــإذا أثخنـــتها النشاب هربت من رءوس الجبال إلى الدشت فتســـقط بين يديه، فأقام بذلك المكان أياماً على عين ماء حسنة، ووصف

أبو الطيب الحال وأنشده قصيدته في رجب سنة٣٥٤هـ، وهي السنة التي قتل فيها، واستهل قصيدته بقوله:[١]

مـا أجـدَرَ الأيّـامَ وَاللّيالي بـأن تَقـولَ مـا لَهُ وَما لي

ويصف المتنبي "دشت الأرزن" داعياً له بالسقيا ويصوره وهو محاط بالمروج والقيم الواسعة وقد تجمعت فيه الوحوش وأنواع الصيد من الحيوان وتجاور فيه الأسد والخنزير، واجتمعت فيه الأضداد، فمنها المفترس كالأسد وغير المفترس كالظباء والأرانب وقد جاءه عضد الدولة بالأفيال ليكتمل شمل الحيوان وقد صيدت الأيائل وقيدت بالحبال، يقول المتنبي في قصيدته التي نحا فيها منحى الأرجوزة:[٢]

إنَّ الـنُفوسَ عَـدَدُ الآجـالِ سَـقياً لِدَشتِ الأَرزُنِ الطُوالِ

بَـينَ المُـروجِ الفـيحِ وَالأَغيالِ مُجـاوِرِ الخِنزيـرِ لِلرِئـبالِ

داني الخَنانـيصِ مِـنَ الأَشـبالِ مُشـتَرِفِ الدُبِّ عَلى الغَزالِ

مُجتَمِعِ الأَضدادِ وَالأَشكالِ

كَـأَنَّ فَنّاخُسـرَ ذا الإِفضالِ[٣] خـافَ عَلَـيها عَوَزَ الكَمالِ

فَجاءَها بِالفيلِ وَالفَيّالِ

فَقـيدَتِ الأُيَّـلُ في الحِـبالِ طَوعَ وُهوقِ الخَيلِ وَالرِجالِ[٤]

---

(١) ديوانه ٤: ٢٧-٣٥.

(٢) نفسه ٤: ٣١-٣٢.

(٣) فَنّاخُسرَ : اسم عضد الدولة.

(٤) الوهوق: الحبال .

ومن المدن الفارسية التي ذكرها المتنبي مدينة (نوبنذجان) وعبر عن إعجابه بها فقال:[1]

مَنازِلُ لَم يَزَل مِنها خَيالٌ ... يُشَيِّعُني إِلى النوبَنذَجانِ

حضور الأماكن الرومية:

للأماكن الرومية حضور كبير في شعر المتنبي يتضاءل أمامه حضور الفارسية حيث ارتبطت هذه الأماكن بالصراع بين العرب والروم واقترنت بالحروب والغزوات التي خاضها جيش سيف الدولة الحمداني وصحبه المتنبي في كثير منها، وقد تنوعت هذه الأماكن بين المدن والجبال والحصون والقلاع والثغور والأنهار.

المدن:

فمن المدن الرومية التي ذكرها المتنبي في شعره مدينة (أنطاكية) وهي مدينة عظيمة ذات سور كبير كان يحرسه أربعة آلاف حارس ويحيط بها ثلاثمائة وستون برجاً، وكان الجند ينفذون من القسطنطينية لحراستها[2]، وقد شاهدها المتنبي خلال غزوات سيف الدولة ووصف تساقط الثلج على أرضها وتعذر المرعى على المهر فقال:[3]

ما لِلمُروجِ الخُضرِ وَالحَدائِقِ ... يَشكو خَلاها كَثرَةَ العَوائِقِ
أَقامَ فيها الثَلجُ كَالمُرافِقِ ... يَعقِدُ فَوقَ السِنِّ ريقَ الباصِقِ

---

(١) ديوانه ٤: ٣٨٨.

(٢) معجم البلدان ١: ٢٦٦-٢٦٧

(٣) ديوانه ٣: ٩٢

ثُمَّ مَضى لا عادَ مِن مُفارِقٍ ... بِقائِدٍ مِن ذَوبِهِ وَسائِقِ

كَأَنَّما الطُخرورُ باغي آبِقِ ... يَأكُلُ مِن نَبتٍ قَصيرٍ لاصِقِ[1]

ويشير في قصيدة أخرى إلى إقامته بأنطاكية واضطراره إلى مفارقتها إلى حلب طلباً للعطاء، فيقول:[2]

لَمّا أَقَمتَ بِإِنطاكِيَّةَ اختَلَفَت ... إِلَيَّ بِالخَبَرِ الرُكبانُ في حَلَبا

فَسِرتُ نَحوَكَ لا أُلوي عَلى أَحَدٍ ... أَحُثُّ راحِلَتَيَّ الفَقرَ وَالأَدَبا

وذكر المتنبي مدينة (سمندو) وهي في وسط بلاد الروم وقد غزاها سيف الدولة وهرب منها الدمستق فقال:[3]

رَضينا وَالدُمُستُقُ غَيرُ راضٍ ... بِما حَكَمَ القَواضِبُ وَالوَشيجُ

فَإِن يُقدِم فَقَد زُرنا سَمَندو ... وَإِن يُحجِم فَمَوعِدُهُ الخَليجُ

وأشار المتنبي إلى مدينة (صارخة) الرومية التي غزاها سيف الدولة وأقام بها صلاة الجمعة فقال:[4]

مُخلىً لَهُ المَرجُ مَنصوباً بِصارِخَةٍ ... لَهُ المَنابِرُ مَشهوداً بِها الجُمَعُ

وذكر المتنبي (ملطية) وهي بلدة من بلاد الروم غزاها سيف الدولة، وفيها يقول المتنبي:[5]

---

(١) الطخرور: اسم المهر.

(٢) ديوانه ١: ٢٤٨

(٣) معجم البلدان ٣: ٢٥٣.

(٤) نفس المصدر ٣: ٣٨٨.

(٥) ديوانه ٣: ٢٢٤

وَكَــرَّت فَمَرَّت في دِماءِ مَلَطيَةٍ مَلَطـــيَةُ أُمٌّ لِلبَـــنينِ ثَكــولُ

وأشار المتنبي إلى (اللقان) وهي بلد من بلاد الروم فقال:[1]

يُغـــيرُ بِهـــا بَينَ اللُقانِ وَواسِطٍ وَيُركِـــزُها بَينَ الفُراتِ وَجِلِّقِ

الثغور:

أكثر المتنبي من ذكر (الثغور) الرومية التي كانت مسرحاً للغزوات والمعـــارك، ومنها (عرقة) و(موزار) وقد جمعهما المتنبي في وصف معركة ظافرة فقال:[2]

وَأَمســـى السَـــبايا يَنتَحِبنَ بِعَرقَة كَـــأَنَّ جُيوبَ الثاكِلاتِ ذُيولُ

وَعـــادَت فَظَـــنّوها بِمَوزارَ قُفَّلاً وَلَـــيسَ لَها إِلّا الدُخولَ قُفولُ

وذكر (هنريط) و(سمنين) فقال :[3]

وَفي بَطـــنِ هِنريطٍ وَسِمنينَ لِلظُبى وَصُـــمِّ القَنا مِمَّن أَبَدنَ بَديلُ

وأشـــار إلى (هـــنريط) و(اللقان) في موضع آخر وأضاف إليهما (آمد) فقال:

عَصَفنَ بِهِم يَومَ اللُقانِ وَسُقنَهُم بِهِنريطَ حَتّى ابيَضَّ بِالسَبيِ آمِدُ

وذكر (سميساط) فقال:[4]

---

(١) ديوانه ٣: ٥٤.

(٢) نفسه ٣: ٢٢٣

(٣) نفسه ٣: ٢٢٤

(٤) نفسه ٣: ٢٢٤

وَدونَ سُمَيساطَ المَطاميرُ وَالمَلا وَأَودِيَةٌ مَجهولَةٌ وَهُجولُ

ومن القرى التي ذكرها المتنبي (كلواذي) وهي قرية قرب مدينة السلام، وفيها يقول:

طَلَبَ الإِمارَةَ في الثُغورِ وَنَشؤه ما بَينَ كَرخايا إِلى كَلواذا

الحصون والقلاع والتلال:

ومن الحصون الرومية التي ذكرها المتنبي حصن (الران) وفيه يقول:

وَبِتنَ بِحِصنِ الرانِ رَزحى مِنَ الوَجى وَكُلُّ عَزيزٍ لِلأَميرِ ذَليلُ(١)

ومن القلاع المشهورة التي ذكرها قلعة (الحدث) وهي قلعة حصينة بين ملطية وسميساط أخذها سيف الدولة من الوم سنة ٣٤٤هـ، وفيها يقول المتنبي:

هَلِ الحَدَثُ الحَمراءُ تَعرِفُ لَونَها وَتَعلَمُ أَيُّ الساقِيَينِ الغَمائِمُ

وذكر المتنبي حصن (مرعش) وهو من أعمال ملطية فقال:(٢)

أَتى مَرعَشاً يَستَقرِبُ البُعدَ مُقبِلاً وَأَدبَرَ إِذ أَقبَلتَ يَستَبعِدُ القُربا

وذكر (خرشنة) فقال:

حَتّى أَقامَ عَلى أَرباضِ خَرشَنَةٍ تَشقى بِهِ الرومُ وَالصُلبانُ وَالبِيَعُ

وأشار إلى (تل بطريق) فقال:(٣)

كَتَلِّ بِطريقٍ المَغرورِ ساكِنُها بِأَنَّ دارَكَ قِنَّسرينُ وَالأَجَمُ

---

(١) ديوانه ٣: ٢٢٤.

(٢) ديوانه ١: ١٨٨.

(٣) نفسه ٤: ١٣٢

ومن الجبال التي ترددت في شعر المتنبي جبل (الأحيدب) القريب من ثغور الروم، ويشير إلى انتشار هامات قتلى الروم وأشلائهم فوقه، فيقول:

نَثَرتَهُمُ فَوقَ الأُحَيدِبِ نَثْرَةً كَما نُثِرَت فَوقَ العَروسِ الدَراهِمُ

وأشار إلى جبل (اللكام) المشرف على (أنطاكية) فقال:

بِها الجَبَلانِ مِن صَخرٍ وَفَخرٍ أَنافا ذا المُغيثُ وَذا اللِكامُ

الأنهار:

ومن الأنهار الرومية التي ترددت في شعر المتنبي نهر (آلس) وهو — كما ذكر ياقوت[١]- نهر سلوقية القريب من البحر، ومن طرسوس، وعليه كان الفداء بين المسلمين والروم، وذكره المتنبي فقال:

تَذري اللُقانُ غُباراً في مَناخِرِها وَفي حَناجِرِها مِن آلِسٍ جُرَعُ

وتردد اسم نهر (أرسناس) الواقع في بلاد الروم، ويوصف ببرودة مائه، وقد عبره سيف الدولة ليغزو[٢]. وفي ذلك قال المتنبي:

يَقمُصنَ في مِثلِ المُدى مِن بارِدٍ يَذَرُ الفُحولَ وَهُنَّ كَالخِصيانِ

حَتّى عَبَرنَ بِأَرسَناسَ سَوابِحاً يَنشُرنَ فيهِ عَمائِمَ الفُرسانِ

يَقمُصنَ في مِثلِ المُدى مِن بارِدٍ يَذَرُ الفُحولَ وَهُنَّ كَالخِصيانِ

وأشار إلى نهر (جيحان) ومخرجه من بلاد الروم ويصب في بحر الشام[٣] فقال مخاطبا سيف الدولة :

---

(١) معجم البلدان ١: ٥٥

(٢) المصدر نفسه ١: ١٥١

(٣) المصدر نفسه ٢: ١٩٦

سَرَيتَ إلى جَيحانَ مِن أَرضِ آمِدٍ ثَلاثـــاً لَقَد أدناكَ رَكضٌ وَأَبعَدا

وتردد اسم نهر (سيحان) وهو نهر بالثغر من نواحي المصيصة يصب في بحر الروم[١] وفيه يقول المتنبي :

أَخـــو غَـــزَواتٍ ما تُغِبُّ سُيوفُهُ رِقـــابَهُمُ إِلّـــا وَسَيحانُ جامِدُ

وأشار إلى نهر (قباقب) وهو قرب ملطية[٢] فقال:

وَأَضـــعَفنَ مـــا كُلِّفنَهُ مِن قُباقِبٍ فَأَضـــحى كَـــأَنَّ الماءَ فيهِ عَليلُ

وعـــلى هـــذا الـــنحو كان للروم حضور كثيف في شعر المتنبي، فاستحضـــرهم ملوكـــا وقوادا وجيوشا وجنودا وسبايا وسفراء ورهبانا وبطارق ومدنا وقلاعا وثغورا وأنهارا وجسد صراع العرب والروم في أدق تفاصيله وصوره، ونظم قصائد رائعة تتغنى بانتصار العرب وهزائم الروم.

---

(١) معجم البلدان ٣: ٢٩٣

(٢) المصدر نفسه ٤ : ٣٠٣

صورة الممالك المسيحية في الشعر الأندلسي

احـــتدم الصراع في الأندلس بين المسلمين والممالك النصرانية التي كانت تمتد على الحدود الشمالية وأهمها:

ــ مملكة جليقية: وتقع في الشمال الغربي وتسمى أيضاً (مملكة ليون)

ــ مملكة نافار: وتقع شرقي مملكة ليون وسكانها في البشكونس.

ــ مملكة قشتالة: وتعرف بـــ(القلاع) وكانت من أكبر الممالك.

ــ مملكة برشلونة: وتقع شرقي الأندلس.

وكان للأندلس ثلاثة ثغور تقع في مواجهة الممالك النصرانية وتمثل خـــط الدفـــاع أو الهجوم الأول وكانت مسرحاً للجهاد والمعارك، وهذه الثغور هي:

ــ الـــثغر الأعـــلى: ويقـــع على الحدود الشمالية الشرقية وقاعدته مدينة (سرقسطة) وكانت تواجه إقليم أرغون ومملكة نافار وبرشلونة.

ــ الـــثغر الأوسط: ويقع على الحدود الوسطى، وقاعدته مدينة (طليطلة) ويواجه مملكتي ليون وقشتالة.

ــ الثغر الأدنى: ويقع على الحدود الغربية وقاعدته مدينة (بطليوس).

وقـــد أطلق العرب مسميات عدة على سكان الممالك النصرانية، مـــنها: الروم والفرنجة والنصارى والمجوس والنورمان. وتبرز صورة الروم بوصفهم أعداء يمثلون خطراً على الإسلام، ويصور الشعر الأندلسي مادار مـــن غزوات ومعارك وحروب، ويعني بتسجيل الوقائع التاريخية والأماكن

الجغرافية والسفارات المتبادلة، ويحتفي برسم مشاهد لملوك الروم وقوادهم حين ينهزمون أو يقعون في الأسر، ونرى صوراً من هذا الصراع منذ عصر الإمـــارة حين دارت موقعة بين العرب والروم في وادي سليْط في الجنوب الغربي من طليطلة سنة ٢٤٠هـــ، وقد وصف عباس بن فرناس هزيمة الروم في تلـــك المعركة ووصفهم بـــ"العصبة الغلف" ووصمهم بالجبن وشبههم بالجعلان المتحلقة حول البعر وذكر اسم قائدهم (ابن بلوش) وتغنى بهزيمة الروم وكثرة قتلاهم فقال:(١)

بَكـــى جبلا وادي سَليط فأعولا ‏ على النَّفر العُبْدان والعصْبة الغُلف
دعاهم صريح الحَيْن فاجتمعوا له ‏ كما اجتمع الجُعلان للبَعْر في قُفّ
يقـــول ابـــنُ بلّوشٍ لموسى وقد دَنا ‏ أرى المَوت قُدّامي وتَحْتي ومِن خَلْفي
قَتلـــناهُم ألفـــاً وألْفـــاً ومـــثلَها ‏ وألفـــاً وألفـــاً بعد ألفٍ إلى ألف
سِوى مَن طواه النهرُ في مُسلحبّه ‏ فأغْـــرق فيه أو تدهده من جُرْف
لقـــد نعمـــت فيه غزاة نسورنا ‏ وسمّعت الذؤبان قصفاً على قصف

ولمؤمن بن سعيد قصيدة في وصف المعركة ذاتها يصف فيها ما حلّ بطلـــيطلة على يد الجيش العربي من وحشة وحزن ويصف أهلها بالفسق فيقول:(٢)

أضحت طليطلة الفعناق مقفرةً ‏ محزونةً قد خلت من أهلها الدور
أقـــدت بأسك من فيها فقادهمُ ‏ إلى مصـــارعهم حـــين وتغريـــر

---

(١) المقتبس تحقيق د. محمود مكي ص ٢٩٨-٣٠١

(٢) الذخيرة ٢/٢: ٦٢١

وتقـــترن صـــورة الروم في الشعر الأندلسي بالجبن والعار والمهانة والتنبؤ باندحارهم ، ويفتن الشعراء في رسم صور ساخرة مزرية لهم كقول ابن بقي:[1]

يـــا معشر الروم قد شالت نعامتكم　　إما من الجبن أو من شدة الفشل
لم يكسكم من ثياب الخزي أسبغها　　ألا اتقـــاؤكم للصـــدر بالكفل
يـــا ويلكـــم معشرا بل ويل أمكم　　فإنهـــا ولـــدت للـــثكل والهبل

ومن هذه النماذج التي تصور جبن قيصر ملك الروم وجنوحه إلى السلم هرباً من بأس المسلمين قول ابن حربون:[2]

ألم تـــر قيصـــر في ملكـــه　　إلى الســـلم مـــن بأسكم يهربُ
ولّمـــا تـــنله ســـوى عضّـــةٍ　　لهـــا بـــين أكـــتافهِ مخلـــبُ

---

(١) المن بالإمامة: ٢٦١-٢٦٢

(٢) أدب السياسة والحرب في الأندلس : ٢٩٧.

صورة الآخر في شعر ابن دراج:

يعدُّ ابن دراج القسطلي (٣٤٧-٤٢١هـ) من أبرز الشعراء الذين احتفوا بوصف الآخر في شعرهم ولعله ينافس المتنبي في هذا المجال، بل لعله الوجه المقابل له في الغرب، فقصائده في هذا السياق "تضاهي سيفيات المتنبي التي تغنى فيها بالبطولة الإسلامية التي أبداها سيف الدولة الحمداني في مواجهة الزحف الرومي على الثغور الإسلامية هناك، بل هما يتكاملان، لأن أحدهما يواكب الصراع الإسلامي النصراني في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، والآخر يواكب الصراع الإسلامي الرومي في الشرق الإسلامي في فترات متزامنة تقريباً"[١]

وقد عاصر ابن دراج المنصور بن أبي عامر في عهد الحجابة الذي اضطلع بدور عظيم في الدفاع عن الثغور الإسلامية "مما جعل حياة هذا القائد العظيم جهاداً متواصلاً، حتى إن المؤرخين يقدّرون غزواته إلى الممالك المسيحية باثنتين وخمسين غزوة".

وكان ابن دراج يرافق المنصور في بعض غزواته، فكان المنصور أشبه بسيف الدولة، وابن دراج أشبه بالمتنبي، ولذلك لقب بـ"متنبي الغرب".

وقد صنع ابن دراج في شعره صنيع المتنبي، فسجل الوقائع التاريخية والغزوات والأماكن التي دارت حولها المعارك، ووصف الروم وقوادهم

---

(١) ديوان ابن دراج، المقدمة : ٣٢

وملوكهـم وجـنودهم والسفارات المتبادلة وغير ذلك، فمن ذلك وصفه الغزوة التي وجهها المنصور في سنة ٣٨٤هـ إلى قشتالة التي كان يحكمها آنـذاك غرسـية بن فرذلند وفيها فتحت قلعة قُلنية Culnia وكانت من المعاقل المنيعة في قشتالة، وأشار ابن دراج إلى شهوده تلك الغزوة فقال:

وبِـرَأيِ عَيْـنِي منه يومَ قُلُنْيَةٍ ... مـنه شـهابٌ خاطفٌ لشهابِ
سـيفُ الإلـه وحزبُهُ المُفْنِي بهِ ... شِـيَعَ الضَّلالِ وفِرْقَةَ الأَحزابِ

ويصف ابن دراج هزيمة الروم حيث استطاعت كتائب المنصور أن تمحو رسوم الكفر وأن تجعل أرضهم قفراً، فيقول:(١)

بِكَتَائِبٍ عَزَّتْ بِهَا سُبُلُ الهُدَى ... ومَحَـتْ رُسُومَ الكفرِ مَحْوَ كِتَابِ
غادَرْنَ أَرْضَهُمُ كَأَنَّ فضاءهَا ... أَغـوالُ قَفْـرٍ أَوْ سُـهُوبُ يَبَابِ
تَحْتَـثُّ سالِكَها بغيرِ هدايةٍ ... وتجيـبُ سـائلَها بغَـيرِ جَـوَابِ

ويمـثل شعر ابن دراج قيمة تاريخية كبرى في تحديد المواضع التي دارت فيها المعارك بين المسلمين والقشتاليين في عهد المنصور بن أبي عامر، ففي قصيدة أخرى يذكر عدة مواضع مثل "بربديل" وهو حصن كان في قشتالة(٢) فيقول:(٣)

لا مـثْلَ بَـرْبَدِّيل يوم حَوَيْتَها ... فَخْـراً أَغارَ عَلَى الزمانِ وأَنْجَدَا

---

(١) ديوان ابن دراج، تحقيق د. محمود علي مكي: ٩١

(٢) كـان يعرف هذا الحصن باسم Barba dillo ويعرف الآن باسم Barbadillo Del Mercado (ديوان ابن دراج ص٦٠٠ هامش١)

(٣) ديوان ابن دراج: ٦٠٠

جَـرَّدْتَ للإسلامِ فِيهَا صارِماً   عَوَّدْتَـهُ ضَـرْبَ الطُّـلى فَتَعَوَّدَا

ويذكـر في القصيدة ذاتها قلعة (شنت إشتيبن San Estebandes Gornaz التي فتحها المنصور في قشتالة فيقول:(١)

وتركت شَنْتَ اشْتِيبناً وكأنّما   حَطَّتْ سيوفُكَ من عِداها الفَرْقَدَا

فَقَصَـرْتَ مُدَّتَها بوقفةِ ساعَةٍ   أَبْقَـتْ لَكَ الفخرَ الجليلَ مُخلَّدا

ويسجل ابن دراج غزوات المنصور إلى مملكته (ليون) التي كان يحكمها آنذاك (برمند الثاني) فيقول:(٢)

أَوطَـأْتَ أَرضَ المشركينَ كتائباً   فِـيهَا وَشيكُ فَنائها ودَمَارُها

وتركتَ أَرضَ لِيونَ وَهْيَ كَأَنَّها   لَمْ تَغْنَ بالأمسِ القريبِ دِيارُها

ويفهـم مـن قصيدة ابن دراج أن الغزوة التي توجهت إلى بلاد (لـيون) كانت في فصل (الشتاء) فيشير إلى تغطية جبالها بالثلوج وتجمُّد أنهارهـا وقسـوة طبيعتها مما يضفي على الفتح أهمية ويجسد حسن بلاء المقاتلين، ويشير إلى عبور الجيش خليج (دوير) فيقول:(٣)

لَبِسَـتْ ثيابَ الأَمنِ حينَ تَمَنَّعَتْ   آفاقُهـا وتـباعَدَتْ أَقطارُها

وتسـربَلَتْ حُلَلَ الثُّلوجِ جبالُها   واسْـتَفْرَغَتْ مَدَّ الحَيا أَنهارُها

والخَـيلُ والأَبطـالُ تجهد خَلْفَها   أَلّـا يَشِطَّ عَلَى الخليلِ مَزارُها

حَـتَّى عَـبَرْنَ خليجَ دُويْرُ كَأَنَّها   سُـفُنٌ ترامى بالحتوفِ بِحارُها

---

(١) ديوان ابن دراج : ٦٠٢

(٢) نفسه : ٥٥٠

(٣) نفسه: ٥٥١-٥٥٢

ويـــردد ابن دراج اسم (لونة) Luna وهي قلعة منيعة في مقاطعة (لــيون) غزاها عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٥هــــ فيقول:[1]

وأنت الَّذِي أَوْرَدْتَ لُونَةَ قاهِراً خيولاً سماءُ الأَرْضِ فيه نُحُورُها
وقـــد لاح بالنصر العزيز لواؤها وأَعْلَـــنَ بالفـــتحِ المبين بَشِيرُهَا

ويذكر (لونة) في قصيدة أخرى فيقول:[2]

ولا مـــثلَ يـــومٍ نحـــو لُونَةَ سِرْتَهُ وقد قَنَّعَت شَمْسَ النهارِ غَيَاهِبُهْ
رَفَعْتَ لَهَا فِي عارِضِ النَّقْعِ بَارِقاً تَسِـــحُّ شـــآبيبَ المنايا سَحَائِبُهْ

ومن المواضع الإسبانية التي ذكرها ابن دراج (شنتياقب) Santiago de Compostela وقـــد غـــزاها المنصور بن أبي عامر في حملة إلى جليقية Galicia في أقصـــى الشمال الغربي من أسبانيا ويسجل فيها أسماء المواضع التي اجتازها الحملة مثل (لميق) و(كرنة) و(بوغة) فيقول في معرض الإشادة بالمنصور وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن لحسن بلائهم في تلك الغزوة:[3]

وراحَـــا بالمـــنايا فاسْـــتَباحا ديـــارَ لَمِـــيقُ[4] غـــيرَ مُعَرِّدَيْنِ
وَقَدْ جاشَتْ جُيوشُ الموتِ فِيهَا بـــأَهْوَلَ من توافي الأَيْهَمَيْنِ[5]

---

(١) ديوان ابن دراج : ٩٧

(٢) نفسه : ٩٩

(٣) نفسه : ٥١١-٥١٢

(٤) لميق: مدينة تقع في البرتغال الآن شمال غربي لشبونة (د.مكي، ديوان ابن دراج: ٥١١ هامش ٢٨)

(٥) يعني بالأيهمين: السيل والحريق.

كَــأَنَّ مَجَــرَّةَ الأَفلاكِ حَفَّتْ بِهَـــا محفوفَـــةً بالشِّـــعْرَيَيْنِ
وَقَــدْ زُمَّتْ رِكابُ الشِّرْكِ منهَا إِلَــى سَــقَرٍ وَكَانَــا الحادِيَيْنِ
ونــاءا بالدمــاءِ عَلَــى رُباها حَـياً للدِّيــنِ نَــوْءَ المِرْزَمَيْنِ
وَقَدْ حَسَــفا كُرُنَّةَ[1] بالعَوَالِي و بُوغَةَ[2] بادِئَيْــنِ وعائِدَيْــنِ

ويــتغنى ابــن دراج في قصيدة أخرى بفتح المنصور مدينة (شنت ياقب) أو شنتياقة وهي العاصمة القديمة لمنطقة جليقية "وكانت هذه المدينة ــ ولا تزال ــ من أقدس بقاع المسيحية الإسبانية والأوربية عامة، إذ كان إليها حجهم وتعبدهم"[3]، وقد ارتفعت مكانتها في العصور الوسطى بين المسيحيين في غرب أوربا كله حتى أصبحت من أول مراكز الحج بين أمم النصرانية واشتهرت بكنيستها[4] وقد غزاها المنصور سنة ٣٨٧ وشهد ابن دراج الغزوة بنفسه، ووصفها في قصيدة رائعة قال فيها:[5]

اليوم أَنْكَصَ إِبلــيسٌ عَلَى عَقِبِــهْ مُبَرَّءاً سَبَــبُ الغــاوينَ مِــن سَبَبِــهْ
واسْتَيْقَنَتْ شِيَعُ الكفَّارِ حَيْــثُ نَأَتْ فِي الشَّرْقِ والغربِ أَنَّ الشِّرْكَ من كَذِبِهْ

(١) يرجح د. مكي أن ابن دراج إنما عني بهذا الموضع" كورونيو Corono"وهو اسم نهر تقع عليه بلدة صغيرة تحمل نفس الاسم وتقع في مقاطعة "لاكرونيا" انظر: ديوان ابن دراج: ٥١٢ هامش١)

(٢) لعله يعني (بوغو) وهو اسم نهر صغير وكان من الطرق التي يسلكها النصارى في الحج إلى "شنتياقب" د.مكي، ديوان ابن دراج: ٥١٢ هامش٢)

(٣) ديوان ابن دراج، المقدمة : ٣٤

(٤) ديوان ابن دراج: ٥٨٣ (هامش١)

(٥) ديوان ابن دراج : ٥٨٣

بِشنْتـيـاقَةَ لمـا أن دَلَفْـتَ لَـهُ بالبِيضِ كالبدرِ يَسْرِي فِي سَنا شُهُبِهْ
وحَلْبَـةُ الدينِ والإِسلامِ عاطِفَـةٌ عَلَيْكَ كالفَلَكِ الجاري عَلَى قُطُبِـهْ
حَتَّى فَصَمْتَ عُرى دينِ الضلالَةِ من راسي القواعِـدِ ممنوعِ الحِمى أَشِبِـهْ

ويصـف ابن دراج في قصيدته ما تتمتع به مدينة (شنتياقب) من مكانـة دينـية في نفوس النصارى ويشير إلى كنيستها المشهورة التي كان يقصـدها حجاج النصارى، ويصدر في وصفه عن وجهة النظر الإسلامية فيقول:[١]

مما اصْطَفَتْ عُبّدُ الطّاغُوتِ واعتقدَتْ وشَـيَّدَ الكُفْرُ فِي الآلافِ من حِقَبِهْ
عمـودُ شِـركِهِمُ السَّـامِي ذوائِبُهُ والـرُّومُ والحُبْشُ والأَفْرَنْجُ من طُنُبِهْ
تَحجُّـهُ فِـرَقُ الكُفّـارِ سـائِلَةً كـالجَوِّ أظْلَـمَ فِـيهِ مُلتَقى سُحُبِهْ
مُسْتَوْدَعٌ فِي شِعابِ الأَرضِ حَيْثُ نَأَى شُـمُّ الجِـبالِ ولُـجُّ البحرِ من حُجُبِهْ
مـن كُـلِّ أَغْـبَرَ من عَضِّ السِّفارِ بِهِ وساهِمِ الوجه من طُولِ السُّرَى شَحِبِهْ
وكُـلِّ مُهْـدٍ إِلَـى أَركـانِ بِيعَتِهِ مَـا عَـزَّ مِـن نفسهِ فِيهَا ومن نَشَبِهْ
قَـدْ طالمـا أَحْفَتِ الأَملاكُ أَرْجُلَها فِـيهِ وَخَـرَّتْ عَلَى الأَذْقانِ من رَهبِهْ

ويصـور ابـن دراج الحرائق التي أشعلها جيش المنصور في المدينة مبشراً بانتصار الهدى على الكفر والضلال، يقول:

أَمَمْـتَهُ بجُـنودِ الحـقِّ فانْقَلَبَـتْ بغُـرَّةِ الفـتحِ من تغييرِ مُنْقَلَبِهْ
وسُـمْتَهُ جاحِمـاً للـنارِ مَـا بَقِيَتْ نفسٌ من الكفرِ إِلّا وَهْيَ من حَطَبِهْ
يا حُسْنَ مرأَى الهُدى من قُبْحِ مَنْظَرِهِ وبَـرْدَ أَكبادِ حزبِ اللهِ من لَهَبِهْ

---

(١) ديوان ابن دراج: ٥٨٤

وكان لهذا الفتح صداه الواسع في شعر ابن دراج، فتغنى به في قصيدة أخرى قال فيها:[1]

وَفي شَنْتِ ياقُبَ أَوْرَدْتَها شوازِبَ يَبْغِينَ في البحرِ ثارا
فسِرْتَ هِلالاً تُباري الهلالَ إلَيْها وبَحْراً يخوضُ البحارا
وشمساً تَطَلَّعُ بالمَغْرِبَيْنِ بحيثُ تُوافي ذُكاءُ الغُبارا
فما رِمْتَ حَتَّى عَلَتْ جانباها بأيدي المَذَاكِي عَجاجاً مُثارا
تَهُبُّ بِهَا فِي الهواءِ الرِّيا حُ إِمَّا دُخاناً وإما غُبارا
وَلَمْ يَسْتَطِعْ ياقُبٌ نَصْرَهَا ولا دَفْعَ الخَسْفَ عنهُ انْتِصارا
لَئِنْ غَوَّرَتْ في شَغافِ الشّمالِ لقد أَنْجَدَ الفَتْحُ مِنْها وغَارا

ويذكر ابن دراج في قصيدته موضعاً آخر هو حصن (لنيوش) الذي افتتحه المنصور وكان حصناً استراتيجياً مهماً ويقع الآن في حدود البرتغال، ويشير ابن دراج إلى تحطيم هذا الحصن فيقول:[2]

ولَنْيُوشُ أَمْطَرْتَها صائبات تُصيبُ النفوسَ وتَعْفو الدِّيارا
هَزَزْتَ إِلَيْها رِماحاً طِوالاً تُصَيِّرُ أعمارَ قومٍ قِصارا
فغادَرْتَها في ضَمانِ الإلهِ ويَمَّمْتَ أعلى وأَنْأَى مَزَارا
وَقَدْ يَفرِسُ الليثُ أَرْوى الهضابِ ويُهْمِلُ حَرْشَ الضِّبابِ احْتِقارا
وخَلَّفْتَ فِيهَا مُبِيدَ الضَّلالِ يُقَرِّبُها لَكَ ثوباً مُعَارا

---

(١) ديوان ابن دراج : ٦٠٩

(٢) ديوان ابن دراج: ٦٠٩

يُكَفكِـــفُ أَدْمُـــعَ عَـــيْنٍ سِجاماً　　ويُـــبْرِدُ أَحشاءَ صَدْرٍ حِرَارا

وســـجَّل ابن دراج في شعره غزوات المنصور في بلاد "بنبلونة" أو "نـــبارة" الـــتي كان يحكمها الملك غرسيه الثاني بن شانجة(ت٣٩١هـــ)، ويذكـــر أسمـــاء مواضع مسيحية دارت حولها المعارك، ويشير إلى كنيسة (شنت اقروج) التي خربتها أو أحرقتها تلك الحملات التي استهدفت روما المسيحية فيقول:[(١)]

فـــتلكَ الرُّبى من بَنْبلُونَةَ والحِمى　　مـــنَ الرَّاحِ مُسْوَدٌّ بأَرْجائِه الصُّبْحُ

وبيعَةُ شَنْتَ اقْروجَ أَوْرَيْتَ فَوْقَها　　سَـــنا لَهَـــبٍ فـــيهِ لَعَمْيائِها شَرْحُ

وَكَانَ لَهَا الفِصْحُ الأَجَلُّ فأَصْبَحَتْ　　لِـــنارِكَ فِصْـــحاً مَا لَهَا بَعْدَهُ فِصْحُ

فلِلّـــهِ عَيْـــنا من رأى بِكَ صَرْحَهَا　　ومِنْ جاحِمِ النِّيرانِ فِي سَمْكِهِ صَرْحُ

رفعـــتَ من الصُّلْبَانِ فِي عَرَصاتِها　　وقُـــوداً لَـــهُ فِي وَجْهِ رُومِيَّةٍ لَفْحُ

وفَجَّـــرْتَ فِيهَا من دِماءِ حُماتِها　　بُحُـــوراً لَهَا فِي تاجِ مُلكِهِمُ نَضْحُ

وتـــرددت أصداء فتوحات (بنبلونة) غير مرة في شعر ابن دراج، فوصـــف هزيمة غرسية بن شانجة وصور الحرائق والخراب الذي حلّ ببلاد الشرك فقال:[(٢)]

وجـــاحمٌ مـــن حريقٍ لا خمودَ لَهُ　　إلاَّ ونَفسُ ابن شَنجٍ وسْط مُفتأَدِهْ

كَتائـــباً تَرَكَـــتْ عُـــبَّادَ مِلّـــتِهِ　　لا تعرفُ السبتَ فِي الأيامِ من أَحَدِهْ

إن ضاقَ عن مرِّها رَحْبُ الفضاءِ فقد　　نَفِـــذْتَ مـــن قَلْـــبِهِ فِيهَا إِلَى كَبِدِهْ

---

(١) ديوان ابن دراج : ٥٢٩ والهامش (١)

(٢) المصدر نفسة : ٢٤٠

فتَّـــتَّ مـــنها قواصـــي بَنبلُونَـــته		بـــالهَدْمِ والنَّارِ فَتّاً فتّ فِي عضدِهْ

ويشـــير ابـــن دراج في إحدى قصائده إلى غارة قام فرسان (ابن شانجة)[1] على أهل قلعة أيوب من أعمال سرقسطة وقتلوا فيها أخا واليها "حكـــم بـــن عبد العزيز النجيبي" وقوماً معه، فأمر المنصور بن أبي عامر بضـــرب أعـــناق من كان في أسره بقرطبة من فرسان ابن شانجة وأقاربه الأشراف الذين ظفر بهم في مدينة (أونة قشتيل) على مقربة من (سرقسطة وغيرهـــا من بلاد "بنبلونة" وركب ابنه عبد الرحمن بن المنصور المعروف باســـم (شنجول) إلى باب (السدة) وهو باب قصر الخلافة بقرطبة- وهو المكان الذي تعرض عليه رءوس من يتم إعدامه بقرطبة من زعماء النصارى الذيـــن يظفر بهم المسلمون في المعارك — وقام عبد الرحمن شنجول بقتل شـــريف منهم بيده، وسجل ابن دراج هذا الحدث فقال مشيراً إلى مقتل شهيد المسلمين فقال:[2]

قَـــتلَ المشـــركونَ مِـــنَّا شهيداً		فَتَمَـــنَّوْا بـــأَنَّهُمْ أَنْشَـــرُوهُ
سُـــفِكَتْ بـــالدَّمِ الكريمِ دِماءٌ		وكـــذا يُوبِـــقُ الحَلـــيمَ السَّفِيهُ
قَـــتلوهُ مُصَـــفَّداً فَـــوَدَوْهُ		لَـــوْ عَـــلا ظَهْرَ طِرْفِهِ لَمْ يَدُوهُ

---

(١) يرجح د. مكي أن يكون المقصود هو ملك البشكنس (نبارة) صاحب (بنبلونة) أو غرسية بن شانجة المعروف بـــ(الرعديد) الذي كان يحكم (نبارة) بين سنتي ٣٨٤، ٣٩١هـــ (ديوان بن دراج، هامش١ص٥٧٠)

(٢) ديوان ابن دراج : ٥٧١

ويشـــير إلى ردّ فعل المسلمين وإقدامهم على قتل وجهاء النصاري فيقول:[١]

لَقِيَ الموتَ فِي الرَّصِيفِ[٢] رِجالٌ ... كُلُّهُــمْ فِــي بَـنِي أَبيهِ وَجيهُ
غـــادَرَتْهُمْ صــوارِمُ الهندِ والزُّرْ ... قُ حَصِــيداً يَا بُؤْسَ يَوْمٍ لَقُوهُ
زَرَقَ العِلْــجَ زَرْقَـــةً تركَـــتْهُ ... حَرِضــاً قَــدْ أظلَّــهُ المكروهُ
مـــاتَ ذُعْراً منه وكم لَقِيَ الأَبــ ... طَـــالَ فِـــي هَبْوَةٍ فما ذَعَرُوهُ
ولكَـــمْ أَيِّمـــاً لَـــهُ وقَتِـــيلاً ... صَـــمَّ عن أَنْ يُجيبَ مَنْ يَدْعُوهُ
وأَسِـيراً مُصَــفَّداً فِـــي وَثَـــاقٍ ... وغِـــياثاً لطـــارِقٍ جَـــفَّ فُوهُ
ذَاكَ حَـــتَّى إذَا اللقــاءُ دَعــاهُ ... عَـــايَنَ الناسُ منهُ مَا اسْتَعْظَمُوهُ

ومن المواضع المسيحية التي غزاها المنصور بن أبي عامر وحرص ابن دراج عـــلى ذكـــرها في شعره (شرنبة) و(قنتيش) ووادي (آر) ويصف انتصار المنصور على كتائب الإفرنج في تلك المواضع فيقول:[٣]

واســتَوْدَعُوا جنبَيْ شَرَنْبَةَ[٤] وَقعَةً ... هَـــدَّ الجِـــبالَ الراسياتِ وَئيدُها
دلَفـــوا إلَى شَهباءَ حان حَصادُها ... بظُـــبَى رُؤوسُ الدَّارعين حَصيدُها
وشِعابُ قَنتيشٍ وَقَدْ حَشَرَتْ لَهُمْ ... أُمَـــمٌ بُغـــاةٌ لا يُكـــتُّ عديدُها

---

(١) ديوان ابن دراج : ٥٧١-٥٧٢

(٢) الرصيف: مكان بقرطبة.

(٣) ديوان ابن دراج: ١٤٦-١٤٧

(٤) شـــرنبة: نهـــير يسمى الآن Riojarama وهو فرع من نهر تاجه EL Tajo (ديوان ابن دراج: ١٤٦ هامش ١)

وَرِيَـــتْ بعـــزِّ المسلمينَ زُنودُها وذَنَتْ لَهَا فِي آرُ[1] تَحْتَ صَوارِمٍ

بيضـــاً يُشـــيِّعُ حدَّها توحيدُها من بعْدِ مَا قَصفُوا الرِّماحَ وأصلَتُوا

فِـــي ظِلِّ هَبوَتِها فَحَانَ سُجُودُها فكأنَّمـــا رُفِعـــتْ لَهَـــا صُلبانُها

ويشـــير إلى غـــزوة أخرى جرت أحداثها في (ناجر) أو (ناجرة) بالإسبانية Najera وكانت ثغراً مهماً، فيقول:[2]

بســـيفِ ســـليمانَ المُوَكَّـــلِ بالمَسْحِ وسيفُكَ فِي الأعناقِ والسُّوقِ مُقْتَدٍ

ثَنَـــتْ كَـــبِدَ الشيطانِ داميَةَ الجُرْحِ لَمَعْـــتَ بِـــهِ فِي جوٍّ ناجِرَ لمعةً

أَحَـــلَّ بِهَا ليلَ الأَسى مُطْبِقَ الجُنْحِ وصبَّحْتَها فِي جنح ليلٍ من القَنا

بَنِيها بضربٍ فِي الطُّلى فائزِ القِدْحِ فأيَّـــةُ أُمٍّ للضـــلالِ قَهَـــرْتَها

ويشيد ابن دراج بغزوة أخرى فتح فيها المظفر بن المنصور حصن "ممقصر" وكان من أهم حصون برشلونة، فيقول:[3]

فغادَرْتَهـــا آيَـــةَ السَّـــائلينا وبَلْـــدَةِ شِـــرْكٍ تَيَمَّمْـــتَها

فكُنْـــتَ علـــيها القَـــوِيَّ الأَمينا ودائِـــعُ مجـــدٍ تَقَلَّدْتَهـــا

ويشـــير إلى قلعـــة (بطر شلج) وكانت من معاقل أعمال (وشقة) المنيعة فيقول:[4]

---

(١) وادي آر.

(٢) ديوان ابن دراج: ٤٠٥.

(٣) ديوان ابن دراج: ٥٩٤

(٤) هـــي بالإســـبانية Peta Seleg ومعناها (الصخرة المالحة) ويتردد اسمها كثيراً في الوثائق المسيحية المحفوظة عن مملكة (بنبلونة)، (ديوان ابن دراج: ٢٩٧ هامش٢)

وإنْ أحْرَزُوا فِي قُطْرِ شَنْجٍ نُفوسَهُمْ فغـانِمُ مَا لا يَحْفَظُ اللهُ غارِمُهْ
فكَـمْ قُـدْتَ فِي أكْنافِها من مُقَنَّعٍ نُفُوسُ الأَعادِي شُرْبُهُ ومطاعِمُهْ

ويذكر ابن دراج مدينة (إيلياء) الإسبانية التي غزاها المنصور،فيقول:[1]

و إيلياءُ[2] الَّتِي كانَتْ أَليَّة ذِي جَهْدٍ من الشِّرْكِ خاشِي الإِثْمِ مُرْتَقِبهْ
رفَعْتَ منها سَنا نارٍ أضاءَ لَهُمْ مَـا كَـانَ أَوْدَعَها الشيطانُ من رِيَبِهْ
يشُبُّها منكَ عزمٌ لَوْ وَنَى ضَرَمٌ مـنها لأَضْـرَمَها فِي اللهِ منْ غَضَبِهْ

وعلى هذا النحو كان شعر ابن دراج -في بعض جوانبه- بمثابة وثائق تاريخية وجغرافية على قدر كبير من الأهمية إذ تتبع فيه الوقائع والأحداث التاريخية وسجل المواضع الجغرافية التي كانت مسرحاً للصراع بين المسلمين والممالك المسيحية في عصره.

صور الملوك والقواد الإسبان في شعر ابن دراج:

يحتفظ شعر ابن دراج بصورة نادرة للملوك والقواد الإسبان في مواقف الهزيمة والأسر والهدنة والمصاهرة والسفارة وغيرها، فمن هؤلاء غرسية بن شانجة ملك نبارة الذي حكم بين سنتي ٣٨٤، ٣٩١هـ وقد واجه المنصور بن أبي عامر في عدة معارك منها معركة جريرة Geyveya سنة ٣٩٠هـ التي ائتلفت فيها الممالك النصرانية لمحاربة المنصور، فاشتركت في

(١) ديوان ابن دراج : ٥٨٥

(٢) إيلياء: تسمى الآن بادرون Padron من أعمال لاكورونيا على الساحل الشمالى الغربي لأسبانيا وتقع بالقرب من شنت ياقب.

الاستعداد للحرب قشتالة التي كان يحكمها شانجة بن غرسية بن فرذلند ونبارة التي كان يحكمها غرسية بن شانجة وقريون Carrion التي كان يضطلع بحكمها غرسية بن غومس وأسرته وليون التي كانت خاضعة لسلطان الفنش بن برمند (ألفونسو الخامس Alfonso) وكان شانجة بن غرسية قومس قشتالة هو زعيم هذا الائتلاف النصراني، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار المنصور العامري على جيوش المسيحيين بعد أن كادت الهزيمة تلحق بجيوش قرطبة، وكان لابني المنصور عبد الملك وعبد الرحمن في هذا اليوم بلاء حسن، وقد اقتحمت الجيوش الإسلامية بعد ذلك النصر أرض بنبلونة وخربتها"[١].

وقد تغنى ابن دراج بانتصار المنصور في هذه المعركة فقال:[٢]

فَضَعْضَعْتَ تيجانَ الضَّلالِ بوقْعَةٍ   عَلَى الشِّرْكِ لا يُؤْسى لَهَا أبداً جُرْحُ
ورَوَّيْتَ من ماءِ الجَماجِمِ والطُّلى   مُتونَ جِيادٍ شَفَّها الظَّمَأُ التَّرْحُ

ويصور ابن دِراج وقع الهزيمة على غرسية بن شانجة ويصفه بـ(عميد الشرك) ويشير إلى فراره لائذاً بالجبال وقد تركت الهزيمة أثرها على جسده ونفسه، يقول:[٣]

تركْنَ عميدَ الشِّرْكِ مَا بَيْنَ جفنهِ   وبَيْنَ غِرارِ النَّوْمِ عهدٌ ولا صُلْحُ
يلوذ بِشُمِّ الراسياتِ وسَحْرُهُ   من الطَّوْدِ شِعْبٌ للمُخاتِلِ أَوْ سَفْحُ

---

(١) ديوان ابن دراج : ٥٢٥ (هامش)

(٢) ديوان ابن دراج : ٥٢٦

(٣) المصدر نفسه: ٥٢٧

وَمَــا كَــرَّ إِلّــا نادِباً لمعاهِدٍ ... لَــكَ الفَــوَحُ الباقي بِهَا وَلَهُ التَّرْحُ

وتطــل صورة شانجة بن غرسية خامس ملوك البشكنس أصحاب بنــبلونة الــذي حكم بين سنتي ٣٩١، ٤٢٧هـــ وقد هزمه المنصور في معــركة بنــبلونة هزيمة نكراء وصوّر ابن دراج هروب شانجة بعد هزيمته فقال:(١)

وقد تركْتَ ابنَ شَنجٍ فلَّ مُعتَرَكٍ ... إن لَمْ يَمتْ من ظُباهُ ماتَ من كَمَدِهْ

مُشَــرَّداً فِي قواصي البيدِ مُغترِباً ... وَقَدْ مَلأْتَ فِجاجَ الأَرْضِ من خُرُدِهْ

ويشير ابن دراج في قصيدته إلى شخصية مسيحية قيادية أخرى هي شخصية (فرذلند) ولعله "كان أحد الأمراء المستقلّين على بعض الإمارات المســيحية المحــيطة بمملكــة نبرة والتي كان ابن شنج يبذل كل جهوده للإستيلاء عليها واحدة بعد الأخرى"(٢) وفيه يقول ابن دراج:(٣)

وَ فِرْذَلندُ رَدَدْتَ المُلكَ فِي يَده ... وَمَــا رَجا غَيرَ رَدِّ الرُّوحِ فِي جَسَدِهْ

شِــبلٌ دعــاكَ لأُسْدٍ فوقهُ لِبَدٌ ... فأقشــعتْ عــنه والأَظفارُ فِي لِبَدِهْ

وطــارَ نحوَكَ سَبحاً فِي مَدامعِهِ ... وَقَــدْ تــزَوَّدَ مِلْءَ الصَّدر من زُؤْدِهْ

ثم انــثنى وملوكُ الشِّرْكِ أَعبُدُهُ ... إِذْ جــاءَ عــبدَ يَــدٍ أَلقى لَهَا بيدِهْ

---

(١) ديوان ابن دراج: ٥٤١

(٢) ديوان ابن دراج : ٢٤١ (هامش١)

(٣) المصدر نفسه : ٢٤١

وتتردد صورة ابن شنج في قصيدة أخرى يشير فيها ابن دراج إلى تبادل الأسرى فيقول:[1]

فللّــهِ كــم أغلَيْتَ من دَمِ مُسْلِمٍ وأرخَصْــتَ فِي أعدائِهِ من دَمٍ غالِ
وأســلَمْتَ للإسلامِ فِيهَا بضاعَةً تعــود بأضــعافٍ وتــوفي بأَمثالِ
وحسبُكَ فِيهَا بِابْنِ شَنْجٍ وجُنْدِهِ مــن السَّــبْيِ أبْــدالاً وأيَّةُ أبدالِ
ملــيكاً وَمَا يحوي شَرَيْتَ بِبَعْضِهِ وأرْبِــحْ بِقِــنطارٍ يُــباعُ بمــثقالِ
فمــا حــازَ غازٍ مثلَهُ فَيْءَ مَغْنَمٍ ولا نــالَ ســابٍ مثلَها سَبْيَ أنفالِ

وتبرز شخصية غرسية بن فرذلند قومس قشتالة بصورة واضحة في شعر ابن دراج وقد هزمه المنصور في غزوته التي وجهها إلى قشتالة في سنة ٣٨٤ وفــتح فيها قلعتي "شنت إشتيبن" و"قلنيه" ويصور ابن دراج هزيمة غرسية وما حلّ به من خزي ومذلة فيقول:[2]

وتركــت شَنْتَ اشْتِيبناً وكأنَّما حَطَّتْ سيوفُكَ من عِداها الفَرْقَدَا
فَقَصَــرْتَ مُدَّتَهــا بوقفةِ ساعَةٍ أبْقَــتْ لَكَ الفخرَ الجليلَ مُخلَّدا
شَــيَّدْتَ عزَّ المسلمينَ بِهَدْمِ مَا قَــدْ كَــانَ عِزُّ الكفرِ منها شَيَّدَا
وتَرَكْــتَ غَرْسِيَةً بنقمةِ غَدْرِهِ بالرَّوْعِ فِي الأَرضِ الفضاءِ مُقَيَّدَا
لهفــانَ يجــتابُ النهارَ مُرَوَّعاً بظــباكَ واللــيلَ الــتمامَ مُسَهَّدا
خــزيانَ قَدْ أوْسَعْتَ حُرَّ بلادِهِ وديــارِهِ لَهَــبَ الســعيرِ المُوقَدَا

---

(١) ديوان ابن دراج : ٤٠٠

(٢) المصدر نفسه : ٦٠٢

قَدْ غَرَّ أحزابَ الكُماةِ وَمَا حَمَى ... وأَضَلَّ أشياعَ الضَّلالِ وَمَا هَدَى

ولم يرتدع غرسيه بن فرذلند برغم هزيمته الساحقة، فعاود الهجوم علـى الثغور الإسلامية الواقعة على ضفاف نهر "نويره" فسار المنصور بن أبي عامر لملاقاته مرة أخرى وانتهت المعركة بوقوع غرسية في الأسر سنة ٣٨٥هـ وأمر المنصور بحمله إلى قرطبة غير أنه توفي بعد ذلك بعدة أيام، وقد تغنى ابن دراج بهذا الحدث العظيم فقال:[١]

فَـيَهْنِ الديـنَ والدنـيا بشيرٌ ... بِغَرْسِـيَةِ الأَعـادِي والعَـدَاءِ

بصُـنْعٍ أعْجَـزَ الآمـالَ قِدْماً ... وقَصَّـرَ دُونَـهُ أَمَـدُ الرَّجاءِ

أَلَـذُّ عَلَـى المسامعِ من حياةٍ ... وأَنْجَـعَ فِي النفوسِ من الشِّفاءِ

فـيا فَـتْحاً لُمفْتَـتِحٍ وبُشرى ... لمنـتظِرٍ ويـا مَـرْأىً لِـراءِ

ويصف ابن دراج هذا الأسير الثمين الذي لا يعادله أحد في الفداء ويشبهه بالداء العياء الذي شفي منه الدين فيقول:

أَسِـيرٌ مَـا يُعـادَلُ فِي فكاكٍ ... وعـانٍ مَـا يُساوَى فِي فِداءِ

هُـوَ الـدَّاءُ العَياءُ شَفَيْتَ منهُ ... فمـا لِلدِّيـنِ مـن داءٍ عـياءِ

وفي القصـيدة "تصوير رائع لشخصية غرسية لا يخلو من إعجاب بـه، وهـو إعجاب الخصم بالخصم على ما كانت تقضي به سنن الفتوة والفروسـية في العصـور الوسطى"[٢]، فلا يتحرج ابن دراج من الإشادة

---

(١) ديوان ابن دراج : ٥٧٨

(٢) ديوان ابن دراج، المقدمة: ٣٤

بفروســية غرسية وشجاعته وصلابته ودهائه وجلالة قدره وسمو مكانته ومترلته، يقول:[١]

لقــد كادَتْ سعودُكَ منهُ نَجْماً ... منــيعَ الجَــوِّ وَعْــرَ الإرْتِقاءِ
وأَعْظَمَ فِي الضَّلالَةِ من صليبٍ ... وأَعْلَــى فِي الكتائِبِ من لِواءِ
حَمــى شِــيَعَ الضَّلالِ فأَهَّلَتْهُ ... لِملْــكِ الــرِّقِّ مــنها والولاءِ
زعــيمٌ بالكتائِــبِ والمَذَاكِــي ... ثِمــالٌ للــرَّعايا والــرِّعاءِ
مُــباري سَــيْفِهِ قَدَمــاً وبأْساً ... ومشــفوعُ الــتجارِبِ بالدَّهاءِ

ويــلهج ابــن دراج بعظمة جيش المسلمين الذي أوقع هذا الملك العظــيم في الأسر وينعاه إلى ذوي جلدته من الروم والإفرنج في لهجة لا تخلو من التشفي، يقول:[٢]

وأَســلَمَهُ إِلَى الإِسلامِ جيشٌ ... أَغَــصَّ بِجَمْعِــهِ رَحْبَ الفَضاءِ
لــئِنْ خَذَلَــتْهُ أَطرافُ العوالي ... لقــد آســاهُ إِعــوالُ الــبُكاءِ
بكُــلِّ مُــرَجِّع للنَّوْحِ يُشْجِي ... بَوَاكِــيَهُ بتَثْوِيــبِ الــنِّداءِ
نَعــاءِ إِلَــى ملوكِ الرُّومِ طُرًّا ... ذَوي التِّــيجانِ غَرْسِــيَةً نَعــاءِ
وهَــلْ للــرومِ والإِفْرَنْجِ منهُ ... وَقَــدْ أودى سِــوى سُوءِ العزاءِ
فملــكُ الكُفْرِ لَيسَ بِذِي وَلِيٍّ ... وثــأْرُ الشِّــرْكِ لَيْسَ بذي بَوَاءِ

---

(١) ديوان ابن دراج : ٥٧٨

(٢) نفس المصدر : ٥٧٩

ومن المصادفات أن صاعداً البغدادي تنبأ بأسر غرسيه في اليوم ذاته، وذلك حين بعث بأيل هدية إلى المنصور بن أبي عامر وكتب معه بأبيات يقول فيها:(١)

يا حرز كل مخوّفٍ وأمانَ ... كلّ مشرَّدٍ ومعزَّ كلّ مُذلَّلِ
عبدٌ جذبتُ ببضعه ورفعت من ... مقداره أهدى إليك بأيّل
سميتُه (غرسيةً) وبعثته ... في حبله لِيُتاح فيه تفاؤلي

فقضى في سابق علم الله تعالى وقدره أن غرسية ملك الروم، وهو أمنع من النجوم، أُسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد بالأيّل وسماه غرسيه على التفاؤل بأسره، وكان أسره في ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلاثمائة.(٢)

وقد صوَّر عبادة القزاز مصرع غرسية بعد أسره وعبَّر عن إحساسه بالتشفي والشماتة إزاء هذا الحدث، فقال:(٣)

فرَّقت بين دماغهِ وفؤادهِ ... وجمعت بين غرابهِ والسيّدِ
وكأنما التابوت حنَّط شلوه ... فأتاك فوق الظهر في ملحود
أكلت وديعته الوغى وكأنما ... رُفع الذي أبقته في سفّود
رأسٌ أميلَ عقوبة إذ لم يدن ... لله في أيامه بسدود
طمحت إليه عيوننا فكأنما ... رصدت بطلعته هلال العيد

---

(١) الذخيرة٤/١: ٣٤

(٢) الذخيرة ٤/١ : ٣٤-٣٥

(٣) التشبيهات لابن الكتاني: ٤٦٠

ومن الشخصيات الإسبانية التي ذكرها ابن دراج في شعره شخصية (برمند) الثاني Bermando ملك (ليون) وجليقية بين سنتي ٣٩٠،٣٧٢هـ "وكان السبب في إعلانه ملكاً هو فشل سلفه وابن عمه رذمير الثالث في حروبه ضد المنصور بن أبي عامر مما أدى بأهل جليقية Galicia إلى الثورة على ذلك الملك وتنصيب برمند هذا على عرش ليون.على أن برمند لم يسعه حين ولى الملك إلا إعلان الخضوع الكامل للمنصور ودفع الجزية له وطلب الحماية منه مما حمل المنصور على أن يرسل إليه جيشاً من المسلمين يتكفل بحمايته، غير أن برمند لم يلبث أن نقض عهده. وطرد ذلك الجيش من بلاده فوجه المنصور إليه حملة لتأديبه في سنة ٣٧٧هـ، واحتلت الجيوش الإسلامية عند ذلك مدينة قلبرية Coimbret (في البرتغال الآن)، وفي السنة التالية ٣٧٨هـ احتلت جيوش المنصور عاصمة ملكه ليون Leon وكذلك مدينة سموره Zamora وحينئذ طلب برمند الصلح فقبل المنصور منه، بل إن برمند أهدى إليه ابنته في سنة ٣٨٣ هـ لتكون جارية له فأعتقها المنصور وتزوج منها. غير أن برمند حاول الثورة مرة أخرى وأعلن تمرده على المنصور بإيوائه عبد الملك المرواني الذي تآمر على المنصور، فأرسل هذا إليه حملة ثالثة احتلت مدينة أستورقة Astorga وخربت مملكة ليون، وكان ذلك في سنة ٣٨٥هـ، وفي سنة ٣٨٧هـ سار المنصور بنفسه على رأس حملة رابعة خربت مدينة شنت ياقب وأوقعت بجليقية إيقاعاً شديداً كما أرسل عدة حملات إلى نواحي مملكة ليون، وفي سنة ٣٨٩هـ أوطن المنصور عدداً كبيراً من جنود المسلمين

بمدينة سمورة وجعل أمر هذه الحامية إلى قائده معن بن عبد العزيز التجيبي[1].

ويضفي ابن دراج على شخصية "برمند" الظلال التاريخية التي احتفظت بها الروايات، فيصف هزيمته ويصمه بنقض العهود والإخلال بالمعاهدات والمواثيق، يقول:[2]

وأَخْلَفَ بِرمُنْدَ منها الرَّجاء وَمَا زادَهُ الشِّرْكُ إِلّا تَبارا
أَطَرْتَ إِلَى ناظِرَيْهِ عَجاجاً تركتَ بِهِ عَقْلَهُ مُسْتَطارا
فما يعرفُ العَهْدَ إِلّا امْتِراءً ولا يُوقِنُ العهدَ إِلّا ادِّكارا

ويشير ابن دراج في قصيدة أخرى إلى قائدين من كبار قواد ابن شنج ويعني به " شانجه الأكبر" ملك نبارة، وهي تلك المملكة النصرانية المتاخمة لمملكة التجيبيين في سرقسطة، ويبدو أن جيوش منذر بن يحيى استطاعت قتل هذين القائدين، وأن منذراً أمر بنصب رأسيهما على باب "طليطلة" من أبواب مدينة سرقسطة جرياً على العادة المتبعة في العصور الوسطى[3]، وصوّر ابن دراج هذا الحدث فقال:[4]

وَعْداً عَلَى اللهِ حَقّاً نَصْرُ مَنْ نَصَرَهْ وحُكْمُ سَيْفِكَ فِي هامات مَنْ كَفَرَهْ
رأسٌ مُطِلٌّ عَلَى بابَيْ طُلَيْطِلَةٍ يُومي إلى الكُفْرِ هَذَا مَوْعِدُ الكَفَرَهْ

---

(١) ديوان ابن دراج : ٦٠٨ (هامش١)

(٢) نفسه : ٦٠٩-٦١٠

(٣) ديوان ابن دراج: ٦٥٠(هامش١)

(٤) نفسه : ٦٥٠.

وهامَةٌ قَدْ قَضَتْ نَحْبَ الحِمامِ ضُحىً ... وهامَـــةٌ فَوقَ صَفْحَي شَنْجُ مُنْتَظِرَهْ
أوفى عَلَـــى مَوْعِـــدٍ مِـــنهُ تُراقِـــبُهُ ... تَدْعُـــو هَلُـــمَّ إلى مُسْتَودَعِ الغَدَرَهْ
وناخِـــراً أمْسِ فِي البيداء من عِظَمٍ ... والـــيومَ أصـــبَحَ فِيهَا أعْظُماً نَخِرَهْ
كَـــم مَـــن سمِيٍّ له فيها وذي نسبٍ ... لم يدخِّـــرْ نابَـــهُ عنه ولا ظُفُرَهْ[1]

وقد صرح ابن دراج باسم أحد هذين القائدين وهو (لُبّس) –بضم الـــلام وتشديد الباء– وهو اسم كان وما زال شائعاً في أسبانيا النصرانية، فقال:[2]

فَهَلْ لِنفسِ ابنِ شَنْجٍ بعدَها عِوَضٌ ... مِنْ لُبِّ لُبِّس[3] أو من كافِرِ الكَفَرَهْ
صِـــنْواهُ فِي حربِهِ أو فِي ضَلالَتِه ... قَـــدْ كانَ ذا سَمْعَهُ فِيهَا وذا بَصَرَهْ
وَفَـــتْ دِماؤُهُمـــا ثَأراً فلم يَدَعا ... للمسلمينَ عَلَى حربِ الضَلالِ تِرَهْ

---

(١) يستدل د. محمود مكي على أن "في هذا البيت دلالة على أن ابن دراج كان يعرف اللاتينية الشائعة في أيامه بين الأندلسيين، فهو يشير هنا إلى اسم أحد القائدين النصرانيين وهي Lopez الذي أشرنا إليه في التعليق على مناسبة هذه القصيدة، وهذا الاسم مشتق من اللاتينية Lupus ومعناها الذئب (وهي بالإسبانية الحديثة Lobo) فابن دراج إنما عرض بالأصل الذي اشتق منه اسم القائد المذكور، إذ إنه يقصد أن يقول:"كم من ذئب مثل هذا القائد مسمى باسمه لم يأل جهـــداً في إيـــذاء المسلمين والعدوان عليهم بنابه وظفره حتى رد الله كيده وبطش به على يد منذر". (ديوان ابن دراج : ٦٥٠ هامش ٢)

(٢) ديوان ابن دراج : ٦٥١

(٣)أشـــار د. محمود مكي إلى قائدين من قواد شانجه الأكبر، أحدهما اسمه(لُبّس بن غندشلب، والآخر: لُبّس بن شانجه، ولعل ابن دراج يقصد أحدهما.

السفارات والسفراء والوفود:

لم تكن الحروب والمعارك هي الوجه الوحيد للعلاقة بين المسلمين والإسبان، وإنما كانت هناك صور أخرى تعكس الجوانب الإيجابية والسلمية لعلاقة الطرفين، ومنها تبادل السفارات والسفراء والوفود فيما يشبه العلاقات الدبلوماسية، واضطلعت قرطبة بدور كبير في هذا المجال في فترة الخلافة الأموية، و"كان الوفد السفاري يتكون من مجموعة من الأفراد، بينهم رئيس للوفد، تتوافر فيه الصفات اللازمة من عراقة النسب، ومهارة في التفاوض وحنكة سياسية، واطلاع واسع، وفصاحة، وكان السفير ومن معه يتمتع بما يسمى اليوم بالحصانة الدبلوماسية، وهو محط احترام وتقدير منذ وصوله إلى رحيله، وكان السفير يقدم وثائقه في حفل رسمي يقام لهذا الغرض، يدل على تقدم كبير في قواعد اللياقة،.. وكان استقبال السفراء.. مجالاً لإبراز عظمة الدولة ورخائها وقوتها"[1]

وتنوعت أهداف تلك السفارات ما بين رغبة في عقد هدنة أو صلح أو صداقة أو تبادل تجاري.

وتحتفظ المصادر الأندلسية بأخبار كثير من هذه السفارات بدءاً من عهد الإمارة، فيذكر المقّري أن ملك القسطنطينية توفلس Theophilus بعث إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٢٥هـ بهدية يطلب مواصلته، فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية وبعث إليه بسفارة من كبار

(١) أدب السياسة والحرب: ٥٩-٦٠

رجـــال الدولة[1]، ونشطت السفارات في عهد الخلافة لا سيما في خلافة الناصر، وتذكر الروايات أنه لما هَلك غرسية بن شانجة ملك البشكنس قام بأمرهم بعده أمه (طوطة) Teoda أو Toda وكفلت ولده ثم انتقضت على الناصـــر فغـــزا بلادها فجاءته (طوطة) بطاعتها وعقد لابنها غرسية على بنبلونة.[2]

كما وفدت على الناصر سنة ٣٣٦هـــ رسل صاحب قسطنطينية الإمـــبراطور قســـطنطين واحتفل الناصر لقدومهم في يوم مشهود حيث "ركـــب في ذلـــك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكّة، وزين القصر الخـــلافي بـــأنواع الزينة وأصناف الستور، وجُمّل السرير الخلافي بمقاعد الأبـــناء والأخوة والأعمام والقرابة، ورُتّب الوزراء والخدمة في مواقفهم، ودخـــل الرُّســـل فهالهم ما رأوه، وقُرّبوا حتى أدّوا رسالتهم، وأمر يومئذ الأعـــلام أن يخطـــبوا في ذلك الحفل، ويعظّموا من أمر الإسلام والخلافة، وشـــكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه، وذلّة عدوّه، .. ثم انصرف هـــؤلاء الرســـل وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المـــودة، ويحسن الإجابة، ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطينية"[3]

---

(١) نفح الطيب ١: ٣٤٦

(٢) المصدر نفسه ١: ٣٦٣-٣٦٤

(٣) البيان المغرب ٢: ٣١٩، تاريخ ابن خلدون ٤: ١٤٢

وتشـــير الروايات إلى توافد السفارات والرسل على الناصر، فقد جـــاءه رسول من ملك الصقالبة (هوتو) Otton، ورسول آخر من ملك الألمـــان، ورســـول آخر من ملك الفرنجة (أوقه Hugo) ورسول آخر من ملـــك الإفرنجة بقاصية الشرق (كلدة Guido) واحتفل الناصر لقدومهم وبعـــث مـــع رسول الصقالبة ربيعاً الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجع بعد سنتين.(١)

وفي سنة ٣٤٤ جاء رسول أردون يطلب السلم فعقد له، ثم بعث يطلب إدخال فرذلند قومس قشتيلة في عهده، فأذن له في ذلك، وأُدخل في عهـــده. وكـــان ملك الناصر بالأندلس في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تـــبق أمـــة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية.(٢)

وتحـــتفظ المصادر بتفاصيل دقيقة عن مراسم استقبال السفارات، ومـــنها سفارة امبراطور القسطنطينية حيث رحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصـــر قرطبة لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم في بهو المجلس الزاهر، وقعـــد عـــن يميـــنه وليّ العهد من بنيه، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ووقف الحجّاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهـــم، وقـــد بُسط صحن الدار أجمع بعتاق البُسط وكرائم الدرانك،

---

(١) نفح الطيب ١: ٣٦٥

(٢) المصدر نفسه ١: ٣٦٥-٣٦٦

وظُلّلت أبواب الدار وحناياها بظُلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوهَ من بهجة الملك وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون، وهو في رقّ مصبوغ لوناً سماوياً، ومكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مُدرجة مصبرغة أيضاً مكتوبة بخط إغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل درج فضّة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملوّن البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه: قسطنطين ورومانس المؤمنان بالمسيح، الملكان العظيمان ملكا الروم، وفي سطر آخر: العظيم الاستحقاق المفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس- أطال الله بقاءه.(١)

وتحتفظ المصادر كذلك بمراسم استقبال (أردون بن أذفونش) على عهد المستنصر وذلك عندما بلغه اعتزام المستنصر الغزو إليه، فخرج قبل أمان يُعقد له أو ذمة تعصمه في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه وتقدموا إلى باب قرطبة، فمروا بباب قصرها، فلما انتهى أردون إلى ما بين السّدة وباب الجنان سأل عن مكان قبر الناصر فأشير له إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة، فخلع قلنسوته، وخضع نحو مكان القبر، ودعا،

---

(١) نفح الطيب ١: ٣٦٦-٣٦٨

ثم ردَّ قلنسوته إلى رأسه، وأمر المستنصر بإنزال (أردون) في دار الناعورة، وقد كان تقدَّم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء، وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسَّع له في الكرامة ولأصحابه ثم استدعاه المستنصر بالله بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من العدو والأسلحة والزينة، وقعد المستنصر على سرير الملك في المجلس الشرقي وقعد الأخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفاً في المجلس ومعهم القضاة والفقهاء، وأتى الوزير محمد بن القاسم بن طملس -صاحب الحشم- بالملك (أردون) وأصحابه وعالى لبوسه ثوب ديباجيّ روميّ أبيض وبَلْيوال من جنسه وفي لونه، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه، فدخل بين صفيّ الترتيب يقلّب الطرف في نظم الصفوف، ويجيل الفكر في كثرتها وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها حتى وصلوا إلى باب الأقباء أول باب قصر الزهراء فترجَّل جميع من كان خرج إلى لقائه وتقدَّم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم، حتى انتهوا إلى باب السُّدة، فأمر القوامس بالترجُّل هنالك والمشى على الأقدام، فترجّلوا ودخل الملك أردون وحده وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالدخول عليه فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع بُرنسه، وبقي حاسراً إعظاماً، واستنهض فمضى بين الصفين وخرَّ ساجداً سويعة ثم استوى قائماً ثم نهض خطوات، وعاد إلى السجود، ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى إلى يده فناوله إياها وكرَّ راكعاً مقهقراً على عقبه إلى وساد ديباج مثقل

بالذهب، جعل له هناك، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير، فجلس عليه، والبهر قد علاه، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يده فقبّلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم، ووصل بوصولهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة، وكان الترجمان عن الملك (أردون) في ذلك اليوم، فأطرق المستنصر عن تكليم الملك (أردون) إثر قعوده أمامه وقتاً كيما يُفرخ روعه، وتمضي الرواية فتنقل الحوار الذي دار بين المستنصر و(أردون)، وفيه يشكو (أردون) من ابن عمه شانجه ويلتمس وساطة المستنصر الذي وعده بإنصافه وصرفه مغبوطاً إلى بلده بعد أن أبدى كل مظاهر الخضوع للمستنصر.[١]

وكان لهذه السفارات أصداء واسعة في نفوس الناس أو الرعية الذين استشعروا عزة الإسلام وعظمة الخلافة، وواكب الشعراء هذه المناسبات وصوَّروها تصويراً رائعاً على نحو ما نجده في قصيدة عبد الملك ابن سعيد المرادي التي يصف فيها سفارة الملك (أردون) ولجوئه إلى المستنصر لنجدته ونصرته وعقد أواصر الذمة والمودة، وفيها يقول:[٢]

ملك الخليفة آيةَ الإقبالِ	وسعودُه موصولةٌ بتوالي
والمسلمون بعزّةٍ وبرفعةٍ	والمشركون بذلّةٍ وسفَالِ
ألقتْ أياديها الأعاجمُ نحوه	متوقعين لصولة الرّئبال

(١) نفح الطيب ١: ٣٨٨-٣٩٣

(٢) نفح الطيب ١: ٣٩٣-٣٩٤

هـــذا أميرهـــمُ أتـــاه آخـــذاً مـــنه أواصـــرَ ذمّـــةٍ وحـــبال
متواضـــعاً لجلالـــهِ متخشّـــعاً متـــبرّعاً لّمـــا يُـــرع بقـــتالِ
ســـينالُ بالتأميل للملك الرّضي عِـــزّاً يعـــمُّ عِـــداه بـــالإذلالِ

فالرمادي يرى في وفادة الملك (أردون) يوماً مشهوداً أدخل المسرّة عـــلى الخلافـــة وتواصلت به السعود، وهو يؤكد عزة الإسلام ورفعته في مقابل إذلال المشركين واتضاعهم، ويشير الرمادي إلى ما أظهره (أردون) من خضوع للخليفة طمعاً في نيل رضاه وإنصافه من بني جلدته.

ويشـــيد الرمادي بعظمة هذا اليوم ولا يبخس الملك الجليقي حقّه من المترلة التي يتمتع بها في قومه فيقول:

لا يـــوم أعظـــم للولاة مسرّةً وأشـــدّه غـــيظاً عـــلى الأقيال
مـــن يوم (أردون) الذي إقبالهُ أمـــلُ المـــدى ونهايـــةُ الإقبال
ملك الأعاجم كلّها ابن ملوكها والى الـــرُّعاة وللأعـــاجم والي
إن كان جاء ضرورةً فلقد أتى عـــن عـــزّ مملكةٍ وطوع رجال
فـــالحمدُ لله المنـــيل إمامـــنا حـــظّ الملـــوك بقدره المتعالى

ويحتفي الرمادي بوصف مراسم استقبال (أردون) وصحبه، ويشبه تجمع الناس وتزاحمهم وكثرتهم بيوم الحشر، ويصف الجيش الذي اصطفت كتائـــبه ومـــلأت الفضاء وتصاعد غباره فغبَّر الأفق وكأنه لبس ثوباً قاتماً وأحـــال الـــنهار ظلاماً حتى لا يستطيع الساري فيه أن يهتدي إلا ببريق السيوف والرماح، ويشير إلى رسوم العقبان المنقوشة على الرايات وكأنها حقيقة لا مجرد رسوم ويتخيلها تنقضُّ على أهل الشرك والضلال ويصف

الرماح الطويلة التي يحملها الجنود ويراها كالجبال الممتدة ويتخيل التجافيف وهي تبرق كأنها اكتست بنيران تؤججها دون اتقاد حقيقي، يقول:

هو يومُ حشر الناس إلا أنهم ... لم يُسألوا فيه عن الأعمال
أضحى الفضاءُ مفعّماً بجيوشهِ ... والأفق أقتمُ أغبرُ السّربال
لا يهتدي الساري لليلِ قتامهِ ... إلا بضوء صوارمٍ وعوالى
وكأنَّ أجسام الكُماةِ تسربلت ... مُذ عُرّيت عنه جسوم صلال
وكأنما العقبانُ عقبان الفلا ... منقضّة لتخطُّف الضُّلال
وكأنّ منتصب القنا مهتزّة ... أشطان نازحةٍ بعيدة جالِ
وكأنما قُبْلُ التجافيفِ اكتستْ ... ناراً توهجُّها بلا إشعال

وتحدث ابن حيان عن سفارة أخرى في عهد الحكم المستنصر سنة ٣٦٠هـ حيث وفد على بلاطه (بون فليو Bonfill) بن سندريط سفيراً لبريل Borrell بن شنير حاكم إمارة برشلونة وكان بصحبته مجموعة من الفرسان وكان هدف هذه السفارة هو عقد معاهدة سلم وصداقة بين إمارتي برشلونة وقرطبة، وقد استجاب الخليفة لهذا الطلب واستقبلهم أحسن استقبال، وأنزلهم في منية نصر التي تقع خارج قرطبة على نهر الوادي الكبير وعين الخليفة هشام بن محمد حاكم طرطوشة وبلنسية ليشرف على راحتهم وكان يقوم بالترجمة لهم وللخليفة عنهم بعض

القرطبيين المستعربين[1] ويذكر ابن حيان أن سفير حاكم برشلونة تقرب إلى الخليفة الحاكم المستنصر بإهدائه ثلاثين أسيراً من أسارى المسلمين، وشارك الشعر في هذه المناسبة، ونظم أحمد بن إبراهيم الخازن قصيدة صوَّر فيها حاكم برشلونة بـ(الطاغية) ورأى أنه كان على صواب في إيثار الهدنة وأنه لو لم يسلك هذا السبيل وجاء طائعاً مذعناً لجاء أسيراً مقيداً في الأصفاد، يقول:[2]

ليهنك أن لم يبق في الأرض ناكثٌ ... ولا مشرك إلا أتاك بلا عهدِ
فهذا (ابن شنج) وهو طاغيةٌ لهم ... رأى الرُّشد في التحكيم والأمنَ في القصدِ
وألقتْ يدا إفرنجةٍ وعميدها ... ولولا يد الإلقاء جاءك في قدّ
وهذا لمن في الشرق والغرب مؤذنٌ ... كما أنَّ خطف البرق يؤذن بالرَّعدِ

ويعدُّ ابن درَّاج من أكثر الشعراء الآن الأندلسيين وصفاً للسفارات والوفود الأجنبية، ويمثل هذا الجانب ملمحاً بارزاً في شعره، وممّا هيأه لذلك كثرت السفارات في عهد المنصور بن أبي عامر، فقد أخافت انتصاراته الروم، فسعوا إلى التماس الصلح معهم، وأنفذوا رسلهم ووزراءهم يعلنون خضوعهم وانقيادهم، ورسم ابن دراج صوراً لهؤلاء الرسل الذين وفدوا على المنصور يحملون كتباً تنطق بالتضرع والاستسلام، ومن ذلك تصويره موقف غرسية بن شانجة واضطراره إلى الخضوع

---

(١) المقتبس في أخبار بلد الأندلس، لابن حيان القرطبي، تحقيق عبد الرحمن الحجي ص ٢٠

(٢) المصدر نفسه ١٢٢-١٢٣

للمنصـــور بعد أن أدرك أنه لا يستطيع الصمود أمام قوة جيش المنصور، وفي ذلك يقول:(١)

ولمـا رأى غَرْسِيَّةٌ أَنَّـهُ الرَّدى   يقيـناً وأَنَّ اللهَ لا شَـكَّ غالِـبُهْ
وَقَـدْ حَلَّ حزبُ اللهِ دونَ شَغافِهِ   وَقَـدْ سَلَكَتْ فِي ناظِرَيْهِ كتائِبُهْ
ووافـاهُ ريحُ العزمِ يسقي رُبُوعَهُ   وتَـنهَلُّ بـالموتِ الزؤامِ سحائِبُهْ
وأَبصَـرَ بحـرَ المـوتِ طَمَّ عُبابُهُ   وفاضَتْ نواحِيهِ وجاشَتْ غوارِبُهْ
وأَيقَـنَ أَن اللهَ صـادقُ وَعْـدِهِ   وأَنَّ أَمـانيَّ الضـلالِ كواذِبُـهْ
وأَسـلَمَهُ ضـنكُ المقامِ إِلَى الَّتي   لَهَـا قـامَ ناعِيهِ وضَجَّتْ نوادِبُهْ
وَقَـدْ رابَـهُ أَنصـارُهُ وكُماتُهُ   وأَوْحَشَـهُ أَشـياعُهُ وأَقارِبُـهْ
وأَخلفَـهُ الشيطانُ خادِعَ وعدِهِ   وأَيقَـنَ أَنَّ اللهَ عـنكَ مُحارِبُـهْ
تلقَّاكَ فِي جيشٍ من الذُّلِّ جحفلٍ   صـوارِمُهُ آمالُـهُ ورغائِـبُهْ

ويشير ابن درّاج إلى إحفاء الملك النصراني رسله ووزراءه طمعاً في طلـب الصـلح من المنصور بعد أن تخلى عنه أنصاره وجنوده و لم تفلح محاولاته العسكرية الفاشلة، وفي ذلك يقول:(٢)

ومِن قَبْلُ أَحفى الرُّسْلَ نحوَكَ ضارِعاً   عَلَـى حينَ أَنْ عَزَّتْ لديكَ مطالِبُهْ
وأَعْـيا بـآراءِ التَّرَضِّـي وزيـرُهُ   وأَنْفَـذَ أَلفـاظَ الـتَّذَلُّلِ كاتِبُهْ
فـأَعْطى بِكِلْـتَيْ راحَتَـيْهِ مُبادِراً   لأَمْـرِكَ مُرْضٍ بالَّذِي أَنتَ راغِبُهْ

---

(١) ديوان ابن دراج : ٥١٧-٥١٨

(٢) نفس المصدر ٥١٨-٥١٩

وأمْكَـــنَ حَبْلَ الرِّقِّ من حُرِّ جِيدِهِ   مُـــتابِعَ عَـــزْمٍ حَيْثُ أَمْرُكَ جاذِبُهْ
فأَعْطَيْــتَهُ مَــا لَــوْ تَأَخَّــرَ ساعَةً   لَزُمَّـــتْ إِلَـــى نارِ الجحيمِ رَكائِبُهْ

ويرصـــد ابن دراج في شعره "وفود ملك البشكنس (إمارة نبارة) شـــانجة بن غرسية Sancho Garces على قرطبة محكماً للمنصور في نفسه ومعلـــناً له بالطاعة والخضوع، وكان شانجة قد جدَّد من قبل عهود السلم للمنصـــور ثم نقـــض تلك العهود، فأوقع به العامري عدة هزائم قتل في إحداهـــا ابـــن له في سنة ٣٧١هــ، وحينئذ لم ير الملك المسيحي بُدًّا من العـــودة إلى إعـــلان طاعته للمنصور وتجديد العهد له، بل إنه لم يلبث أن أهـــدى إلى المنصور ابنة له، فأعتقها هذا وتزوج منها فأنجبت له ابنه عبد الرحمن الذي كان يُنبذ من أجل ذلك بلقب (شنجول).. وهو تصغير اسم (سـانجة) جـدّه لأمـــه. وفي سنة ٣٨٢هـــ ورد إلى قرطبة مقدم الملك المســـيحي صـــهر المنصـــور إلى قرطـــبة "محكماً في نفسه" .. أو "زائراً مستصـــرخاً" فاســـتقبله المنصور استقبالاً فخماً[١]، وبهذه المناسبة قال ابن دراج قصيدته التي مطلعها:[٢]

أَلا هَكَذَا فَلْيَسْمُ للمجدِ مَنْ سَما   ويَحْمِ ذِمارَ الملكِ والدينِ مَنْ حَمى

ويحـــرص ابن دراج في قصيدته على تعظيم صورة الملك النصراني والإعـــلاء من شأنه فيصفه بـــ"عظيم الشرك" و"سليل ملوك النصارى"، و"وارث ملـــك الروم" وواسطة العقد في أنساب القياصرة ، وبرغم هذه

---

(١) ديوان ابن دراج ، المقدمة : ٣٠

(٢) ديوان ابن دراج : ٥٣٤

المترلـــة الرفيعة التي يتبوؤها في قومه، فقد جاء إلى المنصور خاضعاً منقاداً.

يقول ابن دراج:[١]

وهذا عظيمُ الشِّرْكِ قَدْ جاءَ خاضِعاً وألقـــى بكفَّـيْهِ إلَيْكَ مُحَكِّما
ســـليلُ ملوكِ الكفرِ فِي ذِرْوَةِ السَّنا ووارِثُ ملـــكِ الرُّومِ أقْدَمَ أقْدَما
توسَّـــطَ أنســـابَ القياصِرِ فانتمى من الصِّيدِ والأملاكِ أقرَبَ مُنْتَمى

ويعلل ابن دراج أسباب وفود الملك النصراني خاضعا، ويعزو ذلك إلى خوفه من قوة المنصور العسكرية ويأسه من مواجهته ورغبته في الحياة وتشبثه بها مما دفعه إلى الارتحال إلى كنف المنصور والاستجارة به مشرعا رماح التذلل وسيوف الخنوع والخضوع، يقول:[٢]

ولمـــا تقاضى غَرْبُ سيفِكَ نَفْسَهُ وحاطَـــتْ لَهُ الأَقدارُ مُحْتَقَنَ الدِّمَا
وَلَـــمْ يســـتطِعْ نحوَ الحياةِ تأَخُّراً بِفَـــوْتٍ ولا نحـــوَ الـــنَّجاةِ تَقَدُّما
تدارَكَـــهُ المقدارُ فِي قبضةِ الردى وخاطَـــبَهُ حـــنَّاً عَلَـــيْهِ فأَفْهَمَـــا
وبشَّـــرَهُ التَّأْمِـــيلُ منكَ بعَطْفَةٍ تلقَّـــى بِهَـــا رَوْحَ الحـــياةِ تَنَسُّما
فأَشْـــرَعَ أرمـــاحَ التَّذَلُّلِ ظاعِناً وأَصْـــلَتَ أسيافَ الخضوعِ مُصَمِّما

ويشير ابن دراج إلى ما وجده الملك النصراني من تبجيل في رحاب المنصورِ وكيف حظى في بلاطه بالنعيم بعد أن سامه الذل في بلاده وسقاه كـــؤوس الهزيمة في عقر داره مؤكداً سنن الخلق العربي في الشهامة وإكرام الضيف، يقول:

---

(١) ديوان ابن دراج : ٥٣٥

(٢) ديوانه : ٥٣٥

وقـــادَ لحـبلِ الرِّقِّ نحوكَ نَفْسَهُ   فلاقـــاكَ مُمْتَـــنّاً ووافاكَ مُنْعِما
وحَفَّتْ بِهِ للحاجِبِ القائِدِ الَّذي   أَبى الدهـــرُ إلّـــا مَا أَمَرَّ وأَحْكَما
حمايَـــةُ آبـــاءٍ ومـــنعةُ قـــادرٍ   يتَـــيهُ عَلَى صرفِ الزمانِ مُحَرَّمَا
فَـــراحَ ذليلاً ثُمَّ أَضحى مُبَجَّلاً   وأَمســـى مُهاناً ثُمَّ أَصبحَ مُكْرَما
وأَصـــبحَ من حظٍّ السلامةِ وافِراً   بـــأَن راحَ من عزِّ الإمارَةِ مُعْدِما
ولاقـــاكَ فاسْتَخْذى لديكَ تذلُّلاً   ليحـــتازَ من أدنى رضاكَ تَرَحُّما
لـــئن خَفَـــرَتْهُ مـــنكَ ذمَّةُ قادرٍ   لقد فارقَ الكُفْرَ الخَذُولَ مُذَمَّما
لـــئن سُمْتَهُ البأْساءَ فِي عُقْرِ دارِهِ   لقد عُضْتَهُ فِي دارِ ملكِكَ أَنْعُما

ويعـــتمد ابـــن دراج على "المقابلة" بين موقف المنصور من الملك النصراني وقومه في حالة الحرب حين سقاهم علقماً، وحاله حين وفد عليه (شانجة) فبسط له يد الأمن واستقبله بما يمليه عليه الخلق العربي من مروءة:

بســـطْتَ لَهُ أَمْناً وَقَدْ بَسَطَ القنا   تَرَى أَرضِه من أهَلِّهَا بكَ أَعظُما
ســـقيتَ بِهِ الإِسلامَ أَرْياً وطالما   سقاهُمْ بكأْسِ الموتِ صاباً وعلقما

وتســـتهوي ابـــن دراج صـــورة (شانجة) وهو في موقف التذلل والخضوع والانقياد فيرددها غير مرة:

وهـــا هُوَ ذَا فِي راحَتَيْكَ مُذَلَّلاً   رهيـــناً لمـــا أَمْضَيْتَ فيهِ مُحْكَّما
رمَى نفسَهُ قَسْراً إِلَى المَلِكِ الَّذي   رأى الدهـــرَ مملوكـــاً لَهُ فَتَعَلَّما

ويؤكد ابن دراج على دور القوة العسكرية للمنصور في إخضاع (شـــانجة) ويرسم مشهدا رائعا يجسد عزة الإسلام في الأندلس وفيه نرى

الملـــك النصراني وهو يتقدم لملاقاة المنصور وقد حاصره الرعب واستبدَّ به الخـــوف فمشى إليه بخطوات متثاقلة وكأن الرعب يقيده وقد بدا كالدابة الـــتي أرخيت لها حبال الخضوع، ويصفه وهو يتكلم فيكاد الرعب يقيد لسانه وقد ضاعف من رعبه مشهد الجنود المصطفة بأسلحتها فيحجم عن الحديث ويتردد ولكنه لا يلبث أن يتذكر ما أحاطه به المنصور من رضى فيتقدَّم وهـــي صورة نابضة بالدلالات النفسية الموحية لحالة هذا الملك المضطرب النفس:

ولولا سيوف النصرِ حينَ انْتَضَيْتَها　　لقـــد جـــلَّ هَذَا الصُّنعُ أن يُتَوَهَّما
فجـــاءَ وقَيْدُ الرَّوْعِ يَقصُرُ خطوَهُ　　ويَمْـــتَدُّ فِي حبلِ الخضوعِ تَقَدُّما
يخاطِبُ عن رعْبٍ وإن كَانَ مفصحاً　　ويُفْصِـــحُ عن ذعرٍ وإن كَانَ أَعجما
إذا راعَـــهُ هـــولُ الجنودِ فأَحْجَما　　تدارَكَـــهُ ذِكـــرى رِضاكَ فأقدما

ويمضـــى ابن دراج في وصف مشهد الاستقبال الذي تصطفُّ فيه كتائـــب الجـــنود حاملة الأعلام التي رسمت عليها صور الأسود والعقبان حيـــث تذكّر (شانجة) بهول المعارك وتضاعف من رعبه بما توحي به من دلالات الخوف والرهبة:

وَمَا كرَّ رجْعَ الطرفِ إلّا وضَيغَمٌ　　يُســـاوِرُ فِـــي رُعْبِ الأَسِنَّةِ ضيغما
وأَرْقَـــمُ يسطُو بالهواءِ اضْطِرابُهُ　　يـــناهِسُ فِـــي ليلٍ من النقعِ أرقما
وعِقْـــبانُ أعـــلامٍ تَمُـــرُّ يخالُها　　عَلَى نفسهِ فِي مَعْرَكِ الحربِ حُوَّما
فلـــله يـــومٌ جـــلَّ قدرُ عديدِهِ　　وعُدَّتِـــهِ عـــن مِـــثْلَما وكأنَّمـــا

وفي سياق التذكر والاسترجاع يشير ابن دراج في قصيدة أخرى إلى وفادة (ابن شنج) خاضعاً منقاداً بعد أن ضاقت به الأرض و لم يجد أمامه وسيلة للإبقاء على حياته سوى اللجوء إلى المنصور، فوفد عليه معترفاً بأخطائه وذنوبه مشتملاً بملابس الرهبان ليبدو في صورة أخرى مناقضة لصورته كداعية حرب. وفي ذلك يقول ابن دراج:[1]

حَتَّى ابْنُ شَنْجٍ يَوْمَ أَمَّكَ خاضِعاً ... تَسعى إِلَيْكَ بِهِ نَدَامَةُ تائِبِ
مِنْ بَعْدِ مَا رَازَ[2] البلادَ فَلَمْ يَجِدْ ... فِي الأَرْضِ عن مأْواكَ مَهْرَبَ هارِبِ
ورأى الضَّلالَ عَلَيْكَ أَضْعَفَ ناصِرٍ ... ورأى الفِرَارَ إِلَيْكَ أَيْمَنَ صاحِبِ
ودعاكَ مُعْتَرِفاً بِذِلَّةِ مُذْنِبٍ ... وأَتاكَ مُشْتَمِلاً بِلِبْسَةِ راهِبِ

ويسجل ابن دراج في قصيدة أخرى وفادة أمير قشتالة شانجة بن غرسية بن فرذلند سنة ٣٨٢هـ موفداً من قبل أبيه غرسية قومس قشتالة، وترجع أهمية هذه القصيدة إلى أنها تعدُّ الوثيقة الوحيدة التي تحتفظ بوصف هذه السفارة حيث "لم تتحدث كتب التاريخ الإسلامية ولا المسيحية عن تلك السفارة"[3]، وقد استهلَّ ابن دراج قصيدته بإظهار قوة المنصور بن أبي عامر الحربية وهيمنته على البرّ والبحر مما أفزع الممالك المسيحية فلم

---

(١) ديوانه: ٢٦٦-٢٦٧

(٢) راز: امتحن، جرَّب.

(٣) ديوان ابن دراج، المقدمة : ٣٠

يجـد ملوكهـا بُدّاً من مهادنته وخطب ودّه والوفود إليه من كل حدب وصوب. يقول:[1]

إِلَيْكَ منكَ فرارُ الخائفِ الوَجِلِ وَفـي يَديـكَ أَمانُ الفارِسِ البَطَلِ
تقابَلَتْ نحوَكَ الآفاقُ واجْتَمَعَتْ عَلَـى يمينـكَ شَتَّى الطُّرْقِ والسُّبُلِ
ويَمَّمَـتْكَ ملوكُ الأَرضِ مُعْمِلَةً إِلَـيْكَ نَـصَّ نجـاءِ الخـيلِ والإبلِ
فالـبَرُّ والبحرُ مِنْ آتيكَ في شُغُلٍ والشَّرْقُ والغربُ من راجيكَ في جَذَلِ

وتطلُّ صورة (شانجة) وقد جاء على رأس وفد حاملاً الكتب التي تدعـو إلى الاستعطاف في لهجة مفعمة بالتهكم والتشفي، فيتصوره وهو يقود جيشاً من الذل والخضوع، وقد تخلى عن أسلحته وكتائبه ورفع راية الاستسـلام وقـد استبشروا خيراً بعفو المنصور وإجابة طلبهم. يقول ابن دراج:[2]

وَقَـدْ تَـيَمَّمَ شَنْجٌ منكَ عائِدَةً تُجِـيرُهُ من سيوفِ الكَرْبِ والوَهَلِ
وقـادَ نحـوَكَ والتَّوْفِـيقُ يَقْدُمُهُ جيشاً من الذُّلِّ مِلْءَ السهلِ والجبلِ
مسـتعْطِفاً لحـياةٍ جَـلَّ مَطْلَبُها عن مُبْلِغِ الكُتْبِ أَوْ مُسْتَعْطِفِ الرُّسُلِ
مستخذياً لسيوفِ النصرِ حين أَبَتْ مـن ديـنِ طاعَـتهِ قولاً بلا عَمَلِ
خلَّى الكتائِبَ قَسْراً والظُّبى وغَدا عـن الأَحِـبَّةِ والأَشياعِ في شُغُلِ
مُـذِلٌّ صـفحَةَ عانٍ جَلَّ مطلَبُهُ داعٍ إِلَـى صَفْحِكَ المأْمولِ مُبْتَهِلِ
في شِـيعَةٍ مَـلأَتْ ذُلّـاً قُلُوبَهُمُ نُهُـوجُ سُـبْلٍ إِلَـيْها لِلْقَـنا ذُلُلِ

---

(١) ديوانه: ٥٥٤

(٢) ديوانه : ٥٥٤-٥٥٥

مُحَكِّمِـــينَ يسوقونَ النفوسَ إِلَى إنفاذِ حُكْمِكَ سَوْقَ السَّبْيِ والنَّفَلِ
مُسْتَبْشِـــرِينَ بِما أَحْيَيْتَ من أَمَلٍ مُستَسْـــلِمِينَ لِمَـــا أَمضَيْتَ من أَجَلِ

وفي مشـــهد احتفالى نادر، يصف ابن دراج رحلة الوفد القشتالى ومـــا تعرضوا له من مخاطر حتى وصلوا الى بلاط المنصور فروَّعوا بمظاهر الاســـتقبال والعـــرض العسكري الذي كان في انتظارهم حيث ضاقت الأرض بالحشود العسكرية وقد تزوّدت بأسلحتها ومعدَّاتها ورفعت راياتها وقـــد امتطى الفرسان ظهور الجياد التي أخذت تتهادي في زينتها كالغيد يرفلن في حليهن وحللهن وقد سار (شانجة) والرسل مخترقين الصفوف وقد امـــتلأت قلوبهم رعباً بهذا المشهد المخيف وانشطرت نفوسهم بين الخوف والرجاء . يقول ابن دراج:[1]

خاضُـــوا إِلَـــيْكَ بحارَ الموتِ زاخِرَةً يمُـــورُ فـــيهنَّ مـــوجُ النَّقْعِ كالظُّلَلِ
وأَضْحَتِ الأَرضُ فِي رَحْبِ المَلا لُجَجَاً ســـالَتْ عَلَـــيْهِمْ بِبِيضِ الهندِ والأَسَلِ
والأُسْـــدُ بارِقَـــةُ الأَلحاظِ فِي أَجَمٍ مـــن القـــنا بِحَبِيكِ البَيْضِ مُشْتَعِلِ
رَقَّـــتْ غلائِلُهُـــمْ سَـــرْداً كَأَنَّهُمُ تَسَـــرْبَلُوا لُـــبْسَ رقـــراقٍ من الغُلَلِ
والصَّـــافِناتُ تَهـــادَى فِـــي أَعِنَّتِها كالغَـــيدِ يـــرفُلْنَ بَيْنَ الحَلْيِ والحُلَلِ
وخافِقَـــاتٌ كأَمثالِ الحَشا خَفَقَتْ رَوْعاتِهـــا خَطَـــرَاتُ الذعرِ والوَجَلِ
تزَيَّنَـــتْ بسُـــكونِ الجـــأْشِ ثابِتَةً واسْتَشْعَرَتْ هَفَواتِ الطائِشِ الوَجِلِ
حَتَّى انْتهى يَدَكَ العُلْيا وَقَدْ قُسِمَتْ أَحشـــاؤُهُ بَيْنَ أَيْدِي الرَّيْثِ والعَجَلِ

---

(١) ديوانه : ٥٥٥

وفي وثيقة تاريخية فنية أخرى يسجل ابن دراج وفادة الأمير (غندشلب) ابن ملك البشكنس (نبارة) شانجة الثاني بن غرسية الذي وفد على المنصور بقرطبة سنة ٣٨٢هـ ووصف ابن دراج سفارته في القصيدة السابقة. وقد أوفد ابنه (غند شلب) إلى قرطبة في أواخر حكمه وبتكليف منه ليؤكد عهود الولاء للمنصور، وإن كانت المراجع التاريخية لم تذكر شيئاً عن هذه السفارة[١]، مما يضفي على قصيدة ابن دراج أهمية تاريخية خاصة.

ويستهل ابن دراج قصيدته مفتخراً بقوة المنصور بن أبي عامر وعظمة إنجازاته العسكرية التي أخضعت له الملوك والأحرار والسادة وأسلمت أزمّتها له، وانقادت إليه، فقد أظهر للروم من القوة ما تنهّد له الجبال الشمّ حتى خلت متون الخيل من فرسانها، وأقفرت البيع ممن كانوا يعمرونها والكنائس من عباد الصليب. يقول:[٢]

طاعَتْ لَكَ الأَحرارُ باستعبادِها ... وأَباحَتِ الأَملاكُ صَعْبَ قِيادِها
فلأَخْمَصَيْكَ اليومَ حُرُّ وُجُوهِها ... ولوَطْءِ خيلِكَ أَمْسِ حُرُّ بِلادِها
مَا زِلْتَ تخطُبُ بالظُّبى أَرواحَها ... حَتَّى أَتَتْكَ بِهِنَّ فِي أَجسادِها
وتُحَمِّلُ الخَطِّيَّ أَرْؤُسَها فقد ... جاءَتْكَ تحملُها عَلَى أَكْتادِها
مِن بعدِ مَا قَدْ رُعْتَها بعزائِمٍ ... هُدَّتْ لَهُنَّ الشُّمُّ من أَطوادِها
وخَلَتْ متونُ الخيلِ من أَبطالِها ... ومرابِضُ الآجامِ من آسادِها

---

(١) ديوان ابن دراج: ٥٧٤ (هامش١)

(٢) ديوان ابن دراج : ٥٧٤

ومشـــاهِدُ البِـــيعاتِ مـــن عُمَّارِها ومعـــالِقُ الصُّـــلْبانِ من عُبَّادِها

وتـــبرز صـــورة الملك النصراني (ابن شنج) مرة أخرى في سياق الاســـتعطاف والـــتذلل ويشير إلى تكليفه ابنه وفلذة كبده بالوفادة على المنصور أملاً في استرضائه، يقول ابن دراج:[1]

ورَمى ابْنُ شَنْج إِلَيْكَ نَفْس مُحَكِّمٍ نَهَجَ الخضوعُ لَهَا سبيلَ رَشادِها
مُسْـــتَعْطِفاً لحُشاشَـــةٍ مـــن مُلْكِه وثُمالَـــةٍ قَـــدْ آذَنَـــتْ بنفادِها
فاسْـــتَنْقَذَتْهُ مـــنكَ عـــودَةُ مُنْعِمٍ قامـــت لمهجَـــتِهِ مقامَ مَعادِها
وثَـــنى نواجِـــذَهُ وفِلْـــذَةَ كِـــبْدِهِ شَـــفَقاً وناظِـــرَ عَيْنِهِ وسوادِها

ويـــردد ابن دراج وصف مظاهر الاستعراض الذي قوبل به الأمير (غندشـــلب) من حشد الجيش العامري ويشير إلى سفارة أبيه (شانجة) إلى المنصـــور في سنة ٣٨٢هـــ وكيف استطاع أن يغنم بها الحياة، وينجو من بـــأس المنصـــور ويعـــيش في طاعته وأمنه، فإذا فكر في خيانة العهد فإن السيوف كفيلة بردعه والقضاء عليه، يقول:[2]

فسما يخُوضُ إِلَيْكَ بَحْرَ كتائبٍ ضاقَتْ جنودُ الأَرضِ عن أجسادِها
في ســـابِغاتِ دُرُوعِهـــا ومُثَقَّفا تِ رِماحِهـــا ومُسَـــوَّماتِ جيادِها
نِيطَتْ نجومُ السَّعْدِ مِنْ أَعلامِها وغَـــدَتْ جنودُ النَّصرِ من أَمْدادِها
غـــازٍ لعَطْـــفِ العامِرِيِّ مجاهِدٌ فِـــي طاعَـــةِ المنصورِ حَقَّ جِهادِها

---

(١) ديوان ابن دراج : ٥٧٥

(٢) ديوانه : ٥٧٥

مســـتنجدٌ مـــنه مَذَلَّةَ خاضعٍ   غَـــنِمَ الحـــياةَ أَبُـــوهُ باستِنْجادِها
فَحَمَـــتْهُ طاعتُكَ الَّتي لَوْ خانَها   طـــارَتْ إِلَـــيْهِ البِيضُ من أَغمادِها

ويسجل ابن دراج في قصيدة أخرى وفادة القومس (الكونت) ابن غومس وبعض رؤساء أسرته على المنصور مجدداً عهد الولاء بعد أن نكثوا عهودهم فغزاهم المنصور ونكّل بهم، وقال في مطلعها:(١)

جـــاءتك خاضعةً أعناقُها الأممُ   مستســـلمين لمـــا تُمضى وتحتكمُ

ويكـــرر ابـــن دراج مشـــهد الخضوع والإذلال مصوراً مظاهر الاستعراض بمفرداتها حيث الرايات التي رسمت عليها صور العقبان والرخم والحيات والخيل المطهمة بفرسانها والأفق الذي يزدحم بالفرسان والسيوف المشـــرعة اللامعـــة والرماح السمر وغير ذلك من مظاهر القوة التي تبث الرعب في قلوب الوفد الخانع، يقول:(٢)

أَلقَوْا إِلَيْكَ بأَيدِي الذُّلِّ فاعتقدوا   عهداً من الأَمنِ مَحفوظاً لَهُ الذِّمَمُ
وجاهدُوا عفوَهُ عن أَنْفُسٍ عَلِمَتْ   أَنَّ الحياةَ لَهَا من بعضِ مَا غَنِمُوا
يمشونَ فِي ظُلَلِ الرَّاياتِ تُذْكِرُهُمْ   أَيـــامَ تغشـــاهُمُ العِقْبانُ والرَّخَمُ
مـــن كُـــلِّ أَغلبَ محذورٍ بوادِرُهُ   يســـاوِرُ الـــرِّيحَ أَحـــياناً ويَلْتَهِمُ
وكـــلِّ فتخاءَ ماضٍ حَدُّ مِنْسَرِها   كَأَنَّـــهُ نحـــوَ أَكـــبادِ العِدى قَرِمُ
وأَرقَـــمٍ يـــتلَوَّى نحـــو أَرْؤُسِهِمْ   حَـــتَّى يكـــاد لَهَا فِي الجو يَلْتَقِمُ

---

(١) ديوانه: ٥٤٢

(٢) ديوانه: ٥٤٣-٥٤٤

والأُسْــدُ تــزْأَرُ والراياتُ خافقَةٌ كَأَنَّهــا مُثْبَــتاتٌ فِــي قُلُوبِهِمُ
والخَــيلُ منظومَةٌ بالخيلِ لا كتبٌ مِــنها لغايَــةِ ذِي سَعْيٍ ولا أَمَمُ
والأَرضُ من رهبةِ الأَبطالِ مائدَةٌ والجوُّ من رَهَجِ الفرسانِ مُزْدَحِمُ
والسُّــمْرُ فِي هَبَواتِ النقعِ ثاقبةٌ والبِيضُ فِي قُرُبِ الأَغْمادِ تضطرِمُ
كَأَنَّمــا ملأَتْ رَحْبَ الفضاءِ لَهُمْ غُلْبُ الضَّراغِمِ والغاباتُ والأَجَمُ

ويصــل ابن دراج مشهد الاستعراض بمشهد مثول الوفد بين يدي المنصــور ويصــفهم بــ(شيعة الكفر) ويصور ما أصابهم من رعب وقد اسودَّت وجوههم وتعلقت حياتهم بكلمة من المنصور تنجيهم، يقول:[1]

وشــيعَةُ الكفرِ فِي مَثْنَى حبائلِهِمْ تُصَــدِّقُ العــيشَ أَحياناً وتَتَّهِمُ
حَتَّى تراءاكَ من أَقصى السِّماطِ وَقَدْ شِيمَ الحِمامُ وسَيْفُ العفوِ مُحتكِمُ
مُمــثَّلٌ فِــي هواديهِمْ وأَرْؤُسِهِمْ مَــا عُوِّدَتْ منهُمُ المصقولَةُ الخُذُمُ
لمــا انتضَــيْتَ ســناها فِي مفارِقِهِمْ خرَّتْ سُجُوداً لَكَ الأَعناقُ والقِمَمُ
وأَوْجُــهٌ عفَّــروها التُّرْبَ خاضعَةً كَــأَنَّ كــلَّ جــبينٍ منهُمُ قَدَمُ
فــإِنْ يَفِــضْ بحرُكَ المُحْيِي لَهُمْ فلقد جازُوا الصُّفوفَ وموجُ الذُّعْرِ يَلْتَطِمُ
أَوْ عايَــنُوا الــبدرَ فِي أَعلى منازلِهِ فقــد أَحاطَتْ بِهِمْ من دونِهِ ظُلَمُ
فــإِنْ عفوتَ ففي الرَّحمنِ مؤتَلَفٌ وإِنْ سَــطَوْتَ ففي الرحمنِ مُنْتَقَمُ
واسْــلَمْ ولا بَرِحَتْ فيهمْ لَنَا نِقَمٌ تَــتْرى بِهِــمْ ولكَ الآلاءُ والنِّعَمُ

---

(١) ديوانه: ٥٤٥

وعلى نحو ما وصف ابن دراج السفارات التي وفدت على المنصور بن أبي عامر فقد وصف كذلك سفارات أمراء المسيحيين على سرقسطة خلال حكم منذر التجيبي، ومن ذلك قصيدة يصف فيها قدوم الأمير ابن ميرو الذي كان قومساً لإمارة صغيرة متاخمة للثغر الأعلى (سرقسطة) وكان لهذا الأمير ولدان هما (جيرمو) و(ريمند) فأوفد أحدهما إلى حاكم سرقسطة للاستعانة به على (شانجة) الأكبر ملك البشكنس الذي كان يسعى لضم هذه الإمارة الصغيرة إلى ملكه[1]، واستهل ابن دراج قصيدته بقوله:[2]

عَجَباً لِغَيِّ الحُبِّ لاح سَبِيلُهُ ... ولِرُشْدِ حِلْمِكَ كَيْفَ ضَلَّ دَلِيلُهُ

ويتكئ ابن دراج في قصيدته على الأبعاد والمعاني الدينية، فيصم الآخرين بأنهم ضلّوا عن الحق والشريعة وعكفوا على عبادة الصلبان ويؤكد قوة الأمير المسلم وبأسه مما جعلهم يأتون إليه خاضعين:

ضَلَّتْ بِهِ سُبُلُ الشَّرائِعِ واهْتَدَتْ ... بشَرِيعَةِ الزُّلفى إِلَيْكَ سَبِيلُهُ
نَاشٍ عَلَى دِينِ السُّجُودِ وَمَا دَرى ... قَبْلَ السُّجودِ إِلَيْكَ مَا تأْوِيلُهُ
أَنْسَاهُ قَدْرُكَ مَا أَضَلَّ صَلِيبُهُ ... وأَراهُ سَيْفُكَ مَا حَوى إِنْجِيلُهُ
فأَجَازَ مَحْيَاهُ إِلَيْكَ نِزَاعُهُ ... وأعَزَّهُ بِكَ فِي الوَرى تَذْلِيلُهُ

ويشير ابن دراج إلى مترلة (ابن ميرو) الرفيعة في قومه، ولا يبخسه حقه من الإجلال والتعظيم فيقول:

---

(١) ديوان ابن دراج : ٣٠١ (هامش١)

(٢) ديوانه : ٣٠١

وَلَئِنْ حَمى عَنْكَ ابْنُ مِيرُ مَحَلَّةً ... فِي شامِخٍ أَعْيا النُّجُومَ حُلُولُهُ
ونَماه مُلْكٌ لا يُضَعْضَعُ تاجُهُ ... ووَقاهُ عِزٌّ لا يُخافُ خُمُولُهُ
فلقَد دَعَاكَ إِلَى رِضاكَ وَدُونَهُ ... غَوْلُ الضَّلالِ حُزُونُهُ وسُهُولُهُ

ويشير إلى الرسل والكتب التي حملها الأمير والوفد المرافق أملا في استرضاء الأمير المسلم والاستنجاد به فيقول:

فَهَوى وصَفْحَتُهُ إِلَيْكَ كِتابُهُ ... وهَفا ومُهْجَتُهُ إِلَيْكَ رَسُولُهُ
عَجِلاً إِلَى أَمَلٍ دَنَا تَعْجِيلُهُ ... وَجِلاً بِهِ أَجَلٌ نَأَى تَأْجِيلُهُ

ويصف ابن دراج مسيرة الأمير المسيحي وسط الزحام والحشود والمظاهر الاستعراضية وكأنهم أسرى أذلاء مقيدون في الأصفاد وقد علت أنفاسهم وعلت وجوههم كظامة وجهامة وكلت أبصارهم؛ يقول:

فَمشى إِلَيْكَ بِهِ الزِّحَامُ كَأَنَّهُ ... عَانٍ يُقَصِّرُ خَطْوَهُ تَكْبِيلُهُ
مَبْهُورُ أَنْفَاسِ الحَياةِ كَظِيمُها ... وغَضِيضُ لَحْظِ النَّاظِرِينَ كَلِيلُهُ

ويصور ابن دراج في قصيدة أخرى سفارة للقوط وقد وفدوا على الأمير المسلم خانعين منقادين مستجيبين لدعوته لهم بالاستسلام، ومن ذلك يقول:[1]

إن غَصَّ يومُ القوط منكَ بِرُسْلِهِمْ ... فَغَداً بيوم الرُّومِ والأَتراكِ
سمعوا بدعوتِكَ الَّتي نادَتْهُمُ ... أَوْطانُهُمْ منها: تَرَاكِ! تَرَاكِ!
فالرَّوْعُ مُنقطعٌ إليهم وَاصِلٌ ... لَيلَ البَيَاتِ لهم بيومِ عِراكِ

---

(١) ديوانه : ١٣٣

ويسترسل ابن دراج في مشاهده الوصفية محتفيا ـــ كدأبه ـــ بإبراز الجانـــب النفسي للرسل الوافدين ووصف الرعب الذي يحاصرهم وهم في طـــريقهم للقاء الأمير المسلم، ويصف حالة الخوف والاضطراب التي ألّمت بهـــم وانعكست على سلوكهم وأجسادهم ووجوههم من خلال الصور الموحية الدالة؛ يقول:

فتـــيمَّمُوكَ ومن أَشكِّ سلاحِهِمْ ... سِـــيمى الخضـــوعِ وبزَّةُ الهُلَّاكِ
مُـــتَعَوِّذِينَ من الفَناءِ بصَفْحَتَيْ ... ســـيفٍ لمـــثلِ دمـــائِهِم سَفَّاكِ
فكأَنَّما خاضتْ إليك وجوهُهُمْ ... نـــاراً تَضَـــرَّمُ فـــي غضاءِ أَرَاكِ
حـــتى اجتلَوْا قمر الخلافةِ حولَهُ ... أمـــثالَ زَهْـــرِ كَواكبِ الأَفلاكِ

هكذا استطاع ابن دراج بشعره التسجيلي أن يصف هذا الجانب المهم من سفارات الممالك النصرانية إلى بلاط الأمراء المسلمين طلبا لهدنة أو صـــلح أو استرضـــاء من خلال بنية تسجيلية تحتفي بتفاصيل الحدث ودقائقه.

وصف الصهر بين ابن فرذلند وابن ريمند:

وفي شـــعر ابن دراج ما يكشف بعض الجوانب الطريفة والنادرة عمَّـــا بلغـــته العلاقات الدبلوماسية ـــ في بعض الأحيان ـــ بين المسلمين والممـــالك المســـيحية من تصالح ومودة ومهادنة وتمثل ذلك في السياسة الحكيمة التي انتهجها منذر التجيبي حاكم سرقسطة مع جيرانه من الأمراء النصـــارى ، وكان من ثمار هذه السياسة أنه تولى بنفسه عقد الصهر بين جاريه الأميرين المسيحيين ريمند بن بريل قومس برشلونة وشانجة بن غرسية

ابـــن فرذلـــند قومس قشتالة حيث تزوج ابن الأول من ابنة الثاني، وكان هدف الأمير منذر من ذلك هو توطيد علاقته بجيرانه النصارى وتوفير جو مـــن السلام والأمن لبلده وهو ما فطن إليه ابن حيان حين قال[1]:" وكان (منذر) لأول ولايته قد ساس عظماء الإفرنج وهداهم حوطا للثغر وأهله، وتأنـــيا للجماعة حتى تثوب لأهل الإسلام، يناهضون بها عدوهم. وكان رؤساء الجلالقة يومئذ ريمند الجليقي وشانجة القشتلي، فسلك معهما سبيل الاسترضـــاء والموافقـــة والاستخذاء، فحُفِظت أطرافه وكفّت المعرّة عن عملـــه. وربما أوقع ببعض أصاغر القوامس في أطرافهم وسبا منهم، وريمند وشـــانجة باقيان على معاقدته إلى أن مضى بسبيله، والثغر مسدود لا ثغرة فيه ولا وهْيَ في حاله. وبلغ من استمالة الحاجب منذر لهذين الطاغيتين أن أجريا تصاهرهما على يديه وكُتب عقد النكاح بينهما بحضرة سرقسطة في حفل من أهل الملتين. فقَرَفَت الألسنة منذرا لسعيه في نظم سلك الطاغيتين لمـــا فيه من سوء العاقبة وقد قيل إنَّ رأى منذرٍ كان في ذلك أحصف، من رأي مـــن قدح فيه وقرف لنظره في شأن وقته وعلمه بانصداع عصا أهل كلمته، فآثر من الموادعة ما ستر به العورة ، وشراه بغليظ الكُلفة، واختدع بـــه عظـــيمي الجلالقة ريمند وشانجة المحدثين أنفسهما يومئذٍ بمناهضة أهل الأندلس، فألهاهما عن الحرب وحَبّبَ إليهما الدَّعة.وأعقب الحاجب منذر أهـــل الـــثغر في مغبة ذلك عاجل السلامة، واستظهروا به على العمارة ، فحيوا وعاشوا في نعمة ضافية، وعيشة راضية، لم يتغير به عنهما حال، إلى

---

(١) الذخيرة ١/١ : ١٨١-١٨٢

أن ألوت بمنذرٍ المنية، وقد اعترف الناس لرأيه، وأقروا بسياسته، و لم يأت بعــده من يَسُدُّ مسدَّه، و لم ينفعَ الله الطاغيتين بصهرهما الذي كانا عقداه للتآلــيف على المسلمين، إذ أعجل عنه شانجه بن غرسية شيطانهم الرجيم، وهــوى أميرهـــم ريمـــند ظهير المذكور وابنه بعده، فشتت الله شمل تلك الطواغيت يومئذٍ وكفى المسلمين شرَّهم برحمته".

وينقل ابن حيان رواية شاهد عيان لذلك الحدث وفيها يقول: إن القومـــس شـــانجة بن غرسية صاحب قشتيلة اجتاز بباب تطيلة صدر أيام الحاجـــب منذر، فسلك مجتازاً يريد طرف الثغر الأعلى للاجتماع هنالك بالقومس ريمند صاحب برشلونة لعقد المصاهرة بينهما، واطئاً لأرضنا عن عـــلم مـــن منذر والينا، وضمان منه لكفّ عادية جيشه عنَّا، فأنكره أهل تطيلة وهم يومئذٍ بحال عزّة وقوة، وذهبوا إلى عصيان أميرهم منذر تفادياً مـــن وصـــمته فـــنمى ذلك إلى الطاغية شانجة، فلما شارف البلد أرسل يستدعي قوماً من أعيانهم، يكلمهم في سبيله، ووصلوا إلى مضربه فإذا هو جالس على مرتبته، عليه ثياب من ثياب المسلمين، ورأسه مكشوف أصلع كهـــل، لم يغلـــب عليه الشيب بعد، أسمر اللون، جميل الصورة، فكلمنا بكـــلام لطـــيف حسن بيَّن فيه وجه سيره، وذكر الحرب وعدواءها، فلم يتقبله عوام الناس.(١)

---

(١) الذخيرة ١/١: ١٨٣-١٨٤

وكـــان لهذا الحدث صداه في شعر ابن دراج، فنظم قصيدتين في هذه المناسبة، استهل إحداهما بقوله:[١]

لعلّ سنا البرق الذي أنا شائمُ يهـيم مـن الدنيا بمن أنا هائمُ

ويتبنى ابن دراج في قصيدته سياسة الأمير منذر حاكم سرقسطة في الـتقارب والمهادنـة والمسالمة ويشير إلى مناخ الهدوء والسلام والطمأنينة الذي عمَّ نتيجة لسياسة منذر وتوليه عقد المصاهرة بين الأميرين المسيحيين ومـا له مـن أثر في التقريب بينهما وإشاعة السلام مكان الحرب وإراقة الدماء، يقول:[٢]

ومَنَّيْتَها نَفْسَ ابْنِ شَنْجٍ فأَسْمَحَتْ مُسَـالِمَةً مـن بَعـدِهِ مَنْ تُسَالِمُ
عَلَـى أَنَّ بَعْضَ العَفْوِ قَتْلٌ ومَغْنَمٌ وَمَا رَدَّ رِبْحَ المُلْكِ فِي الحَرْبِ حازِمُ
فـإِنَّ قتيلَ السَّيفِ للذِّيبِ مَطْعَمٌ وإنَّ قتـيلَ العَفْـوِ للمُلْك خادِمُ
فَـيَا لِـبُرُوقٍ لَـمْ يَزَلْنَ صواعِقاً عَلَى الكُفْرِ غَيْثُ الأَمْنِ منهُنَّ ساجِمُ
تُقَطِّـعُ بالأَمْسِ الرِّقابِ وَوُصِّلَتْ بِهَـا الـيَوْمَ أَرْحَامٌ لَهُمْ ومَحَارِمُ
غَدَتْ وَهِيَ أَعْرَاسٌ لَهُمْ وَعَرَائِسٌ وبـالأَمْسِ مَـوْتٌ فِـيهِمُ ومآتِمُ

ويشـير ابن دراج إلى قيام الأمير منذر بكتابته عقد المصاهرة بين أميرى برشلونه وقشتاله ويشيد بصنيعه وسياسته وما أضفاه موقفه من أهمية على الصهر ويشيع أجواء احتفالية مناسبة لهذا الحدث السعيد فيقول:

بعَقْـدِ بـناءٍ أَنْـتَ شِـدْتَ بناءَهُ وَلَيْسَ لَهُ فِي الأَرْضِ غيرَكَ هادِمُ

---

(١) ديوان ابن دراج : ٢٥١-٢٥٧

(٢) ديوانه : ٢٥٦

فـــرَنْجَةُ أَعْـــلاهُ و قَشْــتِلٌ أُسُّـــهُ وَســلْمُكُ أَرْكَـــانٌ لَهُ وَدَعائِمُ
فَمَلَّكْـــتَ تـــاجَ المُلْـــكِ تَاجَ مَليكَةٍ لتَاجَــيْهِما تَعْنُو الملوكُ الخَضَارِمُ
وَتَوَّجْــتَها فَــوْقَ الأَكاليلِ والذُّرى خَوافِقَ تَغشاها النُّسُورُ القَشَاعِمُ
وحَلَّيْــتَها بَعْـــدَ الدَّمَالــيجِ والــبُرَا حُلــيَّاً لآلــيهِ القــنا والصَّوارمُ
وضَمَّخْتَها من طيبِ ذِكْرِكَ فِي الوَرى بأضعافِ مَا تُهْدِي إِلَيْها اللَّطائمُ[1]
ونَظَّمْـــتَ آفــاقَ الفَـــلا لِـــزِفافِها خُيُولاً حَمَتْ مَا قَلَّدَتْها النَّوَاظِمُ

ويلتفت ابن دراج إلى جانب خفيٍّ من هذا الحدث، فيشير إلى أن الصهر بين الأميرين المسيحيين بتدبير منذر لم يكن يتوافق مع مصالح شانجة ابن غرسيه فقبله على كره منه وفي ذلك يقول ابن دراج:[2]

مُــنىً كَانَ فِيهَا لابْنِ شَنْجٍ مَنِيَّةٌ يُغَرْغِرُ منها راهِقُ الروحِ كاظِمُ
مَرَجْـــتَ عَلَيْهِ لُجَّ بَحْرَيْنِ يَلْتَقِي عَلَــى نَفْسِـــهِ تَــيَّارُهُ المُتَلاطِمُ
وغادَرْتَــهُ مَا بَيْنَ طَوْدَيْنِ أَطْبَقا حُــتُوفاً تُصَادي نَفْسَهُ وتُصَادِمُ

واســـتهلَّ ابن دراج قصيدته الأخرى التي نظمها في المناسبة ذاتها بمدح الأمير منذر فقال:[3]

عمــرتْ بطول بقائك الأعمارُ وجــرت برفعة قدرك الأقدارُ

ويشـــيد ابن دراج بسياسة الأمير منذر الحكيمة التي جنح فيها إلى السلم فوفد عليه ملوك الممالك النصرانية يخطبون وده ويأملون في التقرب

---

(١) اللطائم: جمع لطيمة وهي العير التي تحمل المسك والطيب.

(٢) ديوانه : ٢٥٧

(٣) ديوان ابن دراج: ٢٤٢

إليه ويذكر من هؤلاء الملوك ابن رذمير ملك ليون واسمه ألفونسو الخامس ويلقب بالنبيل Al fonso El noble الذي تولى حكم مملكة ليون بين سنتي ٣٩٠-٤١٨، ويذكر كذلك الملك فرذلند، يقول:[١]

وجَنحتَ للسَّلم الَّتي جَنحوا لَهَا   وقضـــاءُ ربِّكَ فِي العبادِ خِيارُ
فأتوكَ مُستَبقِينَ قَدْ قربَ المدى   مــنهمْ إِلـــيكَ وذُلِّلَ المضمارُ
ودَنـــا ابنُ رُذْميرٍ يُزَلْزِلُ خَطوَهُ   أمـــلٌ تقسَّـــم نفسَـــهُ وحِذارُ
ففُـــؤادُهُ من ذُعْرِ سيفكَ طائرٌ   طَـــوْراً ومن عَجلٍ إليكَ مُطارُ
ولَقـــبلُ أَيْقـــنَ فِرْذِلَـــندٌ مَا لَهُ   إِلّـــا إِلـــيكَ مـــن الحِمامِ فِرارُ

ويـــتطرق ابن دراج إلى عقد الصهر الذي باركه الأمير منذر وما اقـــترن بـــه مـــن إخلاص النفوس وتوطيد عرى المودة وتقارب البعداء وتواصلهم، يقول:

فهناكَ أُخلِصتِ النُّفُوسُ وأُكِّدَتْ   عُقَـــدُ العُهُودِ وشَدَّتِ الأَنْصارُ
وتَوَاصَـــلَ الـــبُعَدَاءُ منكَ بطاعَةٍ   وُصِلتْ بِهَا الأَرْحامُ والأَصهارُ

ويؤكـــد ابـــن دراج أهمية هذا الحدث ويشيد بصنيع الأمير منذر ويـــتحدث عـــن الآثار الإيجابية الناجمة عن هذا الصنيع، فقد دان الرهبان والأحـــبار بهـــذه المواثـــيق التي عقدها الأمير منذر وكان لها أثر كبير في استعادة الأمن وارتفاع شأن قشتالة وبرشلونة، وفي ذلك يقول:[٢]

---

(١) ديوانه : ٢٤٦

(٢) ديوان ابن دراج : ٢٤٧

فعقدْتَ فِي عُنقِ الظلالِ مَواثقاً دانَــتْ بِهَــا الرُّهبانُ والأَحبارُ
وكأنّمــا كانــتْ عُقودَ تمائمٍ سَـكنتْ بِهَا الأَوْجَالُ والأَذْعارُ
أَحيَيــتَ منها مُلكَ رُذْميرٍ وَقَدْ مَشَـتِ الدُّهور عَلَيْهِ والأَعصارُ
وأَقَمْـتَ تاجَ جَبينِه منْ بعدِما عفَـتِ المعـالِمُ مـنهُ والآثــارُ
وبَسَـطتَ مـن قَشتِلّةٍ يَدَ آمنٍ لرِضَــاكَ فِـيهَا يــارَقٌ وسِوارُ

ويشــيد ابن دراج في ختام قصيدته بالسياسة الحكيمة التي اتبعها الأمير منذر وما ترتب عليها من نتائج أسهمت في إشاعة الأمن والاهتمام بالمصــالح الداخلـية وارتفــاع مترلة الأمير المسلم في نظر أمراء الممالك النصرانية.

سفارة الغزل إلى بلاد الروم:

قــام يحـيي بــن حكم الجياني الملقب بالغزال (١٥٦-٢٥٠هـ) بســفارة مشهورة إلى ملك القسطنطينية، وقد تخيّره الأمير عبد الرحمن بن الحكــم للقــيام بهذه السفارة لما عرف عنه من حنكة وخبرة بالعلاقات الدبلوماســية، وكان ملك القسطنطينية (توفلش) الذي ذكره أبو تمام في فــتح عمورية قد أرسل رسله إلى الأمير عبد الرحمن يطلب الصلح بعد أن شــنّ الروم حملة ضاربة على مدينة إشبيلية سنة ٢٣٠هــ ودخلوها قسراً وفــتكوا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، فبعث الأمير عبد الرحمن بجيوشه وهزمهم وقتل قائد أسطولهم، فأوفد ملك القسطنطينية رسله طلباً للصلح "وكان (توفلش) هذا أول من مدَّ ذلك الحبل من ملوك الطاغية بينهم وبين

ملــوك الأندلس واستجاز فيه خطة الابتداء التي يلوذ منها الجبابرة، فأنفذ رســوله بكــتاب مــنه إلى الأمــير عبد الرحمن بن الحكم يتودد إليه فيه ويستلطفه، ويخطب صداقته"[1]

وقــد أكــرم الأمير عبد الرحمن وفادة رسول ملك القسطنطينية، وأجابــه بكتاب قال فيه:" قد بلغني كتابك الذي كان عليه من مضّامتكم لأولــنا مــن المودة والمصادقة، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا، وإرسال (قرطــيوس) رســولك إلينا، لتجديد تلك المودة، وترتيب تلك المصادقة، وتســأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ونتواصل له، ونبعث رسلاً من عندنا ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ودعوت إليه لنثبت بقدومهم عليك مودتنا، وتتم به صداقتنا ... وقد أدخلــنا رسولك (قرطيوس) علينا، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعــن كــل ما يجب للصديق أن يعرفه من حال صديقه. ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا. فاكتب إلينا معهما بالذي أنت علــيه من الأمر الذي كتبت به إلينا، والذي نحب علمه من سارّ خبرك، ومتعة عافيتك، للنظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتياننا به من عندك، إن شاء الله".[2]

---

(1) المقتــبس (السفر الثاني) تحقيق د. محمود علي مكي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ص ٤٣١

(٢) المقتبس، السفر الثاني، تحقيق د. محمود مكي: ٤٣٢-٤٣٥

والكتاب وثيقة دبلوماسية نادرة تكشف عن فهم عميق للعلاقات الدبلوماسية مع "الآخر" وتنمّ عن أسلوب حضاري راقٍ في المخاطبة. وقد أنفـــذ الأمير عبد الرحمن رسولين إلى ملك القسطنطينية، أحدهما يحيى ابن الحكم الغزال"لما كان الغزال عليه من حدّة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب"[١] وقد أشاد بـــه ابـــن حيان فقال"وكان ممن نجم في دولة الأمير الحكم من الحكماء، الشـــعراء الدهـــاة، العـــلماء، يحـــيى الغزال، حكيم الأندلس، وشاعرها وعرّافها"[٢]، وكان في صحبة الغزال إلى بلاد الروم يحيى بن حبيب.[٣]

وبدأت رحلة الغزال ورفيقه إلى بلاد الروم من مدينة (شلب) وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة، ومشى رسول ملك الروم في مركبه الذي جاء به وسار المركبان بمحاذاة بعضهما، فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخـــل في الـــبحر الذي هو حدّ الأندلس في داخل الغرب هاج عليهم الـــبحر، وعصـــفت بهـــم ريـــاح هوجاء، فقال الغزال في وصف ذلك الموقف:[٤]

قـــالَ لي يَحـــيى وَصِـــرنا   بَـــينَ مَـــوجٍ كَالجِـــبالِ
وَتَوَلَّتـــــنا رِيـــــاحٌ   مِـــن دَبـــورٍ وَشَـــمالِ

---

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية : ١٣٩

(٢) المقتبس (السفر الثاني) تحقيق د. محمود مكي ص ٢٤٣

(٣) المطرب : ١٣٩

(٤) المصدر نفسه : ١٣٩

شَـــقَّتِ القلعَـــينِ وَانبـــتــ ـــــت عُـرى تلكَ الحبالِ
وَتَمَطَّــــى مَلَــكُ المَـــو تِ إِلَيـــنا عِـــن حِـــيالِ
فَرَأَيـــنا المَـــوتَ رُأيَ الــــــ عَـــينِ حـــالاً بَعـــدَ حـــالِ
لَـــم يَكُـــن لِلقَـــومِ فيـــنا يـــا رَفـــيقي رَأسُ مـــالِ

وقُـــدِّر للغـــزال أن ينجو من الغرق وواصل رحلته إلى بلاد الروم حـــتى بلغهـــا، فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم، وأخرج إليهم من يلقـــاهم، واحـــتفل الروم لرؤيتهم، فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم[١]، وتهيأ لهم بذلك أن يكتسبوا تجارب جديدة ويتعرفوا على بلاد غريبة وناس غرباء وعادات يرونها لأول مرة[٢].

ويحتفظ ابن دحية في (المطرب) بتفاصيل ما جرى في رحلة الغزال إلى بلاد الروم، ومنها ما يؤكد ما وصف به من دهاء وذكاء وسياسة وما عرف عنه من حصافة وحضور بديهة وحسن تصرف وخروج من المآزق، فمـــن ذلك رفضه أن يسجد لملك الروم واحتياله لذلك بحيلة لطيفة وذلك حـــين استدعاه ملك الروم لرؤيته، فلما مشى إليه وصاحبه قعد لهما ملك الـــروم في أحســـن هيئة، وأمر بالمدخل الذي يُفضي إليه، فضُيّق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً، فلما وصل إليه جلس إلى الأرض وقدَّم رجليه وزحف على أليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفاً، والملك قد أعدَّ له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة، فما هاله ذلك ولا ذعره، بل قام ماثلاً

---

(١) المطرب ١٤٠-١٤١

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي -عصر سيادة قرطبة- د. إحسان عباس: ١٦٢

بـــين يديـــه، فقـــال:" السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك والتحية الكريمة لك، ولا زلت تتمتع بالعز والبقاء والكرامة الماضية بك إلى شـــرف الدنـــيا والآخرة المتصلة بالدوام في جوار الحيّ القيوم، الذي كلُّ شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه المرجع"، ففسَّر الترجمان له ما قاله، فـــأعظم الكلام، وقال: هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم، وعجب من جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجليه في الدخول، وقال: أردنا أن نُذله، فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنه رسول لأنكر ذلك عليه، ثم دفع إليه كتاب الأمير عبد الرحمن وقرئ عليه الكتاب، وفسَّر له، فاستحسنه، وأمر بالهدية التي بعثها إليه الأمير عبد الرحمن، ففتحت عيابها، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني، وأمر بهم فانصرفوا إلى منزلهم ووسَّع الجراية عليهم.[1]

وكان للغزال مع الروم في رحلته التي استغرقت عشرين شهراً بين سفر وإقامة، مجالس مذكورة ومقاوم مشهورة، جادل في بعضها علماءهم فبكتهم، وناضل في بعضها شجعانهم فأثبتهم[2].

ولعـــل أطـــرف ما في رحلة الغزال هو افتتانه بزوجة ملك الروم وإظهار إعجابه بجمالها ومحاولة التقرب إليها واستمالة ودّها مما "يدل على دهائه في التقرب إلى القلوب وإجادته السفارة السياسية".[3]

---

(١) المطرب: ١٤١

(٢) المصدر نفسه: ١٤٢

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة- د.إحسان عباس: ١٦٣

ويشير ابن دحية إلى إعجاب الملكة (ثيودورا Theodora) أو (تود) بالغزال الذي كان يمتاز بالوسامة والملاحة فيقول:"ولمّا سمعت امرأة المجوس (الروم) بذكر الغزال وجهت إليه لتراه، فلما دخل عليها سلّم، ثم شخص فيها طويلاً ينظرها نظر المتعجب، فقالت لترجمانها: سله عن إدمان نظره: لماذا هو؟ ألفرط استحسان أم لضدّ ذلك؟ فقال: ما هو إلا أني لم أتوهّم في العالم منظراً مثل هذا، وقد رأيت عند ملكنا نساءً انتخبن له من جميع الأمم فلم أر فيهنَّ حسناً يشبه هذا فقالت لترجمانها: سله أجدٌّ هو أم هازل؟ فقال: لا، بل مُجدّ. فقالت له: فليس في بلدهم إذاً جمال ! فقال الغزال: فاعرضوا عليّ من نسائكم حتى أقيسها بها، فوجّهت الملكة في نساء معلومات بالجمال فحضرن، فصعَّد فيهنَّ وصوّب ثم قال: فيهنَّ جمال وليس كجمال الملكة، لأن الحسن الذي لها والصفات المناسبة ليس يميّزه كلّ أحد، وإنما يعني به الشعراء، وإن أحبَّت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها في شعر يُروى في جميع بلادنا فعلت ذلك فسرَّت الملكة بذلك سروراً عظيماً وزُهيت، وأمرت له بصلة، فامتنع الغزال من أخذها، فقالت للترجمان: سله، لم لا يقبل صلتي؟ ألأنه حقرها أم لأنه حقرني؟ فسأله، فقال الغزال: إن صلتها لجزيلة، وإنَّ الأخذ منها لتشرُّف لأنها ملكة بنت ملك، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها وإقبالها عليّ، فحسبي بذلك صلة، وإنما أريد أن تصلني بالوصول إليها أبداً. فلمّا فسَّر لها

الترجمان كلامه زادت منه سروراً وعجباً، وقالت:تُحمل صلتُه إليه، ومتى أحبَّ أن يأتيني زائراً فلا يحجب"[1]

وقـــد سُئل الغزال:" هل كان للملكة من الجمال في نفسها بعض هـــذه المترلة التي صورتَ؟ فقال: وأبيك، لقد كانت فيها حلاوة، ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها، ونلت منها فوق ما أردت"[2] وفي هذه الإجابة مـــا يـــدل عـــلى دهـــاء الغزال وخبرته بطبائع النساء وحنكته السياسية والدبلوماســـية، وقـــد اســـتطاع الغزال بأسلوبه أن يستميل قلب الملكة البيزنطـــية "فأولعـــت به وكانت لا تصبر عنه يوماً حتى تُوجِّه فيه، ويقيم عندها يحدّثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم، وبمن يجاورهم من الأمم، فقلّما انصرف يوماً قط من عندها إلا أتبعته هدية، تلطفه بها من ثياب أو طعام أو طيب، حتى شاع خبرها معه، وأنكره أصحابه، وحُذّر منه الغزال، فحذر وأغبَّ زيارتها، فباحثته عن ذلك، فقال لها ما حُذّر منه، فضحكت وقالت له:" ليس في ديننا نحن هذا، ولا عندنا غَيْرة، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهنَّ، تقيم المرأة معه ما أحبَّتْ وتفارقه إذا كرهت"[3]

وكـــان للغـــزال نوادر ومداعبات مع الملكة (ثيودرا) وكان حين وصل إلى بلاد الروم قد شارف الخمسين وتسلل الشيب إلى شعره، فسألته الملكة يوماً عن سنّه، فقال مداعباً لها: عشرون سنة،فقالت للترجمان: ومَنْ

---

(١) المطرب: ١٤٢-١٤٣

(٢) المصدر نفسه: ١٤٢

(٣) المصدر نفسه : ١٤٣

هـــو من عشرين سنة يكون به هذا الشيب؟ فقال للترجمان: وما تنكر من هذا؟ ألم تر قط مَهراً يُنتج وهو أشهب؟ فضحكت الملكة وأعجبت بقوله، وفي هـــذا يقول الغزال معبراً عن تعلقه بالملكة التي يسميها (تود) ترخيماً لثيودورا:[1]

كُلِّفــتَ يــا قَلــبي هَوىً مُتعبا ... غالَبــتَ منهُ الضَيغَمَ الأَغلَبا
إنّــــي تَعَلَّقــــتُ مَجوسِــــيَّةً ... تَأبى لِشَمسِ الحُسنِ أَن تَغرُبا
أَقصــى بِــلادِ اللَهِ في حَيثُ لا ... يُلفــي إِلَــيه ذاهِــبٌ مَذهَبا
يــا تــودُ يا رودَ الشَبابِ الَّتي ... تُطلِــعُ مِن أَزرارِها الكَواكِبا
يــا بِأَبي الشَخصُ الَّذي لا أَرى ... أَحــلى عَلى قَلبي وَلا أَعذَبا
إن قُلــتُ يَومــاً إِنَّ عَيني رَأَت ... مُشــبِهَهُ لَــم أَعدُ أَن أَكذِبا
قالَــت أَرى فَودَيــهِ قَــد نَوَّرا ... دُعابَــةٌ توجِــبُ أَن أَدعَــبا
قُلــتُ لَهــا مــا بالُــهُ إِنَّــهُ ... قَــد يُنــتَجُ المُهرُ كَذا أَشهَبا
فَاِستَضــحَكَت عُجباً بِقَولي لَها ... وَإِنَّمــا قُلــتُ لِكَــي تَعجَبا

ويقال إن الملكة أمرته بالخضاب، ففعل ذلك وزارها يوماً ثانياً وقد اختضب، فمدحت خضابه وحسّنته عنده، فقال في ذلك:[2]

بَكَــرَت تُحَسِّــنُ لي سَوادَ خِضابي ... فَكَــأَنَّ ذاكَ أَعــادَني لِشَبابي
ما الشَيبُ عِندي وَالخِضابُ لِواصِفٍ ... إِلّــا كَشَمسٍ جُلِّلَت بِضَبابِ

(١) المطرب: ١٤٤

(٢) المصدر نفسه: ١٤٦.

تَخفــى قَلــيلاً ثُــمَّ يَقشَعُها الصَّبا فَيَصــيرُ ما سُتِرَت بِهِ لِذَهابِ
لا تُــنكِري وَضــحَ المَشيبِ فَإِنَّما هُــوَ زَهرَةُ الأَفهامِ وَالأَلبابِ
فَلَــدَيَّ مــا تَهوينَ مِن شَأنِ الصبا وَطُــلاوَةُ الأَخلاقِ وَالآدابِ

وروى أن الملكــة أتت يوماً لزيارة الغزال في القصر الذي حلَّ به ضيفاً، وبصحبتها ابنها الأمير (ميشيل) وكان يحب الشراب، فأحضر معه خمراً وطلبت الملكة أن يشاركه الشراب، فأبى لأن ذلك حرام، وصوَّر هذا الموقف شعراً فقال:[١]

وَأَغــيدَ لَــيِّنِ الأَعطافِ رَخصٍ كَحيلِ الطَرفِ ذي عُنقٍ طَويلِ
تَــرى مــاءَ الشَــبابِ بِوَجنَتَيهِ يَلــوحُ كَرَونَقِ السَيفِ الصَقيلِ
مِنَ ابناءِ الغَطارِفِ قَيصَرِي الــ عُمومَــةِ حينَ يُنسَبُ وَالخُؤولَ
كَــأَنَّ أَديمَــهُ نِصــفاً بِنِصــفٍ مِنَ الذَهَبِ الدِلاصِ أَو الوَذيلِ
وَرُبَّــتَما أُكَــرِّرُ فــيهِ طَــرفي فَأَحسَــبُ أَنَّــهُ مِن عَظمِ فيلِ
عَــلى قَــدٍّ سَــواءٍ لا قَصــيرٍ فَــتَحقِرُهُ وَلا هُــوَ بِــالطَويلِ
وَلَكِــن بَــينَ ذَلِكَ في اعتِدالٍ كَغُصــنِ البانِ في قُربِ المَسيلِ
يَحِــنُّ إِلَــيَّ مُطَّــرِفاً لِشَكلي وَيُكــثِرُ لي الــزِيارَةَ بِالأَصيلِ
أَتــى يَومــاً إِلَــيَّ بِــزِقٍّ خَمرٍ شَــمولِ الريحِ كَالمِسكِ الفَتيلِ
لِيَشــرَبَها مَعــي وَيَبيتَ عِندي فَيَثبُــتَ بَينَــنا وُدُّ الخَلــيلِ
وَجــاءَت أُمُّــهُ مَعَــهُ فَكانــا كَــأُمِّ الخِشفِ وَالرَشَأِ الكَحيلِ

---

(١) المقتبس (السفر الثاني) تحقيق د. محمود مكي : ٣٦٣

تُوَصّيني بِهِ وَتَقولُ أخشى ... عَلَيهِ البَردَ في اللَيلِ الطَويلِ
فَقُلتُ حَماقَةً مِنّي وَنوكاً ... فَدَيتُكَ لَستُ مِن أَهلِ الشُمولِ
فَأَيَّةُ غِرَّةٍ سُبحانَ رَبّي ... لَو انّي كُنتُ مِن أَهلِ العُقولِ

والغزال ينحو في قصيدته منحى قصصياً يعتمد على السرد، فيستهلها بوصف محاسن الأمير ميشيل فيما يشبه التغزل الغلماني، فهو أغيد فيه نعومة ولين، وهو كحيل الطرف، طويل العنق، يتورد خدّه بماء الشباب، وهو من أبناء السادة الأشراف، قيصري النسب، ويشير إلى إعجاب الأمير الشاب به وإكثاره من زيارته ويشير إلى قصة زيارته له بصحبة والدته الملكة الجميلة وطلبها أن يشاركه الشراب والمبيت عنده ليبقى الود موصولاً واعتذار الغزال عن ذلك ثم تندمه على أنه لم يستجب لطلب الملكة.

وعلى هذا النحو ألهمت سفارة الغزال إلى القسطنطينية شعراً يمثل ظاهرة خاصة لا سيما ما يصور علاقته بالملكة البيزنطية ثيودورا وابنها الأمير ميشيل وهو ما لم نكد نظفر بمثله في الشعر العربي.

ويبدو أن سفارة الغزال إلى بلاد الروم سبقتها سفارات أخرى إذ نجد له قصيدة طويلة يعرّض فيها بالرسول الذي كان أرسل إلى ملك الروم قبله، وسلك فيها طريق الفكاهة، فقال في مطلعها:(١)

مَا تَشْتفِي أمُّ جُرجٍ من مُلاحاة ... أو تَسمَعُ الدِّيك يزقُو عشر زَقْوَاتِ

---

(١) المقتبس (السفر الثاني) تحقيق د. محمود مكي: ٣٥١

جَرداءُ صَلعاءُ لَم يُبقِ الزَمانُ لَها ... إلّـا لِسـانـاً مُلِحّـاً بِالمَلامـاتِ
رَقَّـتْ حَوَاشِيه واستول مَنْظَرُه ... عِـنْدَ الـتَّكَلُّمِ تَحْتَ الحَنَّةِ الحَاتِي

ويشير إلى هذا الرسول (ابن طلبه) ويُعرِّض به ويسخر من صفاته ومؤهلاته التي لا تصلح في السفارة والعلاقات الدبلوماسية فيقول:

إنّ ابن طلبة[1] لَمْ يُرْسِل للحْيَتِهِ ... لكـنَّهُ كـانَ مـن أهلِ المُرُوَّاتِ
وَكَـانَ بالدَّهْرِ ذا عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ ... وَصُـحْبَةٍ لِعَلـيَّاتِ الـرِّجَالاتِ
وَكَـانَ للـرُّوم جاراً في حداثَتِهِ ... يَغْشَـاهُمُ في السَّرَايَا والتِّجَارَاتِ
وَكَانَ يَلعَبُ بِالَّشطرنْجِ في مُلَحٍ ... يَـأتي بها وَصُنُوفٍ مِنْ فُكَاهَاتِ
وَكَـانَ رُبَّتمَا غنَّى على طَرَبٍ ... فـيها لَدَى مَلْعبٍ يَوْماً بأصْوَاتِ
وَكُـلُّ قَوْمٍ لهم حَالٌ تُشَاكِلُهُمْ ... فِـيمَا هُمُ فيهِ مِنْ أهلِ الصِّنَاعَاتِ

ويمضـي الغـزال في تعريضه بهذا الرسول الجاهل الذي يفتقر إلى الكفـاءة ولـيس له من المؤهلات سوى لحيته الكثّة الطويلة، وينسبه إلى التـيوس البشاريات وهي جبال البشرات الإسبانية الممتدة بين غرناطة في الغرب والمرية. يقول الغزال:[2]

وَالرُّومُ لَيْسُوا ذَوِي شِعْرٍ فَأُنشِدَهُمْ ... إذَا وَرَدْتُ علَـيْهِمْ مِـنْ مَقَالاتِي
وَلا يُـرِيدُون إمْـلالي لِكُتـبهُمُ ... وَلا حِسابِي وَلا في الدِّينِ إخْبَاتِي
وَإنْ يَكُونُوا عَرَتْهُمْ لِحْيَةٌ عَظُمَتْ ... بِغَـيْرِ عَقْـلٍ لدَى حَالِ المُبَاهَاةِ

(١) في الأصل:(ابن لي طلبة...) وهو مضطرب، وما اثبتناه هو قراءة اقترحها د. مكي، ونراها أقرب إلى الصواب.

.(٢) المقتبس (السفر الثاني)، تحقيق د. محمود مكي ص ٣٥١

فَفِـــى التُّـــيُوسِ البُشَارِيَّاتِ مُتَّسَعٌ عَلَـــى القِـــيَاسِ وَفِيهَا كُلُّ مَبْهَاةِ
وَهَـــا هُـــنَا وَاحِدٌ فِي طُولِ لِحْيَتِه وَعَرْضِـــهَا بِضَمَانِ عَشْرُ لِحْيَاتِ
فَسَـــيِّرُوهُ فَفِـــيه فَوْقَ حَاجَتِكُمْ مَـــنْ تَبْـــتَغُونَ سِـــوَاهُ لِلوِفَادَاتِ

وهكذا كان لاختيار الغزال للسفارة في بلاد أجنبية أصداء واسعة في شــعره، وانعكســت شخصيته على الأحداث والمواقف فتفاعل معها وطــبعها بطابعه، وسلك في سفارته مسلكاً حضارياً، وصوَّر علاقته بملكة بيزنطة في لقطات شعرية نادرة.

الوجه العدواني للآخر:

وإذا كان الشعر الأندلسي صوَّر لنا الآخر/الروم في هزائمهم فقد صورهم كذلك في انتصارهم وطغيانهم وتنكيلهم بالمسلمين لا سيما بعد موقعة (العقاب) سنة ٦٠٩هـ التي كانت سبباً رئيسياً في انتثار عقد الأندلس، فقد أضحى الطريق بعدها مفتوحاً أمام النصارى لاجتلاء تلك الأشلاء الممزقة، وسرعان ما أخذت المدن الأندلسية تتساقط تباعاً في أيدي النصارى، فسقطت إشبيلية وبلنسية وقرطبة وغيرها من المدن الأندلسية، ولم يبق بيد المسلمين سوى غرناطة وبعض أعمالها.[1]

وقد أذكت هذه المحنة لوعة الشعراء الأندلسيين، فبكوا مدنهم، ووصفوا ما ألحقه النصاري بها من خراب وتدمير، وما ذاقه أهلها من ضروب العذاب والذل والهوان، ومن ذلك قصيدة للشاعر أبي موسى بن هارون يصف فيها هجوم النصارى على إشبيلية بجيوشهم الجرارة التي يضيق بها الفضاء، فدمرت وخربت، ويصف أسارى المسلمين وهم مكبلون في الأصفاد، ويرسم مشهداً مؤثراً لطفل رضيع اختطف من بين أحضان أمه ليواجه مصيره المحتوم وقد انشغل الوالد عن ولده وأصيب الناس بالذهول وكأنهم في يوم الحشر: يقول[2]

ويمموا حمص في جمع يضيق به ذرع الفضاء فسوى الوهد والأكما

---

(١) الشعر الأندلسي في عصر الموحدين : ١٧٨.

(٢) البيان المغرب(ط. تطوان) ٣:٣٨٢

فكم أسارى غدت في القيد موثقة   تشكو من الذل أقداما لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفاً   عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
يدعو الوليد أباه وهو في شغل   عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والها فيهم ووالهة   لا يرجع الطرف إن حاورته الكلما
لهفي عليهم وما لهفي بمغنية   عمن تبذل بعد النعمة النقما
إنا إلى الله قد حل المصاب وما   من حيلة في الذي أمضى وما حتما

ويصور الشاعر في قصيدته النصارى في عُتوّهم وطغيانهم وما أحدثوه في إشبيلية بعد دخولها من هدم وتدمير، ومحو معالمها، وتخريب المصانع والمعاهد والقباب، يقول:[1]

عفت يد الشرك ما شاد الخلائف من   قصر ومن مصنع ضخم حكى إرما
أين القباب التي كانت محجبة   فيها الملوك تفيض الجود والكرما
وكم بطريانة أبقى الأسى ندباً   في القلب يبعث وجداً كُلما كلما
كانت معاهد للذات نعمرها   فلا نراع إذا ما هاجم هجما

وصوَّر الشعراء الأندلسيون محنة سقوط بلنسية حين سقطت في يد السيد القنبيطور (٤٨٧-٤٩٥هـ) كما صوَّر ابن خفاجة إحراق النصارى بلنسية عند خروجهم منها سنة ٤٩٥هـ فقال:[2]

عاثت بساحتك العدى يا دارُ   ومحا محاسنك البلى والنَّارُ
وإذا تردَّد في جنابك ناظرٌ   طال اعتبارٌ فيك واستعبار

---

(١) البيان المغرب ٣: ٣٨٢

(٢) ديوان ابن خفاجة (تحقيق د. سيد غازي) : ٣٥٤

أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها   وتمخَّضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها   "لا أنت أنت ولا الديار ديارُ"

ويصف أبو المطرف بن عميرة أحوال بلنسية بعد سقوطها نهائياً في يد النصارى سنة ٦٣٦هـ وقد أظهرهم في صورة الكفر والشرك والتخريب، يقول:[١]

أما بلنسية فمثوى كافر   حفت به في عقرها كفاره
زرع من المكروه حلَّ حصاده   بين العدو غداة لج حصاره
وعزيمة للشرك جعجع بالهدى   أنصارها إذ خانه أنصاره
قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا   آثاره أو كيف يدرك ثاره

ويطل النصارى في سينية ابن الأبار في صورة الغزاة الكفار الذين عاثوا في بلنسية وحولوها من العمران إلى الخراب، وفي ذلك يقول:[٢]

كانت حدائق للأحداق مونقة   فصوح النضر من أدواحها وعسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا   عيث الدبافي مغانيها التي كسبا
وابتز بزتها مما تحيفها   تحيف الأسد الضاري لما افترسا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى   إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً   ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

---

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب: ٢٧٣

(٢) نفح الطيب ٤: ٤٥٧

ويرسم الرندى في نونيته مشاهد مؤثرة للمسلمين الذين ألحق النصارى الهزائم بوطنهم فتجرعوا كئووس الذل وبكوا بدموع حارة وهم يرون جبروت الغزاة وهم يحولون بين الأم وطفلها، ويأسرون الرجال ويسبون النساء، ويلتقط مشهداً دامعاً لفتاة شابة يقودها العلج للمكروه، وفي ذلك يقول:(١)

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

وثمة قصيدة نادرة نظمها شاعر أندلسي مجهول بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٩م تُقدّم "الآخر" في صورة العدو الوحشي الذي لا يتورع عن القتل والإبادة والتشريد وعدم احترام عقيدة الآخرين ونقض المواثيق والعهود وتخيير المسلمين بين الجلاء عن غرناطة أو التنصير. وتبدأ

---

(١) نفح الطيب ٤: ٤٨٨

القصـــيدة بمقدمـــة في الشكوى والاستغاثة يصف الشاعر المسلم بعدها هجوم الروم على غرناطة فيقول:[1]

وجاءت علينا الروم من كل جانب　　بسـيلٍ عظيمٍ جملة بعد جُملةِ

ومـالوا علينا كالجراد بجمعهم　　بجدّ وعـزمٍ من خيولٍ وعُدّةِ

وفرسـانهم تـزداد في كل ساعةٍ　　وفرسـاننا في حالِ نقصٍ وقلّةِ

فـلما ضـعفنا خيموا في بلادنا　　ومـالوا علينا بلدةً بعد بلدةِ

ويشـير الشاعر المسلم إلى غدر الغزاة النصارى ونقضهم العهود واسـتهانتهم بعقائد المسلمين وشعائرهم وإحراقهم المصاحف والكتب الدينية وتعذيب من يؤدي فروض الصيام أو الصلاة من المسلمين، يقول:

فـلما دخلـنا تحت عقد ذمامهم　　بـدا غدرهم فينا بنقض العزيمةِ

وخـان عهـوداً كان قد غرَّنا بها　　ونصَّـرنا كرهاً بعنف وسطوةِ

وأحرق ما كانت لنا من مصاحفٍ　　وخلَّطهـا بالزّبل أو بالنجاسةِ

ولم يـتركوا فـيها كـتاباً لمسلمٍ　　. ولا مصـحفاً يُخلى به للقراءةِ

ومـن صام أو صلّى ويُعلم حاله　　ففي النار يُلقوه على كُلّ حالةِ

وقـد أمـرونا أن نسـبَّ نبيّـنا　　ولا نذكـرنه في رخاءٍ وشدّةِ

وقـد بُدّلـت أسماؤنـا وتحوَّلت　　بغـير رضـا مـنا وغير إرادةِ

---

(١) وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة مع دراسة تحليلية للمستشرق جيمس.ت.مونرو، ص ٢٧-٣٢ ، والقصيدة في : أزهار الرياض للمقري١: ١٠٨-١١٥

وقــد بُدّلــت أسماؤنــا وتحوَّلت بغــير رضــا مــنا وغير إرادةِ
وصــرنا عبيداً لا أُسارى فنفتدى ولا مســلمين نطقهم بالشهادةِ
فلــو أبصرت عيناك ما صار حالنا إلــيه لجادت بالدموع الغزيرةِ
فــيا ويلــنا يا بؤس ما قد أصابنا من الضُرّ والبلوى وثوب المذلّةِ

هكــذا أطلّ(الآخر) بوجهه القبيح وممارساته الوحشية وأحقاده الدفينة لينتهك الحرمات، ويستهتر بعقائد الآخرين ومشاعرهم ويكشف بذلك زيف حضارته.

الجدل الديني مع الآخر:

لم يكــن الصراع بين المسلمين والروم في المشرق والمغرب مقصوراً على الحروب والمواجهات العسكرية، وإنما استند على مرجعيات عقدية تجسد هــوة واســعة مــن الخلافــات بين الجانبين، واتخذ ذلك شكل جدال ومناظرات عبَّر الشعر عن جوانب منها، وتشير بعض المصادر إلى احتدام بعض معارك الهجاء بين مسلمي الأندلس وبين الفرنجة فمن ذلك ما جاء في" صــلة الصــلة" من أن النقفور ملك النصارى بعث بقصيدة نظمها أديــب مــرتد إلى المعتد بالله، وذلك عقب استيلاء النصارى على بعض ثغور الأندلس، فلما وصلت هذه القصيدة إلى مجلس الخلافة وقرئت بين يدي الخليفة، اهتز الفقيه ابن حزم عند سماعها، وأخذته الحمية، فرد على

شـــاعر نقفور بقصيدة طويلة صيغت في قالب رسالة، وجهها ابن حزم لنقفور واستهلها بقوله:[1]

مـــن المحـــتمى لله رب العـــوالم ... ودين رسول الله من آل هاشم
محمـــد الهادي إلى الناس بالتقى ... وبالرشـــد والإسلام أفضل قادم
علـــيه مـــن الله الســـلام مردداً ... إلى أن يوافي البعث كل العوالم
إلى قـــائل بالإفك جهلاً وضلة ... عن النقفور المنتزى في الأعاجم

ويشير ابن حزم إلى استيلاء النصارى على بعض الثغور فيقول:

ســـلبناكم دهـــراً فلـــذتم بكرة ... من الدهر أفعال الضعاف العزائم
فطـــرتم سروراً عند ذاك ونخوة ... كفعـــل المهـــين الناقص المتعاظم
ومـــا ذاك إلا في تضاعف غفلة ... عرتنا وصرف الدهر جم الملاحم

ويُذكّـــر ابـــن حـــزم النصارى بأمجاد المسلمين وما أحرزوه من انتصـــارات على الروم في السياسة والحرب، وهو لا يصدر في ذلك عن نـــزعة إقليمـــية، ولكنه يصدر عن عاطفة دينية عامة، فيذكر بفتوحات المسلمين في الشام والأندلس ومصر وصقلية وغيرها من الأقطار:

ألم ننـــتزع مـــنكم بـــأيد وقـــوة ... جمـــيع بلاد الشام ضربة لازم
ومصـــر وأرض القـــيروان بأسرها ... وأندلساً قسراً بضرب الجماجم
ألم تنتصف منكم على ضعف حالها ... صـــقلية في بحـــرها المـــتلاطم
ألـــيس يـــزيد حل وسط دياركم ... على باب قسطنطينة بالصوارم

---

(١) قطعـــة من شعر ابن حزم أوردها د. إحسان عباس في كتابه: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة- ص ٣٧٤ وما بعدها.

ألــيس يــزيد حل وسط دياركم على باب قسطنطينة بالصوارم
ومســلمة قــد داســها بعد ذاكم بجــيش لهام كالليوث الضراغم
وأدى لهــارون الرشــيد مليككم إتــاوة مغلــوب وجزية غارم

ويشير ابن حزم إلى سبايا الروم فيقول:

لــيالي قدناكم كما اقتاد جازر جماعــة أتــياس لحرز الحلاقم
وسقنا على رسل بنات ملوككم سبايا كما سيقت ظباء الصرائم

ويتكــئ ابــن حــزم في هجائه للنصارى على الجوانب المتصلة بالعقيدة على نحو ما يبدو في قوله:

أيقــرن يــا مخــذول دين مثلث بعــيد عن المعمول بادي المآثم
بديــن لمخلــوق بديــن عــبادة فــيالك سخفاً ليس يخفى لكاتم
أناجــيلكم مصــنوعة مــتكاذب كــلام الألى فيما أتوا بالعظائم
وعــود صــليب لا تزالون سجداً لــه يا عقول الهاملات السوائم
إلى ملــة الإســلام توحــيد ربنا فمــا ديــن ذي دين لنا بمقاوم
وصدق رسالات الذي جاء بالهدي محمــد الآتي بدفــع المظــالم
فــلم تمتهــنه قــط قــوة آســر ولا مكنت من جسمه يد لاطم
كمــا يفــترى زوراً وإفكاً وضلة على وجه يمسى منكم كل آثم
عــلى أنكــم قد قلتم هو ربكم فيالضــلال في الحماقــة جاثم
أيلطــم وجــه الرب تباً لجهلكم لقــد فتم في ظلمكم كل ظالم
أبى الله أن يدعى له ابن وصاحب ســيلقى دعاة الكفر حالة نادم

والقصيدة تسيطر عليها عاطفة دينية قوية، وترتفع فيها نغمة الحماسة والحدة، غير أن صدورها عن البديهة والارتجال أفقدها كثيراً من المقومات الفنية.

وعلى أية حال، فقد أثارت قصيدة شاعر نقفور ما أثارته رسالة ابن غرسية من قبل، فلم يكن ابن حزم وحده هو الذي تصدى للرد عليها وإنما شاركه في ذلك شعراء آخرون على شاكلة أبي بكر القفال الشاشي، وأبي الإصبغ عيسى ابن زورال الغرناطي.(١)

وأدار بعض الشعراء هجاءهم حول تسفيه معتقدات الفرنجة، فسخروا من شعائرهم وطقوسهم، وذموا رجال دينهم وأماكن عبادتهم، كهذه الأبيات لابن شهيد التي يصور فيها ما يدور في إحدى الكنائس تصويراً لاذعاً واصفاً من يرتادونها بأنهم ضحايا إبليس، معرضاً بتصرفات بعض القساوسة، على نحو ما يبدو في قوله:(٢)

وكنيسة أخذ البلى منها كما ... أبصرت فيئاً في مغار ينهب
كم صاد إبليس بها من تائب ... بحبائل ألقى بهن ترهب
وكم ابتنى القسيس فيها منبراً ... من جؤذر وبدا عليه يخطب
سقياً لها من دار غيٍّ لم يزل ... فيها كريم بالملاح معذب
بئس المصلى إن أردت تعبداً ... فيه ولكن كان نعم المشرب

---

(١) فهرسة ابن خير الإشبيلي: ٤٠٩

(٢) الذخيرة ١/٢ : ٦٨٢

واتكأ الجدال العقدي حول اتهام الشعراء المسلمين للروم بالشرك يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم كقول ابن هانئ:[1]

لم يبق في أرض قسطنطين مشركةٌ إلا وقد خصَّها ثكلٌ بمفقودِ

ويشير ابن هانئ أيضاً إلى عبادة الروم للمسيح واتخاذ الصليب شعاراً لهم ويفتخر بزوال سطوة "الأعلاج" فيقول:

فلتعلم الأعلاج علماً ثاقباً أنَّ الصليب وقد عزرت دليلُ

وليعبدوا غير المسيح فليس في دين الترهُّب بعدها تأميلُ

التسامح مع الآخر:

وفي الشعر العربي ما يصور التسامح مع الآخر ويتمثل ذلك في اتجاه بعض الشعراء المسلمين إلى مدح بعض ملوك الروم أو الفرنجة ممن عُرفوا بالسيرة الحسنة وهو ما نجده عند بعض ملوك صقلية من النورمان، فلم يحل سقوط صقلية الإسلامية في القرن الخامس الهجري بعد أن حكمها المسلمون ما يقرب من ثلاثة قرون من استمرار تأثير الحضارة الإسلامية، فتشبه بعض ملوك النورمان مثل (رجار) بملوك المسلمين وكانت علامته الحمد لله شكراً لأنعمه وكان ابنه غليالم الأول يتكلم العربية ويحيط نفسه بحرس من المسلمين، ومضى غليالم الثاني على سنته[2].

---

(١) ديوان ابن هانئ: ٢١٦

(٢) العرب في صقلية، د. إحسان عباس : ١٤٥

ومـــنذ أن استقر أمر الجزيرة لرجار جرى على سياسة تقريب المسلمين ونشر سيرة العدل في أهل صقلية(١). وكان (رجار) يحب مديح الشعراء ويجيزهم فذهب إليه جماعة من الشعراء ومدحوه، ومنهم أبو حفص عمر ابـــن حســـن الصقلي الذي مدحه بقصيدة تجرى على نمط قصائد المدح التقلـــيدية، فيســـتهلها بمقدمة غزلية يردد فيها اسم الملك (رجار) ويمزج المدح بالغزل مزجاً لطيفاً فيقول:(٢)

طلـــب السُّـــلُوَّ لو ان غير سُعَادِه حلّـــتْ سُـــوَيْدَا قَلـــبِه وفؤَاده
ورجـــا زيـــارة طيفها في صَدِّها وَغَـــرامُه يـــأبى لذيـــذَ رقاده
والله لـــولا الملـــك روجارُ الذي أزْرَى محبـــيه عظـــيم وداده
مـــا عافَ كأسَ الوجد يوم فراقها وَرَأى مُحَـــيًّا المجـــد في ميلاده

ويمدحه الشاعر بالكرم والشجاعة والمجد وملاحة الوجه فيقول:

يهـــتز للجدْوَى اهتزاز مُهَنَّد يهـــتز في كفـــيه يـــوم جلاده
ويضيء في الديجور صبحُ جبينه فتخال ضوءَ الشمس من حُسَّاده
ومطـــالِعَ الجوزاء أرض خيامه والـــنجم والقمـــران من وفاده
وإذا الأمـــورُ تشابهت فَلِعَضْبِه خَـــط يُبَـــيِّضُ سُـــودَها بمداده

ومنها

يا أيها الملك الذي ثبتت به قدمـــا الفطانـــة في صَفَا أمْلَاده
ودَعْته أرواح العِدَا فَرَمى بها لُعَـــباً تلقـــتها ظُـــبى أغمـــاده

---

(١) المرجع السابق: ١٤٧

(٢) خريدة القصر : ٤٨-٤٩

وأورد ابـــن القطـــاع قصيدة للبثيرى الصقلي في مدح (رجار) ووصـــف قصـــوره وازدهـــار الحضارة في دولته التي بذت دول الملوك القيصرية: ومنها:[1]

أدرِ الرّحـــيق العَسْـــجَديَّه　　وَصِـــلِ اصـــطباحَكَ بالعَشِـــيَّه
واشـــرَبْ عـــلى وقـــع المثا　　ني والأغـــــاني المَعْـــبَديَّه
مـــا عيشـــة تصـــفو ســـوى　　بـــذُرَى صِـــقِلِّيَة هَنـــيَّه
في دولـــة أربَـــتْ عـــلى　　دول الملـــوك القَيْصَـــرِيَّه

وقد نسج ابن بشرون على منوال قصيدة البثيرى فقال يمدح الملك (رجار) ويصفه بــ(ملك الملوك القيصرية)، ويقول في مطلعها:[2]

لله منصـــــــــــــورِيَّة　　رَاقَـــتْ بِبَهجَـــتها البهـــية
وبقصْـــرِها الحَسَـــنِ البِـــنا　　والشـــكلِ والغُـــرَفِ العلـــيّه
وَبوَحْشِـــها ومِـــيَاهِهَا الــــ　　غُـــزْرِ العُـــيونِ الكوْثَـــرِيَّه
فقـــد اكْتَسَـــتْ جَـــنَّاتُها　　مـــن بيـــنها حُلَـــلاً بهـــيه
وبهـــا (رُجـــار) سمـــا العُلَـــى　　ملِـــكُ الملـــوكِ القَيصَـــرِيَّه
في طيـــبِ عَـــيْشٍ دائـــمٍ　　وَمشَـــاهدِ فـــيها شَـــهيَّه

ويقـــف شـــاعر آخـــر وقفة إعجاب وانبهار أمام إيوان للملك النورماني غليالم الثاني فيقول:[3]

---

(١) الخريدة (ط. تونس):٢٣

(٢) المصدر نفسه: ٢٤

(٣) العرب في صقلية : ٢٨٧

تأمّل وقف وانظر تر خير إيوانِ   لخير ملوك الأرض غليالم الثاني

وقـــد أغرت هذه الأجواء شاعراً مشرقياً مثل ابن قلاقس فارتحل مـــن مصر إلى صقلية ومدح بعض ملوكها، كما مدح أحد وزراء غليالم ريسمى (جردانو) فوصفه بقوة الإراده والعزيمة، وامتدح أخلاقه وشمائله، وشبهه بالليث الهصور، وفي ذلك يقول:

وجَـــرّدْنا المدائِـــحَ فاسْتَقَرَّتْ   عـــلى أوصـــافِ جُرْدَنَّا الوزيرِ
فَنَظَّمْـــنَا المفاخِـــرَ كـــاللآلي   وحَلَّيْـــنَا المعـــالِيَ كالـــنُّحورِ
وقمـــنا في سمـــاءِ العِزِّ نَرْعَى   جـــبينَ الشَّمْسِ في اليومِ المطيرِ
وأَعجَـــبُ مـــا جَرَى أَنَّا أَمِنَّا   ونحـــنُ بجانـــبِ الليثِ الهَصورِ
ومـــاءُ مكـــارمِ الأَخلاقِ منه   يكـــادُ يـــردُّ صـــاعِدَةَ الزَّفيرِ
وأَعـــراسُ الأَمـــاني في يَدَيْهِ   بِهِـــنَّ معاطِفُ الرَّوْضِ النَّضيرِ

ولا يجـــد أحد الشعراء المسلمين غضاضة في الاعتراف بالسيادة البحرية للروم في العصر النورماني، فيصف قوة الأسطول النورماني ويشير إلى غلبـــته وقهـــره له وعصبته ووقوعه أسيراً فيقول وأنشدها أمام الملك النورماني:[1]

أيـــا ملكاً جالت أساطيلُ جيشه   فأعظمت القتلى وأكثرت الأسرى
وأجريـــتها في لجّـــة الماء إذ جرى   فأســـكرته جرياً وأجريتها بحرا
وكـــنّا لمـــا تجرى المقادير عصبة   ركبـــنا بـــه والموج يخطفنا ذعرا

(١) ديوان الشعر الصقلي: ٣١٦-٣١٧

وجاءت من الأسطول طيرٌ مَسفّةٌ   أحاطت بنا من كل ناحيةٍ قصرا
فقمــنا إلــيه ثائــرين لدفعــهِ   نغالــبُه قهــراً فعاجلــنا قهــرا

ومن مظاهر هذا التسامح أننا نجد شاعراً ينظم قصيدة في رثاء ولد (رجار) ملك صقلية ويستهلها بقوله:[1]

بكاء وما سالت دموع وأجفانُ   شجون وما ذابت قلوب وأبدانُ

ويكــثر أبــو الضوء سراج من التفجع على ابن الملك النورماني ويشيد بمآثره وشمائله ويصف ما أحدثه رحيله من لوعة وأسى وفي ذلك يقول:

خبا القمر الأسنى فأظلمت الدُّنا   ومــاد مــن العلياء والمجد أركان
أحين استوى في حسنه وجلالهِ   وتاهــت بــه أوطار عزٍّ وأوطان
تخطّفــهُ ريــب المــنون مخاتلاً   عــلى غــرّةٍ إنَّ المــنون لخــوَّان
كذلــك أعــراض البدور يعوقها   إذا كملت من حادث الدهر نقصان
لحــقّ بــأن يــبكي عليه بأدمعٍ   لهــا في مســيل الخدّ درٌّ ومرجان
وتحــرق أكــباد وتمرض أنفسٌ   وتعظــم أتــراح وتكــبر أشجان

ويصف الشاعر مشاركة مظاهر الطبيعة والحضارة في البكاء على هــذا الفقيد، فقد بكته القصور والخيمات وتوقفت الخيول عن الصهيل وناحت عليه الورق والحمائم، يقول:

تبكّــت   له خــيماتهُ وقصورُهُ   وناحــت علــيه مرهفات ومران

---

(١) المصدر نفسه: ١٩١-١٩٢

وعـــاد صـــهيل الخيل في لهواتها حنيـــناً وعاقـــتهنَّ لجم وأرسانُ
ومـــا ناح وُرقُ الأيك إلا له فلو درت لبكت قبل الحمائم أغصان

ويصـــف الشـــاعر المسلم عظم هذا الرزء وفداحته ويصور هول ذلـــك اليوم المروع الذي شابت له الولدان ويصف حشود المعزين الذين ضـــاق بهـــم الفضـــاء من رجال ونساء وقد شقت القلوب لا الجيوب وزُلزلـــت الـــنفوس، ويشير إلى اتخاذ الثياب السوداء في موقف الحداد، يقول:

فـــيالك مـــن رزءٍ عظـــيم وحادثٍ يعـــزُّ له صـــبرٌ ويعـــوز سلوان
ويـــا يومـــه مـــا كـــان أفظع هوله تشـــيبُ لمـــرآه المـــروّع ولدان
كـــأن مـــنادي البعـــث قـــام منادياً لحشر فهبّ الخلق طُرّاً كما كانوا
وقد ضاق رحبُ الأرض بالخلق فالتقت جموعهُـــم مـــرجاً رجالٌ ونسوان
وشُـــقّت قلـــوبٌ لا جيوبٌ ورجّعتْ بلابـــلُ وارتجّـــتْ نفوسٌ وأذهان
وكـــانوا بلـــبس الـــلهو بيضاً حمائماً فعادوا وهم في ملبس الحزن غربان

وعلى هذا النحو ينفعل الشاعر المسلم بالحدث ويفيض في وصفه صادراً في ذلك عن حسٍّ إنساني وعاطفة صادقة ونفس متسامحة لا تفرّق بـــين مســـلم ونصـــراني، وتؤكد الأجواء الحضارية التي ذوّبت العصبية للجنس والدين ووحّدت المشاعر والأحاسيس وجعلت الشعراء المسلمين ينشـــدون قصـــائدهم إلى جانب شعراء اليونان واللاتين في بلاط ملوك النورمان.[١]

---

(١) العرب في صقلية: ٣١٩

الآخر في دائرة الحب:

لم تكـن علاقة المسلمين بالروم في العصور الوسطى قائمة على التصادم والمعـارك عـلى الدوام، وإنما كان فيها مساحات من التلاقي والتواصل والحـب، وتمثل ذلك في زواج المسلمين بمسيحيات أو روميات وشيوع قصص حب وعشق بين الطرفين، ومن ذلك قصة حب الشاعر الأندلسي أبي عـبد الله بن الحداد شاعر المرية في عصر الطوائف لفتاة نصرانية من مسـتعربي المرية، اسمها "جميلة" ولكنه غيَّر اسمها وذكرها في شعره باسم (نويـرة) صوناً لها، ومحافظة على علاقته بها، وقد سلبت فؤاده، وملكت لُبّه، فهام بها، وصرف إليها غزله، وفي ذلك يقول ابن بسام :"وكان أبو عبد الله قد مُني في صباه بصبية نصرانية ذهبت بلُبّه كل مذهب، وركب إلـيها أصـعب مركب، فصرف نحوها وجه رضاه، وحكمها في رأيه وهواه، وكان يسميها (نويرة) كما فعله الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عمّن أحبوه، وتغيير اسم من علقوه".(١)

وأكـد ذلـك ابن سعيد فقال:"وكان يهوى رومية يكنى عنها بنويرة، وله فيها شعر كثير".(٢)

ولأن محـبوبة ابن الحداد نصرانية، "فقد استطاع بقدرة فنية قلَّ نظيرها في دنيا الأدب، أن يضفي على الغزل ذلك الجو النصراني السمح

---

(١) الذخيرة ١/٢ : ١٩٣

(٢) المغرب ٢: ١٤٤

بأسلوب قصصي رائع ممتع جميل، فحفل شعره بذكر كل ماله علاقة بالجو المسيحي، كالتثليث والإنجيل وعيسى المسيح والقس والصلبان والرهبان والنسّاك والكنائس"(١).

وقد صدر ابن الحداد عن روح متسامحة وخفة ظلّ ومشاعرٍ متوهجة وعاطفة صادقة، ويجرى في غزله على مذهب ينحو فيه أحياناً منحى البداوة مع توجيه الأسلوب البدوي إلى محبوبته النصرانية وكأنه يسعى إلى تحقيق التوحد والانصهار في العشق، ومن ذلك قصيدة يقول فيها:(٢)

قَلْبِيَ في ذاتِ الأَثْيْلاَتِ رَهِيْنُ لَوْعَاتٍ وَرَوْعَاتِ
فَوَجِّهَا نَحْوَهُمُ إِنَّهُمْ وإنْ بَغَوْا قِبْلَةُ بُغْيَاتي
وعَرِّسَا مِنْ عَقَدَاتِ اللِّوَى بالهَضَبَاتِ الزَهَرِيَّاتِ
وعَرِّجَا يا فَتَيَيْ عامِرٍ بالفَتَيَاتِ العِيْسَوِيّاتِ
فإنَّ بِي للرُّوْمِ رُوْمِيَّةً تَكْنِسُ ما بين الكنيسات
أَهِيمُ فيها والهوى ضَلَّةٌ بَيْنَ صَوامِيْعَ وبِيْعاتِ
وفي ظِباءِ البَدْوِ مَنْ يَزْدرِي بالظَّبَيَاتِ الحَضَرِيَّاتِ

هكذا تحول ابن الحداد بخطابه الشعري، فجعل التعريج والانعطاف –لا إلى ديار المحبوبة البدوية- بل إلى ديار (العيسويات) المسيحيات حيث محبوبته الرومية الحضرية التي تخالف البدويات وحيث

---

(١) ديوان ابن الحداد، المقدمة ص ٣٧

(٢) ديوان ابن الحداد: ١٥٦-١٥٧

قدّر له وهو من ينتمي إلى قبيلة بدوية تزدري المسيحيات أن يقع في غرام تلــك الفتاة المسيحية ويغدو قلبه معلقاً بالصوامع والبيع والكنائس وهي الأماكن التي يتعبد فيها النصارى.

وينـــتقل ابن الحداد إلى مشهد آخر يصور فيه احتفال النصارى بعـــيد الفصـــح وهو عيد تذكار قيامة المسيح أو العيد الكبير للنصارى، ويصــــدر الشــاعر العاشق عن روح متسامحة، فيشاطر حبيبته النصرانية الفـــرحة بعـــيدها ويصف تجمع النصارى ووقفتهم في الكنيسة بين يدي الأســـقف وهـــو يمســـك العصا ويحمل المصباح ويصلي صلاة العيد في خشـــوع وقـــنوت، ولا تفارق الشاعر روحه المرحة وميله إلى الدعابة، فـــيقول إن جمـــال الفتيات المسيحيات شغل القس عن واجباته الدينية فأخذت عينه تسرح في عيونهن في شهوانية وكأنه ذئب يتأهب لافتراس نعجـــات، ولكـــنه لا يلبـــث أن يعـــذر القس على تصرفه لما تتمتع به النصرانيات من جمال خارق، يقول:[١]

أُفْصِحُ وَحْدِي يومَ فِصْحٍ لَهُمْ بَـــين الأَرَيْطَـــى والدُّوَيْحاتِ
وقـــد أَتَـــوْا مـــنه إلى مَوْعِدٍ واجـــتمعوا فـــيه لِمِـــيْقاتِ
بِمَوْقِـــفٍ بـــين يَدَيْ أُسْقُفٍ مُمْسِـــكِ مِصْـــباحٍ ومِنْســـاةِ
وكـــلُّ قَـــسٍّ مُظْهِـــرٍ للتُّقَى بـــآيِ إنْصَـــاتٍ وإخــــباتِ
وعيـــنُهُ تَســـرَحُ في عَيْـــنِهِمْ كالذِّئْـــبِ يَبْغي فَرْسَ نَعْجاتِ

---

(١) ديوان ابن الحداد: ١٥٨-١٥٩

وأيُّ مَرْءٍ سالِمٌ مِنْ هَوىً   وقد رأى تلك الظُّبَيَّاتِ
فمن خُدُودٍ قَمَرِيّاتٍ   على قُدُوْدٍ غُصُنِيَّاتِ

ويلمُّ ابن الحداد بتفاصيل المشهد الكنسي أثناء الاحتفال بعيد الفصح وأداء الطقوس والصلوات المسيحية، فلا يفوته أن يلتفت إلى الإيقاع النغمي الكنسي الذي تُؤدي به الطقوس، ويعبر عن إعجابه بالنصارى وهم يتلون أناجيلهم بأصوات جميلة وألحان حسنة لا سيما إنشاد محبوبته نويرة وصواحبها النصرانيات مما يزيد من حرقته وشوقه وصبابته إليهن، يقول:(١)

وقد تَلَوْا صُحْفَ أناجيلِهِمْ   بحُسْن ألحانٍ وأصواتِ
يَزِيْدُ في نَفْرٍ يعافيرِهِمْ   عنِّي وفي ضَغْط صبَاباتي

وتلفتنا القصيدة بمنحاها النادر والتفات الشاعر إلى هذه المشاهد الكنسية والهيام بمحبوبته النصرانية التي جذبته إلى عالمها وأجوائها الخاصة وجعلته يعشق رؤية كل فتاة مسيحية مستعربة ويهيم بذكر النساء النصرانيات.

وقد اختار الشاعر قافية خاصة مغايرة للسائد اتساقاً مع تجربتها المغايرة للمألوف، ولم يتحرج من اختراق القاعدة النحوية في الجمع أحياناً، كأن يجمع الكنيسة على (كنيسات) وليس على (كنائس) ويستخدم صيغة (صواميع) بدلاً من (صوامع) ويسكن (نعجات) للضرورة الشعرية، وقد منحت القافية المعنى مذاقاً خاصاً ولوّنته بإيقاعات

(١) ديوان ابن الحداد: ١٥٩

صوتيه طنية لا سيما في جمل النعت مثل:" الهضبات الزهريات- الفتيات العيسويات- قدود غُصنيات...إلخ"

ويصـــف ابن الحداد –في قصيدة أخرى- محبوبته نويرة بصفات مستمدة من عقيدة النصارى، فيصف جمالها ب"المثلث" إشارة إلى التثليث عند النصارى ويرى أن جمالها فريد لا نظير له ويخاطب ابن الحداد إحدى صـــاحبات نويرة مستمتعاً بحديثها عنها، مستزيداً من هذا الحديث الذي يؤنسه ويهيج صباباته، يقول:[1]

حَدِيثُكِ ما أَحْلَى فَزِيْدِي وَحَدِّثِي   عَــنِ الرَّشإِ الفَرْدِ الجَمَالِ المُثَلَّثِ
ولا تَسْــأَمِي ذِكْرَاهُ فالذِكْرُ مُؤْنِسِي   وإنْ بَعَثَ الأشواقَ مِن كلِّ مَبْعَثِ

وتطلٌّ صورة (نويرة) النصرانية وهي تتشكك في حبه لها، وتُقسم بالإنجــيل على ذلك وهي لا تدرى أن دموعه المدرارة خير شاهد على إخلاصـــه ووفائه، ويجرى ابن الحداد على مذهبه في الاحتفال بالأجواء المســيحية وتصـــوير رموزها وإشراكهم في قصة حبه فيعتزم اللجوء إلى القـــس وإخباره بحبه لنويرة عساه يساعده ويغيثه بالزواج منها، ويؤكد على تعاليم المسيحية السمحة ويثق في أن القس لن يبخل عليه بالمساعدة لأن المسيحية دين رحمة وتسامح، يقول:[2]

وأَقْسَــمَ بالإِنْجِــيلِ إنِّــي لَمَائِنٌ   وناهِيكَ دَمْعِي من مُحِقٍّ مُحَنَّثِ

---

(١) ديوانه : ١٦٩-١٧٠

(٢) ديوانه: ١٧٠-١٧١

ولا بُدَّ مِن قَصِّي على القَسِّ قِصَّتي   عَسَاهُ مُغِيثَ المُدْنَفِ المُتَغَوِّثِ
فلم يَأْتِهِمْ عِيسَى بِدِيْنِ قَسَاوَةٍ   فَيَقْسُوْ على مُضْنَىً ويَلْهُوْ بِمُكْرَثِ

ويستحلف ابن الحداد حبيبته —في قصيدة أخرى- بحق المسيح عيسى —عليه السلام- أن ترفق به وتريح قلبه المضني، ويشير إلى تأثير حب الفتاة النصرانية في نفسه، وكيف أن جمالها الطاغي جعله مغرماً بالديانة المسيحية، مولعاً بالصلبان والرهبان والنسّاك، وأغراه بالتردد على الكنائس ليؤدي فيها طقوس الدين المسيحي-في لقطة نادرة فيما يجلبه الحب على المحبين من تسامح ومقت للتعصب، مؤكداً إخلاصه ووفاءه وحبه الصادق للحبيبة التي أوقعته في شباكها و لم تأبه لبكائه، يقول:(١)

عَسَاكِ بِحَقِّ عِيْسَاكِ   مُرِيْحَةَ قَلْبِيَ الشَاكِي
فَإِنَّ الحُسْنَ قد وَلاَّ   كِ إِحْيَائِي وإِهلاكِي
وَأَوْلَعَنِي بِصُلْبَانٍ   وَرُهْبَانٍ وَنُسَّاكِ
و لم آتِ الكَنائِسَ عَنْ   هَوىً فِيهِنَّ لَولاكِ
وها أنا مِنْكِ في بَلْوَى   ولا فَرَجٌ لِبَلْوَاكِ
ولا أَسْتَطِيْعُ سُلْوَاناً   فقد أَوْثَقْتِ أَشْراكِي
فكم أَبْكِي عليك دَماً   ولا تَرْثِيْنَ للباكي

ويوظف ابن الحداد المعاني المسيحية في أغلب غزلياته في وصف حبه لنويرة وهيامه بها، وينتقل بهذه المعاني والرموز إلى دائرة العشق،

---

(١) ديوانه : ٢٤١-٢٤٢

فيعلل انفرادها بالحسن والجمال في هذا السياق، ويقرن شرعة التثليث بشريعة الحب التي أنزلت من عيني محبوبته وحياً على المحبين ويكنى عنها بـ(العيسوية) ثم يتلذذ بذكر اسمها وكيف أن هوى هذه الفتاة النصرانية قد أضلّه عن شرعة الحنيفية، ويمتاح بعض صوره من أجواء المعارك التي كانت تنشب بين المسلمين والروم، فإذا كانت (نويرة) قد أسرته بحبها في وقت السلم، فيتخيل أو يحلم بأن تكون سبية له من بين السبايا في الحرب، وفي ذلك يقول:[1]

وفي شِرْعَةِ التَّثْلِيْثِ فَرْدُ مَحَاسِنٍ   تَنَزَّلَ شَرْعُ الحُبِّ مِنْ طَرْفِهِ وَحْيَا
وأُذْهِلُ نَفْسِي في هَوَى عِيْسَوِيَّةٍ   بِهَا ضَلَّتِ النَّفْسُ الحَنِيْفِيَّةُ الهَدْيَا
فَمَنْ لِجُفُوْنِي بالتماحِ نُوَيْرَةٍ   فَتَاةٌ هي المَرْدَى لِنَفْسِيَ والمَحْيَا
سَبَتْنِي على عَهْدٍ من السِّلْم بيننا   ولَوْ أنَّها حَرْبٌ لكانتْ هي السَّبْيَا

ولا يتردد ابن الحداد في التعبير عن هواجسه وخواطره وأحلامه فيما يخص علاقته بالفتاة النصرانية فيتمنى أن يقترن بها ولكن الأعراف والعصبية القبلية تحول بينه وبين تحقيق هذا الأمل، ويرى في الوقت ذاته أن من الصعب أن تتحول هذه الفتاة عن دينها وتعتنق الإسلام، ويمتاح الشاعر صوره من الأفكار العقدية كالتثليث والتوحيد، فإذا كانت (نويرة) تؤمن بالثالوث فإن الله وحَّدها في الحسن، وينقل فكرة التثليث إلى دائرة العشق، فيقيم الثالوث على ثلاثة عناصر هي الحسن والوجد

---

(١) ديوانه : ٣٠٦

والحـــزن، وبينما تنفرد المحبوبة بالعنصر الأول (الحسن) فإن ثنائية الوجد والحزن تجتمع في قلبه، بسبب هٰذه المحبوبة السامرية التي يصعب الوصول إليها، ولا يجزؤ على المساس بها، وفي ذلك يقول:[1]

وبين المَسِيْحِيَّاتِ لِي سَامِرِيَّةٌ بَعِـــيْدٌ على الصَّبِّ الحَنِيْفِيِّ أن تَدْنُو
مُثَلَّـــثَةٌ قد وحَّدَ اللهُ حُسْنَها فَثُـــنِّيَ في قَلْـــبِي بها الوَجْدُ والحُزْنُ

وتُطـــلُّ (نويرة) وهي تشدُّ (الزُّنار) على وسطها وهو ما يجذب الشـــاعر العاشـــق إليها ويضاعف صبابته، ويستحضر صورة الكثيب في وصـــف أردافهـــا المتموجة ويشبه قدَّها بالغصن، ويتخيل أضلعه كناساً لمحبوبته، ويجعل قلبه عشاً آمناً لها، يقول:[2]

وفي مَقْعِـــدِ الزُّنَّارِ عَقْدُ صَبَابَتِي فَمِنْ تَحْتِهِ دِعْصٌ ومِنْ فوقه غُصْنُ
وفي ذلك الوادِي رَشاً أَضْلُعي له كِـــناسٌ وقُمْـــرِيٌّ فوادِي له وَكْنُ

ويعلق هنرى بيريس على قصة حب ابن الحداد لنويرة فيقول:"وفي حالته نحس معه بأننا في حضرة الحب الأكثر إخلاصاً، والأشد نقاءً على نحو ما كان عليه بعض شعراء التروبادور فيما بعد ذلك".[3]

و لم يكن ابن الحداد نسيج وحده في ذلك، فكثيراً ما تعلّق الشعراء المسلمون بهوى نصرانيات ومنهم فقهاء مثل الفقيه عيسى بن عبد المنعم

---

(١) ديوانه : ٢٥٦

(٢) ديوانه : ٢٥٦-٢٥٧

(٣) الشعر الأندلسي في عصر الطوائف: ٢٥٢

الصقلي وكان كبير الشأن ووصف بأنه فقيه الأمة[1]، وقد وقع في غرام فتاة رومية ومن بديع غزله فيها:[2]

يا بني الأصفر أنتم بدمي منكمُ القاتلُ لي والمستبيحْ
أمليحٌ هجر من يهواكمُ وحلالٌ ذاك في دين المسيح؟
يا عليل الطَّرف من غير ضنى وإذا لاحظ قلباً فصحيح
كلُّ شيء بعد ما أبصرتكم من صنوف الحسن في عيني قبيح

وقد شاع زواج مسلمي الأندلس –على اختلاف طبقاتهم من إسبانيات وإفرنجيات –وكان لبعض الخلفاء والأمراء نصيب من ذلك حيث صاهر بعضهم ملوك نصارى الشمال وأنجبوا منهن فكانت أمهات بعض أمراء المسلمين من الأعجميات.

ولم يجد بعض الشعراء غضاضة من التغزل باليهود على شاكلة ابن الزقاق في قوله:[3]

وحبَّب يوم السبت عنديَ أنني ينادمني فيه الذي أنا أحببتُ
ومن أعجب الأشياء أنيَ مسلمٌ حنيفٌ ولكن خير أياميَ السبتُ

وعلى هذا النحو لم يقف الانتماء الديني حائلاً دون شيوع قصص الحب والزواج بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى.

---

(١) الخريدة (تونس) : ٣٤

(٢) ديوان الشعر الصقلي: ٢٧٠

(٣) ديوان ابن الزقاق : ١١٣

صورة اليهود:

تسلل اليهود إلى المجتمع الأندلسي قبل الفتح العربي وباتوا يؤلفون عنصراً من عناصر سكانه وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن النورمان كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب،.. وفي القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً، وكانوا يمتهنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة، وقد تقلب بعضهم في مناصب الدولة ولا سيما في عهد الناصر[1].

وقد أشاد (جوستاف لوبون) بما لقيه اليهود من معاملة حسنة في الأندلس فذكر أن أسبانيا العربية كانت هي البلد الأوربي الوحيد الذي كان اليهود يتمتعون فيه بحماية الدولة ورعايتها[2].

وقد ارتفع شأن اليهود في بعض الفترات، وتقلد بعضهم مناصب الوزارة وقويت شوكتهم في غرناطة في عصر ملوك الطوائف، فاستوزرهم بنو زيرى وسيطروا على مقاليد الأمور، فنشأ تيار مناهض لنفوذ اليهود، وارتفعت أصوات الشعراء تعبر عن سخط الأندلسيين وغضبهم لتحكم اليهود في شئون المسلمين واستئثارهم بخبراتهم وقد عبر عن ذلك أبو الحسين يوسف بن الجد فقال:[3]

---

(١) في الأدب الأندلسي للركابي ص ٤١.

(٢) حضارة العرب ص ٢٩٦

(٣) الذخيرة ٢/٢ -٥٦٢

تحكمـــت اليهود على الفروج وتاهـــت بالـــبغال وبالســـروج
وقامـــت دولـــة الأنذال فينا وصـــار الحكـــم فيـــنا للعلوج
فقـــل للأعـــور الدجال هذا زمـــانك إن عزمت على الخروج

وكان أبو إسحاق الإلبيري أبرز شعراء الأندلس الذين عبروا عن مشاعرهم المناهضة لليهود،فقد عاش حياة قلقة في غرناطة، وهاله استبداد الـــيهود بأمورهـــا. ولم يكـــن راضياً عن إيثار حكام غرناطة لهم، فقد اختصوا بني النغريلة بمناصب الوزارة، وتركوهم يصرفون الأمور حسب أهوائهـــم مقـــابل الجـــبايات الضـــخمة التي كانوا يجمعونها من الناس ويقتســـمونها معهم، فتحكم هؤلاء الوزراء ومعهم المتصرفون اليهود في مقـــدرات المسلمين، يقول ابن عذارى مشيراً إلى تسلط اليهود في تلك الفترة:"ودامت رياسة حبوس إلى أن هلك سنة ٤٢٨هـــ، فولى بعده ابنه باديس بن حبوس...فأمضى باديس وزيراً له وكاتباً وزير أبيه إسماعيل بن نغـــرلة اليهود على وزارته وكتابته وسائر أعماله ورفعه فوق كل مترلة ، فاتخذ هذا اليهودي عمالاً ومتصرفين في الأشغال واكتسبوا الجاه والمال في أيامـــه واســـتطالوا على المسلمين، وكان هذا اليهودي من أهل الأدب والشـــعر، فدام أمره كذلك إلى أن هلك، وترك ابناً له اسمه(يوسف) لم يعـــرف ذلـــة الذمة ولا قذر اليهودية، وكان جميل الوجه، حاد الذهن، فأخذ نفسه بالاجتهاد في الأحوال، واستخرج الأموال، واستعمل اليهود إخوانـــه على الأعمال فزادت مترلته عند أميره باديس، وكانت له عيون عليه في قصره من نساء وفتيات شغلهم الملعون بالإحسان إليهم والإنعام

علـــيهم فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس من كل ما يجري في منزلـــه من شراب ولهو وجد وهزل إلا ويعلمه ويعلم اليهود به،فلا يكاد بـــاديس يتنفس إلا ويعلم اليهود ذلك ..، وصارت لليهود صولة على المسلمين في دولته.[1] وتصاعدت مشاعر الغضب تجاه اليهود، ونظم أبو إسحاق الإلبيري قصيدته الشهيرة في هجاء اليهود وتحريض البربر للثورة عليهم. ووضع حد لنفوذهم الذي استشرى وأعضل داؤه المسلمين.

ويمكـــن أن نقســـم القصيدة إلى أربعة أقسام، ففي القسم الأول يستثير الإلبيري قبائل صنهاجة، ويحفزهم لتدارك هذه السقطة الشنيعة التي وقع فـــيها باديس بن حبوس حين استوزر يوسف بن النغرلة، فعز به اليهود، وتســـلطوا على المسلمين، وملأوا خزائنهم بالأموال، وتجاوزا المقدار في بغـــيهم، ويدعو الإلبيري باديس والصنهاجيين إلى أن يأخذوا القدوة من الســـلف الصـــالح الذيـــن أدركـــوا حقيقة اليهود وضربوا عليهم الذلة والمسكنة، يقول أبو إسحاق.[2]

أَلا قُـــل لِصِـــنهاجَةَ أَجمَعـــين ... بُـــدورِ الـــنَدِيِّ وَأُسدِ العَرين
لَقَـــد زَلَّ سَـــيِّدُكُم زَلَّـــةً ... تَقَـــرُّ بِهـــا أَعـــيُنُ الشـــامِتين
تَخَـــيَّرَ كاتِـــبَهُ كافِـــراً ... وَلَـــو شـــاءَ كانَ مِنَ المُسلِمين
فَعَـــزَّ الـــيَهودُ بِـــهِ وَانتَخَوا ... وَتـــاهوا وَكـــانوا مِنَ الأَرذَلين
وَنـــالوا مُناهُم وَجازوا المَدى ... فَحـــانَ الهَـــلاكُ وَما يَشعُرون

(١) البيان المغرب ص ٢٦٤ تحقيق: ليفي بروفنسال

(٢) ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص ٩٧

فَكَــم مُســلِمٍ فاضِــلٍ قانِتٍ لِــأَرذَلِ قِــردٍ مِــنَ المُشرِكين
وَمــا كــانَ ذَلِكَ مِن سَعيِهِم وَلَكِــنَّ مِــنّا يَقــومُ المُعــين
فَهَلّــا اِقــتَدى فــيهِمُ بِالأُلى مِــنَ القــادَةِ الخِــيرَةِ المُتَّقين
وَأَنــزَلَهُم حَيــثُ يَستأهِلونَ وَرَدَّهُــم أَســفَلَ الســافِلين

وفي القســم الــثاني من القصيدة يستثير أبو إسحاق حمية باديس ويهــيج مشــاعره للغضب على أولئك اليهود الذين بغّضوه إلى الناس، وهدموا ما شيد من صروح وينعتهم بأقبح الأوصاف، فهم "فراخ الزنا" وهــم أهل الفسق وأرباب الفساد ويلوح بالمعاني القرآنية التي وردت في شأنهم فيقول:(١)

أَبــاديسُ أَنــتَ اِمــرُؤٌ حاذِقٌ تُصــيبُ بِظَــنِّكَ نَفسَ اليَقين
فَكَــيفَ اختَفَت عَنكَ أَعيانُهُم وَفي الأَرضِ تُضرَبُ مِنها القُرون
وَكَــيفَ تُحِــبُّ فِــراخَ الزِنا وَهُــم بَغَّضــوكَ إِلى العالَمين
وَكَــيفَ يَــتِمُّ لَــكَ المُــرتَقى إِذا كُنــتَ تَبني وَهُم يَهدِمون
وَكَــيفَ اِســتَنَمتَ إِلى فاسِقٍ وَقارَنــتَهُ وَهُــوَ بِــئسَ القَرين
وَقَــد أَنــزَلَ اللَــهُ في وَحــيِهِ يُحَــذِّرُ عَــن صُحبَةِ الفاسِقين
فَــلا تَــتَّخِذ مِــنهُمُ خادِمــاً وَذَرهُــم إِلى لَعــنَةِ اللاعِــنين
فَقَد ضَجَّتِ الأَرضُ مِن فِسقِهِم وَكــادَت تَمــيدُ بِــنا أَجمَعين
تَــأَمَّل بِعَيــنَيكَ أَقطارَهــا تَجِدهُــم كِلابــاً بِها خاسِئين

---

(١) ديوان الإلبيري ص ٩٧.

وفي القسم الثالث يشير أبو إسحاق إلى واقع غرناطة الأليم بعد أن استحالت في عهد باديس إلى بيئة يهودية، وبعد أن آلت خيرات المدينة إلى اليهود، ويتكئ أبو إسحاق على عنصر "المقابلة" فيقارن بين ما انصرف إليه اليهود من ثراء وترف، وبين أحوال البؤس التي صارت إليها أهل غرناطة، يقول أبو إسحاق:[١]

وَإنّي احتَلَلتُ بغَرناطَةٍ فكُنتُ أَراهُم بِها عابثين
وَقَد قَسَّموها وَأَعمالَها فَمِنهُم بِكُلِّ مَكانٍ لَعين
وَهُم يَقبِضونَ جِباياتِها وَهُم يَخضِمون وَهُم يَقضِمون
وَهُم يَلبِسونَ رَفيعَ الكُسا وَأَنتُم لِأَوضَعِها لابِسون
وَهُم يَذبَحونَ بِأَسواقِها وَأَنتُم لِأَطرافِها آكِلون

وفي القسم الأخير من القصيدة يُسخّر الإلبيري كل ما يمتلكه من أدوات لإثارة باديس والصنهاجيين للتنكيل بابن النغريلة وقومه، فيتحدث عن النعيم الذي يرتع فيه، ويشير إلى سخريته واستهزائه بمعتقدات المسلمين ويدعو صراحة إلى قتل هذا الوزير وقومه الذين نكثوا العهد، يقول:[٢]

وَرَخَّمَ قِردُهُم دارَهُ وَأَجرى إِلَيها نَميرَ العُيون
فَصارَت حَوائِجُنا عِندَهُ وَنَحنُ عَلى بابِهِ قائِمون
وَيَضحَكُ مِنّا وَمِن دينِنا فَإِنّا إِلى رَبِّنا راجِعون

---

(١) ديوان الإلبيري: ٩٨-٩٩

نفس المصدر : ٩٩-١٠٠

فَـــبادِر إلى ذَبحِــــهِ قُــــربَةً		وَضَــحِّ بِهِ فَهُوَ كَبشٌ سَمين
وَلا تَـــرفَعِ الضَــغطَ عَن رَهطِهِ		فَقَــد كَـنَزوا كُلَّ عِلقٍ ثَمين
وَفَــرِّق عِداهُــم وَخُــذ مالَهُم		فَأَنــتَ أَحَــقُّ بِما يَجمَعون
وَلا تَحسِــبَن قَــتلَهُم غَــدرَةً		بَــلِ الغَدرُ في تَركِهِم يَعبَثون
وَقَــد نَكَــثوا عَهدَنــا عِندَهُم		فَكَــيفَ تُــلامُ عَلى الناكِثين

وقـــد أحدثت قصيدة الإلبيري أثراً هائلاً في نفوس الصنهاجيين، فاستثارت هممهم، واستنهضت عزائمهم، فاندفعوا في ثورة عارمة، فنكثوا خلالها بابن النغريلة وبمن وقع تحت أيديهم من اليهود.

ولم يتكلّف الإلبيري في قصيدته، ولم يغرب في صوره ومعانيه وألفاظه بل اختار هذا الأسلوب السهل المباشر الذي يقترب من أسلوب النثر إلى حد بعـــيد لأنـــه أدرك بحاسته الفنية الدقيقة أن حظ أولئك البربر من الثقافة العربـــية ضـــئيل، وأن نصيبهم من تذوق الشعر والوقوف على أسراره محـــدود، فصاغ أفكاره بلغة سهلة، وعمد إلى استخدام صيغ وتراكيب معينة أخذ يرددها بكثرة كقوله " وهم يقبضون.. وهم يخضعون.. وهم يلبســـون.. وهـــم يذبحون..إلخ" ومن هذه التراكيب المألوفة التي كررها كثيراً قوله: فكيف اختفت عنك أعيانهم، وكيف تحب.. وكيف يتم لك المـــرتقى..إلخ، وجنح إلى الصور البسيطة التي يألفها الذوق العادي ولا تخلو في الوقت نفسه من التهكم والسخرية كقوله:"ورخم قردهم داره.." وقـــولـــه:"وضح به فهو كبش سمين". واتكأ أبو إسحاق على العاطفة الدينـــية، وعـــزف عـــلى هذا الوتر بمهارة حتى استطاع أن يثير مشاعر

المسلمين وأحاسيسهم، يقول جارثيا جومث عن قصيدة أبي اسحاق: "والحق أن هذه القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً في التاريخ السياسي لأمة من الامم فكهربت العزائم، ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذت السيوف للقتل، كالدور الذي لعبته هذه القصيدة ... إن ما تعرض له الشعراء في الأندلس من إشارات سياسية كان يأتي عابراً كوخز الإبر الناعمة، أو مخبأ كالطعوم المسومة في مهارة، لكن هذا الشيخ لا يهدأ، إنه برعم وفي لدم عربي، ما أكثر ما أشعل بالهجاء البدوي الفاحش روح الصراع بين القبائل.. ولعل الشعر الأندلسي لم يعرف أبداً البساطة عارية كما عرفها في هذه القصيدة، وفي الوقت نفسه لم ير قصيدة مثلها، يلفها مثل هذا الإعصار من المشاعر، لقد اجتاحت أنغامها حية متوهجة أعماق المدينة مع زفير النيران وحشرجة الموتى![1]

لقد وضع بنو النغريلة نهايتهم بأيديهم ليس فقط لأنهم استأثروا بالمناصب الهامة وتحكموا في مقدرات المسلمين، بل لأنهم أظهروا عداءهم للإسلام وتطاولوا عليه بشكل سافر على نحو ما صنع يوسف بن النغريلة حين ألف كتاباً زعم فيه أنّ ثمة تناقضاً في كلام الله في القرآن الكريم، كما نقل عنه أنه كان ينظم القرآن شعراً وموشحات، وقد ألمح أبو إسحاق الإلبيري إلى صنيعه هذا عندما قال:

---

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبي ص ١٣٤ وما بعدها.

وَيَضـحَكُ مِـنّا وَمِـن دينِنا فَإِنّـا إِلى رَبِّـنا راجِعـون

وكــان هــذا السبب وحده كفيلاً باستثارة مشاعر المسلمين وحنقهم على اليهود، وقد تصدى ابن حزم للرد على مزاعم ابن النغريلة في رســالة طويلــة عرض فيها لتلك المزاعم ورد عليها واحدة فواحدة، وكــان يشفع رده بانتقاد بعض المسائل التي وردت في التوراة لافتاً ابن الــنغريلة إلى أنَّ بيته من زجاج[1]، وقد عرض ابن حزم في رسالته بابن الــنغريلة وأشــار على ما حققه من ثروات على حساب المسلمين، وما أظهره من عداء للإسلام واستخفاف بأهله فقال:[2]" إن بعض من تلقى قلبه العداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببغضه للرسولﷺ من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل، وأرذل النحل من اليهود التي استمرت لعنة الله عــلى الموسمين بها، واستقر غضبه عز وجل على المنتمين إليها، أطلق الأشــر لســانه، وأرخى البطر عنانه، واستشمخت لكثرة الأموال لديه، نفسه المهينة، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده همته الحقيرة، فألف كتاباً قصــد فيه بزعمه إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن، اغترارا بالله تعالى أولاً، ثم بملك ضعفه ثانياً، واستخفافاً بأهل الدين بدءا، ثم بأهل الرياســة في مجانة عوداً، فلما اتصل بي أمر هذا اللعين لم أزل باحثاً عن ذلــك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرني الله عز وجل من نصر دينه بلساني وفهمي، والذب عن ملته ببياني وعملي.. فأظفرني القدر بنسخة

---

(١) الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى لابن حزم،تحقيق د. إحسان عباس ص ١٩

(٢) المرجع السابق: ٤٦-٤٧

رد فيها عليه رجل من المسلمين، فانتسخت الفصول التي ذكرها ذلك الراد عن هذا الرذل الجاهل، وبادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة، بحول الله تعالى وقوته."

ويفهم من كلام ابن حزم أنه لم ينفرد وحده بالرد على ابن النغريلة بل شاركه في ذلك آخرون.

وقد أكثر ابن حزم في رسالته من ذم ابن النغريلة ونعته بأقبح الأوصاف، فرماه بالزندقة والنذالة والوضاعة وسوء الخلق على نحو ما يبدو في قوله: وما أرى هذا الزنديق الأنوك إذ اعترض بهذا الاعتراض كان إلا سكران سكر الخمر، وسكر عجب الصغير إذ كبر، والخسيس إذا أسر ، والذليل الجائع إذا عز وشبع، والسفلى إذا مر وشط، والكلب إذا دبك ونشط.. وكيف بخلق سوء متكرر في الخساسة والهجنة والرذالة والنذالة واللعنة والمهابة؟

ولله در القائل:

إذا أنتَ أكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا

ويصوب ابن حزم سهامه إلى اليهود جميعاً فيصفهم بأنهم "عصابة لا تحسن إلا الخبث مع مهانة الظاهر. فيأنس المغتر إلى الضعف البادي، وتحت ذاك الختل والختر والكيد والمكر، كاليهود الذين لا يحسنون شيئاً من الحيل، ولا آتاهم الله شيئاً من أسباب القوة، وإنما شأنهم الغش

والتخابث والسرقة على التطاول والخضوع، مع شدة العداوة لله ولرسوله ﷺ "[1]

ويختم ابن حزم رسالته بدعوة المسلمين إلى اجتناب اليهود ومقاطعتهم."فليتق الله تعالى امرؤ آتاه الله نعمة من نعمه، ومنحه عزة، وليجتنب هؤلاء الأنجاس الأنتان الأقذار الذين أحاق الله تعالى بهم من الغضب واللعنة والذلة والقلة والمهانة والسخط والخساسة والوسخ ما لم يحق بأمة من الأمم قط وليعلم أن هذه الكسى التي كساهم الله تعالى إياها أعدى من الجرب وأسرع تعلقاً من الجزام"[2]

فابن حزم وأبو إسحاق الإلبيري –وكلاهما فقيه- هما اللذان قادا حملة المعارضة ضد اليهود، والتصدي لهم، وإن كان ثمة فارق بين طبيعة المعارضة عند كل منهما، فقد كان الإلبيري أكثر جرأة حين دعا – صراحة إلى الثورة على اليهود واستئصال شأفتهم بينما اكتفى ابن حزم بالدعوة إلى تحاشيهم وفرض العزلة عليهم.

---

(١) الرد على ابن النغريلة: ٤٦

(٢) المرجع السابق: ٨١

حضور الآخرِ في الشعر الحديث

صورة الغرب في شعر شوقي

ثمــة مؤثــرات عامة وأخرى خاصة أسهمت في تشكيل صورة الغــرب في شعر شوقي، فمن المؤثرات العامة انفتاح مصر على أوربا في القرن التاسع وذلك بعد مجيء الحملة الفرنسية في سنة ١٧٩٨م إذ "رأى المصريون مظهراً جديداً من مظاهر الحياة لم يكن لهم في تاريخهم الأخير بــه عهــد"(١) فشاهدوا عن قرب عادات الفرنسيين في أكلهم وأزيائهم ولهوهــم، " ومــا كــانوا يقيمون من حفلات التمثيل والغناء والرقص والموسيقى، كما لفتت الحملة المصريين إلى ما أصابه الغربيون من تقدم في العلم، فقد أسس نابليون المجمع العلمي المصري على غرار المجمع العلمي الفرنســي وأنشــأ معامل ومكتبات ورأى المصريون المطبعة التي جلبها نابليون معه"(٢)

وقد زاد احتكاك مصر بأوربا بعد تولى محمد على حكم مصر في ســنة ١٨٠٦م إذ اهتم بإرسال البعثات إلى أوربا فاطلع هؤلاء المبعوثون عــلى مظاهر الحياة والتقدم واختلطوا بالحياة الغربية وتأثروا بها واتصلوا بــآداب الغــرب وأفادوا منها، وكان ممن سافر في هذه البعثات رفاعة الطهطــاوي الذي لعب دوراً كبيراً في هذا المجال وألف كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز "مظهراً إعجابه بنمط الحياة الفرنسية وبما أرسته

---

(١) مقدمة الشوقيات، د. محمد حسين هيكل ص١.

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر، د. شوقي ضيف، ط.دار المعارف، ص١٢-١٣.

فرنسا بعد ثورتها من مبادئ الحرية والديمقراطية، وقد عاد رفاعة مع غيره من المبعوثين فشاركوا في حركة الترجمة وأنشأ محمد على مدرسة الألسن لتعليم اللغات الأجنبية وعيّن رفاعة ناظراً لها كما عينه رئيساً لقلم الترجمة الــذي تأسس سنة ١٨٤٢؛" ومن المؤكد أننا أخذنا بعد خروج الحملة (الفرنســية) مــن ديارنا نتجه إلى أوربا ونحاول أن نفيد منها في الحياة العقلــية والأدبية، فقد أدارت مصر وجهها إلى الشمال، وأخذت تفتح أنهارها الذهنية والفكرية لاستقبال جداول الحياة العقلية الأوربية"[1].

وبعــد أن خضعت مصر للاحتلال الإنجليزي حاول الإنجليز أن يفرضوا ثقافتهم ولغتهم على المصريين، فجعلوها لغة العلم وأجبروا طلبة العــلم على تعلمها وإجادتها وقصروا إرسال البعثات على بلادهم" ولم يــأت عصــر إسماعيل حتى خطت مصر خطوات واسعة نحو الامتزاج بالحضارة الأوربية وأخذ كل شيء يصطبغ صبغة حقيقية بتلك الحضارة، فمــن ناحــية الساســة والتشريع أخذت مصر بنظام نيابي يشبه للنظام الفرنســي، ومن ناحية التعليم أنشئت المدارس العالية المختلفة، وتأسس كــثير مــن المدارس الابتدائية والثانوية، كما تأسست مدرسة للبنات، فالتعلــيم أصبح غاية لنفسه، ولم يعد يراد به الجيش، وإنما أصبح يراد به الشعب. وأخذت مصر في تحضر واسع، فتأسست الأوبرا، وأنشأ يعقوب صنوع فرقة تمثيلية كان يترجم لها، ويؤلف تمثيليات مختلفة، وهي إن تكن

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ، د. شوقي ضيف ص٢٢.

بالعامية فإنها تدل على أن مصر أخذت في التحول، بل أخذت تبدأ دورة حضارية جديدة.

واشتد الاتصال بيننا وبين أوربا منذ فتحت قناة السويس، فالأوربيون يفدون على مصر يؤسسون بها الشركات والمصارف، ونحن نكثر من البعوث إلى أوربا لنطّلع على ثقافات القوم الكبرى التي مكنتهم من السيطرة على الحياة والمتعة بها، ويعود المبعوثون إلينا وقد حملوا لنا أزوادا من الحضارة الأوربية.[1]

وكان للأدباء اللبنانيين والسوريين الذين هاجروا إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر أثر في تعميق صلة مصر بالغرب وحضارته وأدبه، فقد نهضوا بالصحافة المصرية والمسرح المصري وعملوا في حقل الترجمة، فترجموا كثيراً من الأدب الأوربي وأسهموا مع الأدباء المصريين في تقوية الاتجاه نحو الآداب الأوربية وتعرف المصريون من خلال هذه الجهود على أدب شكسبير وموليير وهوجو وكورني وغيرهم، وعلى هذا النحو جرى في أدبنا منذ أواخر القرن التاسع عشر تيار غربيّ قويّ.

وقد عاش شوقي في تلك الأجواء وتأثر بها إلى جانب المؤثرات الخاصة ومنها ثقافته وتعليمه، فقد التحق بقسم الترجمة بكلية الحقوق سنة ١٨٨٥ ، وظل بها عامين مُنح بعدها الشهادة النهائية في فن الترجمة سنة ١٩٨٧، واستطاع أن يتقن اللغة الفرنسية إلى جانب التركية التي تعلمها من جدته وقد اجتمعت في تكوينه أصول أربعة فهو عربي تركي يوناني

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ، د. شوقي ضيف ص٢٤.

جركسي بجدته لأبيه[1] وقد عينه الخديوي توفيق في قسم الترجمة في قلم السكرتارية الخديوية ثم أرسله على نفقته في بعثة إلى فرنسا(١٨٩٠-١٨٩٣) ليكمل دراسة الحقوق، وفي ذلك يقول شوقي:"ثم لم يحل عليّ حول في الخدمة الشريفة حتى رأى الخديوي أن أبلغ التأديب في أوربا ، فخيَّرني في ذلك وفيما أريده من العلوم، فاخترت الحقوق لعلمي أنها تكاد تكون من الأدب وأن لا قدم فيها لمن لا لسان له، فأشار عليّ الأمير عندئذ أن أجمع في الدراسة بينها وبين الآداب الفرنساوية بقدر الإمكان"[2]، وكان توفيق حريصا على هذا الأمر حتى إنه كتب لشوقي في بعض رسائله:"يجب ألا تشغلك دروس الحقوق التي يمكنك تحصيلها وأنت في بيتك بمصر عن التمتع من معالم المدنية القائمة أمامك، وأن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضيء به الآداب العربية"[3]، وقد بلغ من حرص توفيق على ذلك أنه لم يأذن لشوقي في العودة إلى مصر لقضاء العطلة بعد انقضاء السنة الأولى ورغَّبه في أن يقيم أربع سنوات كاملة في أوربا، وأرسل له مالا في رحلة يزمعها في أي بلد يشاء إلا مصر[4] وقد قضى شوقي فترة بعثته بين مونبلييه وباريس وتنقل كثيراً بين مدن الجنوب الفرنسي وقراه، وسافر خلال بعثته إلى عاصمة إنجلترا فلبث فيها

---

(١) مقدمة شوقي للشوقيات، ص ٤٣.

(٢) نفسه ، ص٤٦.

(٣) مقدمة شوقي للشوقيات.

(٤) نفسه ، ص٤٦.

نحـــو شـــهر" يغشى من معالمها في الحضارة ويشاهد من دوران دولاب الـــتجارة والصـــناعة فيها ما ينتهي إليه العظم والجلال"[١]، وزار شوقي بعـــض المدن الإنجليزية على بحر الشمال" وهناك وجد راحة الخاطر وقرة الناظر "[٢].

أقـــام شوقي في فرنسا أكثر من ثلاث سنوات، وقد حصل على الشهادة النهائية في الحقوق بعد هذه السنوات ورأى الخديوي أن يقضي شـــوقي في العاصـــمة الفرنسية ستة شهور"يتمكن فيها من معرفة أشياء بـــاريس وأهلها"[٣]، وعاد شوقي بعدها إلى مصر سنة ١٨٩٢، وعين في القصر بقلم الترجمة وكان توفيق قد توفي وخلفه عباس الثاني"، وليس من ريـــب في أن هـــذه البعثة كانت نعمة على شوقي، وكأن ربَّة الشعر لم تنســـه، فقـــد أخرجـــته من سجنه، وانطلقت به تطوف أركان البحر المتوســـط، وتملأ عينيه بمفاتن الحضارة في فرنسا وانجلترا، كما تملأ عقله وروحـــه بالمدنية الغربية والآداب الفرنسية، وهو في أثناء ذلك يتنقل بين مونيليـــيه وباريس ولندن، ويشاهد المسارح ودور الأوبرا ويقرأ الصحف والكتب القانونية والأدبية، وقد قرأ لفكتور هيجو ولا مرتين ودي موسيه

---

(١) مقدمة شوقي للشوقيات، ص٤٧

(٢) نفسه: ص٤٧.

(٣) نفسه: ص ٤٨.

وغيرهـــم مـــن شعراء فرنسا مثل لافونتين وبذلك رأى رأي العين عوالم جديدة في الشعر والحضارة[1]

وفي عـــام ١٨٩٤ سافر شوقي إلى مدينة جنيف بسويسرا ممثلا للحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين ورآها شوقي خير فرصة لمشاهدة هـــذه البلاد التي هي المجلى البديع لعروس الطبيعة وقد أقام بها شهراً حتى انفض المؤتمر الذي أقيم بإحدى مدنها.[2]

ومـــا مـــن شك في أن السنوات التي قضاها شوقي في فرنسا قد فتحـــت أم آفاقاً جديدة، فقد كانت فرنسا تشهد آنذاك حراكا بين المذاهـــب الأدبية المختلفة وكان طبيعياً أن يتأثر شوقي بالوسط الأوربي وبالحياة الأوربية وبالشعر الأوربي واختلف النقاد إزاء حجم التأثير ، فرآه د. محمـــد حسن هيكل تأثراً كبيراً[3]، بينما رأى آخرون أن شوقي كان يقف من الأدب ومذاهبه موقف الهاوي المتذوق، يتأثر بشعراء أو جوانب من فنهم وليس بسمات محددة لمذهب بعينه، وخلصوا إلى أن تأثر شوقي بـــالآداب الغربية لم يكن منظماً بحيث يبدو واضح المعالم في أدبه بصفة عامة، باستثناء شكسبير الذي تتبعه بدقة في مسرحيته عن كليوباترا[4] أما د. شوقي ضيف فيرى أن التيار القديم في شعر شوقي كان يقابله ويجري

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، د. شوقي ضيف ص١٥.

(٢) مقدمة شوقي للشوقيات، ص٤٩.

(٣) مقدمة شوقي للشوقيات، د. محمد حسين هيكل، ص٦.

(٤) أحمد شوقي والأدب العربي الحديث، ص ١٨٣-١٨٤.

موازيـــاً له تــيار جديد ، فقد تثقف بالثقافة الأوربية، ودرس الحقوق، واطلـــع على الآداب الفرنسية واختلف إلى المسارح التمثيلية والغنائية في بـــاريس وإلى "مقهى داركور" حيث كان يجلس الشاعر الرمزي فرلين، ورأى تحـــت عينـــيه حركات التجديد بين الشعراء الفرنسيين، وقرأ في آثـــارهم، ورآهـــم لا يصبون شعرهم في قالب المديح كما يصنع شعراء العرب، فالهم اتجاهه وعمله، وفكر أن يطلق شعره من عقاله، وأن يجري في إثرهم، مفيداً مما يقرأه لفكتور هيجو ولا مرتين ودي موسيه وأضرابهم من نوابغ الشعراء[1] وقد حاول شوقي أن يخطو خطوات جادة في تجديد الشعـــر فـــأخذ يبعث بقصائد المديح من أوربا مملوءة من جديد المعاني وحديـــث الأســـاليب إلى أن رفـــع إلى الخديوي قصيدته التي يقول في مطلعها:

خَدَعوهـــا بِقَولِهِـــم حَســـناءُ   وَالغَـــواني يَغُـــرُّهُنَّ الثَـــناءُ

وكانـــت المدائح الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية، وكان يحـــررها الشـــيخ عبد الكريم سلمان، فدفع القصيدة إليه وطلب منه أن يســـقط الغزل وينشر المدح، فودّ الشيخ لو أسقط المدح ونشر الغزل، ثم كانـــت النتـــيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر، ولما علم شوقي تأكد أن احتراسه من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة إنما كان في محله وأحس أن اســـتعجاله يوقعه في الزلل، ولكن ذلك لم يحل دون تأثر شوقي بأدب الغرب، فواصل محاولاته وألف وهو في فرنسا مسرحية (على بك الكبير

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، ص ٨٤.

أو فـيما هي دولة المماليك) معتمداً في وضع أحداثها على أقوال الثقات من المؤرخين وبعث بها إلى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي الذي تفكه بقراءتها.

واتجـه شوقي بعد ذلك إلى ترجمة بعض قصائد الشعر الفرنسي، فترجم قصيدة "البحيرة" للشاعر "لامرتين" وأرسلها إلى الباشا المشار إليه في كـرّاس ليطلع الخديوي عليها ولكنها ضاعت و لم يكن لدى شوقي مسودة منها.[١]

وجاءت محاولة شوقي الأخرى حين نظم الحكايات على أسلوب لافونـتين الشـهير، واتجه بعد ذلك إلى الشعر التمثيلي فألف مسرحياته السـبع وهـي "مصرع كليوباترا، قمبيز، على بك الكبير، مجنون ليلى، عنترة، أميرة الأندلس، الست هدى"،

"وكـان اقتحام شوقي لهذا الفن الغربي وتأليفه فيه جديداً وعملاً خطيراً لا من حيث إنه أدخل هذا الفن لأول مرة في العربية فحسب، بل أيضـاً لأنه كان يقاوم تيار اللغة العامية الذي طغى على المسرح المصري وتدل تمثيلياته دلالة واضحة على أنه عُني بقراءة هذا الفن الغربي، ويقال إنه كان يختلف في أثناء بعثته إلى مسارح باريس المشهورة، وما زال يُعني بهـذا الفن حتى انطبعت في نفسه طريقته واستقرت فكرته[٢]، وعلى هذا

---

(١) مقدمة شوقي للشوقيات.

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر، د. شوقي ضيف، ص ٨٠.

النحو استطاع شوقي أن يمصّر هذا الفن الأوربي ويجعله فناً مصرياً عربياً لأول مرة في تاريخنا الحديث.[1]

وبرغم ما أنجزه شوقي بريادة الشعر المسرحي بوصفه ثمرة اتصاله بالآداب الغربية، فإن الدكتور طه حسين عاب عليه عدم تعمقه في الأدب الفرنسي المعاصر له ورأى أنه لم يكن له حظ وافر من الثقافة الفرنسية بعامة، وفي ذلك يقول:[2]

"كان شوقي في أول أمره مثقفاً يحب الثقافة، ويجدُّ في طلبها والتزيد منها، ولكنه كان كغيره من الشبان المصريين، يسيرون في الدرس والتحصيل على غير هدى، ولا سيما حين يدرسون في أوربا، لا يقرأون من الأدب الفرنسي مثلاً إلا ما لابد للرجل المثقف من قراءته في هذه الآثار العليا التي فُرضت على الناس فرضاً، فأما التأنق في الثقافة والتماس الترف في الأدب فلا حظّ لهم منه.

وكذلك كان شوقي حين ذهب إلى فرنسا آخر القرن الماضي، إذا ذكر الشعر الفرنسي ذكر لامرتين وبحيرته التي ترجمها إلى العربية، أو ذكر لافونتين وأساطيره التي قلدها في العربية، وإذا ذكر الفلسفة ذكر جول سيمون.

ومن المحقق أن آثار لامرتين ولافونتين آيات في الأدب الفرنسي، وأن فلسفة جول سيمون لها قيمتها، ولكنك تلاحظ أن شوقي لا يذكر

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ، د. شوقي ضيف، ص ٨٢.

(٢) حافظ وشوقي، د. طه حسين، ص ٢٠٠، مصر سنة ١٩٣٣.

بودلير أو فرلين أو سولي بريدوم أو مالارميه من الشعراء الفرنسيين، ولا تراه يذكر تين أو رينان أو برجسن من الفلاسفة، ذلك لأنه لم يكن يسير في ثقافــته على هدى، وإنما يأخذ من الأدب الفرنسي أيسره وأدناه إلى متناول اليد.

وكذلك كان تجديد شوقي متأثراً بهذا الحظ من الثقافة الفرنسية أي أنــه كان يتأثر بالقديم الفرنسي أكثر مما كان يتأثر بالجديد، ولو قد اتصــل شــوقي بالمجددين الذين عاصروه في شبابه من شعراء الفرنسيين لســلك شعره سبيلاً أخرى، ولكنه لم يفعل، ولكنه لم يطلق لطبيعته مما هــي علــيه حريتها، بل قيدها وأرادها كارهة على أن تتأثر في إنتاجها الأدبي بسياســة القصــر حينئذ وما كان يحيط به من الظروف، ولو قد أطلقها وأرسل لها العنان بعض الشيء لغيرت حياة الشعر العربي الحديث. ولســت في حاجة إلى أن أتكلف المشقة في الاستدلال على ذلك، فقد كانــت طبيعة شوقي من الخصب والقوة بحيث لم تكن تذوق أثراً أدبياً يمكن محاكاته إلا حاولت هذه المحاكاة وجدَّت فيها، وكانت توفَّق أكثر الأحــيان في هــذه المحاكــاة توفيقاً عظيماً، فلو أن شوقي قرأ الإلياذة والأودسة كاملتين وفهمهما حق الفهم، وأطلق لنفسه حريتها لحاول أن ينشــيء الشــعر القصصي في اللغة العربية، لا أقول على نحو ما كانت الإلياذة والأودسة من الطول، ولكن على نحو ما كانت الإلياذة والأودسة من الفن، ولو أن شوقي قرأ تمثيل اليونان وتمثيل المحدثين، وأطلق لطبيعته

حريتها لعُني بالتمثيل شعراً ونثراً في شبابه، ولأعطى اللغة العربية من هذا الفن حظّا له قيمة صحيحة."

وقد تابع د. شوقي ضيف رأى د. طه حسين فقال:[١]

"وواضح أن طه حسين يأخذ على شوقي تقصيره في الثقافة بالأدب اليوناني القديم وبالأدب الفرنسي المعاصر له، وما كان يجري فيه من حركات وموجات بعضها في إثر بعض، ويقول إنه إنما يتأثر بالقديم الفرنسي السابق له عند لامرتين ولافونتين وأضرابهما. وقد لاحظنا أيضاً قصوره في هذا الجانب، فإنه لم يتابع لافونتين في عمل ديوان خاص بأساطير قصصية، بل انصرف عن هذا الفن، وأيضاً فإنه لم يتابع لامرتين وأمثاله في حب الطبيعة وجعلها ميداناً لتأملاته وسبحاته وأحلامه الصوفية ومناجاته الروحية، بل استمر يطفو كشعراء العرب على السطح الخارجي. ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر جريان التيار الأوربي في شعره، ربما كان يجري في تقطّع، أو يجري أحياناً جريانا غير محسوس، ولكنه يجري على كل حال، فيتجه إلى الشعر القصصي، ويتجه إلى الشعر التاريخي، وتنبثُ ذرات وجزئيات منه في شعره، ويتصل بالحضارة الحديثة، فيصف القُطُر والطيارات والغواصات وسفن البحار. وأخيراً ينجاب التيار، كما ينجاب الضباب عن رواياته التمثيلية".

وتعجّب د. شوقي ضيف أن يكون شوقي في باريس في أثناء الحركة الرمزية وحين يعيش فرلين وبودلير ومالارميه ولا يكون

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، ص ٩٣.

لأشعارهم أي ظل في فنه وقصيده، وكأنه لم يهتم مطلقاً بالتجديد الذي كان يخوض فيه شعراء فرنسا في أثناء وجوده بين ظهرانيهم وتخوض فيه مجلاتهم وصحفهم.[1]

وربمـــا كان في هذه الآراء شيء من التحامل على شوقي، فمن العســير أن يلمّ بتلك التيارات الجديدة في الحياة الأدبية الفرنسية ولعله لم يكـــن مهـــيأ لذلك، فقد أدرك شوقي أن المناخ الأدبي في مصر لم يكن متقبلاً لفكرة التجديد، وقد اعترف بذلك د. شوقي ضيف فقال:[2]

"وحـــاول (شوقي) أن يجدد تحت تأثير ما قرأ في الأدب الفرنسي لفكـــتور هيجو ولامرتين ولافونتين، فكان ذلك سبباً لاصطدامه بالنقاد حينـــئذ، إذ رأوا فيه محاولة للخروج على التقاليد العربية، فقد كانوا لا يتصورون من الشعر إلا ما كان على المثال القديم. وهبَّ محمد المويلحي في صـــحيفة "مصباح الشرق" يكتب مقالات متفرقة ينقد بها هذا الاتجاه إلى التجديد عند شوقي وتجنَّى عليه من غير وجه، زاعماً أن الشعر العربي لـــيس في حاجـــة إلى تجديد، ومندداً بعثرات لغوية وجدها عند شوقي، وحاول أن يهدمه بها هدماً".

ومـــن ناحـــية أخرى، فقد عيب على شوقي انصرافه عن ترجمة أمهات الشعر الفرنسي[3]، وقد أشرنا إلى ما قاله شوقي عن ترجمة قصيدة

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، ص٩٠.

(٢) نفسه : ص ٩٥.

(٣) نفسه : ص ٨٩.

(البحيرة) للامرتين، وتحتفظ الشوقيات المجهولة ببعض القصائد التي ترجمها شوقي عن الفرنسية ومنها ما سماه (شعراً أجنبياً في قالب عربي) للشاعر الفرنسي الفريد دي موسيه وفيها يقول:[١]

لا تسرق الشعر واتركه لقائله ... فإن أقبح شيء سرقة الناس
إني وإن صغرت كأسي أخو أدب ... أُسقى وأسقي أولي الألباب من كاسي

ومما عربه شوقي أبيات فرنسية للشاعر (سلفيستر)[٢] بعنوان (المرأة زهرة الحياة الباقية) قال فيها:[٣]

تزول محاسن الأشياء لكن ... مثوبات جمالها يحي لديك
إذا رحل الشقيق أقام شيء ... على شفتيك منه ووجنتيك
وهذا الجوّ يُخمد كل برق ... ويعجز دون بارق مقلتيك
وروحك مركز للطف طرّا ... فكل اللطف مرجعه إليك
إذا فنيت زهور أو نجوم ... وزايلها البهاء بدا عليك
أعار الحسن وجهك كل نور ... وأودع كل طيب مفرقيك

ولشوقي قصيدة بعنوان (الرجل السعيد) وهي ترجمة أبيات فرنسية عنوانها "Lhomme Heureux" وفيها يقول:[٤]

---

(١) الشوقيات المجهولة : ص٢٣٦، وقد نشرت في المجلة المصرية أول يوليو سنة ١٩٠٠م

(٢) هو بولس أرمان سيلفستر Paul-Armand Silvestre (١٨٣٧-١٩٠١) شاعر أديب نشر ديوانه في سنة ١٨٦٢ بمقدمة للكاتبة الشهيرة جورج ساند، ثم أصدر دواوين أخرى بعد ذلك، ويمتاز شعره بعذوبته ورقته المتناهية، وقد اشتهر برواياته وحكاياته الساحرة.

(٣) الشوقيات المجهولة: ٢: ٣٤، ونشرت في مجلة سركيس في عدد أول نوفمبر ١٩٠٥م

(٤) الشوقيات المجهولة ٢: ٨٩: ٩٠ ونشرت في مجلة الكشكول سنة ١٩٢٥م.

فـــيا أســـعد مـــن يمشـــي   عـــلى الأرض مـــن الإنـــس
ومَـــــــنْ طهـــــــره الله   مـــــن الريـــبة والـــرجس
أنِـــــلْ قـــدري تشـــريفاً   وهـــبْ لي قُـــرْبك القدســـي
عســـى نفســـك أن تُدمـــــ   ـــج في أحلامهـــا نفســـي
فـــألقى بعـــض مـــا تلقـــى   مـــن الغـــبطة والأنـــس!

وتحتفظ الُشوقيات المجهولة بقصيدة لشوقي بعنوان (خلق المرأة في الهند) تعريباً عن فصل ورد في جريدة (الديبا الفرنسية).[1]

وتشـــير هـــذه الأشعار إلى أن شوقي اضطلع بدور ملموس في تعريب الشعر الفرنسي، فقد عرّب أشعاراً لألفريد دي موسيه وسلفستر وغيرهما.

وللغرب حضور واضح في شعر شوقي، فنجد فيه صوراً للبلدان والمجتمعات والمدن التي زارها، ووصفاً للمشاهد الطبيعية وحفاوة بأعلامه من الساسة والعلماء والمفكرين والشعراء.

صورة البلدان والمجتمعات:

نجـــد في شعر شوقي صوراً مختلفة لدول الغرب التي زارها أو قضي فيها شـــطراً من حياته تصفح فيها معالم الحضارة الغربية، وتعدُّ (فرنسا) أكثر هـــذه الـــدول حضوراً، فقد أوفد إليها في بعثة ليكمل ثقافته ويجمع بين

(١) الشوقيات المجهولة ١: ٢٠٣ ونشرت في (المجلة المصرية) أول يونيو سنة ١٩٠٠م.

دراســـة القانون والآداب الفرنسية، وقد وصف شوقي رحلته إلى فرنسا وبعض مشاهداته في مدنها وقراها فقال:[١]

"فركبت البحر لأول مرة أؤم مرسيليا، فلما قدمتها وجدت مدير الإرسالية في انتظاري، فأخبرني بأن الامير يأمر بأن أقضي عامين في مدينة مونبلييه، وآخرين في باريز.. وكان المدير قادما من مونبلييه للقائي فعاد بي إليها على الفور، وهنالك قدَّم لي جميع ما أحتاج إليه وأدخلني مدرسة الحقوق الجامعة ثم رجع إلى العاصمة.

فلما انقضت السنة الأولى التمست من ولي النعم أن يأذن لي في الأوبـــة إلى مصر لقضاء زمن العطلة بين أهلي فأوقع لي أمره أن هذا من نـــزق الشـــباب، وأنه يرى لي أن أقيم أربع سنوات كاملة في أوربا وألا أضـــيع منها دقيقة واحدة، ثم أرسل إليّ خمسين جنيها لأنفقها في رحلة أزمعهـــا في أي بلد أشاء إلا مصر. وكانت الدعوات قد توالت عليّ من الفرنســـاويين رفقائي في المدرسة بالذهاب إلى مدنهم المتفرقة في الجنوب وقضاء بعض الأيام في ضيافتهم هنالك. فقضيت نحو شهرين كنت فيهما قريـــر العين طيب النفس، حيث التفتُّ رأيتُ حولي مناظر رائعة ومجالي شـــائقة ومعالم للحضارة في أقصى القرى شاهقة، وآثاراً لدولة الرومان، تـــزداد حســـناً على تقادم الزمان. وعرفت الفلاح الفرنساوي في داره وكنـــت ألقاه في مزرعته، وأماشيه في الأسواق، فيخيل إليّ أنه قد خلف العـــرب على قرى الضيف وإكرام الجار. وكان أعجب ما رأيت مدينة

---

(١) مقدمة الشوقيات، ص ٤٦.

(كركسون)، وجدتها قسمين ووجدت القوم عليها صفين، فمنهم الباقون إلى اليوم كما كان آباؤهم في القرون الوسطى، بناؤهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس، وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق..والآخرون خلق جديد وشعبه كسائر شعب الأمة في أخذهم بأسباب التمدن العصري".

وقد عبّر شوقي عن إعجابه بفرنسا وحضارتها وعاصمتها وإنجازاتها العلمية في غير قصيدة، ومن ذلك قصيدة بعنوان (باريس) تقع في تسعة وثلاثين بيتا استهلها بمقدمة ناجى فيها هذه المدينة الساحرة مناجاة العاشق المضني، فقال:(١)

جَهدُ الصَبابَةِ ما أُكابِدُ فيكِ ... لَو كانَ ما قَد ذُقتُهُ يَكفيكِ
حَتّامَ هِجراني وَفيمَ تَجَنُّبي ... وَإِلامَ بي ذُلُّ الهَوى يُغريكِ
قَد مُتُّ مِن ظَمَإٍ فَلَو سامَحتِني ... أَن أَشتَهي ماءَ الحَياةِ بِفيكِ
أَجِدُ المَنايا في رِضاكِ هِيَ المُنى ... ماذا وَراءَ المَوتِ ما يُرضيكِ

وفي سياق ولع شوقي بالتاريخ نراه يستحضر تاريخ (باريس) وحروبها الطويلة من أجل الاستقلال والحرية وما أريق في سبيل ذلك من دماء ويخاطب (باريس) بقوله:

يا بِنتَ مَخضوبِ الصَوارِمِ وَالقَنا ... بَرِأَت بَنانُكِ مِن سِلاحِ أَبيكِ
فَخِضابُ تِلكَ مِنَ العُيونِ وِقايَةٌ ... وَخِضابُ ذاكَ مِنَ الدَمِ المَسفوكِ

---

(١) الشوقيات، ٢: ص٨١-٨٢.

جَفناكِ أَيَّهُما الجَرِيءُ عَلى دَمي بِــأَبي هُمــا مِن قاتِلٍ وَشَريكِ
بِالسَيفِ وَالسِحرِ المُبينِ وَبِالطِلى حَمَــلا عَلَــيَّ وَبِالقَنا المَشبوكِ

ويــلمُّ شوقي ببعض الأحداث التاريخية المتصلة بحرب الاستقلال ويشير إلى بعض المعارك التي خاضتها فرنسا فيقول:

طَلَعَت عَلى حَرَمِ المَمالِكِ خَيلُهُم نــاراً سَــنابِكُها عَلى البَلجيكِ
الــبَأسُ وَالجَــبَروتُ في أَعرافِها وَالمَوتُ حَولَ شَكيمِها المَعلوكِ[1]
عَرَّت لِياجَ عَنِ الحُصونِ وَجَرَّدَت نــامورَ عَن فولاذِها المَشكوكِ[2]
تَمشي عَلى خَطِّ المُلوكِ وَخَتمِهِم وَعَــلى مَصونِ مَواثِقٍ وَصُكوكِ
وَالحَــربُ لا عَقــلٌ لَها فَتَسومُها مــا يَنــبَغي مِــن خُطَّةٍ وَسُلوكِ
دَكَّــت حُصــونَ القَومِ إِلّا مَعقِلاً مِــن نَخــوَةٍ وَحَمِــيَّةٍ وَفُــتوكِ
وَإِذا احــتَمى الأَقوامُ بِاستِقلالِهِم لاذوا بِــرُكنٍ لَــيسَ بِالمَدكوكِ

ويحتفي شوقي بمدينة (باريس) ويحرص على تصحيح صورتها في بعــض أعــين مــن يرونها مدينة خلاعة ودعارة، ويهتم بتقديم صورتها الحضارية العلمية والأدبية، فهي موئل الحضارة ومهوى أفئدة طلاب العلم والــثقافة وهي التي نشرت مبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة في أنحاء العــالم وقد أنجبت أعلام البيان وأفذاذ الشعراء وهي (خزانة التاريخ) التي

(١) شكيمها: جمع شكيمة وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس، و(المعلوك): من علك الفرس اللجام أي لاكه وحركه في فمه.

(٢) المسكوك : المشدود

جمعت بين عبق الماضي وسحر الحاضر يقول شوقي مخاطباً (باريس) معبراً عن انبهاره وإعجابه بها وبحضارتها:[1]

وَلَقَــد أَقــولُ وَأَدمُعــي مُــنهَلَّةٌ ... باريــسُ لَــم يَعرِفكِ مَن يَغزوكِ
مــا خِلتُ جَنّاتِ النَعيمِ وَلا الدُمى ... تُــرمى بِمَشهودِ النَهارِ سَفوكِ
زَعَمــوكِ دارَ خَلاعَــةٍ وَمَجانَــةٍ ... وَدَعــارَةٍ يــا إِفكِ ما زَعَموكِ
إِن كُنــتِ لِلشَــهَواتِ رَيّاً فَالعُلا ... شَــهَواتُهُنَّ مُــرَوَّياتٌ فــيكِ
تَلديــنَ أَعــلامَ البَيانِ كَــأَنَّهُم ... أَصــحابُ تيجانٍ مُلوكُ أَريكِ
فاضَت عَلى الأَجيالِ حِكمَةُ شِعرِهِم ... وَتَفَجَّــرَت كَالكَوثَرِ المَعروكِ[2]
وَالعِــلمُ في شَــرقِ البِلادِ وَغَربِها ... مــا حَــجَّ طالِبُهُ سِوى ناديكِ
العَصــرُ أَنــتِ جَمالُــهُ وَجَلالُــهُ ... وَالــرُكنُ مِــن بُنيانِهِ المَسموكِ
أَخَــذَت لِــواءَ الحَقِّ عَنكِ شُعوبُهُ ... وَمَشَــت حَضارَتُهُ بِنورِ بَنيكِ
وَخِــزانَةُ الــتاريخِ ســاعَةَ عَرضِها ... لِلفَخــرِ خَيرُ كُنوزِها ماضيكِ
وَمِــنَ العَجائِــبِ أَنَّ واديكِ الثَرى ... وَمَــراتِعَ الغُــزلانِ في واديكِ

ومــا من شك في أن شوقي أحب (باريس) وانبهر بها، ووصفها بأنهــا (مديــنة النور) ورأى أن محاسن المدن انتهت إليها وتجمعت فيها، وكأن الخالق –سبحانه- بعث بالمدائن في واحدة، وقد سجَّل شوقي هذه المعاني في رسالة بعث بها إلى صديقه المؤرخ إسماعيل بك رأفت فقال:[3]

---

(١) الشوقيات، ٢: ص٨٢-٨٣.

(٢) المعروك: المزدحم عليه.

(٣) الشوقيات، ص ٢٤٨-٢٤٩

"صـــدرت عن باريس وكأنها بابل ذات البرج والجسر وهي في دولـــتها، أو طيبة في الزمن الأوَل، إلا أنها مدينة الشمس، وباريس مدينة النور، أو رومة مقر القياصر، ومزدحم الأجناس والعناصر، وهي في رفعة ملكها الفاخر، تموج بالامم كالبحر الزاخر، أو الإسكندرية ذات المسلة –والمسلة في باريس– وهي في ذروة سعدها، وأوج كمالها، تُغير الشمس في سرير مجدها بجلالها وجمالها، أو بغداد في إبان إقبالها، وسلطان أقيالها، وأيمـــن أمـــرها، وأسعد حالها، فسبحان المنعم، أعطى "مدينة المعرض" الأسماء كلها، وجلت قدرته، بعث المدائن في واحدة".

ويصـــف شـــوقي مكانة (باريس) ومترلتها عنده، فقد احتضنته مبعوثاً وطالب ثقافة وعلم، وقضى فيها أحلى سنوات شبابه، ونظم فيها أجمل قصائده، ولذلك فهو لا ينسى فضلها وجميل صنعها، يقول:

يـــا مَكتَبي قَبلَ الشَباب وَمَلعَبي   وَمَقـــيلَ أَيّـــامِ الشَبابِ النوكِ[1]
وَمَـــراحَ لَـــذّاتي وَمَغداها عَلى   أُفُـــقٍ كَجَـــنّاتِ النَعيمِ ضَحوكِ
وَسَـــماءَ وَحيِ الشِعرِ مِن مُتَدَفِّقٍ   سَلِسٍ عَلى نَولِ السَماءِ مَحوكِ[2]
لَمّا احتَمَلتُ لَكَ الصَنيعَةَ لَم أَجِد   غَـــيرَ القَـــوافي مـــا بِهِ أُجزيكِ
إِن لَـــم يَقـــوكِ بِكُلِّ نَفسٍ حُرَّةٍ   فَاللَـــهُ جَـــلَّ جَلالُـــهُ واقـــيكِ

ويحـــتفي شـــوقي في قصـــيدة أخرى بفرنسا في معرض إعجابه بالإنجـــاز الفرنســـي في الطـــيران ويشيد بالطيَّارين الفرنسيين (فدرين)

(١) النوك: الحمقي، جمع (أنوك).

(٢) محوك : منسوج، من (حاك) بمعنى (نسج)

و(يونيه) اللذين قدما طائرين من (باريس) إلى مصر سنة ١٩١٤، وهو ما سماه (آية العصر في سماء مصر) ويصف هذا الإنجاز العلمي الرائع ورحلة الطيارين إلى مصر وجسارتهما فيقول:(١)

يا فَرَنسا نِلتِ أَسبابَ السَماء ... وَتَمَلَّكتِ مَقاليدَ الجِواء

غُلِبَ النَسرُ عَلى دَولَتِه ... وَتَنَحّى لَكِ عَن عَرشِ الهَواء

وَأَتَتكِ الريحُ تَمشي أَمَةً ... لَكِ يا بَلقيسُ مِن أَوفى الإِماء

رُوِّضَت بَعدَ جِماحٍ وَجَرَت ... طَوعَ سُلطانَينِ عِلمٌ وَذَكاء

ويعبر شوقي في قصيدة أخرى عن انبهاره بهذا الإنجاز الذي كان اختراعه معجزة علمية بكل المقاييس، فقد اختصر الزمن والمسافات وأزال الحواجز وقرَّب بين الدول والشعوب ، وفي ذلك يقول:(٢)

قُم سُلَيمانُ بِساطُ الريحِ قاما ... مَلَكَ القَومُ مِنَ الجَوِّ الزِماما

حينَ ضاقَ البَرُّ وَالبَحرُ بِهِم ... أَسرَجوا الريحَ وَساموها اللِجاما

صارَ ما كانَ لَكُم مُعجِزَةً ... آيَةً لِلعِلمِ آتاها الأَناما

قُدرَةٌ كُنتَ بِها مُنفَرِداً ... أَصبَحَت حِصَّةَ مَن جَدَّ اِعتِزاما

عَينُ شَمسٍ قامَ فيها مارِدٌ ... مِن عَفاريتِكَ يُدعى شاتَهاما

يَملَأُ الجَوَّ عَزيفاً كُلَّما ... ضَرَبَ الريحَ بِسَوطٍ وَالغَماما

مَلِكُ الجَوِّ تَليهِ عُصبَةٌ ... جَمَعَت شَهماً وَنَدباً وَهُماما

---

(١) الشوقيات، ٢:ص ٣.

(٢) نفسه، ٢: ص ٨٨.

إن شوقي وهو يصف هذا الإنجاز الحضاري يستحضر معجزات (سليمان) ويرى الطائرات أشبه ببساط الريح ويومئ إلى الفرنسيين أصحاب هذه المعجزة بـ(القوم) تماهياً مع مفردات قصة سليمان، وقد رآهم ملكوا أجواء الفضاء وأسرجوا الرياح وحققوا المعجزات ويشبه الطيارين الفرنسيين بالمردة الذين ينسبون إلى (جن سليمان).

ولكن شوقي ينتقل فجأة من هذا الجو الاحتفالي إلى ما يناقضه فيباغت القارئ بالإشارة إلى مصرع الطيارين الفرنسيين ويراهم (شهداء العلم) و(خلفاء الرسل في الأرض)، فيقول:

في سَبيلِ المَجدِ أَودى نَفَرٌ   شُهَداءُ العِلمِ أَعلاهُم مَقاما
خُلَفاءُ الرُسلِ في الأَرضِ هُمو   يَبعَثُ اللَهُ بِهِم عاماً فَعاما
قَطرَةٌ مِن دَمِهِم في مُلكِهِ   تَملَأُ المُلكَ جَمالاً وَنِظاما

ويتوجه شوقي بالخطاب إلى (فرنسا) مواسيا ومعزيا، مؤكداً دورها العظيم في العلم والفن والحضارة ولا يفوته أن يشير إلى السنوات التي قضاها هناك فيشبهها بالشهد ويتذكر أحبابه ومعارفه من الفرنسيين الذين توثقت بينه وبينهم عُرى الصداقة والمودة وما يربطه بنهر "السين" من ذمام وعهود، يقول:

يا فَرَنسا لا عَدِمنا مِنَناً   لَكِ عِندَ العِلمِ وَالفَنِّ جساما
لَطَفَ اللَهُ بِباريسَ وَلا   لَقِيَت إِلّا نَعيماً وَسَلاما
رَوَّعَت قَلبي خُطوبٌ رَوَّعَت   سامِرَ الأَحياءِ فيها وَالنِياما
أَنا لا أَدعو عَلى سينٍ طَغى   إِنَّ لِلسينِ وَإِن جارَ ذِماما

لَســتُ بِالناســي عَلَـيهِ عيشَةً كانَــتِ الشَــهدَ وَأَحباباً كِراما

إن إعجاب شوقي بفرنسا وحضارتها لم تصرفه عن تأكيد موقفه الــرافض لسياستها الاستعمارية في عصره وقد عبَّر عن ذلك في قوله في الأبــيات الســابقة (أنا لا أدعو على سين طغى) ولا يفوت شوقي أن يســتنهض الشرق وينبهه من غفلته ويحفزه إلى مواكبة الغرب في إنجازاته وحضارته وألا يطيل الوقوف متفاخراً أمام الماضي، يقول:

أَيُّهــا الشَــرقُ اِنتَبِه مِن غَفلَةٍ مــاتَ مَن في طُرُقاتِ السَيلِ ناما

لا تَقولَــــنَّ عِظــامِيٌّ أَنــا في زَمــانٍ كــانَ لِلناسِ عِصاما

شــاقَتِ العَلــياءُ فــيهِ خَلَفاً لَــيسَ يَألوهــا طِلابــاً وَاغتِناما

كُــلَّ حــينٍ مِــنهُمو نابِغَةٌ يَفضُــلُ الــبَدرَ بَهــاءً وَتَمامــا

ويعــبر شــوقي في قصيدة أخرى عن إعجابه بالجيش الفرنسي وجــنوده ويهنؤهم بالنياشين الفرنسية التي منحت لهم في احتفالية بهذه المناسبة فيقول:[١]

يحمــي فرنســا فتــية مــا مــنهمو إلا أســامه[٢]

حــاطوا الحمــى الغالي كما حــاطوا مــن الحــق الدعامــه

لمــا أصــاروا الــنوط في يــوم الفخــار هــو العلامــه

كــانوا الحمــائم قــبل أن تخلــو مــن الطــوق الحمامــه

---

(١) الشوقيات المجهولة، ٢: ص ٢٧١.

(٢) أسامة : من أسماء الأسد.

يـــا مـــن يـــذود عن الحمى		نلـــت العلامـــة والســـلامه

ولم تـــنقطع علاقة شوقي بفرنسا بعد عودته من بعثته، فظل يحمل لها في نفسه أجمل الذكريات، وقد أرسل ولديه (عليا) و(حسينا) ليتعلما هناك، وكـــان يذهب إلى باريس بين حين وآخر لرؤيتهما واسترجاع ذكرياته هناك.

صورة إسبانيا:

عـــاش شـــوقي منفـــياً في إسبانيا حوالى أربع سنوات(١٩١٥-١٩١٩) بعد أن أبعدته السلطات الإنجليزية عن مصر عقب إعلان حمايتها عـــلى الوطن أثناء غياب عباس ووجوده بتركيا وأقامت مكانه السلطان حسين كامل، ونفت شوقي بوصفه من رجال عباس المقرَّبين، وقد اختار شوقي إسبانيا منفى أو مقاما له، وأبحرت به السفينة من بورسعيد فترل في (برشـــلونة) وأقام بها في ضاحية جميلة تُسمى "فلفديرا" كانت ترتفع عن ســـطح البحر وكان يتمتع بمشاهد الطبيعة الخلابة ويشاهد السفن وهي تغدو وتروح مستثيرة نوازع الشوق والحنين في نفسه إلى وطنه، وهو ما عبَّر عنه بقوله:

مُســـتَطارٌ إذا البَواخرُ رنَّت		أوَّلَ اللَّـــيلِ أو عَـــوَت بَعدَ جَرسِ

وظلَ شوقي يقيم في (برشلونة) حتى إعلان الهدنة في عام ١٩١٨ فـــأخذ يتـــنقل بـــين مدن إسبانيا وزار المدن الأندلسية(قرطبة وإشبيلية وغرناطة) وشاهد آثار الحضارة الأندلسية ومعالمها وتأسى لضياعها وعبَّر

عن محنة النفي التي عاشها ونظم هنالك قصيدته التي عارض فيها نونية ابن زيدون، وسينيته التي عارض فيها سينية البحتري في إيوان كسرى، وكتب وهو في أسبانيا مسرحيته النثرية الوحيدة (أميرة الأندلس) كما نظم أرجوزته التاريخية التي سماها (دول العرب وعظماء الإسلام) يقول شوقي واصفاً رحلته إلى الأندلس ومدنه:[1]

"لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها، ورمَّ لهم ربوع السلم، وجدد مزارها، أصبحت وإذا العوادي مقصرة! والدواعي غير مقصرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجد، والبخار المشتد، أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط، فبلغت النفس بمرآه الأرب، واكتحلت العين في ثراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرها من حرم، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم، فلا تقارب غير العتق والكرم:(طليطلة) تطلٌ على جسرها البالي، و(أشبيلية) تُشبل على قصرها الخالي، و(قرطبة) منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، و(غرناطة) بعيدة مزار الحمراء.

وكان "البحتري" رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال".

---

(١) الشوقيات، ٤: ص٤٤.

وقد عبَّر شوقي في سينيته عن إعجابه بإسبانيا وطبيعتها الساحرة وجوِّهـا البديع وبنائها الحسان وأكد امتنانه لها وحفظ ما أسدته إليه من صنيع أثناء إقامته بها فقال:(١)

يـا دِيـاراً نَزَلـتُ كَالخُلدِ ظِلّاً ... وَجَـنىً دانِـياً وَسَلسـالَ أُنسِ
مُحسناتِ الفُصولِ لا ناجِرٌ فيـ ... ـها بِقَـيظٍ وَلا جُمادى بِقَرسِ
لا تَحِـشُّ العُـيونُ فَوقَ رُباها ... غَـيرَ حـورٍ حُوِّ المَراشِفِ لُعسِ
كُسِـيَت أَفـرُخي بِظِلِّكِ ريشاً ... وَرَبـا في رُبـاكِ وَاشتَدَّ غَرسي
هُـم بَنو مِصرَ لا الجَميلُ لَدَيهِم ... بِمُضـاعٍ وَلا الصَـنيعُ بِمَنسي
مِـن لِسـانٍ عَلى ثَنائِكِ وَقفٌ ... وَجَـنانٍ عَـلى وَلائِـكِ حَبسِ
حَسـبُهُم هَـذِهِ الطُلولُ عِظاتٍ ... مِـن جَديدٍ عَلى الدُهورِ وَدَرسِ
وَإِذا فـاتَكَ اِلـتِفاتٌ إِلى المـا ... ضي فَقَد غابَ عَنكَ وَجهُ التَأَسّي

وقـد شغل شوقي وهو في منفاه بإسبانيا بمحنته، وأحسَّ بلوعة الغـربة، فأكـثر مـن الحنين والتشوق إلى مصر، وتلذذ بذكر معاهدها وآثارها ومعالمها، فقال في سينيته:(٢)

يـا ابـنَةَ اليَمِّ ما أَبوكِ بَخيلٌ ... مـا لَـهُ مولَعـاً بِمَنعٍ وَحَبسِ
أَحـرامٌ عَـلى بَلابِلِـهِ الدَو ... حُ حَـلالٌ لِلطَيرِ مِن كُلِّ جِنسِ
كُـلُّ دارٍ أَحَـقُّ بِـالأَهلِ إِلّا ... في خَبيـثٍ مِنَ المَذاهِبِ رِجسِ

---

(١) الشوقيات ٤: ص٥٢.

(٢) نفسه ٤: ص٤٦.

نَفسـي مِـرجَلٌ وَقَلبي شِراعٌ   بِهِما في الدُموعِ سيري وَأَرسي
وَطَـنِي لَو شُغِلتُ بِالخُلدِ عَنهُ   نازَعَـتني إِلَـيهِ في الخُلدِ نَفسي

ويحـن شوقي في نونيته للوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهده ومعاهده ويستهلها بمناجاة طائر تخيله ينوح على شجر الطلح وقد سُمي به واد بظاهر إشبيلية شبيهاً له في محنة الغربة وفي ذلك يقول:[1]

يـا نـائِحَ الطَلحِ أَشباهٌ عَوادينا   نَشـجى لِواديكَ أَم نَأسى لِوادينا
مـاذا تَقُـصُّ عَلَينا غَيرَ أَنَّ يَداً   قَصَّت جَناحَكَ جالَت في حَواشينا
رَمـى بِنا البَينُ أَيكاً غَيرَ سامِرِنا   أَخـا الغَريـبِ وَظِلّـاً غَيرَ نادينا
كُلٌّ رَمَتهُ النَوى ريشَ الفِراقُ لَنا   سَـهماً وَسُـلَّ عَلَيكَ البَينُ سِكّينا
إِذا دَعا الشَوقُ لَم نَبرَح بِمُنصَدِعٍ   مِـنَ الجَـناحَينِ عَـيٍّ لا يُلَبّيـنا
فَإِن يَكُ الجِنسُ يا اِبنَ الطَلحِ فَرَّقَنا   إِنَّ المَصـائِبَ يَجمَعـنَ المُصـابينا

ويـتحول المكان الأندلسي في نظر شوقي إلى رسم يقف عليه أو طلل يبكيه صنيع الشعراء القدماء في بكاء الديار والأطلال، يقول:

آهـا لَـنا نازِحي أَيكٍ بِأَندَلُسٍ   وَإِن حَلَلـنا رَفـيقاً مِن رَوابينا
رَسـمٌ وَقَفنا عَلى رَسمِ الوَفاءِ لَهُ   نَجـيشُ بِالدَمعِ وَالإِجلالِ يَثنينا
لِفتـيَةٍ لا تَـنالُ الأَرضُ أَدمُعَهُم   وَلا مَفـارِقَهُم إِلّـا مُصَـلّينا
لَـو لَم يَسودوا بِدينٍ فيهِ مَنبَهَةٌ   لِلناسِ كانَت لَهُم أَخلاقُهُم دينا

---

(١) الشوقيات ٤: ص١٠٤.

وفي مقابل الطلل الدارس الذي عاينه شوقي في إسبانيا يستحضر حضارة وطنه من خلال صور الفخر والكبرياء، يقول:

نَحنُ اليَواقيتُ خاضَ النارَ جَوهَرُنا وَلَم يَهُن بِيَدِ التَشتيتِ غالينا
وَلا يَحولُ لَنا صِبغٌ وَلا خُلُقٌ إِذا تَلَوَّنَ كَالحِرباءِ شانينا
لَم تَنزِلِ الشَمسُ ميزاناً وَلا صَعَدَت في مُلكِها الضَخمِ عَرشاً مِثلَ وادينا

إن الظروف والأحداث التي ألمّت بشوقي قد حالت من الوجهة النفسية بينه وبين رؤية إسبانيا الحديثة والاستمتاع بمعالمها، ولذلك توارت صورة إسبانيا الأوربية وحلّت محلها صورة الأندلس وحضارتها العربية والتأسي على الفردوس المفقود، واستحضار العظة والعبرة، وقد وجد في ذلك تسلية وعزاء وتخفيفاً لأزمته، فقد أدرك أن "لكل شيء إذا ما تمّ نقصان" ووقف أمام الرسوم الداثرة ليعزّي النفس بمن رحلوا، وتتبع مسيرة الحضارة في الأندلس منذ أيام الخلافة الأموية هناك فقال:(١)

أَينَ مَروانُ في المَشارِقِ عَرشٌ أَمَوِيٌّ وَفي المَغارِبِ كُرسي
سَقِمَت شَمسُهُم فَرَدَّ عَلَيها نورَها كُلُّ ثاقِبِ الرَأيِ نَطسِ
ثُمَّ غابَت وَكُلُّ شَمسٍ سِوى هاتيكَ تَبلى وَتَنطَوي تَحتَ رَمسِ

ويصف شوقي معالم الحضارة الأندلسية التي اندثرت، وينقل مشاهد مؤثرة لما رآه كقصور الخلفاء الدارسة والحدائق الغنّاء وأشجار الزيتون ويتأسى على مدينة (قرطبة) التي كانت حاضرة الأندلس في عصر الخلافة وكانت منارة أوربا حتى سميت (جوهرة العالم)، كما كانت كعبة

العلم والعلماء حتى قيل: إذا مات عالم بإشبيلية حُملت أدواته إلى قرطبة، ويشـــير شوقي إلى عصر (الناصر) ومسجد قرطبة الجامع، يقول شوقي واصفاً رحلته الأندلسية مستدعياً رحلة البحتري إلى إيوان كسرى:[(١)]

فِي دِيـــارٍ مِنَ الخَلائِفِ دَرسٍ ... وَمَـــنارٍ مِـــنَ الطَوائِـــفِ طَمسِ
وَرُبىً كَالجِنانِ فِي كَنَفِ الزَيتو ... نِ خُضـــرٍ وَفِي ذَرا الكَرمِ طُلسِ
لَـــم يَرُعني سِوى ثَرىً قُرطُبِيٍّ ... لَمَسَـــت فيهِ عِبرَةَ الدَهرِ خَمسي
قَرِيَةٌ لا تُعَدُّ فِي الأَرضِ كانَت ... تُمسِـــكُ الأَرضَ أَن تَميدَ وَتُرسي
غَشِيَت ساحِلَ المُحيطِ وَغَطَّت ... لُجَّـــةَ الرومِ مِن شِراعٍ وَقَلسِ[(٢)]
رَكِبَ الدَهرُ خاطِري فِي ثَراها ... فَـــأَتى ذَلِـــكَ الحِمى بَعدَ حَدسِ
فَتَجَلَّت لِيَ القُصورُ وَمَن فيـــ ... ـــهـــا مِـــنَ العِزِّ فِي مَنازِلَ قُعسِ
ما ضَفَت قَطُّ فِي المُلوكِ عَلى نَد ... لِ المَعـــالِي وَلا تَـــرَدَّت بِـــنَجسِ
وَكَـــأَنّي بَلَغـــتُ لِلعِـــلمِ بَيتاً ... فِـــيهِ مـــا لِلعُقولِ مِن كُلِّ دَرسِ
قُدُســـاً فِي البِلادِ شَرقاً وَغَرباً ... حَجَّـــهُ القَـــومُ مِـــن فَقيهٍ وَقَسٍّ
وَعَـــلى الجُمعَـــةِ الجَلالَةُ وَالنا ... صِرُ نورُ الخَميسِ تَحتَ الدَرَفسِ
يُـــنزِلُ التاجَ عَن مَفارِقِ دونٍ ... وَيُحَلّـــى بِـــهِ جَـــبينَ الـــبِرِنسِ
سِـــنَةٌ مِن كَرىً وَطَيفُ أَمانٍ ... وَصَحا القَلبُ مِن ضَلالٍ وَهَجسِ
وَإِذا الـــدارُ مـــا بِها مِن أَنيسٍ ... وَإِذا القَـــومُ مـــا لَهُم مِن مُحِسٍّ

---

(١) الشوقيات ٤: ص ٤٩.

(٢) القلس: حبل السفينة.

ويـــتوقف شوقي أمام قصر (الحمراء) بغرناطة فيصفه وصفاً دقيقاً وتبدو عيناه أشبه بعدسة تصوير دقيقة تنتقل بين غرف القصر التي خلت مـــن الحـــياة وساحاته المقفرة والقباب اللازوردية والنقوش والزخارف الذهبـــية الـــتي ازدانت بها جدران القصر وسقفه ويصف تماثيل الأسود الرابضـــة عـــلى القواعد المرمرية وهي تمجُّ المياه من أفواهها في الحياض والنافورات، يقول:[1]

مَـــن لِحَمـــراءَ جُلِّلَت بِغُبارِ الــ ـــدَهرِ كَالجُرحِ بَينَ بُرءٍ وَنُكسِ
كَسَنا البَرقِ لَو مَحا الضَوءُ لَحظاً لَمَحَـــتها العُيونُ مِن طولِ قَبسِ
حِصـــنُ غِرناطَةَ وَدارُ بَني الأَحــ ـمَـــرِ مِن غافِلٍ وَيَقظانَ نَدسِ[2]
جَلَّـــلَ الثَـــلجُ دونَها رَأسَ شيرى فَـــبَدا مِنهُ في عَصائِبَ بِرسِ[3]
سَـــرمَدٌ شَـــيبُهُ وَلَـــم أَرَ شَـــيباً قَـــبلَهُ يُـــرجى الـــبَقاءَ وَيُنسي
مَشَتِ الحادِثاتُ في غُرَفِ الحَمــ ـــراءِ مَشيَ النَعِيِّ في دارِ عُرسِ
هَتَكَـــت عِـــزَّةَ الحِجابِ وَفَضَّت سُـــدَّةَ البابِ مِن سَميرٍ وَأُنسِ
عَرَصـــاتٌ تَخَلَّـــتِ الخَـــيلُ عَنها وَاِستَراحَت مِنِ اِحتِراسٍ وَعَسِّ
وَمَغـــانٍ عَـــلى اللَـــيالي وِضـــاءٌ لَـــم تَجِـــد لِلعَشِيِّ تَكرارَ مَسِّ
لا تَـــرى غَـــيرَ وافِدينَ عَلى التا ريخِ ساعينَ في خُشوعٍ وَنَكسِ
نَقَّلـــوا الطَـــرفَ في نَضـــارَةِ آسٍ مِـــن نُقوشٍ وَفي عُصارَةِ وَرسِ

---

(١) الشوقيات، ص ٥٠-٥١.

(٢) الندس : الفهم.

(٣) عصائب برس : أي بيض كالقطن.

وَقِبابٍ مِنْ لازَوَردٍ وَتِبرٍ كَالرُبى الشُمِّ بَينَ ظِلٍّ وَشَمسِ
وَخُطوطٍ تَكَفَّلَت لِلمَعاني وَلِأَلفاظِها بِأَزيَنَ لَبسِ
وَتَرى مَجلِسَ السِباعِ خَلاءً مُقفِرَ القاعِ مِن ظِباءٍ وَخَنسِ
لا الثُرَيّا وَلا جَواري الثُرَيّا يَتَنَزَّلنَ فيهِ أَقمارَ إِنسِ
مَرمَرٌ قامَتِ الأُسودُ عَلَيهِ كَلَّةَ الظُفرِ لَيِّناتِ المَجَسِّ
تَنثُرُ الماءَ في الحِياضِ جُماناً يَتَنَزّى عَلى تَرائِبَ مُلسِ
آخَرَ العَهدِ بِالجَزيرَةِ كانَت بَعدَ عَرْكٍ مِنَ الزَمانِ وَضَرسِ

ولشوقي قصيدة كتبها بعد عودته من منفاه وألقاها بدار الأوبرا سنة ١٩٢٠ وقد ودع فيها (أرض أندلس) كما أحبَّ أن يلقبها وأشاد فيها بتلك البلاد واعترف بجميلها وشبهها بالجنة لجمال طبيعتها وبالغ في تكريمها إذ آوته وهو غريب، والتفت إلى الجوانب الإيجابية في تجربة الغربة، فقد أراحته من الأحقاد والضغائن والخيانة، يقول شوقي:(١)

وَداعاً أَرضَ أَندَلُسٍ وَهَذا ثَنائي إِن رَضيتِ بِهِ ثَوابا
وَما أَثنَيتُ إِلّا بَعدَ عِلمٍ وَكَم مِن جاهِلٍ أَثنى فَعابا
تَخِذتُكِ مَوئِلاً فَحَلَلتُ أَندى ذُراً مِن وائِلٍ وَأَعَزَّ غابا

ويفيض شوقي في الإشادة بالأندلس ومدنه وحضارته العظيمة فيقول:

أَحَقٌّ كُنتِ لِلزَهراءِ ساحاً وَكُنتِ لِساكِنِ الزاهي رِحابا

---

(١) الشوقيات، ١: ص٦٥.

وَلَــم تَكُ جَورُ أَبهى مِنكِ وَرداً ... وَلَــم تَــكُ بابِلٌ أَشهى شَرابا

وَأَنَّ المَجــدَ في الدُنــيا رَحــيقٌ ... إِذا طــالَ الــزَمانُ عَلَــيهِ طابا

أولَــئِكَ أُمَّــةٌ ضَــرَبوا المَعالي ... بِمَشــرِقِها وَمَغــرِبِها قِــبابا

جَــرى كَدَراً لَهُم صَفوُ اللَيالي ... وَغايَــةُ كُــلِّ صَفوٍ أَن يُشابا

ولا شك في أن وجود شوقي في إسبانيا قد جعله يتصل بالحضارة الأندلسـية اتصـالاً وثيقاً ويتعرف عن قرب على مظاهر تلك الحضارة ومعالمهـا، كمـا أتـاح له كذلك أن يتعمق في قراءة تاريخ العرب في الأندلـس وهـو مـا نجده بصورة واضحة في أرجوزته التي نظمها في الأندلس عن دول العرب وعظماء الإسلام وفيها يتتبع التاريخ الأندلسي تتبعاً دقيقاً منذ الفتح مشيداً بالدور الذي أداه عبد الرحمن الداخل الملقب بـ"صقر قريش" الذي يخاطبه قائلاً:[1]

أَيــنَ يــا واحِــدَ مَروانَ عَلَم ... مَــن دَعاكَ الصَقرُ سَمّاهُ العُقاب

رايَــةٌ صَــرَّفَها الفَــردُ العَلَم ... عَن وُجوهِ النَصرِ تَصريفَ النِقاب

كُنتَ إِن جَرَّدتَ سَيفاً أَو قَلَم ... أُبــتَ بِالأَلبابِ أَو دِنتَ الرِقاب

ولا يفوت شوقي أن يتأسى على هذه الحضارة ويستحضر العظة في سياق قراءته لتاريخ العرب في الأندلس.

---

(١) الشوقيات،٢: ص١٧٧.

صورة روما:

نظـــر شوقي إلى روما بوصفها عاصمة الحضارة الرومانية القديمة وحاضـــرة العالم القديم، والتفت حين زارها إلى آثارها القديمة ومعالمها التاريخـــية وتماثيلها البديعة وبقايا هياكلها وقصورها وأحسَّ حين وقف أمامهـــا بالخشـــوع والرهبة واستحضر عبرة التاريخ وفلسفته، ورأي في انهـــيار الحضارة الرومانية شاهداً على تقلبات الدهر وصروفه، وقد أشار شـــوقي إلى زيارته روما عقب زيارة له إلى باريس فقال:"برحتها —يعني باريس– وهي تجرُّ الذيل على المدائن الكُبر، وتزري بالحضارات ما حضر منها وما غبر، وقصدت إلى روما لعلي أردُّ النفس إلى الخشوع، وأداوي الفـــؤاد مـــن نشوة اغتراره بما رأى،فبلغتها وإذا أنا بين أثر يكاد يتكلم، وحجر كان لكرامته يستلم، فوقفت أتأمل ذا الجدار وذا الجدار، وأنشد ذلك القصر وتلك الدار، إلى أن ثار الشعر– والشعر ابن أبوين "التاريخ، والطبيعة".[1]

لم يحـــتف شوقي بروما الحديثة بل احتفى بروما القديمة التي رأى فـــيها صورة مناقضة للحياة في باريس بأضوائها ولهوها وشبابها الغضّ، بينما رأى في روما شواهد وأطلالا لحضارة عظيمة اندثرت، فوقف أمام

---

(١) الشوقيات ، ١: ص٢٥٠.

تلـــك الأطـــلال المهدَّمة يستحضر التاريخ الغابر ونظم في ذلك قصيدة بعنوان (روما) قال فيها:[1]

قف بِروما وَشاهِدِ الأَمرَ وَاشهَد | أَنَّ لِـــلمُلكِ مالِكـــاً سُـــبحانَه
دَولَـــةٌ في الثَرى وَأَنقاضُ مُلكٍ | هَـــدَمَ الدَهـــرُ في العُـــلا بُنيانَه
مَزَّقَـــت تاجَهُ الخُطوبُ وَأَلقَت | في التُرابِ الَّذي أَرى صَولَجانَه
طَلَـــلٌ عِـــندَ دِمـــنَةٍ عِندَ رَسمٍ | كَكِـــتابٍ مَحـــا البِلى عُنوانَه
وَتَماثـــيلُ كَالحَقـــائِقِ تَـــزدا | دُ وُضـــوحاً عَلى المَدى وَإِبّانَه
مَـــن رَآهـــا يَقولُ هَذي مُلوكُ | الدَهـــرِ هَـــذا وَقارُهُم وَالرَزانَه
وَبَقايـــا هَـــياكِلٍ وَقُصـــورٍ | بَـــينَ أَخـــذِ البِلى وَدَفعِ المَتانَه
عَبَـــثَ الدَهـــرُ بِالحَوارِيِّ فيها | وَبَيلَـــيوسَ لَـــم يَهَب أُرجُوانَه

إن استهلال شوقي قصيدته بعبارة (قف بروما) استحضار لصورة الطلـــل الموروثـــة وممارسة الطقوس أمامه، وقد رأى شوقي في الحضارة الرومانـــية المـــندثرة شاهداً على دوران الحياة وتقلباتها وتأكيداً للحقيقة الإيمانية التي تؤكد أن الملك لله يدبره كيف يشاء وأن الدول والحضارات مهما بلغت من العظمة والمجد فلابد أن تؤول إلى الأفول، وهو المعني ذاته الذي أكده شوقي في وقفته أمام الحضارة الأندلسية، وكأنه يبعث برسالة خفية إلى الطغاة والمتجبرين ينذرهم بالعاقبة.

---

(١) الشوقيات، ١ ص٢٥١-٢٥٣.

لقد رأى شوقي الحضارة الرومانية القديمة وقد تحولت إلى أنقاض وأطلال ورسوم وتماثيل تنطق بالحقيقة الخالدة وبقايا هياكل وقصور وقد عبث الدهر بها و لم يخش سطوة (يوليس قيصر) ولا أعلامه وشعاراته الأرجوانية التي ترمز إلى القوة والجبروت.

إن شوقي وهو يستحضر تاريخ الحضارة يتعجب من أحوال البشر وتقلباتهم، فالرومان الذين حاربوا المسيحية وأراقوا دماء من دانوا بها هم أنفسهم الذين ناصروها وأصبحوا حماتها وهي مفارقة عجيبة في عالم متقلب ودنيا تتناقض فيها الأهواء ويدفع الأبرياء ثمن هذا التناقض من دمائهم وأرواحهم.

ويستحضر شوقي صورة روما القديمة في عظمتها وحضارتها في مجالات السياسة والقانون والفلسفة والفنون والعمران والآداب وطبقاتها الاجتماعية من سادة وعبيد وكيف سادت روما العالم القديم حتى إن عبيدها كانوا يعدون أبناء الأمم الأخرى عبيداً لهم، ويا لها من مفارقة. يقول شوقي:

رَومَةُ الزَهوِ في الشَرائِعِ وَالحِكـ ـمَةِ في الحُكمِ وَالهَوى وَالمَجانَه
وَالتَناهي فَما تَعَدّى عَزيزاً فيكِ عِزٌّ وَلا مَهيناً مَهانَه
ما لِحَيٍّ لَم يُمسِ مِنكِ قَبيلٌ أَو بِلادٌ يُعِدُّها أَوطانَه
يُصبِحُ الناسُ فيكِ مَولى وَعَبداً وَيَرى عَبدُكِ الوَرى غِلمانَه

غير أن هذه الصورة الماضوية لا تلبث أن تتلاشى أمام صورة الحاضر الذي يراه شوقي ماثلاً أمامه وقد استحال مسخاً مشوهاً، وهنا

تــتقاطر أسئلة الشعر وتنهمر من خلال بنية الاستفهام "أين" لتنعي هذه الحضــارة الــتي اندثــرت وتؤكد حكمة الدهر وتقلباته، فقد أصبحت القصور الشاهقة أطلالاً ورسوماً، وذهب الحكماء والقضاة وتلاشى هذا الجــبروت الذي كان قادراً على مسخ الممالك الأخرى ومحوها، ولم تعد روما تلك الإمبراطورية التي ملكت العالم أجمع واستنزفت أموال الشعوب وامتلأت خزائنها بثرواتهم، وفي ذلك يقول شوقي:

أَينَ مُلكٌ في الشَرقِ وَالغَربِ عالٍ   تَحسُدُ الشَمسُ في الضُحى سُلطانَه
قــادِرٌ يَمسَــخُ المَمــالِكَ أَعما   لاً وَيُعطــي وَســيعَها أَعوانَــه
أَيــنَ مــالٌ جَبَيــتِهِ وَرَعايــا   كُلُّهُــم خــازِنٌ وَأَنــتِ الخَزانَه
أَينَ أَشرافُكِ الَّذينَ طَغَوا في الدَهــ   ـرِ حَــتّى أَذاقَهُــم طُغــيانَه
أَيــنَ قاضيــكِ مــا أَناخَ عَلَيهِ   أَيــنَ ناديكِ مــا دَهى شَيخانَه
قَــد رَأَيــنا عَلَيــكِ آثارَ حُزنٍ   وَمِــنَ الــدورِ مــا تَرى أَحزانَه

وفي سياق استخلاص العظة والدرس يضع شوقي صورة الحضارة الفرعونية أمام روما فيقول:

اِقصِري وَاِسأَلي عَنِ الدَهرِ مِصراً   هَــل قَضَــت مَرَّتَينِ مِنهُ اللُبانَه
إِنَّ مَــن فَــرَّقَ العِــبادَ شُعوباً   جَعَــلَ القِســطَ بَيــنَها ميزانَه
هَــبكِ أَفنَيــتِ بِالحِدادِ اللَيالي   لَــن تَرَدّى عَلى الوَرى رومانَه

إن الــدرس الذي وعته ذاكرة شوقي من فلسفة التاريخ هو أن الحضارة التي اندثرت لا تعود إلى الحياة مرة أخرى، فتلك أمة قد خلت وما عــلى أبنائها إلا أن يستوعبوا دروس التاريخ وحكمة الدهر. وقد

أدرك شـوقي أن صـوت التاريخ قد علا في قصيدته على صوت الفن فوصفها بأنها "هي إلى التاريخ أدنى منها إلى الشعر:[(١)]

وتطـل صـورة روما القديمة في شعر شوقي غير مرَّة، فيشير في همزيـته إلى الإمـبراطورية الرومانية التي أصابها الهرم ودبَّت في جسدها الشـيخوخة حـتى فنيـت شـأنها شأن الحضارة الإغريقية وغيرها من الحضـارات وتلك سُنَّة الله في الممالك كما يشهد بذلك تاريخ الحضارة الإنسانية، وفي ذلك يقول شوقي:[(٢)]

هَرِمَـت دَولَـةُ القَياصِرِ وَالدَو ... لاتُ كَالـناسِ داؤُهُـنَّ الفَناءُ
لَـيسَ تُغـني عَنها البِلادُ وَلا ما ... لُ الأَقالـيمِ إِن أَتاهـا الـنداءُ
نـالَ روما ما نالَ مِن قَبلُ آثيـ ... ـنا وَسـيمَتهُ ثَيبَةُ العَصماءُ
سُـنَّةُ اللَـهِ في المَمالِكِ مِن قَبـ ... ـلُ وَمِن بَعدِ ما لِنُعمى بَقاءُ

وإذا كان شوقي يرصد حركة التاريخ ويستبطن فلسفته، فإنه لا يُـنكر فضل الحضارة الرومانية على العالم، ويرى أن الظلام أطبق على الشـرق والغـرب بعد انقضاء حكم القياصرة، وانغمس الناس في حمأة الوثنـية الـتي ضربت بجرانها على الدولة الرومانية، واحتدم الصراع بين السادة والعبيد وأريقت دماء كثيرة وامتلأت بخطايا البشر. يقول شوقي:

أَظلَـمَ الشَرقُ بَعدَ قَيصَرَ وَالغَر ... بُ وَعَـمَّ الـبَرِيَّةَ الإِدجـاءُ
فَـالوَرى في ضَـلالِهِ مُـتَمادٍ ... يَفـتُكُ الجَهـلُ فيهِ وَالجُهَلاءُ

---

(١) الشوقيات، ١: ٢٥٠.

(٢) نفسه ، ٢: ٢٩.

عَـــرَّفَ اللَّـــهَ ضِلَّةً فَهوَ شَخصٌ أَو شِـــهابٌ أَو صَـــخرَةٌ صَمّاءُ
وَتَوَلّـــى عَلى النُفوسِ هَوى الأَوْ ثـــانِ حَـــتّى اِنتَهَت لَهُ الأَهواءُ
فَـــرَأى اللَّـــهُ أَن تُطَهَّرَ بِالسَيـــ فِ وَأَن تَغسِـــلَ الخَطايا الدِماءُ
وَكَـــذاكَ الـــنُفوسُ وَهيَ مِراضٌ بَعـــضُ أَعضـــائِها لِبَعضٍ فِداءُ

وقـــد وقـــف شوقي الموقف ذاته من الحضارة الإغريقية، فأشاد بإنجازاتهـــا في العلـــوم والفنون والفلسفة والآداب. ورسم شوقي صورة مضـــيئة لليونان واليونانيين، فأشاد بانكبابهم على العلم والمعرفة والفنون وتلك هي الأسس التي قامت عليها حضارة اليونان، يقول:(١)

مَـــثِّل لَـــنا الـــيونانَ بَـــينَ العِـــلمِ وَالخُلُـــقِ القَـــويمِ
وَشَـــبابُها يَـــــتَعَلَّمونَ عَـــلى الفَـــراقِدِ وَالـــنُجومِ
لَمَسـُـوا الحَقــيقَةَ في الفُنونِ وَأَدرَكوهــــا في العُلــــومِ
حَلَّـــت مَكانـــاً عِـــندَهُم فَـــوقَ المُعَلِّـــمِ وَالزَعـــيمِ

وقـــد أشاد شوقي بأثينا ووصفها بأنها "مدينة الحكمة في الدهور الخالـــية"(٢) وخاطبها بقصيدة حين أوفدته الحكومة المصرية إليها لحضور مؤتمر المستشرقين قال في مطلعها:(٣)

إِن تَســـأَلي عَن مِصرَ حَوّاءِ القُرى وَقَـــرارَةِ الـــتاريخِ وَالآثـــارِ
فَالصُـــبحُ في مَـــنفٍ وَثيبَة واضِحٌ مَـــن ذا يُلاقي الصُبحَ بِالإِنكارِ

---

(١) الشوقيات، ١: ٢١٨.
(٢) نفسه ،٢: ٦٤.
(٣) نفسه ، ٤: ٦١.

واحتفى شوقي بالإسكندر واعترف بإنجازاته في مصر فقال:[1]

شَادَ إِسكَندَرٌ لِمِصرَ بِناءً | لَم تَشِدهُ المُلوكُ وَالأُمَراءُ
بَلَداً يَرحَلُ الأَنامُ إِلَيهِ | وَيَحُجُّ الطُلّابُ وَالحُكَماءُ

أما صورة إنجلترا فلها وجهان في شعر شوقي، أولهما ينطوي على مدح وإعجاب بحضارة الإنجليز ومملكتهم العظيمة وإمبراطوريتهم التي لا تغيب عنها الشمس وجيوشهم الجرارة ودستورهم العجيب وما يتمتع به شعبهم من حرية ومساواة وديمقراطية، وقد عبَّر عن ذلك في قصيدته التي أشاد فيها بشكسبير فقال:[2]

أَعلى المَمالِكِ ما كُرسِيُّهُ الماءُ | وَما دِعامَتُهُ بِالحَقِّ شَمّاءُ
يا جيرَةَ المَنشِ حَلّاكُم أُبُوَّتُكُم | ما لَم يُطَوَّق بِهِ الأَبناءُ آباءُ
مُلكٌ يُطاوِلُ مُلكَ الشَمسِ عِزَّتُهُ | في الغَربِ باذِخَةٌ في الشَرقِ قَعساءُ
تَأوي الحَقيقَةُ مِنهُ وَالحُقوقُ إِلى | رُكنٍ بَناهُ مِنَ الأَخلاقِ بَنّاءُ
أَعلاهُ بِالنَظَرِ العالي وَنَطَّقَهُ | بِحائِطِ الرَأيِ أَشياخٌ أَجِلّاءُ
وَحاطَهُ بِالقَنا فِتيانُ مَملَكَةٍ | في السِلمِ زَهرُ رُبىً في الرَوعِ أَرزاءُ
يُستَصرَخونَ وَيُرجى فَضلُ نَجدَتِهِم | كَأَنَّهُم عَرَبٌ في الدَهرِ عَرباءُ
وَدَولَةٌ لا يَراها الظَنُّ مِن سِعَةٍ | وَلا وَراءَ مَداها فيهِ عَلياءُ
عَصماءُ لا سَبَبُ الرَحمَنِ مُطَّرَحٌ | فيها وَلا رَحِمُ الإِنسانِ قَطعاءُ

(١) الشوقيات، ١: ٢٣-٢٤.

(٢) نفسه، ٢: ٦.

تِلْـكَ الجَزائِرُ كانَت تَحتَهُم رُكناً وَراءَهُـنَّ لِـباغي الصَيدِ عَنقاءُ

وقــد عبر شوقي عن رأيه في الشعب الإنجليزي الذي وصفه بأنه أرقــى الشــعوب عواطفاً وحضارة ، قد فضَّلهم على الرومان في القوة والمنعة والمجد الحضاري، وأشاد بعدلهم وسماحتهم فقال:[1]

حلفاؤنـــا الأحـــرار إلا أنهـــم أرقـــى الشعوب عواطفاً وميولا

أعلى من الرومان ذكرا في الورى وأعـــز ســـلطاناً وأمـــنع غـــيلا

لَمّـــا خـــلا وجه البلاد لسيفهم ســـاروا سماحـــاً في البلاد عدولا

وقد فسَّر الدكتور محمد مندور موقف شوقي بأنه محاولة للتقرب من الإنجليز واسترضائهم بعد أن أتوا بالسلطان حسين إلى العرش بعد أن عـــزلوا عباس حلمي الثاني[2]، وهذا الرأي فيه قدر كبير من الصواب إذ نستشـــعر من كلام شوقي كثيراً من الملق والنفاق، ولكن هذه الصورة تقابلها صورة أخرى يقف فيها شوقي موقف الرفض والإدانة من سياسة إنجلترا الاستعمارية، فقد أدان احتلالها لمصر فقال:[3]

دخلت على حكم البلاد وشرعه مصـــرا فكانت كالسُّلال دخولا

وهاجم شوقي السلطان حسين والإنجليز هجوماً حاداً فقال:

هل كان ذاك العهد إلا موقفاً للســـلطين وللـــبلاد وبـــيلا

يعـــتزُّ كـــلُّ ذلـــيل أقوام به وعزيـــزكم يلقـــى الحـــياة ذليلا

---

(١) الشوقيات الصحيحة ، ١: ٢١١.

(٢) المصدر السابق، ١: ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق ، ١: ٢٠٦.

وانقــضَّ ملعبه وشاهده على   أن الــرواية لم تــتم فصــولا

وكــان هذا الشعر مصدر إزعاج وقلق للإنجليز فنفوا شوقي من مصر، ومع ذلك فلم يكفَّ عن مهاجمة السياسة الاستعمارية لإنجلترا التي وصفها بالصلف والغرور وإغلاق الأبواب دون حقوق مصر الوطنية وقد عبر عن ذلك في قصيدته التي أنشدها عام ١٩٢٣ أثناء انعقاد مؤتمر لوزان وقال فيها:(١)

أَتَعلَــمُ أَنَّهُــم صَــلِفوا وَتاهوا   وَصَــدّوا الــبابَ عَنّا موصِدينا

وَلَــو كُــنّا نَجُــرُّ هُناكَ سَيفاً   وَجَدنــا عِــندَهُم عَطفاً وَلينا

وهذا الموقف الذي وقفه شوقي من سياسة انجلترا الاستعمارية لم يقتصــر على انجلترا وحدها بل انسحب على دول الغرب التي انتهجت هــذه السياســة، فقــد أدان فرنسا حين اعتدى الفرنسيون على دمشق وضــربوها بالمدافع ونكّلوا بثوارها، وتعجب من أن تقف فرنسا بالذات هذا الموقف وهي الدولة التي قدمت التضحيات الجسام من أجل الحرية، يقول شوقي:(٢)

وَلِلمُســتَعمِرينَ وَإِن أَلانــوا   قُلــوبٌ كَالحِجــارَةِ لا تَرِقُّ

دَمُ الــثُوّارِ تَعــرِفُهُ فَرَنســا   وَتَعلَــمُ أَنَّــهُ نــورٌ وَحَــقُّ

جَــرى في أَرضِــها فــيهِ حَياةٌ   كَمُــنهَلِّ السَماءِ وَفيهِ رِزقُ

بِــلادٌ مــاتَ فِتيَــتُها لِتَحــيا   وَزالــوا دونَ قَومِهِــمُ لِيَبقوا

---

(١) الشوقيات، ١: ٢٧٢.

(٢) نفسه ، ٢: ٧٦.

وَحُــرِّرَتِ الشُعوبُ عَلى قَناها فَكَيــفَ عَــلى قَناها تُستَرَقُّ
وَلِــلحُرِّيَّةِ الحَمــراءِ بــابٌ بِكُــلِّ يَــدٍ مُضَــرَّجَةٍ يُدَقُّ

وأدان شوقي كذلك سياسة إيطاليا الاستعمارية، وصوّر وحشية الإيطاليين حين اعتدى الأسطول الإيطالي على بيروت سنة ١٩٠٤، فقال:(١)

بَيروتُ ماتَ الأُسدُ حَتفَ أُنوفِهِم لَــم يُشهِروا سَيفاً وَلَم يَحموكِ
كُــلٌّ يَصــيدُ اللَيــثَ وَهوَ مُقَيَّدٌ وَيَعِــزُّ صَــيدُ الضَيغَمِ المَفكوكِ
ســالَت دِماءٌ فيكِ حَولَ مَساجِدٍ وَكَــنائِسٍ وَمَــدارِسٍ وَبُنوكِ

وأدان الإيطاليين مرة أخرى حين شنقوا البطل الليبي عمر المختار وحمل على الحضارة الأوربية التي انحرفت عن صورها وتنكرت لمبادئها واعتدت على حرية الشعوب، ودعا إلى أن تكون العلاقة بين الشعوب قائمة على المودة والإخاء والاحترام فقال:(٢)

يــا وَيحَهُــم نَصَبوا مَناراً مِن دَمٍ توحــي إِلى جيلِ الغَدِ البَغضاءَ
إِنّــي رَأَيتُ يَدَ الحَضارَةِ أولِعَت بِــالحَقِّ هَدمــاً تــارَةً وَبِــناءَ
مــا ضَرَّ لَو جَعَلوا العَلاقَةَ في غَدٍ بَــينَ الشُــعوبِ مَوَدَّةً وَإِخاءَ

وعلى هذا النحو تأسست علاقة شوقي بالغرب، فإعجابه بحضارته لم يحل بينه وبين التصدي للمظاهر السلبية في هذه الحضارة التي أباحت لنفسها العدوان على الشعوب الضعيفة واحتلالها بالقوة.

---

(١) الشوقيات، ١: ١٦٢-١٦٣.

(٢) نفسه، ٣: ١٧-١٩.

المشاهد الطبيعية:

أتيح لشوقي أن يزور عددا من البلدان الأوربية إما بغرض التعليم والثقافة أو النفي أو حضور مؤتمرات أو السياحة، فقضى سنوات البعثة في فرنسا، وسنوات النفي في إسبانيا، وزار إنجلترا وسويسرا وبلجيكا، وأتاح له ذلك السياحة في تلك الدول، والتعرف على معالمها وآثارها ومظاهرها الحضارية والتمتع بطبيعتها الخلابة، وقد ظهر أثر ذلك في شعره، وأصبح يمثل تياراً من تياراته المختلفة.

وقد صور شوقي في شعره بعض مظاهر الطبيعة والحضارة في فرنسا، فوصف ميدان (الكونكورد) أو الوفاق بباريس، وهو الذي أعدم فيه الملك لويس السادس عشر في أيام الثورة الفرنسية، وقد التفت شوقي إلى هذه الخلفية التاريخية في وصف هذا الميدان، فقال:[(١)]

أَمَيدانَ الوِفاقِ وَكُنتَ تُدعى ... بِمَيدانِ العَداوَةِ وَالشِقاقِ
أَتَدري أَي ذَنبٍ أَنتَ جانٍ ... وَأَي دَمٍ ذَهَبتَ بِهِ مُراقِ
هَوى فيكَ السَريرُ وَمَن عَلَيهِ ... وَماتَ الثائِرونَ وَأَنتَ باقِ
أَصابوا وَاِستَراحَ لُويسُ مِنهُم ... لِذا سُمّيتَ مَيدانَ الوِفاقِ

فوقفة شوقي أمام الميدان هي في الواقع وقفة أمام الحدث التاريخي وما يجسده من دلالات ورموز وعبر وهو الجانب الذي كان يستهوي (شوقي) ويلتفت إليه في مطولاته التاريخية.

---

(١) الشوقيات، ص ٦٣، (وصف ميدان الكونكورد بباريس).

واستحضر شوقي صورة (البستيل) وهو السجن الفرنسي الشهير الذي يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد شارل الخامس سنة ١٤٦٩ وكان رمزاً للاستبداد والتعذيب وظل كذلك حتى هدمته الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وأقيم مكانه تمثال الحرية، وقد استدعى شوقي صورة هذا المعتقل في معرض الدفاع عن الفراعنة الذين اتهموا بالجبروت وتسخير العبيد في بناء الأهرامات والمعابد ليؤكد أن ما اتهم به الفراعنة لا يقارن بما كان يحدث في "الباستيل"، يقول:[١]

وَلَستُ بِقائِلٍ ظَلَموا وَجاروا ... عَلى الأُجَراءِ أَو جَلَدوا القَطينا

فَإِنّا لَم نُوَقَّ النَقصَ حَتّى ... نُطالِبَ بِالكَمالِ الأَوَّلينا

وَما البَستيلُ إِلّا بِنتُ أَمسٍ ... وَكَم أَكَلَ الحَديدُ بِها صَحينا

والتفت شوقي إلى الطبيعة الفرنسية الساحرة، فنظم قصيدة في (غاب بولونيا) وهو متنزه مشهور في باريس ولم يصفه وصفاً خارجياً مجرداً بل وصفه في سياق تجربة حب، وجعله إطاراً يحتضن التجربة ويشاركه تفاصيلها وهو ينحو في ذلك منحى شعراء الرومانسية في أوربا الذين خاطبوا الطبيعة خطاباً جديداً واتخذوها صديقاً وأنيساً وانصهروا فيها. يقول شوقي في قصيدته:[٢]

يا غابَ بولونَ وَلي ... ذِمَمٌ عَلَيكَ وَلي عُهود

زَمَنٌ تَقَضّى لِلهَوى ... وَلَنا بِظِلِّكَ هَل يَعود؟

(١) الشوقيات، ص ٢٦٩، (البستيل).

(٢) الشوقيات، ص ٢٧-٢٨.

حُلُمٌ أُريدُ رُجوعَهُ ... وَرُجوعُ أَحلامي بَعيد
وَهَبِ الزَمانَ أَعادَها ... هَل لِلشَبيبَةِ مَن يُعيد

ويخاطب شوقي (الغاب) الذي زاره بعد انقضاء زمن الوصال وقد جددت رؤيته الذكرى وأهاجت أحزانه، فيستعيد ذكرياته ويستحضر (الماضي) ويتلذذ بسرد تفصيلات مشاهد الحب الذي احتضنته طبيعة فرنسا الخلابة. يقول:

يا غابَ بولونَ وَبي ... وَجدٌ مَعَ الذِكرى يَزيد
خَفَقَت لِرُؤيَتِكَ الضُلو ... عُ وَزُلزِلَ القَلبُ العَميد
وَأَراكَ أَقسى ما عَهِد ... تُ فَما تَميلُ وَلا تَميد
كَم يا جَمادُ قَساوَةً ... كَم هَكَذا أَبَداً جُحود
هَلّا ذَكَرتَ زَمانَ كُنّا ... وَالزَمانُ كَما نُريد
نَطوي إِلَيكَ دُجى اللَيا ... لي وَالدُجى عَنّا يَذود
فَنَقولُ عِندَكَ ما نَقو ... لُ وَلَيسَ غَيرُكَ مَن يُعيد
نُطقي هَوىً وَصَبابَةٌ ... وَحَديثُها وَتَرٌ وَعود
نَسري وَنَسرَحُ في فَضا ... ئِكَ وَالرِياحُ بِهِ هُجود
وَالطَيرُ أَقعَدَها الكَرى ... وَالناسُ نامَت وَالوُجود
فَنَبيتُ في الإيناسِ يَغ ... بُطُنا بِهِ النَجمُ الوَحيد
في كُلِّ رُكنٍ وَقفَةٌ ... وَبِكُلِّ زاوِيَةٍ قُعود

هكـــذا خاطب شوقي غاب بولونيا واتخذه صديقاً وشاهدا على هـــذا الحـــب الضائع وزمن الوصل الذي تقضى، وأصبح حلماً يراوده، ولكنه حين وقف أمام الغاب بعد سنوات طوال أحس بوطأة الزمن، فقد فـــارق الشـــباب و لم يعد يملك إلا الأسى وأصبح "الغاب" مثيراً للوجد واستدعاء الذكريات.

وتعـــد هذه القصة محاولة من شوقي لمجاراة الرومانسيين والخروج عن أسر الوصف التقليدي وهو ما أشار إليه في مقدمته لشوقياته فقال:" الشـــاعر من وقف بين الثرى والثريا، يقلب إحدى عينيه في الذر، ويجيل أخرى في الذرى، يأسر الطير ويطلقه، ويكلم الجماد وينطقه"، ويرى د. شـــوقي ضيف أن دعوة شوقي لم تنعكس في شعره بشكل واضح حيث "لا نجـــد عنده تأثراً واضحاً بشعر الطبيعة الذي شاع عند الرومانتسيزم، ولا نقصد مجرد وجود شعر طبيعة عنده، وإنما نقصد الصورة الغربية التي رمـــز إليها في قوله "يكلم الجماد وينطقه"، فهذه الصورة قلما نجدها في شعره، وليس معنى ذلك أنه لم يتغن بالسماء والماء والشمس وطلعة القمر المنير، والبحر وأمواجه، والربيع ومناظره، ففي شعره وفرة من ذلك، وإنما معناه أنه لم يذهب مذهب شعراء الرومانتسيزم الذين قرأ لهم من الذوبان في الطبـــيعة والفناء فيها، ومحبتها محبة صوفية، ومناجاتها مناجاة روحية، تكثر فيها الرؤى والأشباح"[١].

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، ص ٩١.

ويـــرى د. شوقي كذلك أن قصيدة شوقي في "غاب بولونيا" لم يصـــعد فـــيها إلى ما كنا نأمله من هذه الروحية التي نجدها عند شعراء الغرب، فقد وقف حديثه فيها عند مناجاتها و لم يخترق الحجاب الصفيق بين شعر العرب في الطبيعة وشعر الأوربيين"(١)

ومن العسير في تقديري أن نقرن شوقي بشعراء الغرب المعاصرين لـــه ذوي النزعـــة الرومانسية وأن ننتظر منه أن يذهب مذهبهم وذلك لاختلاف الثقافة والتكوين والبيئة، و لم تكن الفترة التي قضاها شوقي في فرنسا كافية –في ظني– لهذا التحول الكبير في شعره، ولا ننسى أنه كان مشـــدودا بقوة إلى المناخ الأدبي في مصر و لم يكن مهيأ للصدام مع التيار التقلـــيدي الجارف المسيطر على الحياة الأدبية، ومع ذلك فلا نعدم هذا الأثر في شعره، وهو ما نحسه في قصيدة "غاب بولون" التي تعكس نزعة رومانسية واضحة في خطاب الطبيعة على نسق جديد.

ومما يتصل بمشاهد الطبيعة في فرنسا قصيدة نظمها شوقي عندما زار قسم الأزهار والثمار في المعرض بباريس سنة ١٩٠١، وفيها يشير إلى بـــراعة الفرنســـيين في تنســـيق الزهور وما توحي به من جمال وحسن. يقول:(٢)

رَزَقَ اللَّـــهُ أَهـــلَ باريسَ خَيراً ... وَأَرى العَقـــلَ خَـــيرَ ما رُزِقوهُ
عِـــندَهُم لِلـــثِمارِ وَالزَهـــرِ مِمّا ... تُنجِـــبُ الأَرضُ مَعرِضٌ نَسَقوهُ

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث: ص ٩١.

(٢) الشوقيات، ص ٨١.

جَـنَّةٌ تَخلِـبُ العُقولَ وَرَوضٌ تَجمَـعُ العَـينُ مِنهُ ما فَرَقوهُ
مَـن رَآهُ يَقولُ قَد حُرِموا الفِر دَوسَ لَكِـن بِسِحرِهِم سَرَقوهُ
مـا تَرى الكَرمَ قَد تَشاكَلَ حَتّى لَـو رَآهُ السُـقاةُ مـا حَقَّقوهُ
يُسـكِرُ الـناظِرينَ كَرماً وَلَمّا تَعتَصِـرهُ يَـدٌ وَلا عَـتَّقوهُ
صَـوَّروهُ كَمـا يَشاؤونَ حَتّى عَجِبَ الناسُ كَيفَ لَم يُنطِقوهُ
يَجِـدُ المُـتَّقي يَـدَ اللَـهِ فيهِ وَيَقـولُ الجَحـودُ قَد خَلَقوهُ

وقـد زار شوقي إنجلترا أثناء بعثته في فرنسا وأشار إلى ذلك في مقدمته للشوقيات فقال:

"مـا كدت أنتهي من السنة الثانية حتى كتب إلى مدير الإرسالية المصـرية يستقدمني لباريز، ويخبرني أنه ذاهب بتلامذته إلى انكلترا لقضاء أكـثر أيام العطلة فيها، وأن الأمير رحمه الله قد أدى نفقة هذه السياحة عني إذا رغبت فيها، فبرحت مونبلييه على عجل أيمم باريز للمرة الأولى، فأقمت بها يومين ريثما أهبت الرحلة ثم سافرنا إلى عاصمة انكلترا، فلبثنا فيها نحو شهر، نغشى من معالمها في الحضارة ونشاهد من دوران دولاب التجارة والصناعة فيها ما ينتهي إليه العظم والجلال في هذا العصر، لكنا لم نلبـث أن سئمنا وهذا أكبر عيوبها فخرجنا إلى بعض المدائن على بحر الشـمال وهـناك وجدنا راحة الخاطر وقرة الناظر، وإن يكن الجو كثير التقلب غداراً في غالب الأحيان".

وإذا كـان شوقي قد أحس بالسأم والملل في عاصمة انجلترا فإن ذاكـرته الشـعرية لم تستحضـر شيئاً من معالمها الحضارية ولا مشاهد

الطبيعة فيها سوى صورة بحر (المانش) الذي يجري في الشمال الغربي لأوربا بين انجلترا شمالا وفرنسا جنوبا، ووضعه في مقارنة أمام بحر الغزال وهو أحد فروع النيل الأبيض في السودان، وبحيرة (نيانزا) وهي إحدى البحيرات الثلاث التي يخرج منها النيل، وفي ذلك يقول:[1]

فَأَينَ مِنَ المَنشِ بَحرُ الغَزالِ   وَفَيضُ نِيانزا وَتَهتانُها
وَأَينَ التَماسيحُ مِن لُجَّةٍ   يَموتُ مِنَ البَردِ حيتانُها

وقد زار شوقي سويسرا عندما أوفد من الحكومة المصرية في سنة ١٨٩٦ في مؤتمر المستشرقين الذي كان انعقاده في مدينة جنيف عاصمة سويسرا ورآها شوقي "خير فرصة تغتنم لمشاهدة هذه البلاد التي هي المجلى البديع لعروس الطبيعة" فرحل إليها وأقام بها شهراً، وبرحها بعد انتهاء المؤتمر إلى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة المعرض الذي أقيم بإحدى مدنها[2].

وقد أوحت جنيف بطبيعتها الساحرة وضواحيها وجبالها إلى شوقي بقصيدة سماها "بلدة المؤتمر لناظرها في بهجة مناظرها" استهلها بقوله:

لا السُهدُ يُدنيني إِلَيهِ وَلا الكَرى   طَيفٌ يَزورُ بِفَضلِهِ مَهما سَرى

ويحتفي خيال شوقي بطبيعة سويسرا احتفاء كبيراً، فيصف الرياض والجبال التي غطتها الثلوج ونمت فوقها النباتات والخضرة والجبال

---

(١) الشوقيات، ص ٢٦٥.

(٢) مقدمة الشوقيات.

الشاهقة التي تكاد تلامس السحاب وقد بدت الغيوم فوقها كالبيوت، ويصف السفوح المدرجة والبيوت البيضاء الرابضة فوقها كأوكار الطير أو كتائب الجيش ويلفته انعكاس النجوم فوق صفحة المياه والجسور المتشابكة التي تصل بين الأنهار وغير ذلك من مظاهر الطبيعة الساحرة، يقول:(١)

نَاجَيتُ مَن أَهوى وَناجاني بِها ... بَينَ الرِياضِ وَبَينَ ماءِ سُوَيسِرا
حَيثُ الجِبالُ صِغارُها وَكِبارُها ... مِن كُلِّ أَبيَضَ في الفَضاءِ وَأَخضَرا
تَخِذَ الغَمامُ بِها بُيوتاً فَانجَلَت ... مَشبوبَةَ الأَجرامِ شائِبَةَ الذُرى
وَالصَخرُ عالٍ قامَ يُشبِهُ قاعِداً ... وَأَنافَ مَكشوفَ الجَوانِبِ مُنذِرا
بَينَ الكَواكِبِ وَالسَحابِ تَرى لَهُ ... أُذُناً مِنَ الحَجَرِ الأَصَمِّ وَمِشفَرا
وَالسَفحُ مِن أَيِّ الجِهاتِ أَتَيتَهُ ... أَلفَيتَهُ دَرَجاً يَموجُ مُدَوَّرا
نَثَرَ الفَضاءُ عَلَيهِ عِقدَ نُجومِهِ ... فَبَدا زَبَرجَدُهُ بِهِنَّ مُجَوهَرا
وَتَنَظَّمَت بيضُ البُيوتِ كَأَنَّها ... أَوكارُ طَيرٍ أَو خَميسٌ عَسكَرا
وَالنَجمُ يَبعَثُ لِلمِياهِ ضِياءَهُ ... وَالكَهرُباءُ تُضيءُ أَثناءَ الثَرى
وَالماءُ مِن فَوقِ الدِيارِ وَتَحتَها ... وَخِلالَها يَجري وَمِن حَولِ القُرى
مُتَصَوِّباً مُتَصَعِّداً مُتَمَهِّلاً ... مُتَسَرِّعاً مُتَسَلسِلاً مُتَعَثِّرا
وَالأَرضُ جِسرٌ حَيثُ دُرتَ وَمَعبَرٌ ... يَصِلانِ جِسراً في المِياهِ وَمَعبَرا
وَالفُلكُ في ظِلِّ البُيوتِ مَواخِراً ... تَطوي الجَداوِلَ نَحوَها وَالأَنهُرا

---

(١) الشوقيات، ٣٣-٣٥.

ولا ينفصل شوقي عن لوحة الطبيعة بل يشارك فيها، ويستمتع بها ويتـــنقل بين مشاهدها، فيخرج من الجسور ليأوى إلى الأشجار فيستظل بظلالها، ويتأمل المياه الفضية ويستشرف ما حوله من مرئيات في مشهد حلمي يمتزج فيه الخيال بالواقع، يقول:

وَخَرَجـــتُ مِن بَينَ الجُسورِ لَعَلَّني ... أَستَقبِلُ العَرفَ الحَبيبَ إِذا سَرى
آوي إِلى الشَــجَراتِ وَهيَ تَهُزُّني ... وَقَـــد اطمَأَنَّ الطَيرُ فيها بِالكَرى
وَيَهُـــزُّ مِـــنّي المــاءُ في لَمَعانِـــهِ ... فَأَمـــيلُ أَنظُرُ فيهِ أَطمَعُ أَن أَرى
وَهُنالِكَ ازدَهَتِ السَماءُ وَكانَ أَن ... آنســـتُ نـــوراً مـــا أَتَمَّ وَأَبهَرا
فَسَـــرَيتُ في لَألائِـــهِ وَإِذا بِـــهِ ... بَـــدرٌ تُســـايِرُهُ الكَواكِبُ خُطَّرا
حُلُـــمٌ أَعـــارَتني العِـــنايَةُ سَمعَها ... فـــيهِ فَما استَمتَعتُ حَتّى فُسِّرا
فَرَأَيتُ صَفوى جَهرَةً وَأَخَذتُ أُنــ ... ـــسى يَقظَةً وَمُنايَ لَبَّت حُضَّرا
وَأَشَـــرتَ هَل لُقيا فَأوحِيَ أَن غَداً ... بِالطَودِ أَبيَضَ مِن جِبالِ سُوَيسِرا
إِن أَشرَقَت زَهراءَ تَسمو لِلضُحى ... وَإِذا هَوَت حَمراءَ في تِلكَ الذُرى
فَشُـــروقُها مِـــنهُ أَتَـــمُّ مَعانِـــياً ... وَغُـــروبُها أَجلى وَأَكمَلُ مَنظَرا
تَـــبدو هُـــنالِكَ لِلوُجـــودِ وَليدَةً ... تَهـــنا بِهـــا الدُنيا وَيَغتَبِطُ الثَرى

ويسترســـل شـــوقي في وصف مشاهد الطبيعة السويسرية وما تتصف به من "خصوصية" فيشير إلى المراكب الكهربائية (التلفريك) التي تســـري بـــين السفوح والجبال ويصف المناظر التي رآها على فرع نهر

(السليف) من جنان وخضرة وقرى ومزارع تنطق بعظمة الخالق وإبداعه، يقول:

أَنْهارُنـــا تَحـــتَ السَليفِ وَفَوقَهُ ... وَلَـــدى جَوانِبِهِ وَما بَينَ الذُرى
رَجـــلاً وَرُكـــباناً وَزَحلَقَةً عَلى ... عَجَلٍ هُنالِكَ كَهرُبائِيٍّ السَرى
في مَركَـــبٍ مُستَأنِسٍ سالَت بِهِ ... قُضُـــبُ الحَديدِ تَعَرُّجاً وَتَحَدُّرا
يَنســـابُ ما بَينَ الصُخورِ تَمَهُّلاً ... وَيَخِـــفُّ بَـــينَ الهُوَّتَينِ تَخَطُّرا
وَإِذا اعتَـــلى بِالكَهـــرُباءِ لِذَروَةٍ ... عَصـــماءَ هَـــمَّ مُعانِقاً مُتَسَوِّرا
لَمّـــا نَزَلـــنا عَـــنهُ في أُمِّ الذُرى ... قُمـــنا عَلى فَرعِ السَليفِ لِنَنظُرا
أَرضٌ تَمـــوجُ بِها المَناظِرُ جَمَّةٌ ... وَعَوالِـــمٌ نِعمَ الكِتابُ لِمَن قَرا
وَقُـــرىً ضَرَبنَ عَلى المَدائِنِ هالَةً ... وَمَدائِـــنٌ حَلَّـــينَ أَجيادَ القُرى
وَمَـــزارِعٌ لِلـــناظِرينَ رَوائِـــعٌ ... لَبِسَ الفَضاءُ بِها طِرازاً أَخضَرا
وَالمـــاءُ غَـــدرٌ مـــا أَرَقَّ وَأَغزَرا ... وَجَداوِلٌ هُنَّ اللُجَينُ وَقَد جَرى
فَحَشَـــونَ أَفواهَ السُهولِ سَبائِكاً ... وَمَلَـــأنَ أَقبالَ الرَواسِخِ جَوهَرا
قَـــد صَغَّرَ البُعدُ الوُجودَ لَنا فَيا ... لِلَّـــهِ ما أَحلى الوُجودَ مُصَغَّرا

وبرغم هذا الحضور القوي للطبيعة السويسرية في مخيلة شوقي إلا أنه لم يتجاوز في تصويرها الشكل الخارجي، ولم ينفذ إلى الجوهر، فكان في صنيعه هذا كالمصور الذي تلتقط عدسته المنظر الطبيعي كما هو في الخارج دون أن يضيف إليه شيئاً من ذاته، ولذلك بدت الطبيعة –برغم جمال لوحتها ومشاهدها– ثابته Static وهو ما لاحظه بعض نقاد شوقي

إذ رأوا أن "الطبيعة في شعره جامدة، قلما تتحرك، وقلما تنطق أو تتكلم، وشـــعره يجرى على عمود الشعر العربي من حيث كثرة الأخيلة، وتحويل صـــورها إلى أصـــداف من التشبيهات والاستعارات، وهي أصداف قد تلمع، وقد تضيء بجمال في التصور"(١)

وقـــد نحا شوقي هذا المنحى في قصيدته التي وصف فيها الطبيعة الأوربية وهو في طريقه إلى الأستانة قادماً من أوربا وقال في مطلعها:(٢)

تلـــكَ الطَبيعَةُ قِف بِنا يا ساري — حَـــتّى أُريكَ بَديعَ صُنعِ الباري
الأَرضُ حَولَـــكَ وَالسَماءُ اهتَزَّتا — لِـــرَوائِعِ الآيـــاتِ وَالآثـــارِ
مِـــن كُـــلِّ ناطِقَةِ الجَلالِ كَأَنَّها — أُمُّ الكِـــتابِ عَلى لِسانِ القاري
دَلَّت عَلى مَلِكِ المُلوكِ فَلَم تَدَع — لِأَدِلَّـــةِ الفُقَهـــاءِ وَالأَحـــبارِ
مَـــن شَـــكَّ فيهِ فَنَظرَةٌ في صُنعِهِ — تَمحـــو أَثـــيمَ الشَكِّ وَالإِنكارِ

فقد رأى شوقي في الطبيعة الأوربية الساحرة شاهداً ينطق ببديع صنع الخالق، وأحس بأن كل شيء فيها يوحي بالجلال والخشوع ويؤكد أن للكـــون خالقاً أبدعه ووشاه بالجمال والعظمة، فهي خير برهان على وجوده بل إنها أقوى من أدلة الفقهاء والعلماء. وينتقل شوقي من الإجمال إلى التفصـــيل، فيتوقف أمام آيات الطبيعة ومظاهر الجمال والروعة فيها، فتلـــتقط مخيلـــته صورة الجنان والخمائل والغدران والجليد الذي يكسو

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، ص ٩١.

(٢) الشوقيات، ص٣٦-٣٨.

الجـــبال ويلتف على قممها كالعمامة البيضاء، فيبدو الجبل فارعاً مهيباً كأنه شيخ من شيوخ القبائل . يقول شوقي:[١]

وَلَقَـــد تَمُــرُّ عَــلى الغَديرِ تَخالُهُ ... وَالنَبــتُ مِــرآةً زُهَت بِإِطارِ
حُلــوُ التَسَلسُـــلِ مَوجُــهُ وَجَريرُهُ ... كَأَنــامِلٍ مَــرَّت عَــلى أَوتارِ
مَــدَّت سَــواعِدُ مائِــهِ وَتَأَلَّقَــت ... فيها الجَواهِرُ مِن حَصىً وَجِمارِ
يَنســـابُ في مُخضَـــلَّةٍ مُبــتَلَّةٍ ... مَنســوجَةٍ مِن سُندُسٍ وَنُضارِ
زَهــراءَ عَونِ العاشِقينَ على الهَوى ... مُختــارَةِ الشُــعَراءِ في آذارِ
قــامَ الجَلــيدُ بِهــا وَســالَ كَأَنَّهُ ... دَمــعُ الصَبابَةِ بَلَّ غُصنَ عَذارِ
وَتَرى السَماءَ ضُحىً وَفي جُنحِ الدُجى ... مُنشَــقَّةً مِــن أَنهُــرٍ وَبِحــارِ
في كُــلِّ ناحِــيَةٍ سَلَكتَ وَمَذهَبِ ... جَـبَلانِ مِن صَخرٍ وَماءٍ جاري
مِــن كُلِّ مُنهَمِرِ الجَوانِبِ وَالذُرى ... غَمــرِ الحَضــيضِ مُحَلَّلٍ بِوَقارِ
عَقَــدَ الضَــريبُ لَــهُ عَمامَةَ فارِعٍ ... جَــمِّ المَهابَةِ مِن شُيوخِ نِزارِ[٢]

وكـــان شـــوقي كثير الالتفات إلى الطبيعة في أسفاره الخارجية، فوصف منظر الشروق والغروب في عالم الماء من أعلى السفينة[٣] ووصف منظر طلوع البدر من سفينة، وافتن في تصويره فقال:[٤]

يـــا دُرَّةَ الغَـــوّاصِ أَخــرَجَ ظافِراً ... يُمــناهُ يَجلوهــا عَلى النُظّارِ

---

(١) الشوقيات ، ص ٣٨.

(٢) الضريب: الثلج.

(٣) الشوقيات، ص ٣٠.

(٤) نفسه، ص ٣١.

مُـتَهَلِّلاً في المـاءِ أَبـدى نِصفَهُ ... يَسمو بِها وَالنِصفُ كاسٍ عارِ
وافى بِـكَ الأُفُقُ السَماءَ فَأَسفَرَت ... عَن قُفلِ ماسٍ في سِوارِ نُضارِ
وَنَهَضتَ يَزهو الكَونُ مِنكَ بِمَنظَرٍ ... ضاحٍ وَيَحمِلُ مِنكَ تاجَ فَخارِ
المـاءُ وَالآفـاقُ حَولَـكَ فِضَّـةٌ ... وَالشُـهبُ دينارٌ لَدى دينارِ
وَالفُلكُ مُشرِقَةُ الجَوانِبِ في الدُجى ... يَـبدو لَهـا ذَيلٌ مِنَ الأَنوارِ

وقـد هـام شوقي بالطبيعة التركية ورسم لها لوحات أخاذة في شعره ومن ذلك قصيدته في (البسفور) وقد استهلها بقوله:

عَـلى أَيِّ الجِـنانِ بِـنا تَمُـرُّ ... وَفي أَيِّ الحَدائِـقِ تَسـتَقِرُّ
رُوَيـداً أَيُّهـا الفُلـكُ الأَبَـرُّ ... بَلَغـتَ بِنا الرُبوعَ فَأَنتَ حُرُّ

وقد وصف شوقي مظاهر الطبيعة التي شاهدها عبر رحلة السفينة من جزر وجبال ومعاقل واجتياز "البوغاز" و"الأرخبيل" فقال:[1]

تَمُـرُّ مِـنَ المَعـاقِلِ وَالجِـبالِ ... بِعـالٍ فَوقَ عالٍ خَلفَ عالي
إِذا أَومَـأنَ وَقَّفَـتِ اللَـيالي ... وَتَحمِـي الحادِثاتُ فَلا تَمُرُّ
مَدافِـعُ بَعضَـها مُـتَقابِلاتُ ... وَمِـنها الصاعِداتُ النازِلاتُ
وَمِـنها الظاهِـراتُ وَأُخرَياتُ ... تَـوارى في الصُخورِ وَتَستَسِرُّ
فَلَـو أَنَّ الـبِحارَ جَـرَت مِئينا ... وَكـانَ اللُـجُّ أَجمَعُهُ سَفينا
لِـتَلقى مَـنفَذاً لَلَقِـينَ حَيـنا ... وَلَمّـا يَمسَـسِ البوغازَ ضُرُّ
وَبَعـدَ الأَرخَبـيلُ وَمـا يَلـيهِ ... وَتـيهِ في العَـيالِمِ أَيِّ تـيهِ

---

(١) الشوقيات، ص ٤٠-٤٣.

بَـــدا ضَـــوءُ الصَباحِ فَسِرتَ فيهِ　　　إِلى البُســـفورِ وَاِقـــتَرَبَ المَقَرُّ

وقـــد عبر شوقي عن انبهاره بما رآه على ضفاف البسفور حيث تجلـــت الطبيعة في أبهى صورها [illegible]دت أجمل حللها، فبدت كالعذارى في أحـــلى زينتهن، وازدانت في ثيابها الموشاة المختلفة الألوان وقد التف الـــبحر حولهـــا التفاف السوار حول المعصم، وانسابت الغدران وحولها الأشـــجار، وقد لاحت المساجد الفخمة والمعاقل الشامخة لتكتمل بذلك لوحة الطبيعة الكبرى، يقول شوقي:

فَضـــاءٌ مُـــثِّلَ الفِـــردَوسُ فيهِ　　　وَمَـــرأىً في الـــبِحارِ بِلا شَبيهِ
فَإيـــهِ يـــا بَـــناتِ الشِعرِ إيهِ　　　فَمـــالَكِ في عُقوقِ الشِعرِ عُذرُ
جِهـــاتٌ أَم عَذارى حالِياتُ　　　وَمـــاءٌ أَم سَـــماءٌ أَم نَـــباتُ
وَتِلـــكَ جَزائِـــرٌ أَم نَـــيِّراتُ　　　وَكَـــيفَ طُلوعُها وَالوَقتُ ظُهرُ
جَلاها الأُفقُ صُفراً وَهيَ خُضرُ　　　كَزَهـــرٍ دونَـــهُ في الرَوضِ زَهرُ
لَـــوى نَحـــرٌ بِها وَاِلتَفَّ بَحرُ　　　كَما مَلَكَت جِهاتِ الدَوحِ عُذرُ
وَكَم أَرضٍ هُنالِكَ فَوقَ أَرضٍ　　　وَرَوضٍ فَوقَ رَوضٍ فَوقَ رَوضِ
وَدورٍ بَعضُـــها مِن فَوقِ بَعضِ　　　كَسَـــطرٍ في الكِتابِ عَلاهُ سَطرِ

ومن مظاهر الطبيعة التركية التي التفت إليها شوقي،(كوك صو) وهو موقع جميل في الأستانة يأسر العين بمياهه وخمائله وخلجانه ونزهاته النهريةَ، وفيه يقول:[1]

---

(١) الشوقيات، ١: ص ٥٣.

غَشــيتُكَ وَالأَصــيلُ يَفيضُ تبراً وَيَنسُــجُ لِلــرُبى حُلَلاً وَيَكسو

وَتَذهَــبُ في الخَلــيجِ لَهُ وَتَأتي أَنــامِلُ تَنــثُرُ العِقــيانَ خَمسُ

وَفي جــيدِ الخَمــيلَةِ مِــنهُ عِقدٌ وَفي آذانِهــا قُــرطٌ وَسَــلسُ

وَلَألَــأَتِ الجِــبالُ فَضاءَ سَفحٍ يَسُــرُّ الــناظِرينَ وَنــارَ رَأسُ

عَــلى فُلــكٍ تَســيرُ بِنا الهُوَينى وَمِــن شِعري نَديمٌ لي وَجِلسُ

تُنازِعُــنا المَذاهِــبَ حَيثُ مِلنا زَوارِقُ حَولَــنا تَجري وَتَرسو

وعــلى هــذا النحو كان للطبيعة الأوربية حضور قوي في شعر شوقي، فعبر عن فتنته بها، ونظر إليها بوصفها مجلى الأنس ومسرح اللهو، ورآها ضاحكة طروباً تبعث المسرة في النفس وتشهد ببديع صنع الخالق.

الأعلام والشخصيات:

تمثل اهتمام شوقي بالغرب في جانب آخر من شعره هو الاحتفاء بعباقرة الغرب ونوابغه من [illegible] علماء وفلاسفة ومفكرين وأدباء وفنانين وغيرهم. وقد شغل هذا الجانب مساحة غير قليلة من شعر شوقي حتى ليكاد يكون ديواناً مستقلاً بذاته.

الفلاسفة:

اختص شوقي من فلاسفة اليونان كلا من سقراط وأرسطو، فأعجب بسقراط في قصيدته التي احتفى فيها بالعلم والمعلم وقال في مطلعها:[1]

قُم لِلمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَبجيلا   كادَ المُعَلِّمُ أَن يَكونَ رَسولا

وضرب شوقي بسقراط المثل في الشجاعة والتضحية والنُّبل وأشار إلى تجرعه السم واستعذاب الموت دفاعاً عن مبادئه وآرائه وأفكاره فكان مثلاً أعلى وقدوة يحتذى بها، يقول شوقي:[2]

سُقراطُ أَعطى الكَأسَ وَهيَ مَنِيَّةٌ   شَفَتَي مُحِبٌّ يَشتَهي التَقبيلا
عَرَضوا الحَياةَ عَلَيهِ وَهيَ غَباوَةٌ   فَأَبى وَآثَرَ أَن يَموتَ نَبيلا
إِنَّ الشَجاعَةَ في القُلوبِ كَثيرَةٌ   وَوَجَدتُ شُجعانَ العُقولِ قَليلا

---

(١) الشوقيات، ص ١٨٠.

(٢) نفسه ، ص ١٨١.

وأشاد شوقي بأرسطو في معرض تهنئته لأحمد لطفي السيد بترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو الذي لقب بـ"المعلم" وقد خلع عليه شوقي كثيراً من الأوصاف، فهو "ملك العقول" و"الفيلسوف العظيم" و"شيخ ابن رشد وابن سينا" وهو"صوت الحقيقة" و"المعلم الحكيم الذي أرسى قواعد الشرائع ووضع دستور الأخلاق، وفي ذلك يقول:[1]

عَلَّمتَ بِالقَلَمِ الحَكيمِ ... وَهَدَيتَ بِالنَجمِ الكَريمِ
وَأَتَيتَ مِن مِحرابِهِ ... بِأَرِسطَطاليسَ العَظيمِ
مَلِكِ العُقولِ وَإِنَّها ... لَنِهايَةُ المُلكِ الجَسيمِ
شَيخُ ابنِ رُشدٌ وَابنِ سيـ ... ـنا وَابنِ بَرقَينِ الحَكيمِ[2]
مَن كانَ في هَديِ المَسيـ ... ـحِ وَكانَ في رُشدِ الكَليمِ
وَغَدا وَراحَ مُوَحِّداً ... قَبلَ البَنِيَّةِ وَالحَطيمِ[3]
صَوتُ الحَقيقَةِ بَينَ رَعـ ... ـدِ الجاهِلِيَّةِ وَالهَزيمِ
يَبني الشَرائِعَ لِلعُصو ... رِ بِناءَ جَبّارٍ رَحيمِ
وَيُفَصِّلُ الأَخلاقَ لِلـ ... أَجيالِ تَفصيلَ اليَتيمِ[4]
في واضِحٍ لَحبِ الطَريـ ... ـقِ مِنَ المَذاهِبِ مُستَقيمِ[5]

---

(١) الشوقيات ، ص ٢١٨.

(٢) برقين : بلدة المترجم أحمدلطفي السيد.

(٣) البنية: الكعبة.

(٤) اليتيم: اللؤلؤ.

(٥) اللحب: الواسع.

ومن الطريف أن طه حسين حمل على شوقي في قصيدته تلك حملة عنيفة وعـــاب عليه أنه خلط بين آراء أرسطو وأستاذه أفلاطون ، فنسب إلى أرسطو بعض آراء أستاذه متهماً شوقي بنقص ثقافته الفلسفية.[1]

الأدباء والفنانون:

حظى أدباء الغرب وشعراؤه وفنانوه بحظ وافر من إبداع شوقي، فعـــبر عـــن إعجابه بهؤلاء النوابغ من قدامى ومحدثين، ومنهم (هومير) الشاعر اليوناني القديم صاحب (الإلياذة)، فأبدى شوقي إعجابه بعبقريته الشـــعرية وأشاد بشعره الملحمي، وضرب به المثل في سياق إعلان موقفه من الصراع بين تياري الشعر التقليدي والجديد، فرأى أن شعر (هومير) —بـــرغم أنـــه قديم- يعد أجود من شعر من جاءوا بعده، وإن كان من بيـــنهم شعراء مجيدون ولكنهم أقلية أو آحاد في عددهم، ويجدها شوقي فرصـــة لإعلان مفهومه للشعر فيرى أن الشعر الجيد لا يقاس بقدمه أو حداثـــته بـــل بمقدار ما يحدثه في النفس من لذة ونشوة وطرب، يقول شوقي:[2]

هوميرُ أَحدَثُ مِن قُرونٍ بَعدَهُ شِـــعراً وَإِن لَـــم تَخلُ مِن آحادِ
وَالشِعرُ في حَيثُ النُفوسِ تَلَذُّهُ لا في الجَديـــدِ وَلا القَديمِ العادي

وممـــن بجدهم شوقي (تولستوي) أديب روسيا وفيلسوفها العظيم صـــاحب روايـــة (الحرب والسلام) وغيرها من الروايات والمؤلفات التي

---

(١) حافظ وشوقي، ص ١١٥، شوقي شاعر العصر الحديث، ص ١٠٩.

(٢) الشوقيات، ص ١١٦.

كانت بمثابة الأناجيل للثورة الروسية، وقد خصه شوقي برثائه حين توفى سنة ١٩١٠ وتغنى بفلسفته وزهده وثورته ضد الظلم والتخلف ووقوفه إلى جانب البؤساء والكادحين وتنازله عن أمواله وممتلكاته لهم فتطابقت أفعالــه مــع أقواله، وقد رأى فيه شوقي مثلاً أعلى في التحلي بالمبادئ الإنسانية النبيلة، وفيه يقول:(١)

تولُســتويُ تُجري آيَةُ العِلمِ دَمعَها   عَلَــيكَ وَيَبكي بائِسٌ وَفَقيرُ
وَشَعبٌ ضَعيفُ الرُكنِ زالَ نَصيرُهُ   وَمــا كُلُّ يَومٍ لِلضَعيفِ نَصيرُ
وَيَــندُبُ فَلّــاحونَ أَنتَ مَنارُهُم   وَأَنــتَ سِــراجٌ غَيَّبوهُ مُنيرُ
يُعــانونَ في الأَكواخِ ظُلماً وَظُلمَةً   وَلا يَملُكونَ البَثَّ وَهوَ يَسيرُ
تَطوفُ كَعيسى بِالحَنانِ وَبِالرِضى   عَلَيهِم وَتَغشى دورَهُم وَتَزورُ

ويــنعى شــوقي عــلى عصره ضياع القيم النبيلة التي جسدها (تولســتوي) فقــد طغت المادة على حياة الناس، وصار المال هو الآمر الــناهي، وشــاع الظــلم والفقر والاستبداد، ونهبت ثروات الشعوب الضعيفة، وتسابقت الدول القوية إلى شراء السلاح وتكديسه، وفي ذلك يقول:(٢)

قُمِ انظُر وَأَنتَ المالِئُ الأَرضَ حِكمَةً   أَأَجــدى نَظــيمٌ أَم أَفادَ نَثيرُ
أُنــاسٌ كَمــا تَدري وَدُنيا بِحالِها   وَدَهــرٌ رَخِــيٌّ تــارَةً وَعَسيرُ
وَأَحــوالُ خَلــقٍ غابِــرٍ مُــتَجَدِّدٍ   تَشــابَهَ فــيها أَوَّلٌ وَأَخــيرُ

---

(١) الشوقيات، ص ٨٠.

(٢) نفسه ص ٨٢.

تَمُــرُّ تِــباعاً في الحَــياةِ كَأَنَّها مَلاعِــبُ لا تُرخى لَهُنَّ سُتورُ
وَحِرصٌ عَلى الدُنيا وَمَيلٌ مَعَ الهَوى وَغِــشٌّ وَإِفكٌ في الحَياةِ وَزورُ
وَقــامَ مَقــامَ الفَــرد في كُــلِّ أُمَّةٍ عَــلى الحُكمِ جَمٌّ يَستَبِدُّ غَفيرُ
وَحُــوِّرَ قَــولُ الناسِ مَولىً وَعَبدَهُ إِلى قَولِهِــم مُســتَأجِرٌ وَأَجيرُ
وَأَضحى نُفوذُ المالِ لا أَمرَ في الوَرى وَلا نَهــيَ إِلّــا ما يَرى وَيُشيرُ
تُســاسُ حُكومــاتٌ بِــهِ وَمَمالِكٌ وَيُذعِــنُ أَقيالٌ لَــهُ وَصُدورُ
وَعَصــرٌ بَــنوهُ في السِلاحِ وَحِرصُهُ عَلى السِلمِ يُجري ذِكرَهُ وَيُديرُ

واحــتفى شوقي بــ(شكسبير) وأثنى عليه ثناء عظيماً، فرأى أنه عــبقرية فذة لم تنجب مثلها حاضرة من الحواضر، وقد شرفت به إنجلترا وحــازت بــه أفضل مراتب المجد والفخار، وأثنى على شعره ورآه يمثل "الــنموذج الأعــلى" وبالغ في وصفه مبالغة غير مقبولة، فشبهه بالآيات المنزلة وشبه معانيه بمعاني المسيح وشبه أدبه بالإنجيل، فقال:(١)

مــا أَنجَبَت مِثلَ شيكِسبيرَ حاضِرَةٌ وَلا نَمَــت مِن كَريمِ الطَيرِ غَنّاءُ
نالَــت بِــهِ وَحدَهُ إِنكِلتِرا شَرَفاً مــا لَم تَنَل بِالنُجومِ الكُثرِ جَوزاءُ
شِــعرٌ مِــنَ النَسَقِ الأَعلى يُؤَيِّدُهُ مِــن جانِــبِ اللَــهِ إِلهامٌ وَإِيحاءُ
مِــن كُلِّ بَيتٍ كَآيِ اللَهِ تَسكُنُهُ حَقــيقَةٌ مِــن خَيالِ الشِعرِ غَرّاءُ
وَكُــلُّ مَعنىً كَعيسى في مَحاسِنِهِ جاءَت بِهِ مِن بَناتِ الشِعرِ عَذراءُ
أَو قِصَّــةٍ كَكِتابِ الدَهرِ جامِعَةٍ كِلاهُمــا فــيهِ إِضحاكٌ وَإِبكاءُ
مَهمــا تُمَــثَّل تُــرَ الدُنيا مُمَثَّلَةً أَو تُــتلَ فَهيَ مِنَ الإِنجيلِ أَجزاءُ

---

(١) الشوقيات، ص٧.

ويتجه شوقي بالخطاب إلى شكسبير فيقدم له صورة الواقع المزري وما شهده من ويلات وحروب وإراقة للدماء التي تتضاءل أمامها قصص القتل في أدبه، يقول:

يا واصِفَ الدَمِ يَجري هَهُنا وَهُنا ... قُــمِ اُنظُــرِ الدَمَ فَهوَ اليَومَ دَأماءُ
لاموكَ في جَعلِكَ الإِنسانَ ذِئبَ دَمٍ ... وَالــيَومَ تَبدو لَهُم مِن ذاكَ أَشياءُ
وَقــيلَ أَكــثَرَ ذِكرَ القَتلِ ثُمَّ أَتَوا ... مــا لَــم تَسَــعهُ خَيالاتٌ وَأَنباءُ
كانوا الذِئابَ وَكانَ الجَهلُ داءَهُمو ... وَالــيَومَ عِــلمُهُمُ الراقي هُوَ الداءُ
لُــؤمُ الحَياةِ مَشى في الناسِ قاطِبَةً ... كَمــا مَشــى آدَمٌ فيهِم وَحَوّاءُ
قُــم أَيِّــدِ الحَقَّ في الدُنيا أَلَيسَ لَهُ ... كَتيبَةٌ مِنكَ تَحتَ الأَرضِ خَرساءُ

وقــد استهجن طه حسين طريقة شوقي في الثناء على شكسبير ومبالغــته في مدح أدبه ورأى أنه لامس القشور دون أن يتعمق في فهم أدب شكسبير ، فقال:(١) "أقل ما يحسه قارؤها أن شاعرنا لم يعلم من أمر الإنجليز إلا شيئاً ضئيلاً جداً يعرفه المثقف العادي، وهو على كل حال لم يفهــم روح شكسبير، و لم يتمثله، و لم يحس به، بل لم يحاول تصوير هذا الــروح، وكــل مــا في القصيدة مدح لانجلترا أول الأمر، ثم ثناء على شكســبير غريب، يشبه فيه أبيات شكسبير بالآيات المترلة، ويشبه معاني شكسبير بعيسى، وليس أدري ما هذا الحسن المشترك بين معاني شكسبير وبين المسيح، بل لست أدري كيف يذكر شكسبير المتأثر بوثنية القدماء وآداب الشــمال الأوربي إلى جانب المسيح؟ وكيف يشبه أدب شكسبير

(١) حافظ وشوقي، ص ٢٠٣.

بالإنجـــيل؟ إنما هو كلام يقال، ويعتمد صاحبه على أن الذين سيقرأونه ســـتروعهم الألفاظ دون أن يبحثوا عن المعاني، لأنهم لا يعرفون من أمر شكســـبير ولا من أمر المسيح والإنجيل شيئاً كثيراً. ثم يقول شوقي: إن قصـــص شكســـبير تمثل الحياة، وكل مثقف يعرف هذا ويقوله، بل كل مـــادح لشاعر من الشعراء الممثلين يقول فيه هذا بالحق حينا، وبالباطل أحـــياناً. ثم يتجه شوقي إلى شكسبير، فيسأله أسئلة عادية قد ألفها الناس مـــنذ قرأوا رثاء أبي العلاء، وعرفوا تصويره لبلى الأجساد في القبور، ثم يطلـــب إلى شكسبير الذي أجرى الدم أنهاراً في قصصه أن ينهض ليرى كيف جرى الدم بحاراً في ظل الحضارة الحديثة، ويذم الحرب كما يذمها كـــل إنسان. هذا علم شاعرنا بشكسبير، وهذا تصوير شاعرنا له ورأيه فـــيه، وأين يقع هذا كله من آراء الشعراء الفرنسيين والألمان المحدثين في شكسبير؟ وإني لأعرف محاورات لجوته حول بعض القصص التي تركها شكسبير حول هملت مثلاً في ولهلم ما يستر لا يذكر معها ما قاله شوقي مـــن الشعر، ومع ذلك فقد كان من الحق على شاعرنا أن يكون علمه بشكســـبير أوضح من علم الألمان والفرنسيين في القرن الثامن عشر، لأن فقه هذا الشاعر العظيم قد تقدم في قرن ونصف قرن تقدماً عظيماً".

وقد رأى د. شوقي ضيف فيما قاله طه حسين شيئاً من التعسف والـــتحكم فقـــال:(١) " وفي رأينا هذا تحكم، فإن طه حسين يطلب إلى شوقي أن يعبر في ثنائه على شكسبير لا عن علمه وفقهه به، بل عن علم

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، ص ١١١.

القرون التي سبقته وفقهها به، ويقارن بينه وبين جوته، مع العلم بأن جوته كان شاعراً وكان ناقداً، فله في النقد آراء يتداولها الدارسون والناقدون للأدب والشعر، أما شوقي فلم يكن ناقداً يوماً، بل كان دائماً، كما هو في هذه القصيدة، شاعراً غنائياً، لا يعبر عن علمه وفقهه، وإنما يعبر عن عواطفه وشعوره، وينظم ذلك بعقلية الشاعر الغنائي، لا بعقلية الناقد المحقق ولا الفقيه العالم".

ودافع د. شوقي ضيف عن مبالغات شوقي في تشبيه معاني شكسبير فقال:[1]"وشوقي إنما يشبه آيات شكسبير بآيات الإنجيل أو الآيات المنزلة لبيان بلاغتها وسحرها وفعلها في النفوس، وقد ذكر الإلهام والإيحاء وهما طبيعيان يذكرهما الشعراء كما يذكرهما النقاد حين يتحدثون عن الشعر، وذكره لعيسى في أثناء ذلك ليس فيه غرابة، فشكسبير مسيحي وإن كان متأثراً بوثنية القدماء، وشعره إنجيل الشعر عند الإنجليز، وهم يقدسونه تقديساً لا حد له، حتى ليقولون كلمتهم المشهورة: لو خيرنا بين شكسبير ومستعمراتنا لاخترنا شكسبير، فشوقي لا يغرب بهذا وأشباهه. أما قوله إن شكسبير يمثل الحياة مضيفاً إلى ذلك أن فيه إضحاكاً وإبكاء، وأنه يكشف أسرار النفوس، فمن أدق ما وصف به شكسبير بين النقاد، لأنه من المعروف عندهم أن مأساته تحوي غير قليل من عناصر الضحك، وأنه بارع براعة لا حد لها في كشف النفوس ونقل أسرارها، وتمثيل الحياة في مختلف مظاهرها، إذ كانت له عين بصيرة

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث، ص: ١١١-١١٢.

واسعة نافذة استطاعت أن تحول الأعمال والأقوال البشرية إلى شعر. فلخص شوقي هذه الخصائص في أبياته على طريقة الشاعر الغنائي الذي يوجز ويلمح ويشير من طرف خفي. أما الأسئلة التي سألها شوقي بعد ذلك لشكسبيز عن الموت وما بعد الحياة فقدم لها بأنه أبان للناس عن هذه الحياة الدنيا وما يجرى فيها عن عواطف ونزعات وأخلاق فهل له أن يبين لهم عن أخراهم وما هم ملاقون فيها، ويفضي إليه بما عنده من أسرار؟

والحق أن من يقرأ كثيراً من نقد طه حسين والعقاد لشوقي يرى فيه ضرباً من التحكم، مرجعه إلى أنهما يحاولان في كثير من نقدهما قياسه بمعايير غربية".

وأيا ما كان الأمر، فقد صدر شوقي في رأيه عن إعجاب وتقدير عميق لشكسبير وهو إعجاب عبر عنه غير مرة فقال جامعاً بينه وبين (موليير) في عبقرية الفن:[١]

فَإِن تَسأَلوا ما مَكانُ الفُنونِ   فَكَم شَرَفٍ فَوقَ هَذا الشَرَف
أَريكَةُ موليِيرَ فيما مَضى   وَعَرشُ شِكِسبيرَ فيما سَلَف

وأعجب شوقي بصفة خاصة بفيكتور هيجو، فكان - بحسب قوله- أحب شعراء الغرب إليه، وكان لا يمل القراءة فيه[٢] وكان يجد بينه والمتنبي شبهاً كبيراً من حيث سمو الخيال والانفراد، إذ ارتفعا كل في

---

(١) الشوقيات، ص ١٦٠.

(٢) ذكرى الشاعرين، ص ٣٩٣.

لغـــته[١] ويقال: إن شوقي كان يحفظ ديوان (أساطير القرون) لفيكتور هوجـــو عن ظهر قلب[٢] وكان هذا الديوان نافذة له، من خلالها اطلع عــلى نحو جديد من الشعر التاريخي فقلده، وظهر ذلك في قصائد شوقي الــتي استلهم فيها التاريخ ومنها قصيدة " كبار الحوادث في وادي النيل" الــتي كتبها لمؤتمر المستشرقين وكانت أهم صدى لاطلاعه على الآداب الفرنســية فإنــه عدل فيها عن المديح إلى التاريخ[٣] وقد عبر شوقي عن إعجابــه بفيكتور هوجو غير مرة في شعره، فأشار إليه بصاحب البؤساء وقــرن (حافظ إبراهيم) به في طلب التجديد والذهاب به إلى أبعد مدى فقال:[٤]

وَجَرَيتَ في طَلَبِ الجَديدِ إِلى المَدى   حَتّى اقتَرَنتَ بِصاحِبِ البُؤساءِ

ونظــم شــوقي قصيدة بمناسبة مرور مائة عام على وفاة هوجو فوصــفه بــــ"ملــك البــيان" وشبه معانيه بآيات الإنجيل كصنيعه مع شكسبير، وأشار إلى مهارته في نظم الشعر لا سيما التاريخي منه، ورأى أن الشعر مات بموته، يقول:[٥]

مــا جَــلَّ فــيهِم عــيدُكَ المَــأثورُ   إِلّــا وَأَنــتَ أَجَلُّ يا فِكتورُ

---

(١) أحمد شوقي والأدب العربي الحديث، ص ١٧٣.

(٢) نفسه: ٢٠٤.

(٣) شوقي شاعر العصر الحديث، ص٨٩.

(٤) الشوقيات ، ٣: ص٢٥.

(٥) نفسه ، ص ٧١.

ذَكَــروكَ بالمِــئَةِ السِــنينَ وَإِنَّهــا ... عُمرٌ لِمثلِكَ في النُجومِ قَصيرُ
سَــتدومُ مــا دامَ البَيانُ وَما ارتَقَت ... لِلعــالَمينَ مَــدارِكٌ وَشُعورُ
وَلَــئِن حُجِبتَ فَأَنتَ في نَظَرِ الوَرى ... كَالــنَجمِ لَم يُرَ مِنهُ إِلّا النورُ
لَــولا الــتُقى لَفَتَحــتُ قَبرَكَ لِلمَلا ... وَسَــأَلتُ أَيــنَ السَيِّدُ المَقبورُ
وَلَقُلــتُ يــا قَــومُ اُنظُروا إِنجيلَكُم ... هَل فيهِ مِن قَلَمِ الفَقيدِ سُطورُ
مَــن بَعــدَهُ مَلَــكَ البَــيانَ فَعِندَكُم ... تــاجٌ فَقَدتُــم رَبَّــهُ وَسَريرُ
ماتَ القَريضُ بِمَوتِ هوجو وَانقَضى ... مُلــكُ البَــيانِ فَأَنتُمُ جُمهورُ

ويجــري شــوقي في قصيدته على طريقته في الالتفات إلى الواقع وإدانــته، فيرثــي لحــال البؤساء في عصره وينعي على الأغنياء تقتيرهم وعكوفهم على المادة، يقول مخاطباً هوجو:

ارفَــع حِــدادَ العالَمينَ وَعُد لَهُم ... كَــيما يُعَــيِّدَ بــائِسٌ وَفَقــيرُ
وَانظُــر إِلى البُؤَســاءِ نَظرَةَ راحِمٍ ... قَــد كانَ يُسعدُ جَمعَهُم وَيُجيرُ
الحــالُ باقِــيَةٌ كَمــا صَــوَّرتَها ... مِــن عَهــدِ آدَمَ مــا بِها تَغييرُ
الــبُؤسُ وَالــنُعمى عَلى حالَيهِما ... وَالحَــظُّ يَعــدِلُ تارَةً وَيَجورُ
وَمِنَ القَوِيِّ عَلى الضَعيفِ مُسَيطِرٌ ... وَمِــنَ الغَــنِيِّ عَلى الفَقيرِ أَميرُ
وَالــنَفسُ عاكِفَــةٌ عَلى شَهَواتِها ... تَــأوي إِلى أَحقادِهــا وَتَــثورُ

ومــن أدبــاء الغرب الذين تردد ذكرهم في شعر شوقي الأديب الإنجليزي (هول كين) وهو روائي مشهور وكان من أكبر المدافعين عن اســتقلال مصــر وقد حل ضيفاً عليها ليجمع المعلومات والمواد اللازمة

لتألــيف روايـــة عـــن مصر، وقد دعاه شوقي إلى مأدبة شائقة في مترل بالمطــرية ونظم قصيدة بهذه المناسبة صور فيها عشقه لمصر ووصفها بأنها "روايـــة الدهـــر" واحتفى بتاريخها المجيد وحضارتها ومكانتها، وخاطب الروائي الإنجليزي بقوله:(١)

أَيُّهـــا الكاتِـــبُ المُصَـــوِّرُ صَوِّر مِصـــرَ بِالمَنظَرِ الأَنيقِ الخَليقِ
إِنَّ مِصـــراً رِوايَـــةُ الدَهرِ فَاقرَأ عِبرَةَ الدَهرِ في الكِتابِ العَتيقِ
مَلعَـــبٌ مَـــثَّلَ القَضـــاءُ عَلَـــيهِ في صِـــبا الدَهرِ آيَةَ الصِدّيقِ
وَامِّحـــاءَ الكَلِـــيمِ آنَـــسَ ناراً وَالتِجاءَ البَتولِ في وَقتِ ضيقِ
وَمَـــنايا مِنّا فَكِسرى فَذي القَر نَـــينِ فَالقَيصَـــرَينِ فَالفاروقِ
دُوَلٌ لَـــم تَـــبِد وَلَكِـــن تَوارَت خَلـــفَ سِترٍ مِنَ الزَمانِ رَقيقِ

ويصور شوقي غبطته وسعادته باستقبال (هول كين) واستضافته ويصف مترله وصفاً طريفاً فيقول:

رَوضَتي اِزَّيَّنَت وَأَبدَت حُلاها حـــينَ قالوا رِكابُكُم في الطَريقِ
مِـــثلَ عَذراءَ مِن عَجائِزِ روما بَشَّـــروها بِـــزَورَةِ الـــبَطريقِ
ضَـــحِكُ الماءِ وَالأَقاحي عَلَيها قابَلَـــتهُ الغُصـــونُ بِالتَصـــفيقِ
زُرتُمـــا وَالرَبيعُ فَصلاً فَخَفَّت نَحوَ رَكبَيكُما خُفوفَ المَشوقِ
فَانزِلا في عُيونِ نَرجِسِها الغَضِّ صِـــياناً وَفَـــوقَ خَـــدِّ الشَقيقِ

---

(١) الشوقيات، ص٧٩-٨٠.

لقـــد كانت الحركة الوطنية في أوج قوتها حين زار (هول كين) مصـــر، فأحس شوقي ومعه المصريون أنهم كسبوا إلى صفهم كاتباً من أكـــبر كتاب انجلترا، وقد تحقق الهدف الذي جاء هذا الروائي من أجله، فـــألف روايـــة بعنوان "النبي الأبيض أو المهدي المنتظر" في أكتوبر سنة ١٩٠٨ وقـــد أنحـــى فـــيها باللائمة على (كرومر) وأعماله وقام سليم ســـركيس بترجمتها ونشرها تباعاً في (المؤيد)[١]، وفي أثناء ذلك نشرت (المجلـــة المصـــرية) في عدد ٢٥ أبريل سنة ١٩٠٩ قصيدة أخرى لشوقي عـــنوانها (الربيع ووادي النيل) مهداة إلى (هول كين) كاتب قصة النبي الأبـــيض عـــن مصر[٢]، وقد خاطبه شوقي ملماً بالمعاني التي رددها في قصيدته السابقة فقال:[٣]

هَولَ كينِ مِصرُ رِوايَةٌ لا تَنتَهي   مِـــنها يَـــدُ الكُتّابِ وَالشُرّاحِ
فـــيها مِنَ البُردِيِّ وَالمُزمورِ وَال   تَـــوراةِ وَالفُـــرقانِ وَالإِصحاحِ
وَمِـــنا وَقَمبـــيزٌ إِلى إِســـكَندَرٍ   فَالقَيصَرَينِ فَذى الجَلالِ صَلاحِ
تِلـــكَ الخَلائِـــقُ وَالدُهورُ خِزانَةٌ   فَابعَـــث خَيالَكَ يَأتِ بِالمِفتاحِ
أُفُـــقُ الـــبِلادِ وَأَنتَ بَينَ رُبوعِها   بِالـــنَجمِ مُـــزدانٌ وَبِالمِصـــباحِ

---

(١) الشوقيات المجهولة، ص ٩١.

(٢) نفسه : ص ٩٢.

(٣) نفسه ،٢: ٩٥

ولفـــناني الغرب من رسامين وموسيقيين وممثلين حضور في شعر شوقي، فنراه يستدعي الرسام العالمي (رفائيل) في تصوير جمال الطبيعة في فصل الربيع، فيقول:(١)

عَبقَرِيُّ الخَيالِ زادَ عَلى الطَيـــ ـــفِ وَأَربى عَلَـــيهِ في أَلوانِـــه

صِـــبغَةُ اللَهِ أَينَ مِنها رَفائيــ ـــلُ وَمِنقاشُـــهُ وَسِـــحرُ بَنانِه

وقـــد عـــاب العقاد على شوقي ذلك التصوير وحمل عليه بعنف فقـــال:(٢) "وأما أن صبغة الله خير من صبغة رفائيل فكلمة لا دليل فيها عـــلى إحســـاس بالطبيعة ولا إحساس بالفنون، كلمة فيها من الغباء ما يكشف عن عامية مطبقة وجهل بعيد القرار، فالعامة المسفون هم الذين يفهمـــون أن طلاوات الصور أجمل من صبغة الطبيعة، ويحتاجون إلى من يقـــول لهـــم إن تلوين الله أجمل من تلوين رفائيل. أما النفس التي تذوق جمال الفن فليست تحتاج إلى من يقول لها كيف أن الأصباغ في الرياض أجمل من الأصباغ في الطروس، وليست تفهم أن الفن بهرجة ألوان تغالب ألوان الأزهار والأنوار..ثم أي معنى عميق أو قريب لأن تقول للناس إن صـــبغة الله أجمل من صبغة رفائيل إلا أن تكون ممن يفهمون فهم العامة للطبيعة والفنون، ثم هل كان رفائيل بعد كل هذا مصوراً مفتناً في تصوير الـــرياض والأزهار؟ لا، بل كان الرجل مصور وجوه وشخوص مقدسة

---

(١) الشوقيات، ٢: ١٩١.

(٢) ساعات بين الكتب، ص ١٠٩.

برع فيها براعته، ولم يضرب به المثل قط في تصوير الرياض والأزهار، فلا حس هنا بالطبيعة ولا ذوق للفن ولا علم بالتاريخ".

ولا يخفى ما في كلام العقاد من تحامل واضح على شوقي، وهو ما لاحظه د. شوقي ضيف فقال مدافعاً عنه:(١)

"فمقارنة شوقي لصبغة الله بصبغة رفائيل وتقديم الأولى على الثانية، فقد رأى العقاد ذلك جرحاً للإحساس بجمال الطبيعة، إذ قرنها شوقي إلى الجمال المصنوع، يصنعه رفائيل. والعقاد غير محق في نقده، لأن رفائيل من أبرع المصورين في التاريخ البشري، وليست لوحاته "مصبغة ألوان وإنما هي آيات من أعظم آيات الإنسان. ومن المعروف أن لوحة المصور وإن حاكت الطبيعة فإنها تجملها وتضيف إليها بدعا جديداً من مخيلة الرسام الحاذق، وهو بدع يتسابق الهواة في شراء لوحاته الباهرة، حتى لتشرى اللوحة بآلاف الجنيهات. فإذا قارن شوقي بين الربيع ولوحات رفائيل لم يكن مغرباً على أصحاب الأذواق الجديدة الذين يؤمون المتاحف، ويبهرهم ما يرون فيها من رسوم تحيرهم سواء أكانت للطبيعة أو لأشخاص ووجوه، فكمال المحاكاة والتقليد للطرفين طرفي الأزهار والأشخاص واحد، والبهجة والروعة بالكمالين واحدة.

وشوقي يقول إنه حين ينظر إلى الطبيعة في الربيع ترتسم أمامه كأنها لوحات، تتجمع فيها الخطوط والأضواء والظلال والألوان، وهي لوحات تستمد من أصباغ مقدسة تضيء بالسحر والجمال، هي أصباغ

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث ، ص ١١٩.

الله. ولَيس في هذا التصوير قصور ولا انعدام للإحساس بالطبيعة، بل على العكس يعلن شوقي إنه يرى الطبيعة أمامه رؤية عميقة، يتجسم فيها الجمال ويتجسد، فإذا هي تبدو في شكل لوحات تامة كاملة، لا تبدو للإنسان الذي يراها متناثرة من حوله وإنما تبدو مجمعة مركزة، كما تجتمع الخطوط وتتركز الألوان في اللوحات الأنيقة البهيجة، التي تشع سحراً وجمالاً."

وأشاد شوقي بفن (فردي) الموسيقار الإيطالي المشهور مؤلف (أوبرا عايدة) التي افتتحت بها دار الأوبرا المصرية، ولا غرو أن يحتفي به "فقد خلق شوقي موسيقياً، له أذن لا تبارى في سماع الألفاظ وتأليف الألحان الشعرية، ولو أنه لم يتجه إلى الشعر لكان مغنياً أو موسيقاراً من الطراز الأول، فهو بسليقته موسيقي الروح، ولذلك لا نعجب أن يتعلق بالمغنين لا في مصر فقط بل أيضاً في أوربا، ولا نشك في أنه كان من هواة الموسيقى الأوربية، وأنه كان يهتز حين سماع "سمفونيات بيتهوفن" وأضرابه من رأسه إلى أخمص قدميه"[١].

وقد أسف شوقي لموت (فردى) ورثاه بقصيدة بديعة وصف فيها نبوغه في الموسيقى وما حازه من منزلة في هذا الفن الراقي، حتى ليكاد الشعر ينطق على ألحانه، ويصبح النحاس أعلى قدرا من الماس إذا عزفت عليه أنامله، وفي ذلك يقول:[٢]

---

(١) شوقي شاعر العصر الحديث ، ص ١٦٥.

(٢) الشوقيات، ص ١٨٠.

فَــتى العَقــلِ وَالــنَغمَة العالــيَه		مَضـــى وَمَحاسِــنَهُ باقــيَه
فَــلا ســوقَةٌ لَــم تَكُــن أُنسَهُ		وَلا مَلِــكٌ لَــم تَــزِن ناديَه
وَلَــم تَخــلُ مِــن طيــبِها بَلدَةٌ		وَلَــم تَخلُ مِن ذِكرِها ناحِيَه
يَكــادُ إِذا هُــوَ غَــنّى الــوَرى		بِقافِــيَةٍ يُــنطِقُ القافِــيَه
يَتــيهُ عَــلى الماسِ بَعضُ النُحاسِ		إِذا ضَــمَّ أَلحانَـــهُ الغالِــيَه
وَتَحكُــمُ في الــنَفسِ أَوتــارُهُ		عَــلى العــودِ ناطِقَةً حاكِيَه

ولا يفــوت شوقي أن يشير إلى أوبرا (عايدة) الخالدة التي كانت مــن أعظــم ما أبدعه، وأشاد فيها بعظمة مصر وخلود حضارتها ويختم قصيدته بمشاطرة أسرة (فردى) العزاء والأحزان لفقده، يقول:

لَقَد شابَ فَردي وَجازَ المَشيبَ		وَعَــيدا شَــبيبَتُها زاهِــيَه
تُمَــثِّلُ مِصــرَ لِهَــذا الزَمانِ		كَمــا هِــيَ في الأَعصُرِ الخالِيَه
وَنَذكُــرُ تِلــكَ اللَــيالي بِها		وَنَنشُــدُ تِلــكَ الرُؤى السارِيَه
وَنَــبكي عَــلى عِزِّنا المُنقَضي		وَنَــندُبُ أَيّامَــنا الماضِــيَه
فَــيا آلَ فَــردي نُعَــزّيكُمُ		وَنَــبكي مَــعَ الأُسرَةِ الباكِيَه

ويشــير شــوقي إلى الممــثل العالمي المشهور (شارلي شابلن) في معــرض ســخريته من سيارة صديقه الدكتور محجوب ثابت فيشبهها بســيارة (شــارلوت) أو شارلي شابلن في أفلامه الهزلية ويرسمها في هذه الصورة الضاحكة، يقول:[1]

---

(٢) الشوقيات، ص ٢١٤-٢١٥.

لَكُــــم في الخَـــطِّ سَــيّارَه حَديـــثُ الجـــارِ وَالجـــارَه
أوفَـــــرلاندُ يُنَبّــــيكَ بِهـــا القُنصُـــلُ طَمّـــارَه
كَسَــــيّارَةِ شـــــارلوت عَــــلى السَـــواقِ جَـــبّارَه
إذا حَــــرَّكَها مالَــــت عَــــلى الجَنــــبَينِ مُـــنهارَه
وَقَـــــد تَحـــــرنُ أَحـــياناً وَتَمشـــي وَحدَهـــا تـــارَه

وتكشـــف القصيدة عن جانب مهم في شخصية شوقي هو خفة الظل وميله إلى الدعابة والاستظراف والتفكه.

العلماء والمفكرون:

حظـــي عــلماء الغـــرب ومفكروه بتقدير شوقي لما أسدوه من خدمـــات جلـــيلة للبشرية في ميادين العلم والفكر، وما توصلوا إليه من مخترعات أفادت البشر وقد احتفى شوقي بعلماء الغرب الذين شاركوا في المؤتمر الجغرافي وحياهم بقصيدة شبههم فيها بالكواكب المنيرة التي هبطت من عليائها على الأرض، وفي ذلك يقول:(١)

هَـــل تَهبِطُ النَيِّراتُ الأَرضَ أَحيانا وَهَـــل تَصَـــوَرُ أَفراداً وَأَعيانا
نَـــزَلنَ أَوَّلَ دارٍ في الـــثَرى رَفَعَت لِلشَمسِ مُلكاً وَلِلأَقمارِ سُلطانا
تَفَنَّنَـــت قَبلَ خَلقِ الفَنِّ وَانفَجَرَت عِلماً عَلى العُصُرِ الخالي وَعِرفانا

وبعد أن افتخر شوقي بحضارة مصر القديمة أكد أن العلم لا وطن له وأشاد بعلم الجغرافيا وأهميته في شتى مجالات الحياة، فقال:

---

(١) الشوقيات، ص ٢٧٥، الشوقيات المجهولة، ص ٣٩٠.

العِلمُ يَجمَعُ في جِنسٍ وَفي وَطَنٍ شَـتّى القَبائِلِ أَجناساً وَأَوطانا
وَلَم يَزِدكَ كَرَسمِ الأَرضِ مَعرِفَةً بـِـالأَرضِ داراً وَبِالأَحياءِ جيرانا
علمٌ أَبانَ عَنِ الغَبراءِ فَانكَشَفَت زَرعـــاً وَضَرعاً وَإِقليماً وَسُكّانا
وَقَسَّـــمَ الأَرضَ آكامـــاً وَأَودِيَةً وَفَصَّـــلَ البَحرَ أَصدافاً وَمُرجانا
وَبَـــيَّنَ الـــناسَ عاداتٍ وَأَمزِجَةً وَمَـــيَّزَ الـــناسَ أَجناساً وَأَديانا

ورحـــب شوقي بالوفود الأجنبية من العلماء وعبر عن فرح مصر وابتهاجها بتلك الكوكبة، فقال:

وَفـــدَ المَمـــالِكِ هَزَّ النيلُ مَنكِبَهُ لَمّـــا نَزَلتُم عَلى واديهِ ضيفانا
غَدا عَلى الثَغرِ غادٍ مِن مَواكِبِكُم فَراحَ مُبتَسِمَ الأَرجاءِ جَذلانا
جَـــرَت سَـــفينَتُكُم فيهِ فَقَلَّبَها عَلى الكَرامَةِ قَيدوماً وَسُكّانا

ويهيـــب شـــوقي بالعلماء الأجلاء أن يكونوا خير دعاة لمصر وقضيتها فقد يكون لهم أثر في استمالة الغرب إلى جانب مصر. يقول:

إِذا تَفَرَّقـــتُمُ في الغَربِ أَلسِنَةً لَيِّنـــتُمُ كُـــلَّ قَلبٍ لَم يَكُن لانا

ومـــن عـــلماء الغرب الذين نجد لهم ذكراً في شعر شوقي العالم الأمـــريكي (إيدســـون) الذي اخترع المصباح الكهربائي فأسدى بذلك خدمة جليلة للإنسانية، وقد نظم شوقي قصيدة أشاد فيها باختراعه وقد اســـتدعتها موجة حر شديدة اجتاحت العالم وأودت بحياة مئات النفوس في أمريكا، كما مات بسببها خمسة أفراد من باريس، ولقي بسببها حتفه القـــبطان "سوبرانيش" ربان الباخرة (شرقية) لضربة شمس أصابته[1] وقد

---

(١) الشوقيات المجهولة، ص ٢٤٤.

استثارت هذه الأحداث قريحة شوقي فخاطب (إيدسون) معترفاً بفضله وجعلها مناسبة للتأمل والتفكير العميق في فلسفة الحياة ورؤية الوجود من منظاره الخاص، وفيها يقول:(١)

إيدسن ماذا ترى في الكهرباء … أنت في الأرض فمن ذا في السماء
إن تكن تحكم في أزرارها … إنه في يده زر القضاء
كلما حركته في خلقه … ذهب العقل وجن العقلاء
فتأمل هل ترى من حيلة … في سلوك مرسلات من ذكاء
قد حكيت الشمس حتى غضبت … غضبة جرت على القوم البلاء
وملكت الريح في مروحة … من نحاس تجعل الصيف شتاء
من رآها قال قد سخرها … لك من سخرها للأنبياء
لعبة الناظر في غرفته … ومزيد في نعيم الأغنياء
فانظر اليوم أأغنت أم فدت … أم أفاد العلم أم أجدى الثراء

وينفذ شوقي من خلال هذه الرؤية إلى آفاق إنسانية عظيمة، فيؤكد تعاطفه مع الفقراء الذين لا يملكون دفع القيظ عنهم ويصدر عن حس إنساني عميق ويعبر عن أحلامه الكبرى في المساواة بين الأغنياء والفقراء.

وممن احتفى بهم شوقي المستشرق المشهور (مرجليوث) الذي كان أستاذاً للغة العربية في جامعة أكسفورد وأفاد الأدب العربي بأبحاثه

---

(١) الشوقيات المجهولة : ٢٤٤

لاسـيما في الدراسات المتعلقة بالعصر الجاهلي وقد أعجب شوقي بعلمه وشخصيته حين قابله في مؤتمر المستشرقين، وأثنى عليه فقال: "فكأني أنظر إلى المؤتمـر، علماؤه الهالة وأنت القمر. أو زمر الحجيج وأنت حادي الزمـر"(١)، وقـد أهداه قصيدة "[illegible]ين [illegible]تي تغنى فيها بأمجاد مصر عرفاناً لفضله على لغة العرب، وما أنفق من شباب وكهولة في إحياء علومها ونشر آدابها.(٢)

وفي الشـوقيات المجهولـة قصيدة طريفة لشوقي تردد فيها اسم المسيو (مانس) محرر جريدة (الإيجيبت) في أيامه، وفيها يُعلق تعليقاً ظريفاً عـلى مبارزة اشتبك فيها (مانس) مع الشاعر خليل مطران الذي خرج منها مصاباً، وفيها يقول:(٣)

خليـلي مطـران نلت الشفاء	ولا ذقـت بعد لمنس دويلا(٤)
فأنـت تمـز صـقيل اليراع	ومـنس يهـز الحسام الصقيلا
وأنـت المقـدم في بعلـبك	ومـنس المقدم في أهل ليلا(٥)
ومـالك في السيف عند البراز	فـبارز رسـائله والفصـولا
وعـلمه كيف يصول اليراع	فـتخجل منه الظبا أن تصولا

---

(١) الشوقيات، ص ٦٥.

(٢) نفسه: ٦٥.

(٣) الشوقيات المجهولة، ٢: ص٢٣.

(٤) دويل Duel كلمة فرنسية معناها البراز أو المبارزة.

(٥) اسم مدينة فرنسية.

ومن رجال الغرب وشخصياته الذين نجد لهم حضوراً في شعر شوقي شخصية اللورد (كارنارفون) الذي موَّل (كارتر) في مهماته العلمية الأثرية حتى تمكن من اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في نوفمبر سنة ١٩٢٢ وقد هاجم شوقي (كارنارفون) مردداً الاتهامات التي وجهت إليه بالاعتداء على تراثنا وآثارنا، وأنه أخذ في الخفاء بعض ما كان في الكتر من تحف، بينها تاج الملكة وعقدها وقد خاطبه شوقي في قصيدة "توت عنخ آمون" بقوله:[١]

أَخا اللوردات مِثلُكَ مَن تَحَلّى ... بِحِليَةِ آلِهِ المُتَطَوِّلينا

لَكَ الأَصلُ الَّذي نَبَتَت عَلَيهِ ... فُروعُ المَجدِ مِن كِرنارَفونا

وَمالُكَ لا يُعَدُّ وَكُلُّ مالٍ ... سَيَفنى أَو سَيُفني المالِكينا

وَجَدتَ مَذاقَ كُلِّ تَليدِ مَجدٍ ... فَكَيفَ وَجَدتَ مَجدَ الكاسِبينا

نَشَرتَ صَفائِحاً فَجَزَتكَ مِصرٌ ... صَحائِفَ سُؤدُدٍ لا يَنطَوينا

فَإِن تَكُ قَد فَتَحتَ لَها كُنوزاً ... فَقَد فَتَحَت لَكَ الفَتحَ المُبينا

فَلَو قارونُ فَوقَ الأَرضِ إِلّا ... تَمَنّى لَو رَضيتَ بِهِ قَرينا

سَكَتَّ فَحامَ حَولَكَ كُلُّ ظَنٍّ ... وَلَو صَرَّحَت لَم تُثِرِ الظُنونا

يَقولُ الناسُ في سِرٍّ وَجَهرٍ ... وَمالَكَ حيلَةٌ في المُرجِفينا

أَمَن سَرَقَ الخَليفَةَ وَهوَ حَيٌّ ... يَعِفُّ عَنِ المُلوكِ مُكَفَّنينا

---

(١) الشوقيات، ص ٢٧٠-٢٧١.

ويبدو أن ظن شوقي كان في محله إذ نشرت الصحف الإنجليزية أن حفيد (كارنارفون) عثر صدفة في حجرة مهجورة في قصره على عشرات القطع من مقبرة توت عنخ آمون وعرضها للبيع.[1]

ومن الغريب أن (كارنارفون) مات في القاهرة بعد وقت قصير من اكتشاف المقبرة وقيل: إن بعوضة أو حشرة من القبر لدغته فتسببت في موته وقيل: إنها لعنة الفراعنة، وبرغم ذلك فإن شوقي بحسه الإنساني حزن على وفاته ورثاه بقصيدة أشاد فيها بإنجازه وأفضاله، وفيها يقول:[2]

في المَوتِ ما أَعيا وَفي أَسبابِهِ ... كُلُّ امرِئٍ رَهنٌ بِطَيِّ كِتابِهِ
ما ماتَ مَن حازَ الثَرى آثارَهُ ... وَاستَولَتِ الدُنيا عَلى آدابِهِ
أَنتَ البَشيرُ بِهِ وَقَيِّمُ قَصرِهِ ... وَمُقَدَّمُ النُبَلاءِ مِن حُجّابِهِ
أَعلَمتَ أَقوامَ الزَمانِ مَكانَهُ ... وَحَشَدتَهُم في ساحِهِ وَرِحابِهِ
لَولا بَنانُكَ في طَلاسِمِ تُربِهِ ... ما زادَ في شَرَفٍ عَلى أَترابِهِ
أَفضى إِلى خَتمِ الزَمانِ فَفَضَّهُ ... وَحَبا إِلى التاريخِ في مِحرابِهِ
وَطَوى القُرونَ القَهقَرى حَتّى أَتى ... فِرعَونَ بَينَ طَعامِهِ وَشَرابِهِ
وادي المُلوكِ بَكَت عَلَيكَ عُيونُهُ ... بِمُرَقرَقٍ كَالمُزنِ في تَسكابِهِ
أَخرَجتَ مِن قَبرٍ كِتابَ حَضارَةٍ ... الفَنُّ وَالإِعجازُ مِن أَبوابِهِ

---

(١) في رحاب شوقي، ص ٣٩.

(٢) الشوقيات، ص ٨٤-٩٠.

الساسة والزعماء والحكام:

احتفى شوقي بالمشاهير من ساسة الغرب وزعمائه وحكامه فأشاد بالنابغين منهم وتأسف على رحيل بعضهم، وألم بطرف من سيرهم وانتصاراتهم ومواقفهم التاريخية أو السياسية ومن هؤلاء (نابليون) الذي وقف على قبره ورثاه رثاء بديعاً عبَّر فيه عن إعجابه بشخصيته وعبقريته وزعامته وتحسَّر على رحيله وشبهه بالجوهرة الفريدة فقال:[1]

قِـف عَلى كِنزٍ بِباريسَ دَفين مِـن فَـريدٍ في المَعاني وَثَمين
وَافـتَقِد جَوهَـرَةً مِن شَرَفٍ صَـدَفُ الدَهـرِ بِتُربَتِها ضَنين
قَـد تَوارَت في الثَرى حَتّى إِذا قَـدُمَ العَهدُ تَوارَت في السِنين
غَرَّبَـت حَتّى إِذا ما اِستَيأَسَت دَنَـتِ الدارُ وَلَكِن لاتَ حين

ويقف شوقي وقفة تأمل أمام قبر نابليون ويشبهه بالكنز الذي غيَّبه ثرى باريس ويشبه قبره بالغمد الذي احتضن بقايا سيف قاطع ويشبه (نابليون) بالليث العظيم، وبالنسر الذي احتفظت برفاقه أوكار الطيور، ويشير إلى عبقريته ونبوغه، فهو لم يرحل عن الحياة إلا بعد أن نُقش اسمه بحروف من ذهب في سجل التاريخ، يقول:

غَيَّبَـت باريسُ ذُخراً وَمَضى تُـربُها القَـيِّمُ بِالحِرزِ الحَصين
نَـزَلَ الأَرضَ وَلَكِـن بَعدَ ما نَـزَلَ الـتاريخ قَـبرَ النابِغين
أَعظُـمُ اللَيـثِ تَلقاها الثَرى وَرُفـاتُ النَسرِ حازَتهُ الوُكون

(١) الشوقيات ، ص ٢٥٣.

وَحَـوى الغِمـدُ بَقايا صارِمٍ		لَـم تُقَلِّـب مِثلَهُ أَيدي القُيون
شَـيَّدَ الـناسُ عَلَـيهِ وَبَـنوا		حـائِطَ الشَكِّ عَلى أُسِّ اليَقين

ويشـير شوقي إلى ما أحرزه نابليون من انتصارات تجسدت في تلك الأعلام التي غنمها في حروبه ثم وضعت على قبره رمزاً لما حققه من فتوح وانتصارات، يقول:

لَسـتَ تُحصـي حَولَهُ أَلوِيَةً		أُسِـرَت أَمـسِ وَرايات سُبين
نـامَ عَـنها وَهـيَ في سُدَّتِهِ		دَيدَبـانٌ سـاهِرُ الجَفـنِ أَمين

ويمـتدح شـوقي (نابلـيون) فيشيد بعصاميته وينسبه إلى البدر والشـمس ويلمُّ بأطراف من سيرته فيشير إلى زواجه من ماري لويز ابنة إمـبراطور النمسا ويوجه سهامه إلى من حاولوا النيل منه واتهموه بضآلة النسب، فيقول:

يـا عِصامِيّاً حَوى المَجدَ سِوى		فَضـلَةٍ قَد قُسِّمَت في المُعرِقين
أُمُّـكَ الـنَفسُ قَديمـاً أَكرَمَت		وَأَبـوكَ الفَضـلُ خَيرُ المُنجِبين
نَسَـبُ الـبَدرِ أَوِ الشَمسِ إِذا		جـيءَ بِالآبـاءِ مَغمورٌ رَهين
لا يَقولَـنَّ اِمـرُؤٌ أَصـلي فَما		أَصلُهُ مِسكٌ وَأَصلُ الناسِ طين
قَـد تَتَوَّجـتَ فَقالَـت أُمَـمٌ		وَلَـدُ الـثَورَةِ عَـقَّ الثائِرين
وَتَزَوَّجـتَ فَقـالوا مالَـهُ		وَلِحـورٍ مِن بَناتِ المُلكِ عين
قَسَـماً لَـو قَدَروا ما اِحتَشَموا		لا يَعِـفُّ الـناسُ إِلّا عاجِزين

ويفسح شوقي مساحة واسعة من قصيدته للإشادة بأمجاد نابليون وانتصاراته ويتغنى ببطولته وعظمته ويتوقف غير مرة عند عصاميته مظهراً إعجابه بها، ويرفعه فوق القياصرة، فقد بذّ قيصري روسيا والنمسا اللذين ولدا للملك والسلطان وصار (قيصر النفس) الذي نال السيادة بذاته ولم تسوّده الأنساب، ويشير إلى تتويجه وأنه هو الذي توّج نفسه بيده حين قدم إليه التاج دلالة على عظمته، ويستحضر بعض فتوحاته وانتصاراته فيشير إلى موقعة (استر لتز) التي حقق انتصاراً باهراً فيها على قيصري روسيا والنمسا، يقول:

رُبَّ يَومٍ لَكَ جَلّى وَاِنثَنى ... سائِلَ الغُرَّةِ مَمسوحَ الجَبين

أَحرَزَ الغايَةَ نَصراً غالِياً ... لِفَرَنسا وَحَوى الفَتحَ الثَمين

قَيصَرا الأَنسابِ فيهِ نازَلا ... قَيصَرَ النَفسِ عِصامَ المالِكين

مُجلِسَ التاجِ عَلى مَفرِقِهِ ... بِيَدَيهِ لا بِأَيدي المُجلِسين

حَولَ اِستَرلَتزَ كانَ المُتَلَقّى ... وَاِصطِدامُ النَسرِ بِالمُستَنسِرين

وُضِعَ الشَطرَنجُ فَاِستَقبَلَتهُ ... بِبَنانٍ عابِثٍ بِاللاعِبين

فَإِذا المَلكانِ هَذا خاضِعٌ ... لَكَ في الجَمعِ وَهَذا مُستَكين

صِدتَ شاهَ الروسِ وَالنِمسا مَعاً ... مَن رَأى شاهَينِ صَيداً في كَمين

ويتوقف شوقي أمام الأحداث الكبرى في سيرة نابليون ويعني باستخلاص العظات ويعمد إلى عناصر فنية كالمقابلة و(المفارقة) في إظهار التحولات وخضوع العبقرية الإنسانية لتقلبات الدهر وصروفه، فيشير شوقي إلى نفي نابليون في جزيرة (سانت هيلين) ويضع هذه الحادثة أمام

موقف من مواقف عظمته وإحساسه بامتلاك الدنيا مرددا مقولته يوم بشِّر بـــولي عهـــده وقد توجه في المهد قائلاً عبارته المشهورة :" المستقبل لي" ويلتفـــت إلى ما أصاب أمته والأمم الأخرى من عنت وإرهاق من جراء الحروب فيقول:-

يــا مُلَقّــى النَصــرِ في أَحلامِهِ   أَينَ مِن وادي الكَرى سَنتِ هِلين
يــا مُنــيلَ الــتاجِ في المَهدِ ابنه   مــا الَّــذي غَرَّكَ بِالغَيبِ الجَنين
اتَّـــئِد في أُمَّــــةٍ أَرهَقــــتَها   إِنَّهــا كَالــناسِ مِـــن ماءٍ وَطين
أَتعَـــبَ الريحَ مَدى ما سَلَكَت   مِـــن سُهولٍ وَأَجازَت مِن حُزون
مِـــن أَديمٍ يَهـــرَأُ الـــدُبَّ إِلى   فَلَـــواتٍ تُنضِـــجُ الضَبَّ الكَنين
لَـــكَ في كُـــلِّ مُغـــارٍ غـــارَةٌ   وَعَلَـــيها الدَمـــعُ فـــيهِ وَالأَنين
وَمِـــنَ المَكـــرِ تَغَنّـــيكَ بِهـــا   هَـــل يُزَكّي الذَبحَ غَيرُ الذابِحين
سُـــخِّرَ الـــناسُ وَإِن لَم يَشعُروا   لِقَـــوِيٍّ أَو غَــــنِيٍّ أَو مُـــبين
وَالجَماعـــاتُ ثَـــنايا المُـــرتَقى   في المَعـــالي وَجُســـورُ العابِـــرين

ولم يـــنس شوقي أن (نابليون) جاء إلى مصر غازياً ويردد مقولته وهو يشجع جنوده قائلاً:"أيها الجنود إن أربعين قرناً تنظر إليكم من قمة الأهـــرام" وقـــد ألهبت هذه المقولة حماس الجنود الفرنسيين ولكنهم لم يصـــمدوا طويـــلاً أمـــام كفاح المصريين ونضالهم فارتدوا على أعقابهم ويجدهـــا شوقي فرصة للفخر بمصر وحضارتها لاستنهاض همم المصريين ويخاطـــب (نابليون) منبهاً إياه أن يخشع لحضارة مصر الفرعونية ويتخلى

عـــن زهو القائد الفاتح ويقف وقفة الرهبة والخشوع والعظمة أمام هذه الحضارة العظيمة الخالدة، يقول:

قُم إِلى الأَهرامِ وَاِخشَع وَاِطَّرِح　　خَــيلَةَ الصَــيدِ وَزَهوَ الفاتِحين
وَتَمَهَّــل إِنَّمــا تَمشــي إِلى　　حَــرَمِ الدَهرِ وَمِحرابِ القُرون
هُــوَ كَالصَخرَةِ عِندَ القِبطِ أَو　　كَالحَطــيمِ الطُهرِ عِندَ المُسلِمين
وَتَسَــنَّم مِنــبَراً مِــن حَجَرٍ　　لَــم يَكُن قَبلَكَ حَظَّ الخاطِبين
وَادعُ أَجــيالاً تَوَلَّت يَسمَعوا　　لَكَ وَابعَث فِي الأُوالي حاشِرين
وَأَعِدهــا كَلِمــاتٍ أَربَعــاً　　قَــد أَحاطَت بِالقُرونِ الأَربَعين
أَلهَبَــت خَــيلاً وَحَضَّت فَيلَقاً　　وَأَحالَــت عَسَلاً صابَ المَنون

هكـــذا احتفى شوقي بنابليون وأشاد بعبقريته وعظمته وقابل بين صعود نجمه وأفوله واستخلص العظة والعبرة من حوادث الدهر فقال في ثنايا قصيدته:

يــا صَــريعَ المَوتِ نَدمانَ البِلى　　كُــلُّ حَــيٍّ بِالَّذي ذُقتَ رَهين
كِــدتَ مِــن قَــتلِ المَنايا خِبرَةً　　تَعلَــمُ الآجــالَ أَيّــانَ تَحين
يــا مُبــيدَ الأَســدِ في آجامِها　　هَل أَبادَت خَيلُكَ الدودَ المَهين

ولم تقـــترن صورة ساسة الغرب وحكامه في شعر شوقي بالثناء والإشادة في كل الأحوال، وإنما اقترنت بمواقفهم سلباً وإيجاباً ومن ذلك موقـــف شـــوقي من (غليوم) عاهل ألمانيا الذي خطب في سنة ١٩٠٦ خطـــبة مشـــهورة، كان لها وقع خطير وأحدثت أزمة كادت أن تشعل حـــروباً أوربية طاحنة، وقد زعم (غليوم) في خطبته أن العالم كله يخضع

لســـيادة قوتين فقط هما الجرمان والرومان، وقد أدان شوقي هذا الموقف واتهـــم (غلـــيوم) بالجهل والشطط ورأى في مزاعمه ضرباً من الأحلام والأوهام، وفي ذلك يقول:(١)

يـــا رَبِّ ما حُكمُكَ ماذا تَرى ... في ذَلِكَ الحُلمِ العَريضِ الطَويل
قَـــد قـــامَ غَلـــيومٌ خَطيباً فَما ... أَعطـــاكَ مِن مُلكِكَ إِلّا القَليل
شَـــيَّدَ في جَنـــبِكَ مُلكـــاً لَهُ ... مُلكُـــكَ إِن قـــيسَ إِلَيهِ الضَئيل
قَـــد وَرَّثَ العـــالَمَ حَـــيّاً فَما ... غـــادَرَ مِـــن فَجٍّ وَلا مِن سَبيل
فَالنِصـــفُ لِلجِرمانِ في زَعمِهِ ... وَالنِصـــفُ لِلرومانِ فيما يَقول
يـــا رَبِّ قُـــل سَيفُكَ أَم سَيفُهُ ... أَيُّهُمـــا يـــا رَبِّ مـــاضٍ ثَقيل
إِن صَـــدَقَت يـــا رَبِّ أَحلامُهُ ... فَـــإِنَّ خَطـــبَ المُسلِمينَ الجَليل
لا نَحـــنُ جِـــرمانُ لَنا حِصَّةٌ ... وَلا بِـــرومانَ فَـــنُعطى فَتـــيل

وقد وقف شوقي موقف الإدانة من (كرومر) الذي جسّد سياسة الاحتلال في أبشع صورها حين كان ممثلاً لانجلترا في عهد احتلالها مصر، فـــأدان شـــوقي مـــا فعله بأهل (دنشواي) ورآه تفوق على (نيرون) في جبروته وظلمه فقال في قصيدته التي نظمها في ذكرى دنشواي:(٢)

نَـــيرونُ لَو أَدرَكتَ عَهدَ كَرومِرٍ ... لَعَرَفـــتَ كَيفَ تُنَفَّذُ الأَحكامُ
نوحـــي حَمائِمَ دِنشِوايَ وَرَوِّعي ... شَـــعباً بِوادي النيلِ لَيسَ يَنامُ

---

(١) الشوقيات ، ص ٤٨.

(٢) نفسه ، ص ٢٤٤-٢٤٥.

السوطُ يَعمَلُ وَالمَشانِقُ أَربَعٌ مُتَوَحِّداتٌ وَالجُنودُ قِيامُ
وَالمُستَشارُ إِلى الفَظائِعِ ناظِرٌ تَدمى جُلودٌ حَولَهُ وَعِظامُ
في كُلِّ ناحِيَةٍ وَكُلِّ مَحَلَّةٍ جَزَعاً مِنَ المَلَأِ الأَسيفِ زِحامُ
وَعَلى وُجوهِ الثاكِلينَ كَآبَةٌ وَعَلى وُجوهِ الثاكِلاتِ رُغامُ

وقد انتهز شوقي مناسبة رحيل كرومر عن مصر سنة ١٩٠٧ فحمل عليه حملة ضارية وثأر لكرامة المصريين بعد أن ألقى (كرومر) خطبة أهان فيها مصر وذمَّ أهلها، وقد أدان شوقي سياسة البطش والقهر التي انتهجها كرومر الذي كان حاكماً بأمره وشبهه شوقي بفرعون في جبروته كما شبهه بالداء العياء الذي شفيت منه الأمة برحيله، وفي ذلك يقول:[١]

أَيّامُكُم أَم عَهدُ إِسماعيلا أَم أَنتَ فِرعَونٌ يَسوسُ النيلا
أَم حاكِمٌ في أَرضِ مِصرَ بِأَمرِهِ لا سائِلاً أَبَداً وَلا مَسؤولا
يا مالِكاً رِقَّ الرِقابِ بِبَأسِهِ هَلّا اتَّخَذتَ إِلى القُلوبِ سَبيلا
لَمّا رَحَلتَ عَنِ البِلادِ تَشَهَّدَت فَكَأَنَّكَ الداءُ العَياءُ رَحيلا
أَوسَعتَنا يَومَ الوَداعِ إِهانَةً أَدَبٌ لَعَمرُكَ لا يُصيبُ مَثيلا

ويشير شوقي إلى ما ردده (كرومر) من إهانات للأمة، ويدعوه أن يأخذ العظة مما انتهي إليه حال الطغاة والجبابرة ويحاكم سياسته الظالمة في مصر التي انعكست سلباً على أحوال المصريين اقتصادياً واجتماعياً

---

(١) الشوقيات ، ص ١٧٣.

وسياســياً وعسكرياً، فقد حرمِ مصر من نعمة الاستقلال وأفسد التعليم والقضاء وأهمل الجيش وقهر الناس ببطشه وظلمه. يقول شوقي:

أَنذَرتَــنا رِقّــاً يَــدومُ وَذِلَّــةً ... تَــبقى رِحالاً لا تَرى تَحويلا
أَحَســبتَ أَنَّ اللَــهَ دونَكَ قُدرَةً ... لا يَملُــكُ التَغــييرَ وَالتَــبديلا
اللَــهُ يَحكُمُ في المُلوكِ وَلَم تَكُن ... دُوَلٌ تُــنازِعُهُ القُــوى لِتَدولا
فِرعَونُ قَبلَكَ كانَ أَعظَمَ سَطوَةً ... وَأَعَــزَّ بَــينَ العــالَمينَ قَبيلا
قــالوا جَلَبتَ لَنا الرَفاهَةَ وَالغِنى ... جَحَــدوا الإِلَهَ وَصُنعَهُ وَالنيلا
كَــم مِــنَّةٍ مَوهومَــةٍ أَتبَعــتَها ... مِــنّا عَــلى الفَطِنِ الخَبيرِ ثَقيلا
في كُــلِّ تَقريــرٍ تَقولُ خَلَقتُكُم ... أَفَهَــل تَــرى تَقريرَكَ التَنزيلا
هَل مِن نَداكَ عَلى المَدارِسِ أَنَّها ... تَــذَرُ العُلــومَ وَتَأخُذُ الفُوتبولا
أَم مِن صِيانَتِكَ القَضاءَ بِمِصرَ أَن ... تَــأتي بِقاضي دِنشِوايَ وَكيلا
أَم هَــل يَعُــدُّ لَكَ الإِضاعَةَ مِنَّةً ... جَيشٌ كَجَيشِ الهِندِ باتَ ذَليلا

ويــرى شــوقي أن (كرومر) أسدى إلى انجلترا خدمات جليلة باســتعباد مصــر ونهب ثرواتها مما أسهم في ازدهار الاقتصاد البريطاني وإنعــاش أحوال الإنجليز، وهو في ذلك يصدر عن إحساس حاد بالمرارة والسخرية، يقول:

لَو كُنتُ مِن حُمرِ الثِيابِ عَبَدتُكُم ... مِن دونِ عيسى مُحسِناً وَمُنيلا[1]
أَو كُنــتُ بَعضَ الإِنكِليزَ قَبِلتُكُم ... مَلِكــاً أُقَطِّــعُ كَفَّــهُ تَقبــيلا

---

(١) حمر الثياب كناية عن الانجليز.

أَو كُنـــتُ عُضواً في الكُلوبِ مَلَأتُهُ أَسَـــفاً لِفُرقَـــتِكُم بُكاً وَعَويلا[1]
أَو كُنـــتُ قِسّيســـاً يَهيمُ مُبَشِّراً رَتَّلـــتُ آيَـــةَ مَدحِكُم تَرتيلا[2]
أَو كُنـــتُ صَـــرّافاً بِلُـــندُنَ دائِناً أَعطَيـــتُكُم عَـــن طيـــبَةٍ تَحويلا
أَو كُنتُ تَيمَسَكُم مَلَأتُ صَحائِفي مَدحاً يُرَدَّدُ في الوَرى مَوصولا[3]

ويمضـــي شوقي في تعداد الصحائف السود التي كتبها (كرومر) بسياســـته الظالمـــة في مصر واجترائه على عاداهم ومعتقداهم ونجاحه في إفســـاد الحياة السياسية والاقتصادية في مصر لصالح انجلترا مما يستوجب تكـــريمه مـــن حكومته والإنعام عليه بأرفع النياشين والألقاب وفي ذلك يقول شوقي:

عَهدُ الفِرَنجِ وَأَنتَ تَعلَمُ عَهدَهُم لا يَبخَســـونَ المُحسِـــنينَ فَتـــيلا
فَـــارحَل بِحِفظِ اللَهِ جَلَّ صَنيعُهُ مُســـتَعفِياً إِن شِـــئتَ أَو مَعزولا
وَاِحمِـــل بِساقِكَ رَبطَةً في لُندُنٍ وَاِخلِف هُناكَ غِرايَ أَو كَمبيلا[4]
أَو شـــاطِرِ المُلـــكَ العَظيمَ بِلادَهُ وَسُـــسِ المَمالِكَ عَرضَها وَالطولا

---

(١) الكلوب: منتدى في القاهرة لكبار الموظفين الإنجليز ومن يشايعهم.

(٢) إشارة إلى حماية شوقي للقساوسة بمصر وتأييده التبشير بالمسيحية.

(٣) تيمسكم : إشارة إلى صحيفة (التيمس) البريطانية

(٤) يشير إلى نيشان عند الإنجليز يسمى (ربطة الساق) أنعم به على كرومر عند رحيله عن مصر. أما (غراي) و(كمبيل) فهما وزيران من وزراء إنجلترا.

لقد صدر شوقي في قصيدته تلك عن عاطفة وطنية صادقة ورأى في (كرومر) صورة من صور الغرب البغيضة التي جبلت على الكراهية والظلم.

ومن رؤساء الغرب الذين نجد لهم حضورا في شعر شوقي الرئيس الأسبق للولايات المتحدة (روزفلت) وكان قد زار مصر بعد أن ذهب إلى السودان وألقى فيها خطبة أغضبت المصريين لأنها كانت ضد مصالحهم الوطنية، وقد أثار ذلك عاطفة شوقي فانتهز زيارة روزفلت إلى أسوان لمشاهدة معبد "أنس الوجود" الذي أغرقت مياه النيل قواعده وهددته بالغرق، فكتب له شوقي خطاباً مفتوحاً يعاتبه ويلفته إلى عظمة مصر وحضارتها، وقد جاء في خطابه:(١)

"التاريخ - أيها الضيف العظيم- غابر متجدد، قديمه منوال، وحاضره مثال، والغد بيد الله المتعال. وأنت اليوم تمشي فوق مهد الأعصر الأول، ولحد قواهر الدول، أرض اتخذها "الإسكندر" عرينا، وملأها على أهلها "قيصر" سفينا، وخلف"ابن العاص" فيها لساناً وجنساً وديناً، فكان أعظم المستعمرين حقيقة وأكبرهم يقينا، وهو الذي لم يعلم عليه أن بغى أو ظلم أو سفك الدم، أو نهى، أو أمر، إلا بين الرجاء والحذر، من عدل "عمر"، الذي تنبئك عنه السير.

قمت - أيها الضيف العظيم- في السودان خطيباً فأنصت العصر، والتفتت مصر، وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءلون :"كيف خالف

---

(١) الشوقيات، ص ٥٥.

الرئيس سنة الأحرار من قادة الأمم وساسة الممالك أمثاله، فطارد الشعور وهو يهب، والوجدان وهو يشب، والحياة وهي تدب، في هذا الشعب؟ ومـــن حـــرمة العواطف السامية، ألا تطارد كأنها وحوش ضارية، على صحراء أو بادية، كما طاردته السباع بالأمس نقماً من طبائعها الجافية".

وقد وجه شوقي قصيدته "أنس الوجود" إلى روزفلت وخاطبه في استهلالها بما يشعره بالخشوع والرهبة والإجلال وهو يقف أمام هذا الأثر العظيم الذي يشهد بعظمة الحضارة المصرية القديمة وفيها يقول:[1]

أَيُّهـــا الْمُنـــتَحي بِأَســـوانَ داراً كَالـــثُرَيّا تُـــريدُ أَن تَنقَضّــا
اِخلَعِ النَعلَ وَاِخفِضِ الطَرفَ وَاِخشَع لا تُحـــاوِل مِن آيَةِ الدَهرِ غَضّا
قِــف بِتِلكَ القُصورِ في اليَمِّ غَرقى مُمسِكاً بَعضُها مِنَ الذُعرِ بَعضا
كَعَــذارى أَخفَــينَ في المــاءِ بَضّاً ســابِحاتٍ بِــهِ وَأَبدَيــنَ بَضّا
مُشــرِفاتٍ عَــلى الزَوالِ وَكانَت مُشرِفاتٍ عَلى الكَواكِبِ نَهضا
شــابَ مِن حَولِها الزَمانُ وَشابَت وَشَــبابُ الفُــنونِ مازالَ غَضّا

وبعد أن احتفى شوقي بحضارة مصر وتاريخها المجيد تحول بخطابه مرة أخرى إلى "روزفلت" ليتحقق هدفه في استقطابه ومحو الروح العدائية التي يحملها لمصر، فخاطبه بقوله:

يــا إِمامَ الشُعوبِ بِالأَمسِ وَاليَو مِ سَــتُعطى مِــنَ الثَناءِ فَتَرضى
مِصــرُ بِالنازِلينَ مِن ساحِ مَعنٍ وَحِمى الجودِ حاتِمُ الجودِ أَفضى

---

(١) الشوقيات ، ص ٥٧.

كُـــن ظَهــيراً لِأَهلِهـــا وَنَصيرِاً وَابذُلِ النُصحَ بَعدَ ذَلِكَ مَحضا
قُـــل لِقَـــومٍ عَلى الوِلاياتِ أَيقا ظٍ إِذا ذاقَـــتِ الـــبَرِيَّةُ غُمضا
شـــيمَةُ النـــيلِ أَن يَفي وَعَجيبٌ أَخـــرَجوهُ فَضَـــيَّعَ العَهدَ نَقضا

وتطـــل في شعر شوقي صورة الملك إدوارد السابع ملك انجلترا، فكتب قصيدة بمناسبة تأجيل تتويجه ملكاً لانجلترا لإصابته بدمَّل استوجب جـــراحة عاجلـــة، وقد جعلها شوقي معرضاً لاستخلاص العظة وإثبات حقيقة الضعف البشري، فالإنسان مهما كانت عظمته وقوته وملكه يبدو ضعيفاً أمام أقل عارض يلم بجسده، وفي ذلك يقول شوقي:[1]

لِمَن ذَلِكَ المُلكُ الَّذي عَزَّ جانِبُهُ لَقَد وَعَظَ الأَملاكَ وَالناسَ صاحِبُه
أَمُلكُـــكَ يا داوُدُ وَالملكُ الَّذي يَغـــارُ عَلَـــيهِ وَالَّـــذي هُوَ واهِبُه
أَرادَ بِـــهِ أَمـــراً فَجَلَّت صُدورُهُ فَأَتـــبَعَهُ لُطفـــاً فَجَلَّـــت عَواقِبُه

والمعنى الذي يرمي إليه شوقي في تلك الأبيات يستند إلى حقائق إيمانية ويؤكد أن الملك لله يدبره بلطفه وعنايته، وقد قضى فيه بأمر عظيم هـــو موت الملكة فكتوريا ملكة انجلترا ولكنه كان لطيفاً في قضائه بتولية الملك إدوارد السابع وتتويجه، فكانت عاقبة اللطف عظيمة، كما كانت بوادر الملك عظيمة بالعارض الذي أصاب إدوارد.

ويتعجـــب شوقي من تداعيات هذا العارض الصغير وما كان له من توابع، فقد حال دون إقامة حفل التتويج وقد كان عيداً كبيراً أُعدَّت

---

(١) الشوقيات، ص ٨٠-٨٤.

له الاحتفالات والمواكب والزينات وقدمت للمشاركة فيه وفود من كبار الساسة والملوك والرؤساء وذاعت أنباء هذا الحدث في أقطار الأرض وكثر الوفود القادمون من البر والجو والبحر كثرة الحصى وهو لا يخفي تعجبه ودهشته. يقول:

أَيبطُلُ عيدُ الدَهرِ مِن أَجلِ دُمَّلٍ ... وَتَخبو مَجاليهِ وَتُطوى مَواكِبُه
وَيَرجِعُ بِالقَلبِ الكَسيرِ وُفودُهُ ... وَفيهِم مَصابيحُ الوَرى وَكَواكِبُه
وَتَسمو يَدُ الدَهرِ اِرتِجالاً بِبَأسِها ... إِلى طُنُبِ الأَقواسِ وَالنَصرُ ضارِبُه
وَيَستَغفِرُ الشَعبُ الفَخورُ لِرَبِّهِ ... وَيَجمَعُ مِن ذَيلِ المَخيلَةِ ساحِبُه
وَيُحجَبُ رَبُّ العيدِ ساعَةَ عيدِهِ ... وَتَنقُصُ مِن أَطرافِهِنَّ مَآرِبُه
أَلا هَكَذا الدُنيا وَذَلِكَ وُدُّها ... فَهَلّا تَأَتّى في الأَماني خاطِبُه
أَعَدَّ لَها إِدوَردُ أَعيادَ تاجِهِ ... وَما في حِسابِ اللَهِ ما هُوَ حاسِبُه
مَشَت في الثَرى أَنباؤُها فَتَساءَلَت ... مَشارِقُهُ عَن أَمرِها وَمَغارِبُه
وَكاثَرَ في البَرِّ الحَصى مَن يَجوبُهُ ... وَكاثَرَ مَوجَ البَحرِ في البَحرِ راكِبُه
إِلى مَوكِبٍ لَم تُخرِجِ الأَرضُ مِثلَهُ ... وَلَن يَتَهادى فَوقَها ما يُقارِبُه
إِذا سارَ فيهِ سارَتِ الناسُ خَلفَهُ ... وَشَدَّت مَغاويرَ المُلوكِ رَكائِبُه
تُحيطُ بِهِ كَالنَملِ في البَرِّ خَيلُهُ ... وَتَملَأُ آفاقَ البِحارِ مَراكِبُه

ويحاول شوقي أن يستخلص العظة ويؤكد حقيقة الضعف الإنساني وعجزه عن مواجهة القدر والغيبيات من خلال حضور مكثف لصيغ الاستفهام الموحية بالتعجب، يقول:

فيا لَيتَ شعري أَينَ كانَت جُنودُهُ وَكَيفَ تَراخَت في الفِداءِ قَواضِبُه

وَرُدَّت عَلى أَعقابِهِنَّ سَفينُهُ وَما رَدَّها في البَحرِ يَوماً مُحارِبُه

وَكَيفَ أَفاتَتهُ الحَوادِثُ طِلبَةً وَما عَوَّدَتهُ أَن تَفوتَ رَغائِبُه

سَلوا صاحِبَ المُلكَينِ هَل مَلَكَ القُوى وَأُسدُ الشَرى تَعنو لَهُ وَتُحارِبُه

وَهَل رَفَعَ الداءَ العُضالَ وَزيرُهُ وَهَل حَجَبَ البابَ المُمَنَّعَ حاجِبُه

وَهَل قَدَّمَت إِلّا دُعاةً شُعوبُهُ وَساعَفَ إِلّا بِالصَلاةِ أَقارِبُه

هُنالِكَ كانَ العِلمُ يُبلي بَلاءَهُ وَكانَ سِلاحُ النَفسِ تُغني تَجارِبُه

ويستثير الحدث شوقي فيطيل الوقوف أمام مغزاه وتداعياته ويعمد إلى "المفارقة" في تأكيد فكرة الضعف الإنساني فيتعجب من خوف (إدوارد) من مشرط الجراح وتعلق رجائه به وهو الذي يهابه الشرق والغرب وتحميه الكتائب المدججة، ويخلص شوقي إلى تأكيد الحقائق الربانية التي تجب علم البشر وتحفزهم إلى الإيمان بقدرته، يقول:

عَجيبٌ يُرَجّى مِشرَطاً أَو يَهابُهُ مَنِ الغَربُ راجيهِ مَنِ الشَرقُ هائِبُه

فَلَو تُفتَدى بِالبيضِ وَالسُمرِ فِديَةٌ لَأَلقَت قَناها في البِلادِ كَتائِبُه

وَلَو أَنَّ فَوقَ العِلمِ تاجاً لَتَوَّجوا طَبيباً لَهُ بِالأَمسِ كانَ يُصاحِبُه

فَآمَنتُ بِاللَهِ الَّذي عَزَّ شَأنُهُ وَآمَنتُ بِالعِلمِ الَّذي عَزَّ طالِبُه

وكـــان لشوقي وقفة أخرى مع (غليوم الثاني) ملك ألمانيا، فقد حيَّاه شوقي حين وقف وقفة إجلال واحترام أمام قبر صلاح الدين فكان موقفاً عظيماً من ملك عظيم وفي ذلك يقول شوقي:[1]

عَظـيمُ الناسِ مَن يَبكي العِظاما ... وَيَـندُبُهُم وَلَـو كـانوا عِظاما
وَأَكـرَمُ مِـن غَمامٍ عِندَ مَحلٍ ... فَـتىً يُحـيي بِمِدحَـتِهِ الكِراما
وَمـا عُـذرُ المُقَصِّرِ عَن جَزاءٍ ... وَمـا يَجـزيهُمو إِلا كَلامـا
فَهَـل مِـن مُبلِغٍ غَليومَ عَنّي ... مَقـالاً مُرضِـياً ذاكَ المَقامـا
رَعـاكَ اللَـهُ مِـن مَلِكٍ هُمامٍ ... تَعَهَّـدَ في الـثَرى مَلِكاً هُماما
أَرى النِسـيانَ أَظمَـأَهُ فَلَمّـا ... وَقَفـتَ بِقَـبرِهِ كُنـتَ الغَماما

ويضع شوقي أمام (غليوم) صورة صلاح الدين القائد الفذّ الذي حقـق الانتصارات العظيمة على الصليبيين أجداد (غليوم) وهنا يتساءل شـوقي عمـا إذا كانـت وقفة (غليوم) من قبيل الإعجاب بالبطولة أم الشـماتة والانـتقام، ولكن شوقي يترهه عن ذلك، فهو أعظم من أن يشمت بميت أو يزري به. يقول:

أَتَـدري أَيَّ سُـلطانٍ تُحَـيّي ... وَأَيَّ مُمَلَّـكٍ تُهـدي السَلاما
دَعَـوتَ أَجَلَّ أَهلِ الأَرضِ حَرباً ... وَأَشـرَفَهُم إِذا سَـكَنوا سَلاما
وَقَفـتَ بِـهِ تُذَكِّـرُهُ مُلوكـاً ... تَعَـوَّدَ أَن يُلاقـوهُ قِـياما
وَكَـم جَمَعَتهُمو حَربٌ فَكانوا ... حَدائِدَهـا وَكانَ هُوَ الحُساما

---

(١) الشوقيات، ص ١٦٢-١٦٣.

كـــلامٌ للـــبَرِيَّةِ دامـــياتٌ وَأنـــتَ اليَومَ مَن ضَمَدَ الكلاما
فَلَمّـــا قُلـــتَ مـــا قَد قُلتَ عَنهُ وَأسمَعـــتَ المَمـــالِكَ وَالأناما
تَســـاءَلَتِ الـــبَرِيَّةُ وَهيَ كَلمى أَحُـــبّاً كـــانَ ذاكَ أَمِ انـــتِقاما
وَأَنـــتَ أَجَـــلُّ أَن تُزري بِمَيتٍ وَأَنـــتَ أَبَـــرُّ أَن تُؤذي عِظاما
فَلَـــو كانَ الدَوامُ نَصيبَ مَلكٍ لَـــنالَ بِحَـــدِّ صـــارِمِهِ الدَواما

ومـــن قادة الغرب العسكريين الذين احتفى بهم شوقي شخصية اللودر (كتشنر) القائد البريطاني الذي لعب دروا كبيراً في حرب السودان والـــنوبة وقد توقف شوقي أمام حادثة مصرعه غرقاً ورثاه بقصيدة أشاد فيها بخبرته وحنكته العسكرية وأثنى على أخلاقه ونادى بضرورة الوحدة بين شطري الوادي وحذر من انقسام مصر والسودان. يقول شوقي:[(١)]

لَيسَ مَن ماتَ بِخافٍ عَنكُمو أَو قَلـــيلِ الفِعـــلِ فـــيكُم وَالأَثَر
شِـــدتُمو دُنـــياهُ في أَحسَنِها غَـــزوَةَ الســـودانِ وَالفَتحِ الأَغَر
وَبَـــنى مَملَكَـــةَ الـــنوبِ بِكُم فَاذكُروا القَتلى وَلا تَنسوا البِدَر[(٢)]
وَاحـــذَروا مِن قِسمَةِ النيلِ فَيا ضَـــيعَةَ الـــوادي إِذا النيلُ شُطِر

وفي الشوقيات المجهولة مقطوعة منسوبة لشوقي كتبها عن القائد البويري الشهير "كريستنان دي ويت" الذي عُرف بأنه أول وأمهر قواد حرب العصابات أو "الكومندوز" وأول فدائي تمثل في شخصه استبسال

(١) الشوقيات، ص ١٦٢-١٦٣.
(٢) البدر: جمع بدرة وتساوي عشرة آلاف درهم.

أمـــة صغيرة وتفانيها في الدفاع عن وطنها، وقد اشتهر بألاعيبه الحربية ووقائعـــه المدهشـــة التي صارت أشبه بالقصص الخرافية التي تروى عن العفاريت والجان وقد دوَّخ (كتشنر) وغيره من قواد الإنجليز وكان أبرع قـــواد العالم في الانقضاض المفاجئ والإفلات من كل حصار أو تطويق محكـــم حـــتى إن الإنجليز أشاعوا خبر موته غير مرة وفوجئوا بعد ذلك بوجـــوده حـــيّا وقـــد اشتهر في أواخر حرب الترنسفال وأحرز شهرة واســـعة[1] وقـــد جذبت هذه الشخصية (شوقي) فصوَّر شخصيته شبه الأسطورية تصويراً طريفاً قال فيه:[2]

أعفريـــت مـــن الجـــن … أم القـــائد دى ويـــت
فـــلا بـــاد ولا خـــاف … ولا حـــيّ ولا ميـــت
ولا يمســـكه قـــبر … ولا يحبســـه بيـــت
ويومـــاً شـــانه كيـــت … ويومـــاً أمـــره كيـــت
فـــيا دى ويـــت ياليـــت … وهـــل يـــنفعكم ليـــت
فمـــا في ســـرج الصـــ … ـــبر عـــلى أهوالـــنا زيـــت

واستدعت ذاكرة شوقي شخصية (جان دارك) القديسة الفرنسية الـــتي دافعت عن بلادها وأبلت بلاء حسناً في العمل والدأب وذلك في معرض وصفه لمملكة النحل فقال:[3]

---

(١) الشوقيات المجهولة، ص ٢٣٩-٢٤٠

(٢) نفسه : ص ٢٤٠

(٣) الشوقيات، ص ١٤٧

أُنثى وَلَكِن في جَنا حَيها لَباةٌ مُخدِرَه
ذائدَةٌ عَن حَوضِها طارِدَةٌ مَن كَدَّرَه
تَقَلَّدَت إِبرَتَها وَادَّرَعَت بِالحَبَرَه
كَأَنَّها تُركِيَّةٌ قَد رابَطَت بِأَنقَرَه
كَأَنَّها جاندَركُ في كَتيبَةٍ مُعَسكِرَه
تَلقى المُغيرَ بِالجُنو دِ الخُشُنِ المُنَمِّرَه

وهناك شخصية نسائية أخرى أشاد بها شوقي في شعره وهي زوجة المعتمد البريطاني في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية إذ أسهمت إسهاماً كبيراً في العمل الخيري الوطني فتزعمت حملة لجمع المال للصليب الأحمر وقامت بمواساة الجنود الجرحى ودعت بنات جنسها للتطوع والمشاركة في أعمال الخير والبر وقرنها شوقي في هذا العمل الإنساني الجليل بسيدة إنجليزية أخرى هي زوجة لوثر التي كانت مضرب المثل في العمل الخيري، وفي ذلك يقول:(١)

ياأَيُّها اللادي الَّتي أَلقَت عَلى الجَرحى حِمايَه
أَبلَيتِ في نَزعِ السِهامِ بَلاءَ دَهرِكِ في الرِمايَه
وَمَرَرتِ بِالأَسرى فَكُنتِ نَسيمَ واديهِم سِرايَه
وَبَناتُ جِنسِكِ إِن بَنَينَ البِرَّ أَحسَنَّ البِنايَه
بِالأَمسِ لادي لوثَرٍ لَم تَألُ جيرَتَها عِنايَه

---

(١) الشوقيات، ١: ص ٢٩٢.

أَســــدَت إلى أَهـــلِ الجُـــبنو دِ يَـــداً وَغالَـــت في الحِفايَه

وعـــلى هـــذا النحو تعاطف شوقي مع كل نموذج أو عمل ينفع الناس ويخدم البشرية دون تعصب لجنس أو وطن أو عقيدة.

موقف شوقي من حضارة الغرب:

كان شوقي يؤمن بالحضارة التي تحقق الخير والتقدم للبشرية وتمحو الجهل والتخلف، فالحضارة في نظره هي النور الذي لا يحتاج إلى دليل أو برهان ، وهو ما أكده في قوله:[1]

نورُ الحَضارَةِ لا تَبغي الرُكابُ لَهُ   لا بِالنَهارِ وَلا بِاللَيلِ بُرهانا

وقد اعترف شوقي بفضل حضارة الغرب وما أسدته لنا في العصر الحديث من إنجازات علمية ومعرفية وفي ذلك يقول:[2]

أُمَمَ الحَضارَةِ أَنتُمُ آباؤُنا   مِنكُم أَخَذنا العِلمَ وَالعِرفانا

وقد نعى شوقي ما أصاب أمته من تخلف وعجز عن اللحاق بركب الغرب فقال:[3]

مَشى لِلمَجدِ خلفَ البَرقِ قَومٌ   وَنَحنُ إِذا مَشَينا السُلحُفاةُ

يُعِدّونَ القُوى بَرّاً وَبَحراً   وَعُدَّتُنا الأَماني الكاذِباتُ

وكان شوقي يؤمن بأن العلم هو أساس النهضة الحضارية والسبيل الوحيد للتقدم، وفي ذلك يقول:[4]

لا تُنادوا الحُصونَ وَالسُفنَ وَادعوا الـ   ـعِلمَ يُنشِئ لَكُم حُصوناً وَسُفنا

---

(١) الشوقيات ، ١: ٢٧٥

(٢) نفسه ، ١: ٢٧٨.

(٣) الشوقيات، ٣: ٤٨.

(٤) الشوقيات الصحيحة ، ١٢.

إنَّ رَكْبَ الحَضارَةِ اخترَقَ الأر ضَ وَشَقَّ السَماءَ ريحاً وَمُزنا

وقد عبر شوقي عن إعجابه بإنجازات الحضارة الغربية وما توصلت إليه من مخترعات ومبتكرات فيما نظمه من شعر في وصف الطائرات والغواصات والدبابات والبواخر والكهرباء والبخار وغيرها.

وأشاد شوقي بإسهام الغرب في نشر العلم في الأقطار العربية فقال في احتفال أقيم بالكلية الأمريكية في بيروت:[1]

مدينة العلم أم دار مباركة أم معبد من جلال العلم أم حرم

أم أدركت أمريكا وهي محسنة أن المعارف في أهل النهى ذمم

بنت ببيروت دار العلم جامعة نعم البناء ونعم الحصن والهرم

وقد اتصل شوقي بالحضارة الغربية عن قرب أثناء إقامته في فرنسا وأعجب بإيمان الغربيين بمبادئ الحرية والمساواة والعدالة والنظام الديمقراطي واحترام الإنسان والإيمان بأن الشعب هو مصدر السلطات ولذلك دافع شوقي عن الدستور دفاعاً حاراً ووصفه بأنه هيكل الحرية الذي يجب أن تراق الدماء من أجله لأنه لا يسمح بالاستبداد بل يمنح الشعب كل حقوقه، وفي ذلك يقول عن الدستور:

هُوَ هَيكَلُ الحُرِيَّةِ القاني لَهُ ما لِلهَياكِلِ مِن فِدىً وَأَضاحِ

ورأى شوقي أن الديمقراطية هي عنوان الحضارة وجوهرها فقال:

نَظمٌ مِنَ الشورى وَحُكمٌ راشِدٌ أَدَبُ الحَضارَةِ فيهِما وَالمَنطِقُ

(١) الشوقيات المجهولة، ٢: ٣٥.

وقد عبر شوقي عن إعجابه بالدستور الإنجليزي فقال في معرض إشادته بشكسبير:

دُستورُهُم عَجَبُ الدُنيا وَشاعِرُهُم يَــدٌ عَــلى خَلقِهِ لِلَّهِ بَيضاءُ

وأعجب شوقي بحضارة الغرب، في ميادين الفن والثقافة والأدب والعمران، وقد نظم قصيدة في الطلاب المصريين الذين يطلبون العلم في أوربا أشار فيها إلى تجربته هناك، ودعاهم إلى التزود من مناهل العلم والحضارة، وفي ذلك يقول:[1]

أَنــتُم غَــداً في عــالَمٍ هُــوَ وَالحَضــارَةُ ناحــيَه
وارَيــتُ فــيهِ شَــبيبَتي وَقَضَــيتُ فــيهِ ثَمانِــيَه
مــا كُنــتُ ذا القَلبِ الغَليــ ــظِ وَلا الطِبــاعِ الجافِــيَه
ســيروا بِــهِ تَــتَعَلَّموا سِــرَّ الحَــياةِ العالِــيَه

ويلتفت شوقي في نصائحه للطلاب إلى جوانب طريفة، فيدعوهم إلى الانفتاح على الحياة الغربية ومخالطة الناس والاختلاف إلى المسارح التي تقدم الفن الراقي الذي يطهر النفوس ويرتقي بها، يقول:

وَتَــأَمَّلوا البُنــيانَ وَادَّكِــروا الجُهــودَ البانِــيَه
ذوقــوا الــثِمارَ جَنِــيَّةً وَرِدوا المَــناهِلَ صــافِيَه
وَاقضــوا الشَــبابَ فَــإِنَّ سا عَــتَهُ القَصــيرَةَ فانِــيَه
وَاللَــهِ لا حَــرَجٌ عَلَــيـ ــكُم في حَديــثِ الغانِــيَه

(١) الشوقيات: ٦٩-٧٠.

أَو في اشـتِهاءِ السِـحرِ مِن لَحـظِ العُـيونِ السـاجيَه
أَو في المَسـارِحِ فَهـيَ بِالنَّـ ـفسِ اللَطـيفَةِ راقِـيَه

وعـلى هـذا النحو برزت صورة الغرب بشكل واضح في شعر شـوقي وحضرت بكثافة ممثلة في حضارته ومعالمه وأعلامه في السياسة والأدب وقـد أطلت صورة الغرب بوجهيها المضيء المتمثل في الإشادة بحضـارته والنوابغ من أعلامه، والجانب المظلم المتمثل في نزعات الغرب الاستعمارية واحتلال الشعوب ونهب ثرواتها.

وكان شوقي يصدر في تصوراته وآرائه عن عاطفة وطنية صادقة، فكانـت صـورة مصر وحضارتها القديمة ماثلة في وعيه يستحضرها في معظـم المواقف والمشاهد، فقد آمن بأن حضارة الغرب قبست من نور الحضارة الفرعونية وفي ذلك يقول:

مَشَت بِمَنارِهِم في الأَرضِ روما وَمِـن أنوارِهِـم قَبَسَت أَثينا

وكان شوقي يصدر عن وعي إنساني عميق في موقفه من الحضارة الغربية، فتعاطف مع فرنسا حين ضرب الألمان باريس بمدافعهم في الحرب العالمية وبكاها بدموع غزيرة فقال:

وَلَقَـد أَقـولُ وَأَدمُعي مُنهَلَّةٌ باريـزُ لَـم يَعرِفكِ مَن يَغزوكِ
وَالعِلمُ في شَرقِ البِلادِ وَغَربِها مـا حَـجَّ طالِبُهُ سِوى ناديكِ
إِن لَـم يَقوكِ بِكُلِّ نَفسٍ حُرَّةٍ فَاللَـهُ جَـلَّ جَلالُـهُ واقيكِ

وعـــندما أغرقـــت غواصة ألمانية الباخرة (لُوزيتاينا) وهي سفينة ركـــاب مدنية تعاطف شوقي مع هذا الحدث الأليم الذي راح ضحيته كثير من الأبرياء وقال في ذلك:[1]

فَواهـــاً عَلَـــيها ذاقَـــتِ اليُتمَ طِفلَةً ... وَقُـــوِّضَ رُكـــناها وَذَلَّ صِباها
وَلَيتَ الَّذي قاسَت مِنَ المَوتِ ساعَةً ... كَما راحَ يَطوي الوالِدَينِ طَواها
كَفَـــرخٍ رَمـــى الـــرامي أَباهُ فَغالَهُ ... فَقامَـــت إِلَـــيهِ أُمُّـــهُ فَـــرَماها
فَـــلا أَبَ يَســـتَذري بِظِلِّ جَناحِهِ ... وَلا أُمَّ يَـــبغي ظِلَّهـــا وَذَراهـــا

لقـــد كان شوقي ذا حس إنساني مرهف ورؤية حضارية عميقة تـــنفذ إلى جوهر الحقائق والأشياء وتنفتح على كل ما هو إنساني وتؤمن بـــأن العـــبقرية لا وطن لها وقد تأسست صلته بالغرب انطلاقاً من هذه الرؤية. فقد أشاد بإنجازاته الحضارية والعلمية، وأعجب بما حققه في مجال الإنســـان، ومـــا أرساه من مبادئ الحرية والديمقراطية، واحتفى بأعلامه ونوابغـــه، وتفـــاعل مع الأحداث العالمية، وتعاطف مع قضايا الإنسان، واحتلت فرنسا بصفة خاصة مكانة كبيرة في نفسه، فظل وفياً للسنوات المـــثمرة الـــتي قضـــاها بين ربوعها وأمدته بزاد وافر من الثقافة والخبرة والتفتح.

---

(١) الشوقيات، ص ١٠٩.

صورة الآخر في شعر عمر أبي ريشة

يعـــدُّ الشاعر العربي عمر أبو ريشة من أبرز الشعراء المعاصرين، وهـــو صـــاحب تجربة شعرية متميزة وصوت شعري خاص، وأسلوب شعري يمتاز بالفصاحة والسلاسة والنقاء وجمال التراكيب وجدة الصور وطرافة الموضوعات.

وقـــد أتاحـــت له ثقافته وكثرة أسفاره وتنقلاته في بلدان العالم المخـــتلفة مـــن خـــلال عمله الدبلوماسي أن ينفتح على العالم ويتصل بحضـــارته وثقافـــته اتصالاً وثيقاً وانعكس ذلك على شعره، فبرزت فيه صـــورة "الآخر" بشكل واضح، واحتشد بصور الناس والأماكن وأصبح ذلك يمثل تياراً بارزاً في شعره.

وقد تفتحت عين الشاعر على العالم الخارجي منذ أن أرسله والده إلى انجلـــترا ليدرس العلوم وخاصة الكيمياء وصناعة الأصبغة والنسيج في لـــندن بـــرغم تكوين الشاعر الأدبي وميله إلى الترعة الإنسانية، "وذهب شاعرنا إلى لندن وهو يحمل في جوانحه روحاً شرقية إسلامية، غذّهما نشأته الصـــوفية، وشعوره العميق بانتمائه إلى أمته بكل روحانيتها وطموحاهما، وفي لـــندن بـــدأ يكتب المقالات دفاعاً عن الدين الإسلامي، ويتصدى لمهاجمـــيه، وعـــلى الأخص مستر "ماكس جرويل" الذي كان يزعم أن المسلمين تجار رقيق، وأن حضارهم لا تمس جوهر الإنسان"(١)

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر، المقدمة ص ١١.

ومع ذلك فقد زودته حياته في لندن بزاد وافر من الثقافة والخبرة وعاش أجواء الحرية والديمقراطية وأخذ "يتنفس الحرية بملء رئتيه،وعرف أثرها في حياة الأمم، وبدأ يرى البون الشاسع بين أمتنا المضطهدة المعذبة، وبـــين تلك الأمم الرافلة بطيلسان الحرية، وبدأ منذ ذلك الحين يحلم بأن تعـــمّ هذه الحرية بلادنا المغلقة بالكبت والقهر والتخلف، وكان يرى أن الإنســـان العربي إذا أتيحت له الفرصة لا يقلّ كفاءة عن الإنسان الغربي، ولذلك بدأ يشعر بالثورة تعتمل في وجدانه"[١]

وانفـــتح عمر أبو ريشة في لندن على الثقافة الأدبية "ونما حسه الأدبي هناك، ولم تستطع دراسة العلوم أن تطفئ تلك الشعلة الأدبية التي كانـــت تخـــترق فضـــاء روحه وقلبه. وأقبل بينهم على دراسة الأدب الإنكلـــيزي، فقرأ "روبرت براوننغ" وهو في رأي الشاعر أعمق شعراء الإنكليز على الإطلاق، وقرأ "شكسبير" و"إدغار آلان بو" وأعجب جداً بـــ"المادة التصويرية" عند "بو" ويرى أن شعره أشبه باللولب الذي تتوالد منه الصور كلما أدرته.. وقراءته للأدب الإنكليزي كانت ذاتية، ولذلك تأثر بها بعفوية دون تدخل المنهج الأكاديمي وآراء النقاد .. وبذلك تلقّح حسُّه الشعري بالشعر الإنكليزي، وبدأ ذلك يظهر بوضوح في نتاجه فيما بعد، وكان هذا بداية ظهور "الكلاسيكية الجديدة" في الأدب العربي"[٢]

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر، المقدمة ص١٢.

(٢) المصدر نفسه ، المقدمة ص ١٢-١٣.

وكـــان للشاعر تجربة عاطفية في لندن تركت أصداءها الحزينة في شعره إذ تعرَّف إلى فتاة إنكليزية جميلة، وأحبها بكل ما في الفتى الشرقي من اندفاع وصفاء، وتعرف إلى أبيها وكان من أثرياء لندن، فأعجب به وقــرّبه منه، ولكن الفتاة أصيبت بمرض أودى بحياتها،فحزن الشاعر حزناً كـــبيراً وعـــبَّر عن ذلك في شعره، وظلَّ من هذا الحب حزن شفيف في أعماق الشاعر لفترة طويلة.(١)

وكان الشاعر يتردد على باريس وهو في لندن في زيارات قصيرة، وكـــان قـــد تعلم الفرنسية في لندن وقرأ "بودلير" وأعجب به كما قرأ "فيرلـــين" و"رامـــبو" وظـــل في لندن حتى عام ١٩٣٢ وعاد بعدها إلى حلب(٢).

وكانت سوريا خاضعة آنذاك للانتداب الفرنسي، وانخرط الشاعر في العمـــل الوطني ومقاومة الاحتلال وسجن غير مرة في حلب ودمشق، وعمـــق ذلك من كراهيته للاستعمار الفرنسي، وعبَّر عن ذلك في أبيات هجاء بعض الأشخاص فقال:(٣)

لا تدَّعـــوا نسبةً للبيت طاهرةً - العجـــمُ تنكر هذا الزعم والعربُ
فأمّكم من بني الأتراك سرحتها ومن فرنسا الأبُ"قُل" قُبّح النسبُ

---

(١) الأعمال الكاملة، المقدمة ١٤.

(٢) المصدر نفسه : ٢٦٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠-٢٣.

والتحق الشاعر بالسلك الدبلوماسي وتنقل بين بلدان كثيرة، فعين مفوضـاً من قبل الحكومة الوطنية في البرازيل ومكث فيها ثلاث سنوات (١٩٥٠-١٩٥٣). ونقل بعدها إلى الأرجنتين من (١٩٥٣-١٩٥٤) ثم عـين سـفيراً لسوريا في الهند (١٩٥٤-١٩٥٨) ثم سفيراً للجمهورية العربية المتحدة في النمسا (١٩٥٩-١٩٦١) ثم سفيراً لسوريا في الولايات المتحدة الأميريكية (١٩٦١-١٩٦٤) ثم سفيراً لسوريا في الهند (١٩٦٤-١٩٧٠) وانتخـب عضواً في المركز الهندي للثقافات العالمية، وتعرف في الهند إلى الزعيم "نهرو" وتأثر بفلسفته الروحية ثم استقال الشاعر من عمله في السـلك الدبلوماسـي سنة ١٩٧٠ وسكن في بيروت وظلّ يصدح بشعره حتى توفي بمرض القلب في الرياض بالمملكة العربية السعودية.[١]

إن عمـل الشـاعر الدبلوماسي وإقامته في هذه الدول المختلفة الـثقافات والحضارات قد أسهما في توجيه شعره وجهة خاصة متفردة قلّمـا تهيأت لشاعر معاصر، فسجل بريشته التصويرية الرائعة كثيراً من معـالم هذه الدول وأبدى إعجابه وانبهاره بحضارتها وآثارها وعجائبها، وعـبَّر عـن تجاربه المختلفة في تلك البلدان وعلاقاته بأهلها وشعوبها، وتواصـل معهـا تواصلاً حميماً، وجسَّد التواصل الحضاري والثقافي بين الشرق والغرب وأفسح مجالاً للحوار الحضاري المثمر، ومثّل شعره بذلك الجانب المضيء المستنير في علاقة الشاعر بالآخر وإطلالته في صور إيجابية مشرقة.

---

(١) الأعمال الكاملة ١: ٩٨-٩٩

الناس:

يحفل شعر عمر أبي ريشة بصور مختلفة للناس الأجانب الذين أعجب بهم أو كان له مواقف معهم رجالاً ونساء، وغالباً ما يرتبط اللقاء بمكان محدد، وتتنوع الشخصيات وتتجذر في حضورها، فمن ذلك:

حسناء إسبانيولية:

كان الشاعر في رحلة بالطائرة إلى شيلي، وكانت إلى جانبه حسناء إسبانيولية، تحدثه عن أمجاد أجدادها القدامى، العرب، دون أن تعرف جنسية الشاعر، واستثاره الموقف فأوحى له بقصيدة من عيون شعره بل من عيون الشعر العربي بعنوان (في طائرة) وصف فيها جمال الحسناء الإسبانية وحواره الحضاري معها فقال:[1]

وثبتْ تستقرب النجم مجالا ... وتمادتْ تسحب الذيل اختيالا
وحيالي غادةٌ تلعب في ... شعرها المائج غنجاً ودلالا
طلعةٌ ريَّا وشيءٌ باهرٌ ... أجمالٌ؟ جلَّ أن يسمى جمالا
فتبسمتُ لها، فابتسمتْ ... وأجالت فيَّ ألحاظاً كسالى
وتجاذبنا الأحاديثَ فما ... انخفضت حسّاً ولا سفَّتْ خيالا
كل حرفٍ زلَّ عن مرشفها ... نثر الطيبَ يميناً وشمالا!

ويكشف حوار الشاعر مع الحسناء الإسبانية عن اعتزازها بالدور الحضاري لأجدادها الأندلسيين الذين فتحوا الأندلس وشيدوا فيها

(١) الأعمال الكاملة ١: ٩٨-٩٩

حضـــارة عظـــيمة ازدهـــرتِ لأكثر من ثمانية قرون وتألقت فيها المدن الأندلسية مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة، وتفتخر الفتاة الإسبانية بأجدادها العرب الذين حملوا إلى الأندلس قيمهم الأصيلة ومثلهم السمحة فتقول:

قلـــت يا حسناء، مَن أنتِ ومن ... أيّ دوحٍ أفـــرع الغصنُ وطالا
فرنـــــتْ شـــــامخةً أحســــبها ... فـــوق أنســـاب الـــبرايا تتعالى
وأجابـــت أنـــا مـــن أندلـــسٍ ... جـــنة الدنـــيا سهولاً وجبالا
وجـــدودي، ألمـــح الدهر على ... ذكـــرهم يطوي جناحيه جلالا
بوركت صحراؤهم كم زخرتْ ... بالمـــروءات رياحـــاً ورمـــالا
حملـــوا الشـــرقَ ســـناءً وسنىً ... وتخطـــوا ملعب الغرب نضالا
فـــنما المجـــدُ عـــلى آثـــارهم ... وتحـــدَّى، بعد ما زالوا الزوالا
هـــؤلاء الصِّـــيد قومي فانتسبْ ... أن تجد أكرم من قومي رجالا!

والقصيدة تكشف عن رؤية مستنيرة منصفة ترتفع عن التعصب، وتعـــترف بالدور الحضاري الكبير الذي أسداه العرب لإسبانيا، وتؤكد وعيّ الآخر بعظمة هذا الدور واعتزازه به وتسهم في تعميق أواصر المحبة والتقارب بين الشعبين العربي والإسباني.

واللافت في القصيدة هو موقف الآخر ممثلاً في الفتاة الإسبانية التي تفجؤنـــا بحوارها الواعي المنصف وبنغمة الفخر والاعتزاز التي يفترض أن تجـــرى على لسان الشاعر بوصفه سليل أجداده العرب الفاتحين، وهو ما يكشف عن "مفارقة" واضحة ويندرج في أفق غير التوقع.

امراة في مدريد:

وتطل في شعر عمر أبي ريشة صورة امرأة أخرى رآها الشاعر في مدريد، وفي لحظة خاطفة شعر أنه عاش مع عينيها الوحشيتين في عصر مـــن العصـــور،وقذف عقله الباطن هذا الخزان الأكبر، أثر ذلك الشعور الخفـــي بالكلمات التالية: النيل، المعبد، الكهان، ويعبر الشاعر في قصيدة (الخزان الأكبر) عن افتتانه بهذه المرأة الإسبانية المنبهرة بحضارة الفراعنة، ويســـرح بخياله بعيداً فيستحضر أسطورة وفاء النيل وزفاف عروس فاتنة إلـــيه في أجواء أسطورية احتفالية مفعمة بالمسك والعنبر وآلات العزف وصحبة الكهان والمعبد الأكبر، يقول:(١)

عيـــناك ســـوداوانِ وحشيَّتانْ
أقـــرأ في طرفـــيهما عمري!
فكـــم طواني في مداه الزمانْ
ومـــا طـــوتْ نجواهما صبري!
فهـــــذه ليلتـــــنا الحالـــيةْ
عـــادت بأشتات المنى الغاليةْ
لـــيلة نـــام النـــيل مفـــترا
محتضـــناً حســـناءه الـــبكرا
وزُمـــــــرُ الحســـــــانْ

(١) الأعمال الكاملة ١: ٢٣٧-٢٣٨.

في رقصـــــها الفـــتانْ

تواكـــــبُ الألحـــانْ

بالصــــنج والمزهـــرْ

والـــــندّ والعنـــبرْ

وخلفهـــا الكهـــانْ

والمعــــبد الأكـــبرْ!

فالآخــر في القصيدة هو "المثير" الذي استثار الشاعر إلى استدعاء هذا الجو الأسطوري لحضارة الفراعنة التي بهرت المرأة الأجنبية واختزنتها في ثلاث كلمات دالة هي النيل والمعبد والكهان في صورة رائعة من صور التقاء الحضارات ووصل الماضي بالحاضر.

ليدا والإغريق:

ويعبر الشاعر عن انبهاره وفتنته بــ"ليدا" اليونانية التي أتاها الإله "زوس" بصورة طائر فيقول:(١)

مَــرّغي جفنــيك بالحلم وغيي — وتناســي وحشة العمر الجديبِ

واهصــري ما شئتِ من أجنحةٍ — تشتهي الموت على وهج اللهيبِ

كــبرياءُ الفتــنة الــبكر أبتْ — أن ترى خمركِ في كأس حبيبِ

فاحمــلي الشــوقَ فما تدري به — أذنُ الواشــي ولا عين الرقيبِ

---

(١) الأعمال الكاملة ١: ١٤٢

جان دارك:

وتطـــلُّ صورة القديسة الفرنسية (جان دارك) في شعر عمر أبي ريشة وقد استحضرها حين رأى في معرض "اللوفر" بباريس صورة فتاة رائعـــة الجمال على صهوة جواد أدهم، فاستغرب عندما علم أنها (جان دارك)، فامـــتزج الواقع بالخيال، وعبَّر الشاعر بريشته التصويرية عن هذا الموقف واستدعت مخيلته صورة تلك القديسة البتول فقال:

وقفـــــت تصـــــلي هيــــبةً والـــنفس خاشـــعة كئيـــبه!
وصـــليبها القدســـيُّ يـــرمقها بـــــنظرات رهيـــــبه
فتزحزحـــــت أجفانُهـــــا عـــن دمعـــة القلق السكيبه
وفؤادهـــا المخـــذول يكـــتم في مخاوفـــــه وجيـــــبه
فاســـتغفرت عـــن حـــلمه الطـــاغي ولفتـــتِه المريـــبه
واستعصـــــمت بصـــــليبها مـــن كـــل هاجســـةٍ غريبه

ويمضـــي الشـــاعر في استحضار قصة القديسة (جان دارك) التي ناضـــلت مـــن أجل الدفاع عن حرية وطنها وينحو في قصيدته منحى قصصـــياً تمتزج فيه الرؤية التاريخية بالفن، فيصورها وهي ممتطية جوداها الأدهم يسبقها علم فرنسا ووراءها جيش من الفرسان الشجعان، يقول:

مضـــــت اللـــيالي... مثـــلنما الأحـــلام في أجفـــان نـــائمْ
فـــإذا البـــتول عـــلى جـــواد مـــثل جلـــد اللـــيل فاحمْ
وأمامهـــــا عـــــلمُ الـــــبلاد ممـــوّجُ الجنـــبات باســـمْ
ووراءهـــــا جـــــيشٌ مـــــن الفرســـان مشـــدود العزائمْ

وخـــــــيولـــه مخــــــــتالة　　تحــت العـــوالي والصــوارم

ويـــردف الشاعر مشهد الحرب الضروس بمشهد القديسة البتول التي أطلت كالنجم الساطع من كو[illegible]الظلام تبشر بالنصر:(١)

فـــتلاحم الجيشـــان فـــاندلع　　اللظـــــى والهـــول أرعـــــدْ
هـــــذا يفـــــرّ وذا يكـــــرّ　　وذا يُكـــــبُّ وذاك يصـــــعدْ
والمـــوتُ يـــأكل مـــا تُلقّمُـــهُ　　يـــــدُ الطعـــــن المســــدّدْ
حـــتى إذا نالـــتْ نواجـــذُه　　مـــن الأشــــلاء مقصـــــدْ
بـــدت البـــتولُ كمـــا بـــدا　　مـــن كـــوَّةِ الظـــلماءِ فـــرقدْ
تخــــتال جــــذلى بالفخــــار　　وعـــــزةِ النصـــــر المخلــــدْ

ويسترســـل الشـــاعر في ســـرد قصة القديسة الفرنسية، فيصور وقوعها في أسر الأعداء بعد أن تحرر وطنها من أغلال الأسر ونال حريته، ويصف مشهد الحريق الذي أعدَّه لها المجرمون الطغاة وقد ألقوا بها طعاماً للنيران وهي متجلدة صامدة، يقول:(٢)

حـــتى إذا الوطـــن الأســـير　　بـــدا مـــن الأغـــلال حـــرا
هـــوتِ البـــتول المســـتميتة　　في يـــد الأعـــداء غـــدرا
فطغـــت ســـخائمهم كمـــا　　لـــو في الهشـــيم قذفـــتَ جمرا
ومشـــوا مجوســـاً يحملـــون　　بـــتولهم للـــنار نُكـــرا

---

(١) الأعمال الكاملة ١: ١٥١-١٥٢.

(٢) نلاحـــظ أن أغلب أبيات الشاعر موصولة أو مدورة وقد آثرنا كتابتها كما وردت في أعماله الكاملة وهي لا تخفى على القارئ.

ورمـــــوا بهـــــا وتجمعـــــوا   مـــن حولهـــا تـــيهاً وكـــبرا
فـــــتجلدتْ ويـــــدُ اللظـــــى   تـــــرمي بمـــئزرها فـــتعرى
وتهـــــزها هـــــزّا فـــــتعلو   تـــــارةً وتخـــــرّ طـــــورا!

وفي المشـــهد الخـــتامي يصور عمر أبو ريشة (جان دارك) وقد صـــعدت روحهـــا إلى السماء في أجواء إيمانية مفعمة بالشفافية والصفاء والطمأنينة:

أخـــــذتْ تصـــعّدُ روحَهـــا   في قبضـــــة الـــــنار المهيـــــبه
وأمامهـــــا تمشـــــي طـــيوفُ   الخلـــــد في حلـــــل قشـــــيبه
فـــــبدتْ تصـــلّي للصـــليب   صـــــلاة فائـــــزة طـــــروبه
فـــــإذا بـــــه يحـــنو علـــيها   بابتســـــامته الحبيـــــبه!!!

وتكشف القصيدة عن تعاطف الشاعر مع هذا النموذج الإنساني الفـــريد وإعجابه ببطولة القديسة (جان دارك) ودورها في تحرير وطنها. ولم يحـــل دون هذا الإعجاب احتلال فرنسا لوطنه واتباع سياسة القمع والـــبطش مـــع أهله، بل لعلها كانت رسالة غير مباشرة لإدانة سياسة الاحتلال والهيمنة على الشعوب الضعيفة.

الراهبة:

ويســـتوقف الشاعر صورة الراهبة التي تهجر الحياة وتتخلى عن رغـــباتها وتسجن جمالها وصباها وتغلق قلبها وتؤثر حياة الرهبنة والتجرد والانقطـــاع في الدير ويعبر عن تعجبه من خلال الصور الشعرية الموحية، يقول:

أمَّـــتْ كهوفَ الدير، وهي فتيّةٌ   ورداؤهـــا كـــرداء مريَم طيبُ
ســجنتْ صِباها والجمال وقلبها   خوفَ الذنوب وما أتته ذنوب
إني لأعجبُ كيف يلمس نحرها   كفُّ الصليب ويهجعُ المصلوبُ

هومير:

ويبدي عمر أبو ريشة إعجابه بشخصية الشاعر اليوناني (هومير) صاحب ملحمة (الإلياذة) ويكثف في بناء رمزي مشهد تقاتل أبناء العم في إسقاط ذكي على الواقع، ويختزل الملحمة في هذه المقطوعة البديعة:

المــدن الســبع مــن الــيونان   خاضــته معــارك لا ترحم
مــا أقســاها تلــك الطعنات   تــبادلها أبــناء العــم
فــيم اقتتلــتْ؟ مــا أغــرها   فــيم اقتتلــت وأسالت دم
كــلٌّ مــنها عــزت وزهــت   في ذكــرى هومــير المــلهم
وأقــــرت أن ولادتـــــه   كانــت في هيكــلها الأعظم

الصورة المظلمة للآخر:

للآخــر صورتان في شعر عمر أبي ريشة، إحداهما تلك الصورة التي يطل فيها الآخر بوجهه الحضاري المشرق حيث يتوقف أمامه الشاعر بوصفه رمــزاً لقــيمة إنسانية أو دينية سمحة على نحو ما عرضنا له. أما الصورة الأخــرى فهــي صورة الآخر الذي يطلُّ بوجهه العدواني الذي يعتدي ويقتل ويطمع في ثروات الشعوب واحتلالها، وكان طبيعياً أن تبرز هذه الصــورة لارتــباطها بــالواقع العربي، ومعاينة الشاعر لتلك الممارسات العدوانية في وطنه العربي، وهو يتعجب من تنكر الآخر للمبادئ السمحة

الـــتي نادت بها الديانة المسيحية ويدين استغلالهم الدين ومتاجرتهم باسم المســـيح في العـــدوان وإراقـــة الدماء، ونقض العهود، ويعبر عن ذلك فيقول:(١)

كـــيف زاغت حلومهم فتمشّى — الــبغي مـــا بينهم طليق الجناحِ
مـــا عَهِدْنـــا الإنجـــيل إلا مناراً — لســـلام وقـــائداً لصـــلاحِ
غمـــرت آيـــة الدمـــاء وسُلَّتْ — باسمـــه السـمحِ مديةُ السفّاحِ!
أرخصوا خشبةَ الصليب وباعوها — وقـــوداً إلى اللـــئام الشـــحاحِ
وأهـــانوا مهـــد المسيح وردّوه — عـــلى طهـــره فـــراشَ سفاحِ!!
خفـــروا ذمـــة العهود وصمّوا — الأذن عن صرخة المضيم اللاحي

ويســـتخدم الشـــاعر وصـــف (العلوج) لأولئك الطغاة الذين يســـفكون الدماء وينهبون ثروات الشعوب، ويسخر من إعلان الرئيس روزفلـــت أن الميثاق الأطلسي كفيل الحريات، ويندد بالشعارات الجوفاء التي يضحدها الواقع، وتفضحها الممارسات العدوانية، وفي ذلك يقول:(٢)

تلـــك الربوع التي نام الفخار بها — لم تلقَ من حولها إلا الذي هدما
نهفـــو إلـــيها فيبدو البغي محتدماً — والـــذل محـــتكماً والعز منهزما
وللعلـــوجِ عـــلى أنقاضـــها سُررٌ — لو استطاعت لأهوت فوقهم رُجُما
أرخـــى الـــزمان إليهم من أعنّته — وســـلّ من دربهم أحداثه الحُطُما
حتى إذا سكروا في حانه انتفضت — أهواؤهـــم وذكَت أنيابهم ضَرَما

---

(١) الأعمال الكاملة ٢: ٤١٢-٤١٣. ونلاحظ أن أغلب الأبيات مدورة.

(٢) نفس المصدر ٢: ٣٦١-٣٦٢

وسافكوا الدمَ عن مرعى فريستهم ... من الشعوب وصبوا كيدهم حمما

ويمضــي الشاعر في تفصيل ملامح هذه الوجوه العدوانية القبيحة مــتهكماً مــن مواثيقهم التي لا تعدو أن تكون شباكاً للختل والمخادعة والبطش.

الأماكن:

للمكان حضور قوي في شعر عمر أبي ريشة وهو انعكاس لكثرة أســفاره وتطوافه في دول العالم شرقاً وغرباً، وقد اجتذبته المعابد بصفة خاصــة، فوقف أمامها وقفة المتأمل الذي لا يقنع بالنظرة السطحية بل ينفذ إلى جوهر الأشياء.

معبد كاجوراو:

وهو معبد في الهند وصفه الشاعر بأنه أروع ما شاهده، وأشار في تقــديم القصيدة إلى أنه مثل الإنسان في شتى مجاليه، بين تساميه وتدنيه، وذلــك في مئات من التماثيل التي تعبر بكل جرأة ووضوح عن الأهواء العاطفــية. وقــد وقف الشاعر أمام هذه التماثيل وقفة إعجاب وانبهار وتأمل فقال:[1]

عــينيَّ . . مــا تــتأملان ... وأيَّ دنــيا تجلــوان

مَســحَ الذهــولُ علــيكما ... يَــدَه، فمــا تــتحوَّلان

كــم دمــيةٍ ذلَّ الــرخامُ ... عــلى انتفاضــتها وهــان

---

(١) الأعمال الكاملة ١: ١٠٨.

وتتــنقل عدســة الشاعر الفنان بين التماثيل فتصور لقطات فنية مــبهرة في مشاهد متعددة للعشاق في مواقف مختلفة محتفياً برسم أجواء المعبد من بخور يتضوع في المجامر، وكهان، وراقصات، كما نرى في هذا المشهد:

ونـــديٍّ كُهّـــانٍ تضـــوَّعَ في مجامـــــره الدُّخـــــان
وصـــــنوجه وكؤوســــــه طافـــت بهـــا زمـــرُ القـــيان
يرقصـــــــنَ في إغــــرائهنَّ وكـــــلٌ قـــــدٌّ ، أفعـــوان
وأمـــــــامهنَّ بقـــــــيةٌ مـــن كـــاهنٍ خســـر الـــرهان

ويقـــف الشاعر متعجباً أمام تمثالين لكاهنين أغوتهما فاتنة فتنافسا في حبها وتناسيا طقوس "شيفا" فحلّت بهما اللعنة فمسخا:

وشـــقيةٍ قـــيلَ اجتـــباها واصـــــطفاها كاهـــنان
فتنـــــتهما فتـــــباريا في حـــبها يتـــناحران
وتناســـيا فـــيها هـــوى "شـــيفا" فمـــا يتعـــبَّدان
فـــإذا همـــا مســـخان في صـــدر الجـــدار مقـــيدان
والـــبدعةُ الحســـناءُ بيـــنهما تعـــضُّ عـــلى البـــنان!

ويصف الشاعر تمثالاً لراقصة عجيبة تتأوَّد في اتزان، وتقف على ســاق واحــدة وقد تمايلت منحنية فتقارب خلخالها مع جبينها وكادا يتلامسان:

وهـــناك راقصـــة تناهـــتْ في تأوُّدهـــا اتّـــزان
وقفـــت عـــلى ســـاقٍ فكانت مثـــلما اعتدلـــتْ ثمـــان!

خلخال كاحلها وتاج | جبينها متقاربان
وعلى تلاقي حالبيها | عاصبٌ من أرجوان!

• وبعد وقفات الشاعر المتأنية أمام تماثيل العشاق وهم في أوضاع العشق المختلفة وقد نحتتها أيدي المثالين في جرأة متناهية دون احتشام أو حياء، يلتفت الشاعر إلى (كاجوراو) الذي تمزقت أقنعة الحياة وما عليها من أصبغة في رحابه، وتراءت الحقائق مجردة عارية ويقابل الشاعر ذلك بالنفس البشرية التي تظهر غير ما تبطن وتتخفى بأقنعتها الزائفة، يقول:[1]

كاجْراو! هل من حرمةٍ | لك عند رائيها تُصان!
كم زائرٍ أدمى فؤادَك | ما أسرَّ وما أبانْ
أخفى الرضى وتظاهرتْ | بالسخط عيناه اللتان
تتحريَّانِ وتنهلانِ | وتسكران وتحلمان!
مزَّقتَ أقنعة الحياة | وما عليها من دهان
وجلوتَها في عُريها | فترفَّعتْ بعد امتهانْ

ويقف الشاعر في قصيدة أخرى أمام نوع آخر من المعابد التي أقفرت وهجرها الرهبان والعباد ولم يعد يدق بها ناقوس أو ترفع فيها صلبان وتحولت إلى طلل مهجور يسكنه الغربان، مدللاً على أن النسيان أقوى من الموت وأظلم، يقول:[2]

---

(١) الأعمال الكاملة ١: ١١٦
(٢) نفس المصدر ٢: ١٠٤

معـــابد لا يطـــوف بهـــا سـوى الأشجان والأحزان

تخـــلى عـــن معالمهـــا قدامـــى صـــحبها الرهـــبان

فـــلا يُـــلمَحُ في شـــتّى جوانـــبها ســـوى الغـــربان

فـــلا حـــبلٌ لـــناقوسٍ ولا أطُـــرٌ إلى صـــلبانْ

تـــناثر جمعهـــا مـِــزَقاً ولم يثبـــتْ لهـــا أركـــانْ

معـــابدُ لم يعـــدْ يـــأوي إلى أفـــيائها إنســـانْ

عجبـــتُ لأمـــرها مـــا في ســـجلّ حـــياتِها حِدْثـــانْ

إن الشاعر يمس في قصيدته فكرة "الخواء" الروحي التي هي نتاج للحضـــارة الماديـــة التي تغلب "المادة" على "الروح" وتباعد بين الإنسان والروحانيات وتفضي في آخر الأمر إلى هجر المعابد ودور العبادة ليصبح الخواء الروحي والمكاني توأمين ملتصقين.

والشـــاعر تستهويه من المكان فكرة "الطلل" في استدعاء تناصيّ لفكرة الطلل عند الشاعر الجاهلي القديم من خلال رؤية معاصرة، فهو – في قصـــيدة أخرى- يقف أمام صرح روماني قديم وقد استرعى انتباهه خلـــوه من الشوك وتألق ترابه النظيف، في إيحاء بفكرة الصمود وتحدى الفناء، يقول:(١)

قفـــي قدمـــي ! إن هذا المكان يغيـــب بـــه المـــرء عـــن حسّهِ

رمـــال وأنقـــاض صرحٍ هوت أعالـــيه تبحـــث عـــن أُسّـــهِ

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢: ١٢٢.

أقلب طرفي به ذاهلا — وأسأل يومي عن أمسه
أكانت تسيل عليه الحياة — وتغفو الجفون على أنسه
وتشدو البلابل في سعده — تمري المقادير في نحسه
أأستنطق الصخر عن ناحتيه — وأستنهض الميت من رمسه؟
حوافر خيل الزمان المشتّ — تكاد تحدث عن بؤسه!
فما يرضع الشوك من صدره — ولا ينعب البوم في رأسه
وتلك العناكب مذعورة — تريد التفلت من حبسه
لقد تعبت منه كف الدمار — وباتت تخاف أذى لمسه
هنا ينفض الوهم أشباحه — وينتحر الموت من يأسه

فالهيكل الروماني يقاوم الزمن ويتحدى عوامل الفناء والخراب كالبوم والعناكب والأشواك، ويقف شامخا صامدا لا تستطيع سهام الزمن أن تنال منه وكأن الشاعر يومىء من طرف خفي إلى قضية الفناء والمصير الإنساني.

وفي السياق ذاته تقرأ قصيدة (أوغاريت)[1] وهي المدينة التي اكتشفت فيها أول أبجدية في التاريخ، وقد وقف الشاعر بين أطلالها ورآها رمزاً لتحدي الفناء:[2]

ياروعة الماضي البعيد — المستسرّ المبهم

(١) أوغاريت: مدينة قديمة تقع في رأس شمرا بسوريا شمال مدينة اللاذقية وبها العديد من الأماكن الأثرية.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ٢ : ١١٨، ومعظم الأبيات مدورة.

كـيف انطلقـت من السلاسل والعقـال
أقبلـتِ، فالتفـت الـزمانُ تلفـت المـتوهّمِ
والمـوت دونـك واقـفٌ في ذلّـة المستسـلمِ
فـيم الـتمرد والوثـوبُ عـلى القضـاء المـبرم
أتعبـت مـن حـلم الخلـود فشـئت أن لا تحـلمي!!

ومـن المـدن الجمـيلة الـتي أعجب بها عمر أبو ريشة مدينة (كوباكـبانا) بالبرازيل و "ريو دي جانيرو" عاصمتها، وقد وصفها بأنها "أجمل مدن الدنيا" وانبهر بما فيها من أحراج كثيفة لم تطأها قدم إنسان، وقـد تجول الشاعر في حواشيها بين أنقاض كهوف الهنود الحمر الذين أبادهم المستعمرون، وأحس الشاعر وهو يمشي في هذا السكون الموحش أنـه يسـير في صحبة أرواح هؤلاء الضحايا الأبرياء، وقد صورَّ المكان بأجوائه تصويراً رائعا فقال:(١)

مطـاف الجمـالِ، مطـاف الجـلالْ
ملكـت عـليَّ عـنانَ الخـيالْ
وموَّجـتَ روحـي بغُـبرِ الـرمالْ
وزهـرِ الـتلال وخضـرِ الجـبالْ
وزرقـة يم رحيـب المجـالْ

(١)الأعمال الشعرية الكاملة ٢ : ١٣٦

ويسرح الشاعر بخياله بعيداً ويستحضر الماضي حين كان "المكان" يعجُّ بالحياة حيث كانت الزوارقُ تتهادى حالمة، والصبايا الحسان والهنود الحمر يرقصون حول النار في حلقات:

وأيـــن الـــزوارق عـــبر الـــرمالْ
تـــروح وتغـــدو خفافـــا ثقـــالْ
وأيـــن صـــباياك حـــلم الـــرجالْ
نشـــاوى دلال ســـكارى وصـــالْ
رواقـــص في حلقـــات اتصـــالْ
ولـلـــنار دون خطاهـــا اشـــتعال
ومـــلء حواشـــي دجاهـــا ظـــلالْ!

ويســتدعي الشاعر صور غزو المستعمرين لتلك الأماكن الآمنة ويدين ممارساتهم الوحشية من تدمير وقتل ومذابح:

أتـــتك الجـــياع تجـــرُّ الوبـــالْ
وســـابت عـــلى الشـــط حمـــر النصالْ
فضـــج الصـــدام وضـــج القـــتالْ
فـــلا كـــوخ إلا وفـــيه انهـــيال
ولا شمـــل إلا وفـــيه انحـــلالْ
قـــرابين . . تذبـــح ذبـــح السـخالْ!

وتطلُّ مدينة "ريودي جانيرو" إطلالة أخرى حيث شارك الشاعر في عـــيد الكرنفال وشاهد الرقصات الوطنية التي يعشقها البرازيليون مثل "السمبا" و"الرّومبا" فصوَّرهما في شعره في جو احتفالي بهيج وجذبته مغنية سمراء فقال:[1]

وأنـــتِ في طلعـــتك الســـمراءِ
لاهـــيةٌ بالصـــنج والغـــناءِ
مائســـة بالغـــنج والإغـــراءِ
بـــين لحـــاظ الفتـــية الظمـــاءِ
كـــيف؟ ومـــن أوحـــى إليك الرّمبا
وصـــبَّ في سمعـــك لحـــنَ السـمبا
دنـــياك أهـــوتْ في اللـــيالي غضـــبي
وأطبقـــتْ فـــوق الجـــراح الهدبـــا
كـــيف طويـــت الغيـــب درباً دربا
وزرتهـــا شـــوقاً لهـــا وحـــبا!
أيُّ هـــوىً ردّ جـــناها الرَّطـــبا

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢: ١٤٠-١٤١

ويستحضر الشاعر صورة مدينة (فيِنَّا) الجميلة بالنمسا، فيصفها في فصل الشتاء وقد اكتست بالغمائم الكثيفة ويصور نهر "الدانوب" وقد تثاقلت خطواته من الثلج فبدا كالمتعب الذي يتلوى بين يدي المدينة[1]

وتعــرَّتْ عــلى الشــتاء فيــنَّا واكتســتْ بالغمــائمِ المجدولهْ
وتلــوَّى "الدانــوب" بين يديها متعــباً .. ساحباً خطاه الثقيلهْ

ويصف الشاعر اختلافه إلى (الكوخ) في ليلة من الليالي الشتائية الدافئة في (فينا) وقد فاجأته الحبيبة التي اجتازت السحب للقائه فيقول:

كان يوم بالدفء يغري، وكانت كــل نفــس عن أختها مشغولة
جئت كوخي عجلان..فابتدرتني في ذهــولي . . فجآءةٌ مستحيلة!
إنها أنتِ..أنت جزت إلىَّ السحب والليــل والــرياح البلــيلة!

ويصور الشاعر جولاته مع الحبيبة في ربوع (فيِنَّا) الساحرة وسط الثلوج ومجالي الفن والسحر وقد اختبئا في كهف قديم مهجور ويحتفي بالتفاصيل الدقيقة حيث العناكب تسري في جنباته والمصابيح واهية تكاد أنوارها تختفي أمام دخان المدخنين والشاربين، وقد حفرت على المقاعد والجدران أسماء روَّاد مجهولين على سبيل التذكار، يقول:

وَدَعتــنا إلى لقاهــا فينَّا الحبِ والثــلج حــامل إكلــيلهْ
وانطلقــنا.. كــلُّ مجــلى فتونِ كنتِ تغشَين . . ما عرفتِ مثيلهْ
وأويــنا إلى مخابــئ كهــفِ ردَّ أيــدي زمانــه مغلولــهْ!

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢: ١٩٨

في زوايـــاه للعناكـــب مسرى لم تشـــأ صحبةٌ الأسى أن تزيلهْ
ومصابيحه، وراء دخانِ الشرب أوهـــى مـــن أن تفـــضَّ فلولهْ
وعـــلى كـــل مقعـــدٍ وجدار مـــنه .. أسمـــاءُ فتـــيةٍ مجهولـــهْ

ويمضـــي الشاعر في سرد ذكرياته في تلك الليلة الشتائية وقد تنبه العاشـــقان على صوت مُغنٍ عجوز في الحانة يسألهما عمَّا يريدان سماعه ويتهكم من قبح صوته فيقول:

وصـــحونا.. عـــلى سؤال مغنٍّ هـــدَّ من كاهليه عبءُ الكهولهْ
"مـــا تـــريدان أن أغني".. فقلنا نســـماتُ الشرق الحبيب عليلَهْ!
فتغـــنَّى.. والشـــيب في مفرقيه كان أشجى .. لقد سمعنا عويلهْ!!
ونهضـــنا .. ولم نخيِّـــب له ظناً وســـرنا .. واللـــيل يطوى ذيولهْ

هكذا صوَّر الشاعر جانباً من جوانب الحياة في مدينة (فينّا) حيث خلع عليها الشتاء بردته، ومنحها مذاقاً خاصاً.

ومـــن الأماكن التي فتنت الشاعر مدينة (كتمندو) عاصمة نيبال، وقد عبَّر عن إعجابه بها في قصيدة قال في مطلعها:[(١)]

أتيـــتُ "كتمـــندو" على موعدٍ وقلـــت يـــا قلبُ هنا موعدُكْ
غـــداً تـــرى "شـــرمين" مجلوّةً يكســـو صباها كلّ ما يسعدُكْ

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢: ٢٤٩

ويصف الشاعر في قصيدته تردده على حانة في تلك المدينة وقد أخذت الخمر بألباب روادها، فألفاهم بين نشوان وعربيد، ورسم مشاهد مختلفة لما يجرى في الحانة من أجواء، فقال:

وسرتُ لا ألوي على مأربٍ   حتى بدتْ لي حانةُ العيدِ
يمّمتها ألفيتُ روّادها   ما بين نشوانٍ وعربيدِ

. . . .

كلٌّ على أحلامه منطوٍ   يشرب ما يلعب من لوعتهْ
هذا يجول الدمع في جفنهِ   وذاك يهوي الكأسُ من قبضتهْ

. . . .

وذا يغنّي قد تصدّى لهُ   من كلّ صوبٍ صائحٌ مسكِتُ
وذاك مطروحٌ على مقعدٍ   كأنه مما به ميِّتُ

. . . .

وذاك مشدودٌ إلى حائطٍ   يخاف أن يرتاحَ عن مقعدهْ
ويمضغ التبغَ إذا أطفئتْ   لفافةُ التبغ على مرشفهْ

وفي أسلوب قصصي يحكي الشاعر أنه لم تستهوه الحانة فعزم على مشاهدة المدينة ليلاً، فتنقل بين أحيائها في الظلام حيث المصابيح مطفأة ولاح له على البعد في المنحني طيفان لرجل وامرأة في موقف غرامي، ويشير إلى بائعة من بائعات الهوى قد استوقفته فتجاهلها، وطال تجواله في دروب المدينة وطرقاتها حتى لاح الفجر من خلف الأفق:

وســرت مــن حيٍّ على آخرٍ كــلُّ المصــابيح بــه مطفــأةْ
ولاحَ لي في الَــبعد في المــنحنى طــيفانِ كانــا رجــلاً وامرأةْ

. . . .

اســتوقفتني راحــةٌ أومــأتْ إليَّ مــن زاويــة دانــيهْ
أدركــتُ مــا تــبغي تجاهلتها و لم تــثرْني همســةٌ نابــيهْ

. . . .

وطــال بي الــتجوالُ حتى بدا للفجــر خلــف الأفق تلويحُ
وكان لي من وقفةٍ هاج بي مــنها عــلى الإعــياء تبريحُ

ويسترســل الشــاعر في بــنائه السردي، ويستطرد في وصف مشــاهداته الليلية في المدينة، حيث قادته قدماه إلى القبور، فرأى شخصاً بائساً طاعناً في السن قابعاً بين الموتى، وشاهد خيمة بالية لعجوز ثكلى لا تنقطع عن الأنين:

وهــزَّ روعــي شــبحٌ جــاثمٌ عــلى الــثرى جار عليه القدرْ
أخطــأه المــوتُ فأمســى به مطــارَداً مــا بين هذي الحفرْ
وخــيمةٌ بالــيةٌ لم تــزلْ فــيها عجــوزٌ من ثكالى البلدْ
يُســمَعُ عــن بعــد أنــينٌ لها ولا تــرى من حولها من أحدْ

لقــد أثــارت هذه المشاهد الشاعر وأهاجت أحزانه وزهّدته في الحــياة فعــاد إلى حجرته شارداً و لم يعد به شوق إلى الانخراط في إيقاع الحياة اللاهية.

ومن الأماكن التي استهوت الشاعر وحظيت بإعجابه قمة (إفرست) وهي أعلى قمم الجبال في العالم، وقد وقف الشاعر أمامها متأملاً حيث لا تستطيع العين أن تبلغ مدى ارتفاعها، ولا تحيط بأبعادها، وقد تجمعت الغيوم فوقها، وهابتها الطيور الجوارح التي تبلغ الشواهق وتعجز عن بلوغها، وفي ذلك يقول:[1]

لا يبلغ الطرفُ مدى رفعتكْ ... ما مفرقُ الأبعاد من طلعتكْ

كم غيمةٍ طاردها عاصفٌ ... تجمّعتْ بين يدي عصمتكْ

كم جارحٍ ولم يزرْ وكره ... وكم سقى الآفاقَ من هيبتكْ

لا ترجُ سفر الدهر أن ينتهي ... لا ترجُ سفرَ الغيب أن ينهتكْ

يؤذيكَ أن تلقى بُغاثَ الثرى . ... مستنفراً في الظلِّ من وقفتكْ

وتحتضن إحدى روابي كشمير الساحرة لقاءً غرامياً جمع الشاعر بمن يحب، وقد انبهر بجمال الطبيعة حتى قالت له الحبيبة "كل هذا الجمال لنا" ثم صمتت في خشوع ثم بكت فألهم هذا الموقف الشاعر بقصيدة قال فيها:[2]

أمسكت بي باسمةً لاهيهْ ... على حواشي الربوة الزاهيَهْ

وملت في صمتٍ.. وطوقتني ... وملء عينيك رؤىً خافيهْ

سنقطع الدربَ على المنحنى ... وللسنا الإيماءةُ الهاديهْ

وبعدنا.. يبقى الشذا والندي ... والنسمة الرائحةُ الغاديهْ

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢: ٢٧٧

(٢) نفس المصدر ٢: ١٨١-١٨٢

والبلبلُ الشادي على أيكةٍ والنرجسُ الحاني على ساقيهْ
ونشوةُ العشاقِ في همس ما قلناه في أيامنا الماضيهْ!!
رفيقتي .. أهوت على ساعدي شاحبةً .. وانفجرت باكيهْ!!

ويتحدث الشاعر عن تجربة عاطفية أخرى في رحاب الطبيعة الساحرة حيث كان الليل والثلج والمدينة الهاجعة فوق إحدى هضاب الهملايا، ويصف الشاعر هذه الأجواء فيقول:[1]

وسرتُ في وحشتي .. والليل ملتحفٌ بالزمهرير. وما في الأفق ومضٌ سنا
ولم أكد أجتلي دربي على حدسٍ وأستلين عليه المركبَ الخشنا..
حتى.. سمعتُ.. ورائي رجعَ زفرتها حتى لمستُ حيالي قدّها اللدنا
نسيتُ ما بي... هزتني فجاءتُها وفجّرتْ من جناني كلَّ ما كمُنا

وعلى هذا النحو كان للأماكن والمدن والطبيعة الأجنبية حضور كبير في شعر عمر أبي ريشة، فكان أشبه بالشاعر الرحالة الذي يقف مشدوها منبهراً أمام مواطن السحر والجمال وتستهويه العجائب والغرائب فيرسمها بريشته الفنية ويُضفي عليها من تجاربه وتصوراته وانطباعاته فتحتشد بمشاهدها الساحرة وصورها الخلابة.

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢: ١٧٤-١٧٥

صورة الآخرِ في شعر إبراهيم العريّض

يعـــد الشـــاعر الـــبحريني إبراهيم العريّض نموذجاً رائعاً لتلاقح الـــثقافات وتكاملها، فقد ولد في شهر مارس ١٩٠٨ في مدينة بومباي بالهـــند مـــن أب بحريني وأم عراقية، وذلك أثناء وجود أبيه في تجارة بيع اللؤلـــؤ. وقـــد ماتت أمه بعد ولادته بشهر، فأوكل أبوه تربيته إلى امرأة هـــندية أرضـــعته وأنشـــأته وصارت في مقام أمه. وهكذا تربي إبراهيم العـــريّض وعاش فترة طفولته وصباه الأول في الهند ودرس في مدارسها الابتدائـــية والثانوية حتى تخرج عام ١٩٢٥ وعاد إلى وطنه ليعمل مدرساً للغة الإنجليزية في مدارسها.(١)

وقد أتاحت له قراءة اللغة الإنجليزية أن يطلع على الثقافة الأوربية، ويتأثر بعدد من شعرائها وفي ذلك يقول:" أثر عليَّ شعراء كثيرون، فقد كانـــت لي صلة في فترات الدراسة بعدة لغات وقرأت لشعراء باللغات الأوربـــية والهـــندية والفارسية والإنكليزية. وكان الشعراء أمثال شيللي وكيـــتس مستحوذين على كتب الدراسات في آخر القرن التاسع عشر، وهي الكتب التي كنت مولعاً بها في ذلك الوقت"(٢).

---

(١) شعراء البحرين المعاصرون، د. علوي الهاشمي، البحرين، الطبعة الأولى ١٩٨٨ ص ٥٧

(٢) مجلـــة كـــتابات البحرينية (عدد خاص عن إبراهيم العريض) العدد السابع عشر، المنامة ١٩٨١ ص ٦٤

وقـــد تنوعت ثقافة العريّض و"تعددت منابع ثقافته بتعدد البيئات الـــتي عاش فيها، فهو قد اكتسب الأردية من مربيته، وأتقن الإنجليزية في مـــراحل التعليم المختلفة، واكتسب الفارسية بالمخالطة، وأجاد العربية لما عـــاد إلى الـــبحرين، فجمع أربع لغات بأربع ثقافات مكنته من اتساع جوانـــب الفكـــر وساعدته على زيادة اطلاعه، فانطلق خياله، وتنوعت مجـــالات شـــعره، وأفـــاد من حكمة الهند وأدب الفرس، فترجم بعض رباعيات عمر الخيام، كما أفاد من الإنكليزية فترجم عن أدبها، فضلاً عن ثقافته الإسلامية"(١).

وقد شغل العريض عدداً من المناصب المهمة في وطنه، منها رئاسة المجلـــس الوطني التأسيسي عام ١٩٧٣ كما عمل سفيراً متجولاً بديوان الخارجية عام ١٩٧٥ وقامت الدولة بتقديم جائزتها التقديرية له.

وصدر للعريض عدة دواوين ومسرحيات شعرية هي (الذكرى- مجموعة قصائد١٩٣١- وامعتصماه (مسرحية شعرية ١٩٣٢)- العرائس (قصـــائد غنائية ١٩٤٦)- قبلتان (قصة شعرية١٩٤٨)- أرض الشهداء (مـــلحمة شعرية١٩٥١)- شموع (قصص شعرية ١٩٥٦) قصائد متفرقة (قصـــائد قصـــيرة ١٩٦٠)- مذكرات شاعر (قصيدة طويلة ١٩٨٢)- رباعيات الخيام (ترجمة شعرية ١٩٦٦)- يا أنت (ديوان شعر١٩٩٨) وله ديوان باللغة الأردية "جلبهاري" وقصائد باللغة الإنجليزية.

---

(١) إبراهيم العريض، مقال للدكتور على عبد الخالق، جامعة قطر ١٩٩٢ص٢

وقد انعكست ثقافة العريض على شعره، "فلم يكن شعره بسيطاً شعبي الجذور والهوية ليحرك الإحساس بالطرب لدى الغالبية بقدر ما كان شعراً للمثقف المتواصل مع المتراكم الحضاري العالمي. كان شعراً عميق الإيحاءات، غنياً بالرموز والصور خارج إطار محيطه المباشر، قادراً على تحريك ذائقة التأمل والتفكير"[(١)]

فشعر العريض نتاج ثقافة عميقة احتوت الأدب العالمي، وتشير د. ثريا العريض إلى مكتبة والدها التي تجاوزت محتوياتها آلاف الكتب بلغات متعددة، واحتلت كل زوايا البيت فيما عدا المطبخ[(٢)]، وقد ضمّت ترجمات أشعار مبدعين عالميين تتفاوت الخلفيات والبيئات الحضارية والتاريخية واللغوية التي نشأوا وأبدعوا فيها مثل طاغور وبودلير وشيللي وبايرون وسنغور وناظم حكمت وسافو وإليزابث براوننج.[(٣)] كما تشير د.ثريا العريض إلى ارتباط والدها الحميم بالكتب والقراءة بلغات متعددة.

وتتحدث د. ثريا العريض كذلك عن إيمان والدها بفكرة التعددية، ففي حياته الخاصة كانت خلطة أصدقائه ومعارفه تشمل أفراداً من كل الجاليات واللغات والملامح، ولم يكن غريباً أن تسمعه يتحاور مع أصدقائه بلغات متعددة وكأنها لغته الأم. وتقول إنه" حين علّمنا تقبل

---

(١) قصائد مختارة للشاعر إبراهيم العريض، صادرة عن مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين ٢٠٠٢ المقدمة بقلم د. ثريا العريض ص ١٧

(٢) المرجع السابق : ٢٢.

(٣) المرجع نفسه : ١٥

التعددية كان يعيش معنا ما عُرف فيما بعد بعقلية ما بعد الحداثة في حين يحيط بنا عالم التفاعلات المعتادة في فترة البدائية الحضارية"[(١)].

هكـذا آمـن العـريض بالتعددية في هذا الوجود والبحث عن المشـترك الإنسـاني الذي يجمعنا مع الآخرين بدلاً من الاختلاف الذي يفصـلنا في فئة مكتفية بخصوصيتها ورافضة لحقوق الآخرين في التعبير، كمـا آمـن كذلـك بتقـبل اختلافات الذائقة وتذوق فنون الآخرين وخصوصيتهم.[(٢)]

وانطلاقـاً مـن هذه الرؤية أفسح العريض في شعره مجالاً رحباً للآخـر يتأسـس على عدة مرتكزات مثل الإعجاب والتسامح والحوار وتمتزج فيه الرؤية العيانية والمشاهدة بالتأثر بالثقافات الأجنبية.

ونجد للمسرح الغربي حضوراً في شعر إبراهيم العريض، فنقل مشاهد مما رآه وشاهده وصور أنواره المتلألئة في الظلام، وإقبال عدد كـبير من رجال الغرب ونسائه على مشاهدته وصوَّر كذلك بعض المشـاهد المسـرحية التي جذبته على نحو يجعلنا نشعر أننا نرى هذه المشاهد على الحقيقة إذ أحاط بالتفاصيل الدقيقة وصحب القارئ منذ بدايـة تردد المشاهدين على المسرح حتى لحظه انتهاء المسرحية محتفياً بما ينتظم المسرح من أجواء، كقوله:[(٣)]

---

(١) قصائد مختارة للعريض: ٢٢

(٢) المرجع السابق : ٤١

(٣) العرائس: ٧٢-٧٣

في مسرح للغرب حيث الشمس تشرق في الليالي
ورواقــه كــالموج يزخــر بالنســاء وبالرجال
يتضــاحكون.. فلا ترى إلا الكواكب في اشتعال
والبنــت يجذبهــا فــتاها.. فهي تخطر في اختيال
طــوراً هــنا. طوراً هناك.. لكل ركن فيه خال
والكــل مــنهم مشــرق الوجنات محبوب المثال

ويصف العريض انبهار الفتى الشرقي بما يشاهده ويجسد انفعالاته بالموقف فيقول:

وقــف الفــتي الشــرقي لكن قلبه في غير حال
تحــت الشعاع يرى الجسوم كأنها بعض الظلال
ويكــاد يفصــح طــرفه عما يكن من السؤال
يــا عــين! حسبك ههنا ما تنشدين من الكمال
تلــك الحقــيقة بيــنهم تنساب في حلل الجمال
هــل ترقــبين بــأن يزاح الستر إلا عن خيال؟

ويصف كذلك إقبال رواد المسرح ودخولهم إلى البهو في مسلك حضــاري حيــث يلفّهــم الصمت، وهم في كامل أناقتهم وقد حفّت بأسماعهم موسيقى هادئة، يقول:

حــتى إذا أزف الدخول وطال للجرس الأذان
وتملــل الــبهو العظــيم بســر ما همس البيان

فكــأن للأنغــام أشــباحاً لها في الرقص شان
هــي والصــدى أبــداً كنار يستقل لها دخان
دخلــوا جمــيعاً صــامتين.. كأن صمتهمُ بيان

ويصور العريض انفتاح الستار عن راقصة جميلة تلوِّح للمشاهدين بــيديها وتمسك ملاءة رقيقة ويصف طريقة رقصها حيث تدور في دورة كاملة ثم تنحني بجسدها وتستوى فوق أصابعها وقد اهتزَّ كل عضو من أعضائها:[1]

وانجــاب ذاك الستر عن غيداء ترفل في صباها
تمشــي وئــيداً والحرير يشف عن أدنى خطاها
مــلمومة كــالوردة البيضــاء في ورق حواها
حــتى إذا وقفــت إزاء الخلــق يبهرهم سناها
نشــرت ملاءتهــا الرقــيقة من حواشيها يداها
ومشــت تلــوّح بالــيدين كأنها ترعى انتباها
وتــدور دورتهــا فينعكس الضياء على حلاها
كــم بالغتْ في الميل حتى كاد أن يطوي قفاها
ثم اســتوت فوق الأصابع كالحشائش في رباها
يهــتز مــنها كــل عضو نعمة.. حتى حشاها
وهــم طــوراً أن يــوازي موضع الإبهام فاها
فــترى تفــتّح جســمها كالأقحوانة في نداها

---

(١) العرائس: ٧٨

ولا يفـوت العـريض أن يصف انفعال المشاهدين وتجاوبهم مع رقصاتها بالتصفيق المتواصل وقد اعتراها الخجل فردَّت تحية الجمهور وقد ضـمَّت كفّيها فوق صدرها وقد تناثرت باقات الزهور حولها تعبيراً عن الإعجـاب فتناولت زهرات وقربتها إلى شفتيها وألقت بها على الجمهور فكانت من حظ الفتى الشرقي:

مـا أوشكت أن تنتهي من نبرة يحلو صداها
إذ رنّ بالتصـفيق ذاك البهو تصفيقاً تناهى
فتلفّقـت محمـرّة الخدّين من خجل عراها
مضمومة الكفّين فوق الصدر .. خائرة قواها
مفـترّة الشـفتين عـن برد جلا للّثم فاها
فكأنمـا معـنى الأنوثة قد تجسّم في رواها
والكل يهتف أن تعاود فنّها ويقول:"واها!"
وتساقطت باقات زهر حولها خضل جناها
فتناولـت زهـراً ولمّـا قرّبـته إلى لماهـا
ألقـت به صوب الجموع لمن تعلّقه هواها
وإذا بزهـرتها يفوز بها.. أتدري من؟ فتاها
هو ذلك الشرقي في أحضانه عبقت شذاها

والمغزى واضح من هذه اللقطة التي أنهى بها العريض هذا المشهد المسرحي، من إحداث تماس وتقارب بين المشاهد الشرقي والممثلة الأجنبية.

لقد كتب العريض قصيدته تلك سنة ١٩٣٨ في وقت لم تكن فيه كثير من الأقطار العربية قد عرفت المسرح، وكأنه استهدف إيجاد علاقة تفاعل وتقارب بين العربي و"الآخر" من خلال وسيط ثقافي هو المسرح الذي يعدُّ رمزاً للتحضر والثقافة والارتقاء بالذوق.

وتبرز في شعر العريض صورة تلك الفتاة الأجنبية التي تعتنق مذهب الوجودية، فيكتب قصيدة بعنوان (حوار مع وجودية) يؤسس فيها للحوار الخلاق والجدل الواعي المستنير مع "الآخر" دون أن يؤثر الاختلاف المذهبي العميق على ما يحمله الشاعر من أحاسيس عاطفية تجاه هذه الفتاة الوجودية التي يجادلها من خلال الحوار المنطقي الهادئ كقوله"[1]

أيبرز في الأرض هذا الفتون يجدّد -تحي- بمر السنينْ
وزينة تلك الكواكب -فوقي- وأنفي لمن كلّ هذا يكون؟

ويمضي الشاعر في حواره مع تلك الفتاة الوجودية، فيدحض مزاعمها وإن ظلّ متشبثاً بحبه لها؟ يقول:

وليل الحياة بلا مشعل فأي ظهورٍ لمعنى جلي؟

---

(١) شعراء البحرين المعاصرون: ٦٣ وأشار المؤلف إلى أن القصيدة لم تنشر في مجموعات العريض الشعرية، وأشار كذلك إلى أنها كتبت عام ١٩٦٦.

إذا أنـــا عشـــتُ بحـــبك أنت   كعـــود –على جمرها– أصطلي

لقد بلغ العريض في قصيدته ذروة الرقي الفكري وصدر فيها عن عقل متفتح يستوعب "الآخر" ويؤمن بأن الاختلاف الفكري أو المذهبي لا يــؤدي إلى قطــيعة ولا يؤثر في العلاقات الإنسانية، ولا يحول دون التقارب العاطفي والإنساني وهي نظرة راقية قلّ أن نجد لها نظيراً وإن لم تكـــن مستغربة من شاعر ذي تكوين ثقافي وفكري مستنير نمته البيئات الثقافية والاجتماعية المتعددة التي عاش فيها.

وقـــد آمن العريض بأن الحب والتسامح هما وسيلتا التقارب بين الـــذات والآخر، فالحب يتخطى الحواجز والقيود، ويرتفع فوق العصبية، ولا يعترف بفوارق الجنس والدين واللغة، وقد طرح العريض هذه الرؤية كـــثيراً في شعره، فجعل الحب يربط بين قلبين مختلفين ممثلاً في شخصية (طـــارق) الفتى العربي المسلم الذي وقع في الأسر وهو يدافع عن وطنه، وشخصـــية (بلقيس) الفتاة المسيحية التي تنتمي للآخر وهو ما عبّر عنه بقوله:(١)

وأحبَّـــت "طارقـــاً" بـــد   قـــيسُ مـــن أول نظـــره
فهـــي مـــن شـــرفتها تـــر   قـــبُ في الـــبرج مقـــرّه
وهـــي في خلوتهـــا تُحـــ   ـــيي مـــع الأنجـــم ذكـــره

(١) ديوان قبلتان: ٢١

ومـــن مـــنطلق التسامح تطلُّ صورة القس الذي يرمز إلى الرحمة والـــتعاطف، فتـــلجأ إليه الفتاة المسيحية تلتمس منه المساعدة، ويحتفي العـــريض بـــالأجواء المسيحية حيث الكنائس والنواقيس والترانيم وتطل صورة العذراء البتول فيقول:

أيُّهـــا القـــسُّ الـــذي لم ... يـــنسَ في الأحـــلام بـــرَّه
النواقـــــيسُ تـــــدوّي ... والترانـــــيمُ مســـــرّه
وملاكـــــي.. في صـــلاةٍ ... تمـــلأ العيـــنين عـــبره
ليـــتها تـــبلغ مـــن شـــا ... طـــرهُ قلـــبيَ أســـره
أفـــلا تدعـــوه أن يـــر ... فـــع (للعـــذراء) "شـــكره"

وتدفـــع عاطفـــة الحـــب المتأججة بالفتاة إلى المخاطرة لتلتقي بالحبيـــب، وتُلقي إليه بحبل متين فيشدّ وثاقه ويصعد إليها والناس يغطُّون في نوم عميق:

يالـــه صـــوتاً رقـــيقاً ... ذاب في أذنـــيه طلّـــا
قـــبل أن يدهمـــه الفجـــ ... ـــر فـــلا يملـــك حلّـــا
إنـــه يدعـــوه أن يلـــ ... ـــتقط الحـــبل مطـــلا
فـــإذا أوثقـــه مـــن ... نفســـه ربطـــا تـــدلى

وتـــنجح المحاولـــة ويلتقي الحبيبان ويرسم الشاعر صورة للحبيبة محفوفة بالطهر والبراءة وقد ارتدت ثوباً تجرُّه وراءها كالطاووس:

ودنـــا مـــنها بوجـــهٍ ... باســـم يُخفـــي ذهولـــه
شـــاعراً في القلـــب معـــنى ... عاجـــزاً عـــن أن يقولـــه

فــــــرآها في لـــــــباسٍ قلَّـــد الطــاووسُ طولـــــه

آيــــة الطهــــر إذا جــــرًّ ت عـــلى الأرض ذيولـــــه

هكذا استطاع الحب أن يقرّب بين الحبيبين وأن يتخطى الحواجز ويذيــب جليد العداوة، وكأن الشاعر يبعث إلى العالم برسالة مفادها أن الحــب هو الوسيلة للخلاص من العداء والتخاصم والتناحر، وهو السبيل إلى التقارب والقضاء على التعصب المقيت الذي يغرس الكراهية ويزرع الحقد ويدفع إلى الحرب.

لقد كان العريض واعياً بالتاريخ العدائي بيننا وبين الآخر ممثلاً في الـــروم، ومن هذا المنطلق كتب مسرحيته الشعرية "وا معتصماه" وفيها يجســد نزعة التعصب الديني التي صدر عنها الروم وزرعت في نفوسهم بــذور الخصـــام والكراهـــية للمسلمين، وهو ما نراه في بعض مشاهد المسرحية لا سيما مشهد دخول ملك الروم (توفل) على الأسرى الثلاثة مـــن المســلمين وفي صـــحبته البطريقان:(ماطس) و"لاوي" وقد جاءوا للتشفي والانتقام وهو ما يتضح في هذا المشهد:[1]

الأسير:

رحمــــــاك ربيَ! عجّـــــلْ لبـــــنا بمـــوتٍ مَــــريحْ

ماطس يوجه حديثه للسجان:

إذن عـــــلـيَّ بســــوطٍ يذرهمـــــــا كالطلـــــيح

---

(١) مسرحية وا معتصماه : ٣٢-٣٣ المطبعة التجارية بالقاهرة.

وهــنا يــتدخل الأسير الثاني مذكراً البطريق بمبادئ الرحمة التي نادى بها المسيح فيقول في نغمة لا تخلو من التهكم:

يــا عــبقري الروم كن منصفاً   فــإن للــرحمة جــاء المسيح

فيردُّ ملك الروم في صلف وتباه:

فمــا الــذي تــنكر من دينه   أمــا بــه للناس هدى صريح

فيجيبه الأسير مؤكداً على مبدأ تتريه الإسلام للخالق:

آمنـــت بـــالله .. لكنـــنا   نـــتره الـــباري

فلا يملك البطريق (لاوي) إلا أن يعترف بالحقيقة قائلاً: هذا صحيح

ولكن ملك الروم لا يكف عن تعصبه ولا يخفى كراهيته للإسلام فيقول ساخراً:

أتزعم أن للإسلام نوراً في ضحيٍ غده

وصاحبكم يعذبِ بالسياط رواة أحمدهِ

ويضيف البطريق ماطس قائلاً:

وقاضيكم أذل من البساط سيده

وفي هذا الجدال ما يكشف الروح العدائية لملك الروم والبطارقة تجــاه الإسلام ويشير إلى تغلغل روح التعصب الديني المقيت في نفوسهم وتنكرهم لمبادئ الديانة المسيحية السمحة التي تنادي بالرحمة والتسامح.

ويضــرب العريض في مسرحيته أمثلة كثيرة لتعصب الروم وعدم احــترامهم للأســرى حتى وإن كانت امرأة، فتطل صورة حزينة مؤلمة لــلمرأة المســلمة الهاشمية الأسيرة وهي تتعرض للمهانة والإذلال حيث

يزجُها الروم في سجن الرجال ويكشف حوارها مع السجان الرومي عن الاستهانة بالأسيرة العربية وتقاليدها والتحرش بها دون مراعاة للأعراف والمشاعر على نحو ما يتمثل في هذا الحوار:

المرأة توجه حديثها إلى الجندي الرومي في غضب:

-أتجمعني والرجال بسجنٍ!!

فيرد الجندي في صلف:

-لقد هان أمرك فاستسلمي

ويخاطبها "شرحوم" السجان الرومي في تهكم:

-أسرت فيا مرحباً بالأسيرة!

ويدنو منها قائلاً في خسة ونذالة:

-لا تستری الوجه بالمعصم!

فيردُّ أحد الأسرى المسلمين مدافعاً عن المرأة المسلمة:

-إليك عن المحصنات

فيقول السجان الرومي في وقاحة:

-وهل في السجن حصان تصان؟

ويمدُّ السجان النذل يده إليها متغزلاً في وقاحة، فتبعد عنه الأسيرة المسلمة قائلة:

-لعلك تحسبني من بناتكم! ذر خماري

وفي مشــهد يدمي القلوب نرى هذه المرأة المسلمة الأسيرة وهي تقارن بين حياة الذل في الأسر وبين الحياة الهانئة التي ينعم بها بنات الروم،

ونــراها وهـــي تنقاد في الحبال قسراً وتواري وجهها من "العلج" الذي يقودها إلى المجهول، وتشكو من محاولات تنصيرها وهي تنقاد إلى "الدير" على غير بصيرة ويبلغ بها القهر مبلغه فتستصرخ قومها لتخليصها من ذل الأسر. يقول العريض على لسان الفتاة العربية:[1]

أجـــرع الذل على الذل بأنفاس قصيرة
وارى حـــولي بنات الروم بالعين القريرة
يـــتهادين مـــن القصر على فرش وثيرة
ســـبب يقطـــع أسبابي من غير جريرة
رب عـــلج قـــادني بالحبل قسرا لحفيرة
فـــأواري الوجه عنه وعلى وجهي حيرة
وأبـــاة الضيم من أبناء عمي في الجزيرة
قـــائم ملكهم بالعدل كالشمس المنيرة
طـــال عهدي بهم إذ يأنفون العار غيرة
أيـــنادي باسم جدي لصلاة في الظهيرة
ولديـــر الـــروم أنقـــاد على غير بصيرة
ليت أمي لم تلدني ليتني ما كنت صورة

ويعطيـــنا العـــريض مثالاً آخر للتعصب الديني المقيت في مشهد دخـــول ملـــك الروم على الأسرى المسلمين وقد مات أحدهم من قهر

(١) وا معتصماه: ٣٨

الأســـر واسمه يوسف، فيخاطب الملك (توفل) الأسيرين الآخرين مؤكداً نزعة التعصب قائلاً:[1]

-ألم يقض نحبه في المسيح؟!

فيردُّ أحد الأسيرين مدافعاً في حميَّة:

ما كان يوسف إلا على اعتقاد صحيح
فإن يمت فعلى المذهب القويم الصريح
مصدقاً بالنبي وبالكتاب الفصيح

وعندئذ يتملك الملك والبطارقة الغضب فيتوعدون بإلقاء جثمان الأسير للريح انتقاماً ليكون غذاء للطير.

فالعريض وهو يستحضر هذه الصورة للآخر في تعصبه وكراهيته يهـــدف إلى التذكير ووضع الماضي إزاء الحاضر حتى لا تتكرر المواقف ويعيد التاريخ نفسه ويؤكد في الوقت ذاته أن علاقة الآخر بنا ينبغي أن تؤسس على التسامح ونبذ الكراهية والتعصب الديني.

وللتراث الإنساني العالمي حضور واضح في شعر إبراهيم العريض، فقـــد أتاحـــت له ثقافته الأجنبية العميقة أن يستلهم من التراث اليوناني والهـــندي والفارســـي، وتشـــير الدكتورة ثريا العريض إلى ولع والدها بالأســـاطير العالمـــية لا سيما أساطير اليونان فتقول:"كانت الليالي هي الأجمـــل إذ تحمل لنا سويعات تواصل حميم معه يتداخل فيها دوره كأب بـــدوره كفـــنان عاشق للكلمات في الشتاء نلتف حول المدفأة ملتحفين

---

(١) وا معتصماه: ٣٢-٣٣

بالأغطية الصوفية نصغى له يروى لنا الأساطير العالمية والقصص.. وفي قيظ الصيف، حين ننتقل للمبيت فوق سطح البيت تحت وميض نجوم السماء يستدعيها لمشاركتنا سهراتنا، فيأخذنا معه في رحلات مثيرة للخيال وهو يحكي لنا أساطير الميثولوجيا اليونانية عن مغامرات الأبطال الذين تحولوا لنجوم تدور في صفحة السماء أبداً في تكوينات الأبراج مشيراً إلى تشكيلاتها في السماء. تلك السهرات عرفتني على عالم النسر الطائر والنسر الواقع والمرأة المسلسلة كسيوبيا وأندروميدا والجبار وسيفيوس والثُّريا وسهيل. وهكذا أورثني عشقه للنجوم وتجاوباً مع وميضها الغامض".[1]

وفي ديوان (العرائس) قصيدة مطولة بعنوان (التمثال الحي) استلهمها العريض من أساطير اليونان يحكي فيها قصة فتاة إغريقية بائسة سلبتها الحياة أهلها، فمات أبواها وقتل أخوها في الحرب ولم يبق لها شيء سوى أسمال بالية وروح وثابة ومسحة من جمال، يقول:[2]

سكنت في الطابق المظلم من دار سويّه
غادة لا تملك القوت وبالحسن غنيه
هي في الأسمال لكنَّ لها روحاً زكيه
سلبتها كل شيء ثورة إلا التقيه
تتلوى كلما أبصرت الدار خليه

(١) قصائد مختارة للشاعر إبراهيم العريض، المقدمة ص ٢١

(٢) العرائس: ٦٢

أيـــن عـــنها أبواهـــا في ظـــلام الأبديـــه

وأخوهـــا جدلـــته في الوغـــى كف شقيه

فـــثوى والعَلَـــمُ الخـــافق يلـــوى بالتحيه

كيف لا تبكي.. وهل أبقى لها الدهر بقيه؟

ويصـــف العريض الفتاة وقد خرجت تتعثر في أذيالها باحثة عن طعـــام تقـــتات به، وقادتها قدماها إلى منزل جارها القريب وكان يعمل نحاتاً للتماثيل ويعيش في عزلة تامة، وما إن شاهد الفتاة البائسة في أسمالها وقـــد عـــلا الشحوب وجهها من الجوع حتى لفتت انتباهه وأخذ يتأمل حسنها وأحسَّ أنه وجد بغيته فقايضها على أن ينحت لها تمثالاً يكشف مفاتـــنها مقابل إطعامها، واضطرت الفتاة لقبول العرض إنقاذا لحياتها من بـــراثن الجوع، ووقفت عارية بين التماثيل وشرع النحات ينحت تمثاله وظـــلَّ يجتهد في عمله بدقة حتى انتهى من نحت التمثال مع حلول الفجر وقد جاء آية في الحسن والجمال:[1]

ودجـــا اللـــيل.. فـــلم يلـــق إلى الغادة بالا

غايـــة الفـــنان أن يـــبلغ بـــالفن كمـــالا

فطـــوى الشـــعر عـــلى الرأس كموج يتوالى

فجـــلا الجـــبهة غـــراء كمـــرآة تـــلالا

فـــأرى لمحـــة عيـــنين تطـــيلان الســـؤالا

---

(١) العرائس : ٦٨

فلـــوى في جانـــب الأذن من الصدغ هلالا
وأقـــام الأنـــف كالإبـــرة حســـناً واعتدالا
ثم لمـــا جـــاء للـــثغر رأى فـــيه احـــتمالا
قـــال:"لـــو يفـــترُّ هـــذا الثغر لازداد جمالا"
وإذا بالصوت –صوت الديك- صبحاً يتعالى

وقد بلغ العريض الذروة في الفن والتصوير في المشاهد التي رسمها للـــنحات الفـــنان الذي يتقن فنه ويخلص له دون أية اعتبارات خارجية. وكذلك مشهد الفتاة البائسة التي ترسم على ثغرها ابتسامة لإرضاء الفن بيـــنما تحبس الدموع في عينيها وهي تلتزم بتعليماته بدقة بينما النحات يعمـــل إزمـــيله في مهـــارة وإتقان وتتجلى عبقرية الشاعر "حين يصور انفعالات الفنان الذي ينحت تمثال الحسناء المتضورة وهو يوغل في نحت التفاصيل الدقيقة للمشهد، فتكاد تسمع طرقات الإزميل وترى لمعة العرق على جبين الفنان، وتحس بضوء الفجر يتسرب مع ارتفاع صوت الديك في الخارج"(١)

وتكشـــف القصيدة من خلال بنية الحكى عن مفاجأة مؤلمة غير مـــتوقعة، فبعد أن أنهى النحات عمله وانبهر بالتمثال الذي لم ينقصه غير الحوار ليطابق الواقع، التفت النحات ببصره إلى الفتاة وهو يضحك فرحاً بفـــنه، معتذراً لها، فإذا الفتاة قد فارقت الحياة وصارت كالتمثال جسداً

---

(١) قصائد مختارة، المقدمة ص ١٨

بـــلا روح وأخذ النحات يجهش بالبكاء وغلبه الإحساس بالذنب فأخذ يحطـــم التمثال وهو يهذي، ويصور العريض هذا المشهد الإنساني المؤثر تصويراً رائعاً، فيقول:[1]

وانحـــنى بـــين يديهـــا باكـــياً ســـوء مآله
وطـــوى حاشـــية الثوب عليها —في اعتلاله
"أنا أدعوك.. وهل يسمع ميتٌ صوت واله
"أنا أفديك.. وهل يجديك شيي في ابتهاله؟!
ثم ألقـــى نظـــرة حائـــرة نحـــو مـــثاله
فـــرآه يحـــدق الطـــرف.. ولا يرثي لحاله
فـــأتى في الـــيأس أمـــراً لم يكن قط بباله
إذ رمـــى قطعـــة صلد شوهت بعض جماله
ومضـــى يعـــثر بالشي ويهذي في اختباله

ويصـــدر العريض في قصيدته عن حس إنساني عميق، فالإنسان عنده —أيا كان جنسه وعقيدته ومذهبه- يسمو فوق كل اعتبار، وترتفع حياته فوق كل هدف. والفن الحقيقي في نظره هو الذي لا يغفل الجانب الإنساني مهما كانت عبقرية الفنان وإخلاصه لفنه.

ويســـتلهم العريض من أساطير الهند قصيدة بعنوان "لؤلؤة الحب" قـــدَّم لها بقول (ويلز) H.G. Wells "إني لا أستطيع أن أحكم لنفسي في

(١) العرائس: ٧٠

الخلاف الناشئ منذ العصور حول هذه القصة، أهي أشد القصص مرارة في الحب؟ أم أنها مثل رائع لخلود الحسن؟".

"إنها أقصوصة جد قصيرة. وإن كانت شروحها قد شغلت حيزاً كبيراً من أدب ذلك الجيل المنثور، فحسبها بعضهم خيالاً شعرياً، واعتبرها آخرون رمزية فكثرت في مغزاها الأقاويل. وذهب رجال اللاهوت فيها مذاهب شتى واهتموا منها في الأخص بالجانب المتعلق بالبعث بعد الموت وضرب رجال الأخلاق بها الأمثال. واتخذوها موضوعاً للعبرة. وهناك غيرهم من لا يرى فيها إلا الحقيقة عارية من كل لبوس". (١)

وتتحدث القصة عن فتاة هندية رائعة الحسن زُفَّت إلى حبيبها الأمير وعاشت وإياه في روضة من الحب والحنان يصورها الشاعر بقوله: (٢)

وعاشت وإياه في روضة	من الحب أفنانها دانيه
إذا عاد من همّه بالنهار	ألفى لديها المنى زاكيه
فمجمرة العود في جانب	ومعزفة العود في ناحيه
ومن حول هاتين شفّت ستائر	عن كل نمرقة غاليه
وقد عقد الورد حول السرير	من مثل ألوانها حاشيه
فتسرع باسمة نحوه	وتأخذ يمناه كالشاكيه

(١) العرائس : ١٩١.

(٢) نفسه : ١٩٤.

وتهوى به بين تلك الظلال وتبقى الظلال على ما هيه

فلا تسمع الأذن غير الصدى صدى الروح تهفو إلي ثانيه

ولكن هذه السعادة لم تدم طويلاً حيث اختطف الموت الحبيبة وهي في زهرة الشباب وأدمى فقدها قلب الزوج الأمير وأفقده صوابه فانقطع عن الطعام وزهد في الحياة وكان طيفها يزوره فيبكي بدموع مدرارة وظل جثمان الزوجة لا يجرؤ أحد أن يواريه وخطرت له فكرة لتخليدها، فدعا النحاتين والفنانين فشيدوا لها تابوتاً من الفضة وزخرف أطرافه بالصور وجعل أركانه من العاج وزين قوائمه بالدرر وجعل للصرح مقصورة مغلقة بالستائر وعاش الأمير على عهده برعاية الصرح وزيارته وصار مقصد الفنانين والعشاق.

والقصة تجسد قيمة إنسانية كبرى هي الوفاء في الحب، ولم يحل أصل الأسطورة الهندي دون الوقوف عنده واستجلاء القيمة الإنسانية.

ويتعاطف العريض مع نموذج نسوى ينتمي للآخر هي شخصية "جلنار" الفارسية التي انتهت حياتها بمأساة في بلاط الإمبراطور "أكبر" الذي رأى في قصة الحب التي ربطتها بابنه مؤامرة على عرشه وأمر بسجن الابن قائلاً:(١)

بلّغتني صدى ائتماركما ألسن الوشاه

إنما الذنب ذنبها هي أغرته بالسفاه

كبّلوهُ ولا يُبلّ له -ضاحياً- صداه

---

(١) شموع : ١٨٢

ويصف العريض المصير المؤلم الذي تعرضت له "جلنار" ظلماً وقد مثّل أعوان الإمبراطور بها فيقول:(١)

وأعدت من الحجارة والطين رابيه
ليشيدوا –بمشهد منه– للدفن ساريه
وإذا صرخة تدوّى ثلاثاً لغانيه
سحبتها الأكف من شعرها كل ناحيه
ثم لمّا من العذاب بدت شبه عاريه
نصبوها على الأساس رداحاً كما هيه

ولا يفوت العريض في سياقه القصصي الممتع أن يدين الظلم والجبروت والطغيان.

وللأماكن الأجنبية حضور في شعر إبراهيم العريض، فيقف أمام رياض مدينة (نيسابور) الإيرانية مستحضراً أسطورة شاعرها عمر الخيام ويصف المدينة في موكب الربيع وقد تشخَّصت هضابها فلبست من الثلوج لباساً أبيض مشدوداً بالزنار وقد لامست الشمس خدّها وأخذت الطيور تشدو في أجواء احتفالية بديعة:(٢)

في أرض إيران حيث الهضب لابسة
زنارها

(١) شموع: ١٨٤

(٢) العرائس: ١٧٧

من الثلوج

كالحور

تستقبل الشمس.. والأنهار هامسه

أسرارها

بين المروج

للنور

جـــلا الربـــيع بنيسابور موكبه   فـــزاد عـــيداً إلى أعـــيادها الأخر
يـــا ناعمـــاً في ربوع الخلد ليلته   مست خطاك ثرى الوادي مع السحر
فـــلم تزل خفراء الطير تهتف في   أفـــنانها لـــنجوم الأرض بالخـــبر
حـــتى تلألأن في ضوء النهار ثنى   وفزن منك فرادي بالشذى العطر
فالزهـــر في قاعهـــا يفترّ مبسمه   يـــا ليل! هل صبغت فاه يد القمر؟

وفي هـــذه الأجـــواء البهـــيجة تطلُّ صورة مغنية فارسية تدعي "شيرين" وهي تشدو بأعذب الألحان:[١]

شيرين! غنّيت صوتاً كان يطربني   ليت الأحباء عادوا لي مع الغنم
ناموا .. وهدهدت الأزهار بعدهم   يـــدُ الربيع على عيني ..فلم تنم
ذكـــرتني بشـــبابي إذ تطوف به   في باحة الخلد آمال مدى الحلم

ويحـــتفي العواد برسم مشاهد الطرب والغناء ومجالس الخمر في استحضار لعالم الخيام بأجوائه اللاهية ومجالسه الخمرية:[٢]

---

(١) العرائس: ١٨١

(٢) نفسه : ١٨٥

طافت عليهم بها كالشمس ساطعة   يرى على الخد من لألائها شفق
فعـــب فـــيها ثلاثــاً وهي تسنده   حـــتى تماسك في أحشائه الرمق
وعـــاود العـــود شيء من تململه   لمـــا غدا العود بين الجمر يحترق
فظـــل يبعـــث في الأسمـــاع أنته   موصـــولة دون أن ينـــتابها قلق
ثم اســـتمرت تغنـــيهم بما حملت   يـــد الربيع لهم والعود يصطفق

ويتذكر الشاعر وهو يستمتع بالربيع في رياض نيسابور أن الخيام عاشـــق الحسن والجمال قد غاب بشخصه عن المشهد الذي كان يهواه ويألفه وإن ظل شاخصاً بروحه وشعره، حاضراً في مخيلة العشاق والفنانين ولا يفوت العريض أن يقف أمام ضريحه المكلل بالأزهار وهو يستحضر أشعاره الخالدة:[١]

عـــاد الربـــيع وقد حف الحسان به   إلا الذي كان يهوي الحسن لم يعد
ســـل الـــورود وقد وارت بكلتها   ضـــريحه لِـــمَ لمْ تكثر من العدد
هـــناك حيث قديماً طاب محفلهم   حـــل الندامى على أنماطها الجُدد
عـــاد الربـــيع.. فـــلا ردوا تحيته   إلا بأحســـنَ مـــنها دائم الأبد
بشعلة في يديها ... روح شاعرهم   مـــثلَ الفراش حواليها مع الحشد
حـــتى إذا تم دور الكـــأس بينهم   مالـــت إلى القبر بالباقي ولم تكد
فـــرددت قـــوله، والعود في فلق   تهـــتز أوتـــاره من صوتها الغرد

(١) العرائس: ١٩٠

"واضيعة الكأس يوماً إن عثرت بها

على رفاتي ... فلم أنعم برؤياها"

لقـــد أعجـــب العريض بشخصية الخيام وشعره وأشار إلى ذلك فقـــال:[١]" كان أول اطلاعي على معاني الخيام الفلسفية لما كنت تلميذاً ناشئاً في الهند وذلك خلال ترجمة "فيتزجرالد" الشهيرة، فقد كنت أترنّم بأبياتها شغفاً في خلواتي" وظلّ العريّض يجدد عهده بمطالعة الرباعيات بين حـــين وآخر حتى وقف على بعض الترجمات العربية للرباعيات للسباعي والـــزهاوي والبستاني وغيرهم وأغراه ذلك بتعريب الرباعيات بعد إجادة الفارسية وكان دافعه إلى ذلك رغبته في أن ينشيء الجوَّ نفسه الذي كان يشعر به في تلاوة الخيام منذ صغره.[٢]

وقد نشر العريض ترجمة باسم (الخياميات) ومنها:[٣]

أفق يا نديمُ استهلّ الصباح

وباكر صبوحك نخب الملاح

فمكثك بين الندامي قليـــل

ولا رجعةٌ لك بعد الرواح

....

---

(١) رباعـــيات الخـــيام، ترجمة إبراهيم العريض، المقدمة ص ٥ ، المكتبة الوطنية – البحرين ١٩٨٤

(٢) المصدر نفسه: ٢٦-٢٧.

(٣) الخياميات: ٥٤

لقد صاح بي هاتفٌ في السبات
أفيقوا لرشف الطّلا يا غفـــاة!
فما حقق الحلم مثل الحبــاب
ولا جدَّد العمرَ غــيرُ السُّقــاة

وانعكـــس إعجــاب العريض ببعض شعراء الغرب على شعره، فــترجم للشـــاعر الإنجليزي (توماس مور) قصيدتين هما الآمال الذاوية والماضي، ويقول في القصيدة الأولى:[1]

منذ الطفولة كنت ألفى دائماً — أزهـــى مـــناي إذا تجلّت تذبلُ
وا حســـرة لي لا أميل لزهرة — أو روضـــة إلا وتـــذوى أوّل
مـــا إن علقـــت بظبيةٍ لتسرَّني — بســـواد عينيها وكادت تفعل
وعهدتهـــا بـــرعايتي حتى إذا — علمـــت بهـــا فإذا المنيّة تعجل

ويقـــول في القصـــيدة الثانـــية التي ترجمها لتوماس مور وعنوانها (الماضي):[2]

إذا دجـــى الليل وانجلى القمرُ — أهـــاج شـــجوى ومضَّنى السَّهرُ
وحـــرّك الشـــوق من مدافنها — ذكـــرى لـــيالٍ وكـــلها عـــبر

ومن شعـــراء الغرب الذين تأثر بهم العـــريض الشاعر الإنجليزي

---

(١) ديوان الذكرى: ٥٧ ط. بغداد

(٢) ديوان الذكرى: ٦٦

(شللي) وقد ترجم له قصيدته المشهورة (القبرة) ومنها قوله:[1]

أقبرةٌ هل أنت في الجوّ قطعةٌ | من الحسن سالت باللحون مسيلا
تُغالين في الألحان حتى إذا انتشت | بها روحك الولهى خفتٌ قليلا
كما تخفتُ الأوتار بعد رنينها | ويبقى صداها في النفوس طويلا
فقد برأ الله الطبيعة وهى لا | تُحسّ به حتى بعثت رسولا
فأحسنت في الترتيل حتى كأنما | بآيك ظِلُّ الروض صار ظليلا
ولقّنتنا سرَّ الجمال ولم نكن | لندرك -لولاك- الوجود جميلا

والترجمة تشي بشاعرية العريض ومهارته في ترجمة الشعر إلى العربية في أسلوب رائق ناصع وجمل شعرية أخاذة.

العريض وحب الآخر:

كان العريض شاعراً مرهف الإحساس، وكان إنساناً يحمل قلباً محباً حنوناً ينبض بالحب والتسامح، ويبدو أنه ارتبط بقصة حب وهو في دلهى الجديدة بالهند مع فتاة هندية تدعى (نسيمة بانوا) كانت -كما وصفها- مصدر إلهامه، وقد صدَّر ديوانه (شموع) برسالة كتبها بالإنجليزية إليها وترجمناها على النحو الآتي:

عزيزتي الآنسة/ نسيمة بانوا

إنه لتقصير مني أن أخبرك عن قدر تقديري لإنعامك الملائكي، ولكنك كما تعلمين ذلك بالفعل. فلطالما كنت في أحلامي لوقت طويل قبل الآن وقبل

(١) ديوان العرائس: ٧٩.

أن أقدم إلى الهند. فقد كان صوتك الوحيد الذي ربطني بالقضية النسائية في الأرض التي ولدت فيها. ولكنى خائف من ذلك لأنني غائب من وقت طويـــل وقد أفضيت لوالدتك الرؤوم بأكثر من ذلك وقد أدركت تلك المسكينة كل ذلك فهي الشخص الوحيد الذي أبوح له بأسرار حياتي بعد كـــل هـــذه السنوات. كشاعر وليس كـــ"Bichara" كما قلت سابقاً، ولكنني بقلب يشعر بدقة الموسيقا بالناس في موطني، وهناك طريقة واحدة فقط للتعبير عن مشاعري تجاهك ألا وهي الشعر.

ويـــا للأســـف! فهو الشعر الذي لا تقدرين على فهمه، وكيف يتأتى لكِ ذلك؟ ولكنه مفهوم لكل العرب وإني لأتضرَّع إليك لتصدقيني ولتصـــغي لهذه الأنشودة المفرحة. أرجوك! لا تقولي إني أحرجكِ، فليس هـــذا من فكري في شيء، فقد كنتِ مصدراً لإلهامي يا شقيقتي العزيزة! وإنه لأعذب اسم أدعوك به، والآن فإني أتوسلك لأقدم هذه الصفحات الـــتي ألهمتنيها. فهي هدية منك راجعة إليك، هدية مقدسة ومن يرفضها سيدنس تلك الهبة، فهل تتواضعين وتقبلينها؟!

ويمكنك الاحتفاظ بها كذكرى تذكرك بالأيام الخوالي بشاعر أخٍ كان... فقد امتلأت قلوب محببة بالموسيقى وهل تعتبرينها ديناً.

فأنـــا بالتأكـــيد لا أتوقع منك أن تجيبيني عن هذه الرسالة ولا أنصحك بذلك بدون أي تخوف منه. فهو قلب من ذهب ذلك الذي يجلس مجرداً مـــن أي شيء والآن مقدم لك بكل غناه الملهم قابع تحت قدميك ٢١ يوليو ١٩٤٥ عزيزك المخلص

والرســـالة تعكس الحسَ الرومانسي عند العريض، وتقديره وحبه العميق لهذه الفتاة الهندية التي كانت تربطه بأسرتها علاقة حميمة، لا سيما بوالدتها التي صرح بأنه كان يبوح لها بأسرار حياته، واعترف لها بمشاعره الفياضة تجاه ابنتها.

وقـــد عـــبَّر العـــريض عن هذه التجربة العاطفية في مجموعة من القصائد في ديوان (شموع) جعلها تحت عنوان "قصة في رسائل" وأرخها سنة ١٩٤٥ من مدينة دلهي الجديدة، وأشار في قصيدته الأولى لها إلى أنه عشـــق صـــوتها قبل أن يراها وصوَّر أثر صوتها الملائكي في نفسه فتخيله صـــوتاً مـــن الخلد نقله إلى عالم أثيري شفاف كأنه مسحور أو كأنه في احتفالـــية للطيور المغردة في الرياض وولَّد من سحر صوت الحبيبة الهندية صوراً كثيرة أخاذة كقوله:[1]

يـــا ابنةَ الحسنِ! قد عشقتك صوتاً	يـتـتهادَى عـــلى جـــناح الأثير
أنـــا أصـــغي إليك في كلّة الليـــ	ـــل، كـأني في عالم مسحور
ليت شعري! أيضحكُ البدر لي،أم	أنـــا في وســـط حفلـــة للطيور
لم أكـــن قبل ذلك الصوت أدري	أن في الأرض كـــل هذا السرور
مـــا وعت من لحونك الأذن لحناً	إنمـــا غبتُ.. غبتُ بين الزهور!!
يا طريد الجنان! عرِّج على الخُلـــ	ـــد فما ذاك غير صوت البشير
هـــو كالروح .. في ضلوعي منه	خفقـــةٌ بللـــت أرق شـــعوري

---

(١) ديوان شموع –مكتبة فخراوي- الطبعة الرابعة –البحرين١٩٩٦ ص٩-١٠

هـــو كالورد... ما نشقتُ بأنفي ريحـــه، بـــل لمسته في ضميري

هـــو كالصيف. ليلُه مرّ بالأنـــجم يــزهو في قلبي المحرور

هـــو كالنجم... ما تصوّرتُ إلا أنـــه في الســـماء بـــات سميري

كنت في ظلمةٍ، أعيشُ لذكرى الـــحســـنِ حتى حظيت منه بنورِ

هـــو دنـــيا مـــن الشـــعور لقلبي يا لدنيا -في وحدتي- من شعور!!

والعـــريض -كما هو واضح- يحلق في أجواء رومانسية خالصة ويتـــنفس في ذلـــك الجو الحالم مواكباً شعراء الرومانسية في الأربعينيات ويجعـــل مـــن صوت الحبيبة عالماً ملائكياً ساحراً ويؤثره بدفقة شعورية متأججة ويفرده بهذه القصيدة ذات الخيال المحلّق.

ويكتب العريض قصيدة أخرى بعد رؤية الفتاة الهندية ولقائها فإذا هي فتنة للرائي، وقد نهلت العين من جمالها بعد أن ارتوت الأذن بصوتها، وتمثّل الخيال حقيقة ، يقول:(١)

يا ابنة الحسن! عشتُ أهواكِ لحناً فـــإذا أنـــت فتـــنة للـــرائي!

نهلت من جمالكِ العينُ ما كانـــنت به الأذن قبلها في ارتواءِ

كنـــت أجري مع الخيال إلى أن لحـــتِ لي فانتهيت من خُيَلائي

روعـــةُ الحســـن في تأملـــه الخالـــب أضـــعاف روعة الإصغاء

أومـــضَ الحب في سماء وجودي فـــإذا الكون ضاحكُ الأرجاء

لا تميـــلي بـــناظريك دلالاً أمهلـــيني تـــنفُّسَ الصعـــداء

---

(١) شموع ١١

وفي سياق رومانسي بديع يذكرنا بصوت الشابي في قصيدة "صلوات في هيكل الحب" يردد العريض تراتيل الجمال والحب من خلال تكرار أساليب التعجب (يا لحسنك- يا لطهرك- يا للحظك- يا لسحرك)[(١)]

درّة أنت يا لحسنك في جيـ ـــد الليالي الحسان ذات بهاء
وردة أنت يا لطهرك رفّت حُمرة في خميلةِ الشعراءِ
نجمة أنتِ يا للحظك إذ يعـ ـلن معنى الحقيقة الغراءِ
حيةٌ أنت يا لسحرك في الإغـ ـراء إذا تنهدينَ باستحياءِ

وتطل بعض أوصاف الحبيبة الهندية ذات الضفائر السوداء ويلقبها العريض بـ(دمية الهند) فيقول

اعذريني إذا تلمّستُ قلبي بين تلك الضفائر السوداء
دميةَ الهندِ! أبدعتك يد الخلـ ـلاق كي تُعبَدي فهاك ..غنائي!

وفي قصيدة أخرى يتردد صوت الفتاة الهندية وهي تحاور الشاعر العاشق في بداية التعارف وتصفه بـ(الغريب) وتسأله: أأنت شاعر، ويوجه العريض خطابه توجيه العاشق الموله المتيم بالحسن فيقول:[(٢)]

يا ابنة الحسن! لا تقولي: غريبٌ غرّبتني في الحب عينا"مهاةِ"
لم تكن غير نظرةٍ...تركتني ظامئاً بعدها إلى نظرات
أُغمض العينَ كي أرا"ها"...بسمعي حين تسترسلين في النغمات

---

(١) شموع ١١-١٢
(٢) نفسه : ١٢

في ضـلوعي أحِسُّ وقع خطا"ها" حيـثما تـبدحين بـين اللداةِ

سـاءلتني: أأنـت تشعرُ؟!.. هلا سـاءلت عـني النجوم رواتي!

أوه لي مـن هـواك لو كنت عوداً جمّـرته يـداك للـنفحات

أنـا مـن في الجمـال غرّد حتى ردّد النـيلُ لحـنَه للفـرات

ويحـتفي الشاعر بالمكان الذي يحتضن الحبيبة حيث يقع مسكنها عـلى شـاطئ (جمنا) وهو اسم النهر الذي تقوم عليه العاصمة الهندية (دلهي) يقول:[1]

أيهـا الليل! ضمّ ما شئت عنّي غـير صـوت يُلمُّ بي في أناة

صـوت تلك التي بشاطيء "جمنا" تيمتني ...عرفت فيها مهاتي!!

وفي سـياق الـتغني بجمال الحبيبة يحرص العريض على الاحتفاء بـبعض مظاهر الحياة في الهند كالاحتفال بالأعياد والمهرجانات، ومنها مهـرجان النصـر ، ويصور فتاته وهي تضيء الحفل بأنوار حسنها وقد تحلقـت الحسـان حولها وقد راعهن جمالها الروحاني ووجهها الملائكي ويصف الموائد وقد اصطفت بالأواني وحفّت بها الزهور من كل لون وقد خفقـت الأعلام وتقدمت مواكب النصر في احتفال رائع رآهما الشاعر احتفالين: بالحبيبة الجميلة والمهرجان البديع، يقول:[2]

يا ابنة الحسن! أنت وحدك سر غـامض بين كل هذي الحسان

هـن إن شئت زينة الحفل لكن بـك في الحفـل نفحة من جنان

---

(١) شموع : ١٤

(٢) نفسه : ١٥-١٦

كـــم تخطـــتك للحظايا عيون
بـــالذي تعهديـــن مـــن لمعـــان

ثم عـــادت لـــك التفاتاً كما لو
راعهـــا مـــنك حسنُك الروحاني

وشـــحوا الأفق فاستطار بروقاً
ومضـــها لا يضـــيء غـــير ثوان

غـــير أن الـــذي أضـــاء دواماً
هـــو شـــيء في ثغـــرك الفـــتّان

بســـطوا ســـاحة الموائـــد زهراً
فـــذوى قـــبل أن تُمسّ الأواني

إنمـــا الـــوردةُ التي عطرت أنـــ
ـــفاسهم أنت... بل هما وردتان!

لكـــأن الأعـــلام كانت تحيـــ
ـــك غداة انتصبت بعد التهاني

لترى موكباً على الأفق ... يدنو
فـــإذا اجـــتاز لاح في الأفق ثان

كنـــتُ في حفلـــة تشابه هذي
بـــالذي ضـــمه علـــيك جناني

ثم أصـــغت لنا الجموع فطابت
لي وحـــدي مـــا بينهم حفلتان!

ويشـــارك العريض فتاته في حفلة عيد ميلادها ويصفها في تألقها وفتونها وهي تنتقل بين ضيوفها مرحبة ويصف فرحته وقد ظفر بنظرة من لحاظها، يقول:[١]

يـــا ابنة الحسن أنت أفتنُ شيء
علقـــت مهجتي به في الوجود

أفهـــذا الفتون سِرّك أم خُصّـــ
ـــت به في الحسان كل خرود

أفصحي لي .. فإنني بين خوف
ورجـــاء في مجلســـي المعهـــود

بيـــنما تُوشِـــكينَ أن تسكنى لي
إذ تفـــرين مـــثل ظـــبي شرود

فـــتمرين بي وعيـــناك في عيـــ
ـــنيَّ لا تطرفان..دون الشهود

---

(١) شموع : ١٣

أوه أني ظفـــرت باللحظ هذا؟ هـــو وقـــفٌ عـــلى ظباء البيد

ويصـــف العريض لقاء جمعه بفتاته في روضة بالهند في جوّ شتائي حيث تهطل السحب ويلمع البرق وقد احتميا بالغصون ويصف الأمطار الموسمية في دلهي وهي مزن شديدة قصيرة، يقول:[١]

يا أخا الحب! لست أنسى حديثاً لك في الروض مثل شجو الحمامه

إذ دمـــوع الغمـــام في الخُضـــ ـــرة والـــبرق لا يخلي ابتسامه

فلبثـــنا تحـــت الغصـــون طويلاً في انـــتظار الكريم يُفرغ جامه[٢]

ويـــنقل العـــريض طرفاً من حوار فتاته وأحاديثها معه وإعجابها بشعره فيقول:[٣]

[illegible] ماذا تســـ؟...برأي أمـــسِ أبديـــتَه وكُلُّكَ بِشر

حـــينَ صرّحتَ أنَّ شعري..(لا لا كلُّ لفظ منه على فيك) درّ!

ويعـــبر الشـــاعر عن فرحته بصورة فوتوغرافية لفتاته أهدتها إليه فيتأمـــلها ويتملى فيها محاسنها وتتحول هذه المفاتن من خلال ريشة هذا الشاعر الفنان إلى لوحة حية تتجسد فيها أوصاف الحبيبة. يقول:[٤]

يا ابنة الحسن! ما تصورت أن الـــ ـــفنَّ يلقـــي إليّ فيء ســـنينك

إنهـــا صـــورة إلـــيك... ولكن هـــي عـــندي في وهمها كيقينك

---

(١) شموع: ٢٣

(٢) إشارة إلى الأمطار الموسمية في الهند.

(٣) شموع: ٢٨

(٤) نفسه : ٢٩-٣٠

أنعـ ي! انظري! فما برحت فيـــ ـــهـــا معالي الحراك رغم سكونك
هو دا السحر في جفونك يغري ي.. كعهـــدي به غداة ركونك!
هــو يوحـــي إليّ بالحـــلم النا عـــم. ما أعمق الكرى في جفونك
وعلى الوجنتين ما يُشبه الجمـــ ـــــرة لكـــن تفسيره في عيونك
وتكـــاد الغدائـــر السودُ ترخي آيـــة اللـــيل فـــوق نـــور جبينك
وكـــأن الشفاة همس لي وحـــ ـــدي في صمتها حديث شجونك
أنـــا أصـــغي إلى الحديث بقلبي لا بسمعي إذ كيف يجري بدونك؟
قد تركت الحياة تنهض في الصو رة لمـــــا ملأتهـــــا بحنينـــــك

وعـــلى هـــذا النحو صوَّر العريض تجربة الحب النادرة مع فتاته الهـــندية الفاتنة وباح بمشاعره الدافئة تجاهها، ووصف من خلالها بعض مظاهر الحياة ومفرداتها في مدينة دلهي الهندية.

وللشـــاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة حضور في شعر العواد فقد كتبت رسالة بعنوان "لنفترق" نشرت بمجلة "الأديب" البيروتيه عام ١٩٥٢ قالت فيها:(١)

لنفـــترق الآن مـــا دام في مقلتيـــنا بـــريق
وما دام في قعر كأسي وكأسك بعض الرحيق
فعمّـــا قلـــيل يطـــلّ الصـــباح ويخـــبو القمر
ونـــلمح في الضـــوء مـــا رسمته أكفّ الضجر

---

(١) شموع: ١٩١

وأجابهـــا العريض بقصيدة بعنوان (ولكن لماذا؟) يتعجب فيها من قرار نازك بالفراق وهما في ذروة الحب، يقول:[1]

لمـــاذا توديـــن قـــبل التململ أن نفترق
وألا أعـــير لعـــودك أذناً وإن يصطفق
وهـــذا الغرام الذي كان يُرضعنا كأسه
ويبعثُ كالنار في ميّت القلب إحساسه
يــــــــــــرفُّ عليـــــــــــنا
فــــــــــنغمض عيــــــــــنا
وتُـــنكره رغـــم هـــذي الحـــرَقْ
ونُخفـــت في القلـــب أجراســـه

ومـــن تجليات "الآخر" ما كتبه العريض عن فتاة الدير في قصيدة طويلـــة اســـتهلها بمشهد وصفي للدير القابع في أحضان الجبال المكسوة بالثـــلج بجـــوار شجر الأرز وقد بدا شبه خالٍ إلا من الأضواء والأجواء النورانية الشفافة وإيقاع المطر المنهمر، يقول:[2]

في جـــوار الأرز ديـــرٌ مطـــل ... شـــبه خـــالٍ في بياض الجبال
وكـــأن الثـــلج فـــوق ذراهـــا ... ريـــط خـــودٍ برزت.. لا تبالي
أيـــبين الـــثدى خلـــف وشاح ... أم يغيـــب الجـــيد تحت اللآلي

---

(١) شموع : ١٩٩
(٢) نفسه : ١٢١

قمـم في الـنور أمـا المـرايا | أسـفل السـفح فنبع الظلال
كُـلٌّ بنجـم ودَّ فـرط اشتياق | لـو تـوارى تحت ضوء الهلال
وجـرى القطر كدمع العذارى | مـن رآهـن معـاً في ابتهال
فهـو يهمـي ثم يهمـي تباعاً | كـلّ تـال أوّلٌ ... بالتـتالي
فـإذا الشـلال أول لحـن | عـبقري عرفـته اللـيالي

وينتقل العريض من هذا المشهد الوصفي إلى مشهد يصف فيه فتاة الدير ذات المسوح ويحتفي بتصوير الأجواء المسيحية التي تتنفس فيها تلك الراهـبة وهي ترنو خلسة إلى ركن عليه صورة المصلوب المعذب وحوله أضواء الشموع الخافتة وقد انهمرت دموعها في خشوع، يقول:[1]

ركعـت في الليل ذاتُ مسوح | رُدّ عـنها في الصـلاةِ النقابُ
في حـداد ... فهي يا ليل طيف | مـاثل مـثلك لـولا الشباب
وحدهـا ... للـنور بين يديها | زهـرات لا تُـرى وكـتاب
يـا له وجهـاً كزهر الأقاحي | وجبيـناً غـامَ فـيه اكتئاب
روحهـا في الديـر تعـبق ندّاً | لحبيـب طـال مـنه الغياب
فهـي تـرنو خلسةً نحو ركن | طـال للمصـلوب فيه العذاب
حولـه للشـمع نورٌ ضئيل | هـو لـيلاً لحـنها المستطاب
لكـأن الشـمع يـبكي عليه | هـل ترى الأدمع كيف تذاب

---

(١) شموع : ١٢٣

ويـــرفد العـــريض مشـــاهده بعناصـــر القص من تشوق وإثارة ومفاجأة، ويخلع على الموقف مثل هذه العناصر الدرامية، فقد هبَّت رياح عاتية على باب الدير فانطفأ المشعل ونهضت الراهبة من ركنها في ذهول وأشـــعلت الشـــمع وسرت ببطء نحو الباب وأضواء الشموع تتراقص كالأشـــباح ولم تكد تدنو من الباب حتى وجدت من يناديها : نعمت مســـاء فإذا هو حبيبها الذي ودَّعته قبل عامين حين اختطفه الموت منها ويغشـــى عليها وتحملها الراهبات الأخريات إلى المصلى وتقوم ربَّة الدير بإلقاء المواعظ على الراهبات العذارى:[1]

حُملت .. تحت عيون العذارى ... وهـــي مـــن غشوتها في سبات

لمصـــلي مـــنه كانـــت تناجي ... ربهـــا المصـــلوب بالعـــبرات

هـــنّ يطـــرحن علـــيها غشاءً ... طالمـــا بـــورك بالقـــبلات

وتولـــت ربـــة الديـــر تُلقـــي ... للعـــذارى وعظهـــا في أنـــاة

إنّ للحـــب لديهـــن معـــنىً ... هـــو أسمـــى من جميع الصفات

مـــا له بالجســـد الحـــيّ شأنٌ ... هـــو كالـــنور وفـــوق الحياة

كـــلٌّ مـــن لاذت بصـــبر جميل ... هـــتف الباري لها: أنتِ ذاتي!

وتفـــيق الخـــود بعـــد قلـــيل ... مـــن كـــراها لإقـــامِ الصلاة

حولهـــا زنّارهـــا فهـــي عرس ... زفهـــا المـــوت لـــربّ الحياة

(١) شموع: ١٣٥

ولا غـرابة في أن يلتفت العريض وهو الشاعر المسلم إلى هذه الأجـواء المسيحية أو أن يقف أمام نموذج الراهبة التي آثرت الرهبنة بعد فقد حبيبها، فالعريض بتكوينه الثقافي والفكري يستوعب الآخر ويتفاعل معه ويلتفت إلى الإنسان من حيث هو إنسان بمعزل عن الجنس والعقيدة واللـون، فقد جبلت نفسه على التسامح والتصالح مع الآخر الأجنبي إلا إذا خلـع ثوب الإنسانية وطغى وتجبر وسلب الحقوق وانتهك الحرمات فإنـه يقـف منه موقف الرفض والإدانة، وهذا ما نجده في ديوان "أرض الشهداء" الذي يدين فيه اليهود وممارستهم الوحشية على أرض فلسطين. ومـن خلال بنية السرد وتوظيف بعض عناصر الدراما يقف أمام نموذج الفـتاة اليهودية "ثامار" التي توظف جسدها ومفاتنها لخدمة الصهيونية ويصورها في صورة البغي التي ترتدي ثياباً خليعة لخدمة أغراضها الدنيئة فيصورها على هذا النحو وهي تقف على خشبة المسرح أمام النظارة:(١)

وقفت"ثامار" من زهو الصبا في حلتين

تجتلي بين المرايا قدّها من جهتين

في شفيف لا يواري حلية منها بصون

فتراه...مسّ ما حاذى بياضَ العضدِين

والقفا مساً رفيقاً ثم عرّى المنكبين

طالباً في صدرها برعم نهديها بدين

---

(١) أرض الشهداء : ٢٨

فإذا رقته تطغى على قسوة ذَين

هو لم ينهض على مئزرها إلا بهَونِ

فهوى كالماء عن ربوته في موجتين

مبدياً فجوة ما بينهما لمحةَ عين

ثم جلى فخذها البالغ صقلاً كاللجين

إنه يحمل للمسرح أحلى قدمين..

ما لنظارتها منه سوى..خفيّ حُنين!

ويصــــدر العــــريض في مشاهده عن وعي بنفسية اليهود، فيصور والــــد الفتاة اليهودية "ثامار" في صورة من يفتقد الحمية والغيرة، ويبدو مـــزهواً بمؤهلات ابنته الجسدية ويشجعها على الإغراء والغواية لتحقيق أهدافهم العدوانية:[1]

وتلقاها أبوها وهو لا يخفي سروره

قال:"يا ثامار! قد توّجك الحسنُ أميره

لكِ جسمٌ سوسني عندما يُلقي حريره

قلّ أن يشهده في فتنته الخلق نظيره

فُتن الجمهور من أُملودهِ اليوم بصوره

أرقصَ الوجدُ على حُسن تثنّيه طيورَه

إن تريه راح تصفيقاً يُغذيكِ شعورَه

أو مشى نحوك في فتنته يُذكي بخوره

---

(١) أرض الشهداء: ٣٠

فلقد أحسنت.. في جلوك أوضاعاً مثيره

قد لمستِ الوترَ الحساس منهم يا غريره!

فاعملي في الضرب شَرواك على نفس الوتيره

شعبنا يأبى على العجل بأن يخلع نيره

أنت كالعجل ولو وسّدك الحب سريره!.."

ويرسم العريض صورة للأخ وهو يطلُّ بوجهه القبيح معلناً عن أهداف اليهود في إقامة أورشليم الكبرى ولا يتورع عن ارتكاب الفاحشة مع الأخت العاهرة:[1]

ورأت ثامار في البيت أخاها بعد ساعه

إن في عينيه نوراً تعرف الكأس شعاعه

قال:" بشراك! فقد أعلن تواً في الإذاعة

ما قضت من أورشليم الدول الكبرى انتزاعه

حقنا في الأرض منذ اليوم لا نخشى ضياعه

إنه عيد يهودا فاملأي بالقصف قاعه"

ثم أهوى بيديهِ مالئاً منها ذراعه

وجرت أنمله دغدغة... فالليل ساعه

أخذته عزّة بالإثم ظنّتها شجاعه

فإذا ريطتها تضحك عن دنيا مشاعه

---

(١) أرض الشهداء: ٣١

نفر النهدان منها بعد دل ومناعه

شعرها يصرخ لكن ردفها"سمعاً وطاعه"!

لقفة الطفل... وقد بلّل فاه للرضاعه!

ولم تنغمس "ثمار" وحدها في حمأة الرذيلة بل شاركتها أخريات مثل "ماري" التي يصف العريض مفاتنها على هذا النحو:(1)

كيف لا تغريهم بالشوقِ "ماري" إذ تَبَدّى؟

إنها أفتنُ — لو هم أنصفوا عيناً وخدّا

وهيَ —لو تَبْدَحُ فيهم ... ميسها — أحسن قدّا

أيّ قدّ هوَ!.. قد أطره الطيب وندّى

ولها صدر غريرٌ ليس تدري ما أعدّا

لوِ جرت راحة مفتونٍ عليه لاستبدّا

ولها أنحلُ خصر كلما أرخته شدّا

ولها سَبطُ بنان ناعم الأطراف جدّا

ثم فخذٌ ينطوي في ذيله وصلاً وصدّا

كيف تدري ما وراء الذيل إلا أن يُحدّا

ألهذا يُحرِق الناس لها عوداً وندّا؟

---

(1) أرض الشهداء: ٣٥

ولا يفـوت العـريض أن يضيف إلى هذه المشاهد مشهد القواد الذي يعرض سلعته الرخيصة ويزايد عليها بصوته الأجش وحواره الذي ينطوي على خسة ونذالة ويلقي ترحيباً من البغايا:[1]

فإذا صوتُ أجشُ .. انفلتت منه العبارة:

"إنها السلعةُ، تحظى برواج في التجاره..

عندما تُعرَضُ حسناً تحت أضواء الحضارة

خُطَّ في فحمتكَ الإعلان عنها كالشراره

وَهجُ النار يُريك الفحم كالألماس تاره..."

إنه صوت أبيها عائداً يخطب جاره

ورأت ضيفتَها تلقطُ – كالحيرى حِواره

فأساغته حديثاً قاطعته بالإشاره

"بحياتي، إنه الصادق لم يخطيء شعاره

منحةُ الدرّ إذا أُخرجَ من بطن المحاره

فهو لو ظلّ مصوناً كان من بعض الحجاره

لا يكون الحسن فينا هو طوراً في البشاره

كل شيء.. ينبغي الإعلان عنه من مناره"

---

(١) أرض الشهداء : ٥٢

ويمضي العريض في بنائه السردي فيصف مؤامرة اليهود الخسيسة للإيقاع بالفدائيين وتطل "ثامار" وهي تقود الكتيبة اليهودية وقد تعرف عليها أحدهم:[1]

ورآها –برزت في زيها الكامل- راء
فبدت في وجهه الدهشة يا للتعساء!
لَهْيَ "ثامار" وهل أفتنُ منها في النساء؟
قال :" يا قوم ألا تدرون من ذات اللواء؟
طالما قد نشرت صورتها صحف المساء
إنها أشهر من خمر "فرنسا" في الغلاء
نبغت في "تل أبيب" بين عري واكتساء
رقصها يحبس أنفاس المصلي.. فيرائي
أتراها طلعت للبغي فينا أم بغاء؟"

ويـــأبى الخلـــق العـــربي الأصيل أن يستهدف النساء اليهوديات المجندات ويتردد صوت "ظافر" الفدائي مؤكداً هذا الخلق الكريم بإطلاق سراحهن:[2]

ما لكم تنسون حقاً هو شمس في جلائه
يزعم الباغي بأنا لم نعد من نظرائه

---

(١) أرض الشهداء : ٥٢

(٢) نفسه : ٥٣

أفنرضاه نظيراً سادراً في غلوائه

لم يزل في هيكل الأوهام رهناً بشقائه

من سواه زجّ في الميدان –جنداً– بنسائه

لم نثر نحن على البغي ليعدينا بدائه

أطلقوهن... فلا خوف علينا من إمائه!"

ويقابل العريض بين هذه الصورة المضيئة للإنسان العربي، وصورة الصهيوني الذي اغتصب أرض فلسطين وشرّد شعبها:(١)

وتلا صهيون منشوراً له في يوم غيد:

"إن أردتم أن تقيموا في حمانا، كالعبيد

فرعايانا عليها لا لها رعي العهود

فلكم ذاك وإلا فانزحوا عنا لبيد..

تركتها لكم اللجنة من غير حدود"

هـــذا هو "الآخر" الذي له حضور سلبي في شعر العريض ويراه جديراً بالرفض والإدانة، لأنه يمثل البغي والعدوان والظلم ولذلك عرض العريض إلى تعريته وكشفه واستطاع من خلال فهم نفسية هذا الآخر أن يظهـــر جوانبه السلبية مما عرضه من نماذج لرجال ونساء يزدرون القيم الأخلاقية النبيلة ويستهترون بالمشاعر الإنسانية، وقد أبى العريض أن يترك هـــذه الشخصـــيات دون عقاب، فها هي (ثامار) العاهرة التي لم ترتدع

(١) أرض الشهداء: ٦٣

وظلت سادرة في غيها تنال ما تستحقه من عقاب، وتلقي حتفها، وتطلُّ من خلال هذه الصورة المقززة:[1]

هذه "ثامار" ملقاةً على الرمل كباله
لا يواري حسنها شيء وما أتعس حاله
جسد قد محشته النار حتى لا تخاله
هو إياها ولا الدل الذي كان دلاله
وإذا ثغر.. رأى في كشره الموت خياله
وإذا العين عليها من عيان الهول هاله
وإذا الشعر خيوط بعد أن كان حباله
وإذا النهدان .. ما الجمر؟.. وقد ذاقا وباله
أين ما ثارت عليه فتنة في كل صاله
أفهذا بطنها الضامر أم ماذا جرى له؟
وإذا في موضع الصون من الحرق غلاله
قد كساه الشعر قبحاً كل من يرعى ابتذاله
ما تخال الخود إلا كومة اللحم محاله!

هكـــذا تحولـــت الفتنة إلى قبح ودمامة، واختفى الدلال والحسن وحـــلَّ محلَّهمـــا البشاعة والتقزُّز مما توحي به الصور التي رسمتها ريشة العـــريض ببراعة لتؤكد رفض كل نموذج يمتهن إنسانيته ويسخّر ما وهبه الله من نعم في الشر والإثم والعدوان. ولعل ما يثير الإعجاب أن العريض

---

(١) أرض الشهداء:٧٧

لم يعمـــد إلى التقرير واللغة الخطابية المباشرة وإنما آثر لغة الإيحاء والرمز واتخذها وسيلة للتعبير عن موقفه تجاه الآخر فبلغ الغاية في فنه الشعري.

صورة الآخر في القصيدة المعاصرة

الشعر بالرغم من تعريفاته الكثيرة المتشعبة يظل في جوهره "موقفا" يعكس رؤية الشاعر إزاء الوجود أو الكون أو قضايا العصر وبالقياس إلى الشعر العربي المعاصر يرصد الباحثون مواقف واضحة إزاء قضية الصراع العربي الإسرائيلي بدءا من سنوات الاحتلال عام ١٩٤٨ حتى وقتنا هذا، وتتنوع تلك المواقف تبعاً لتطورات هذا الصراع ومظاهره، وقد آثرنا اختيار موقف الشاعر العربي المعاصر من هذا الآخر أو الدخيل الذي اغتصب أرضه وانتهك مقدساته وارتكب أبشع الجرائم ضد إخوانه قتلاً وتشريداً وسفكاً للدماء، وقد تعددت النعوت والأوصاف لذلك الآخر في القصيدة المعاصرة حتى أصبحت تمثل حقلاً دلالياً واسعاً برموزه ودواله التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:(القرصان-اللصوص-الطواغيت-التتار-النازيون-الوجوه القبيحة-الذئاب ..إلخ" فضلاً عن المسميات الصريحة أو ذات الدلالة المباشرة.

وقد آثرنا اختيار صفة "الآخر" كدالة موحية لا لأسباب سياسية بل لأسباب فنية خالصة تمنح البحث إطاره الفني أو التخييلي فالآخر مرادف للضد أو النقيض أو الخارج عن الذات أو المنفصل عنها ويركز البحث على موقف الشعر المعاصر من هذا "الآخر" وهو موقف عام يقوم

علـى الـرفض بكافة أشكاله سواء في التصالح أو التفاوض أو "التطبيع" ويعكس توجهات الوجدان الجمعي في صورة نادرة من صور التلاحم.

وبدهي أننا لا نستطيع استقصاء كل القصائد التي تتصل بموضوع البحث لاتساع المساحة على امتداد أقطار الوطن العربي، ومع ذلك فقد عمدنـا إلى انـتقاء النماذج الدالة التي تمثل مواقف الشعراء لا في مصر وحدهـا بل في بعض الأقطار العربية الأخرى وقد لاحظنا أن مواقفهم تكـاد تتوحد على الرغم من تباين مذاهبهم الفنية، كما لاحظنا احتدام لغـة الـرفض بشـكل خاص عقب توقيع معاهدات التصالح وفي ظل الاعـتداءات المتكررة والممارسات العدوانية والإجراءات التعسفية ضد أبـناء الشـعب الفلسـطيني وفي ظل أساليب المماطلة والخداع والغدر والتسويف من "الآخر".

وإذا كان الخطاب السياسي قد استجاب –في جانب كبير منه– للمتغيرات السياسية بعد توقيع معاهدة السلام وروّج في بعض صوره إلى مفهوم التصالح مع الآخر وإلى إمكانية التعايش معه في سلام فإن الخطاب الشـعري –باعتباره قائماً على الحدس والبصيرة– قد وقف موقفاً مغايراً وتشـكك في إمكانـية تحقق سلام فعليّ أو حقيقي وأعلن رفضه لذلك التصـالح الـذي لا يستند إلى العدل أو يقوم على التكافؤ بين الطرفين، وجاءت في هذا السياق قصيدة "لا تصالح" لأمل دنقل التي يرجع تاريخها إلى نوفمـبر ١٩٧٦ واتكـأ فيها على فكرة "الأقنعة" حيث أدارها على لسان كليب عقب إصابته قبل مقتله في حرب البسوس وجعلها في صورة

وصية إلى أخيه يوصيه بأولاده وفلذات أكباده، ليسقط من خلالها آراءه ويعبر عن موقفه من المستجدات السياسية آنذاك، فكانت القصيدة صرخة تحذيـــر مـــن الإقدام على التصالح أو التفاوض بكل ما ينطوي عليه من مخاطـــر ومحاذيـــر وتعبيراً عن موقف الرفض أو المقاومة لكل توجهات التصالح:[١]

لا تصالح

ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك

ثم أثبّتُ جوهرتين مكانهما

هل ترى...؟

هي أشياء لا تشترى..

وبالـــرغم من استناد أمل إلى "العقلانية" أو "المنطقية" في عرض مـــبررات موقفـــه إلا أن القصـــيدة تعكس شعوره بالإحباط والغضب فالتصالح –في نظره- خيانة لكفاح الشهداء ونذير بالهوان والمذلة للأجيال الحاضـــرة واللاحقة، وجاءت بنية النهي "لا تصالح" التي استهلّ بها أمل دنقـــل كـــل مقطـــع مـــن قصـــيدته- بما تحمله من دلالات التحذير والتوجس..دالاً قوياً على موقف الرفض والمقاومة:[٢]

---

(١) ديوان : أقوال جديدة عن حرب البسوس –أمل دنقل- الأعمال الكاملة –دار العودة- بيروت- الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص ٣٢٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٠.

-لا تصالح

ولو قيل ما قيل عن كلمات السلام

كيف تستنشق الرئتان النسيم المدنّس؟

كيف تنظر في عيني امرأة

أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟

كيف تصبح فارسها في الغرام؟

كيف ترجو غداً .. لوليد ينام؟

كيف تحلم أو تتغني بمستقبل لغلام

وهو يكبر بين يديك بقلبٍ منكس؟

إن تكـــرار بنية الاستفهام ست مرات في المقطع السابق بما تحمله مـــن دلالات التحذير والتقريع والسخط والإدانة تؤكد إحساس الشاعر بالفجـــيعة إزاء هـــذا الواقع الذي يفضي إلى ممارسات أقرب إلى العبثية، فيتيح للقاتل أن يضع يده في يد المقتول ويقتسم معه الطعام:[١]

-كيف تنظر في يد من صافحوك..

فلا تُبصر الدم في كلّ كفّ؟

إنّ سهماً أتاني من الخلفِ..

سوف يجيئك من ألف خلفْ

....

لا تصالح

---

(١) ديوان أقوال جديدة لأمل دنقل ص ٣٢٩-٣٣٠

ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام...

إنّ أمل دنقل يؤمن باستحالة هذا التصالح بعد أن تحطّم كل شيء في نــــزوة فاجرة" أو في "لحظة عابرة" وبعد أن اغتال اللص كل مظاهر الحياة والبهجة، وكيف يمكن أن يكون ثمة تصالح بين ندّين غير متكافئين، أحدهما سارق والآخر مسروق:[1]

-لا تصالح
فما الصلح إلا معاهدة بين ندّين
(في شرف القلب)
لا تُنْقصْ
والذي اغتالني محضّ لص
سرق الأرض من بين عينيّ
والصمتُ يطلق ضحكته الساخرة!

وقد أثبتت الأحداث المتتابعة ما تمتع به أمل دنقل من بصيرة نافذة ورؤيــة ثاقــبة، وحدس صادق، فصحّت تنبؤاته وصدقت مخاوفه، فلم تســتطع المعاهدات أن تسقط الحاجز النفسي الذي تكوّن عبر ما يقرب من نصف قرن من العداء، ولم ينجح الآخر في إثبات حسن نواياه، بل إنه عــلى النقيض من ذلك لم يلبث أن عاد إلى ممارساته العدوانية سعياً إلى تحقيق أهدافه التوسعية، فازداد تشبثاً بالأراضي التي احتلها سنة ١٩٦٧ في هضــبة الجــولان والضــفة الغربية وأعلن تشبثه بالقدس عاصمة أبدية،

---

(١) ديوان أقوال جديدة لأمل دنقل ص ٣٣٥.

متحدياً مشاعر المسلمين والمسيحيين جميعاً، وتكررت اعتداءاته على بيروت وجنوب لبنان وتمادى في ممارساته التعسفية في الضفة الغربية، وتصدى بأبشع أساليب القمع والوحشية لانتفاضة أطفال الحجارة، وكان طبيعياً في ظل تلك الممارسات التعسفية أن تزداد بواعث الإحباط والغضب في نفوس الشعراء المعاصرين، فاجتمعت كلمتهم على رفض "الآخر" وإدانة ممارساته بل وإدانة التخاذل والاستسلام بكل صوره وأشكاله.

موقف الإدانة:

أدان الشعراء العرب المعاصرون ممارسات الآخر وجرائمه ضد المدنيين العزل في لبنان والضفة الغربية، فالشاعر السعودي على أحمد عسيري يكتب قصيدة بعنوان "أشهد ألا عدلا" يدين فيها غزو لبنان ويندّد بجرائم "شارون" التي ارتكبها ضد الأبرياء وتصرفاته الوحشية ويراه مصّاصاً للدماء يشرب من جماجم الضحايا ويغني ثملاً بما ارتكبه من مذابح وحوله كل جناة الشرّ لمشاركته، ويندّد بأولئك الحمقى الذين أباحوا لأنفسهم مهادنته فشاركوه في تلك "الألعوبة":[1]

-أبداً.. من أين أنا أبدأ يا بيروت؟

"شارون" ببابك يشرب في جمجمةٍ منخوبة

ويغني ثملاً

(١) ديوان : قصائد من الجبل – مطبوعات نادى أبها الأدبي- ١٤٠٤هـ ١٩٨٤ ص ٦٣-٦٤

وينادي كل جناة الشرّ.. تعالوا..
فهنا أصنام الجنّة منصوبة
وهنا أعداء "يهودا" قد جاءوا.. بقماقم مقلوبة وضعيف الدين
يداعبهم ..وي‍ناديهم.. حمقاً..
ويشارك في الألعوبة

أما الشاعرة الأردنية عائشة الرازم فتخصّص ديواناً كاملاً بعنوان "حسـن الفلسطيني وثورة الحجارة" تدين فيه تلك التصرفات البشعة من قـتل وتكسير أضلاع واعتقال ضد أولئك الأطفال الأبرياء الذين أشعلوا الانتفاضـة وكشـفوا زيف الآخر ودعاواه أمام العالم بأسره، وتصف الشـاعرة الجنود الإسرائيليين بأنهم "أعداء الحياة" و"الزارعون الخوف في كل مكان".. تقول:[1]

-يا ليتني كنت الصواعق والدمار
لجعلت أعداء الحياة
الزارعين الخوف في قلب الديار
هم -وحدهم- بعض الثمن
يا ليتني كنت البحور المائجات
لدفعت أمواجي لتجليهم..
عن الأرض التي اغتصبوا

---

(١) ديـوان حسن الفلسطيني وثورة الحجارة- عائشة الخواجا الرازم- دار ابن رشد للنشر والتوزيع -عمان -الأردن-١٩٨٨ ص١٣-١٤.

وتغسل بعدهم..

تلك الربوع الطاهرات

وقـد أثارت مذبحة الحرم الإبراهيمي غضب الشعراء، واستفزت مشاعر المسلمين، فأدان الشعراء ذلك التصرف الإجرامي الذي حصد أرواح عدد كبير من المصلّين في فجر الخامس والعشرين من فبراير ١٩٩٤ وهم يقفون أمام الله في خشوع فإذا برصاص الغدر ينهمر عليهم دون مراعاة لحرمة المسجد أو قدسيته، يقول الشاعر الفلسطيني شفيق حبيب منددّاً بهذا السلوك الإجرامي:[١]

يا أيها الحرم المحزون فيك قضى   أهـلي وهم يلتقون الله في السَّحرِ
جاءوك كي يسجدوا لله فيك تقيّ   فـانهلّ لؤمـاً رصاص الموت كالمطرِ
نم يا شهيدي قرير العين أنت لنا   منارة فـوق درب مظلم خطرِ
في كل يوم على درب النضال لنا   مشـاعل عصـفت بالنار والشرر
هـذا التراب لنا، لا للذين أتوا   كي يزرعوا الموت أو أن يسرقوا ثمري

وكـان لمذبحـة "قانـا" التي استُشهد فيها أكثر من مائة شهيد معظمهم من الأطفال الأبرياء أثر كبير في نفوس الشعراء فأدانوا ذلك التصرف غير الإنساني خاصة أن هؤلاء الشهداء لا ناقة لهم ولا جمل فيما حـدث و لم يشفع لهم احتماؤهم بقوات الأمم المتحدة فإذا بأسلحة الغدر والدمـار تحصد أرواحهـم. وممن استثارتهم تلك المذبحة الشاعر محمد الفيـتورى فكتب قصيدة بعنوان (زمن شيمون بيريز) يدين فيها ممارساته

(١) أخبار الأدب –العدد ٤٠ بتاريخ ١٩٩٤/٤/١٧ ص ٢٢.

ويكشـــف النقاب عن وجهه الحقيقي في صورٍ نابضة بدلالتها الموحية، ومـــن خـــلال لغةٍ تحتشد برموزها ومفرداتها الاستعارية، فهذا الآخر قد "تصـــدعت مـــرآته" وتعبق شمس الموت في ردائه، "ويسكن في ضحكته الرثة"، و"يغرق في أزمانه" ويرقص أمام النيران ثملاً بدماء الضحايا،حاملا رفـــات وطـــن سليب، "وعاريا من زينة النصر ومبادئ الشرفاء. يقول الفيتوري[1]:

-لا ليست الأرض هي الأرض
ولا السماء في اصفرار لونها هي السماء
ولست ما شئت ومن تشاء
ثمة من تصدّعت مرآته في ليلة العقم
ومن تعبق شمس الموت في ردائه،
وتيبس الغيوم، والزهور، والأضواء
ثمة من يسكن في ضحكته الرثة
حتى ليصير زئبقا مشتعلا بين المجرّات
ويسقى عطش التاريخ بالدماء
ثمة من ليس يرى في حفلة النيران
إلا أنها الحرب . .
(وقد تكتسي في انحدارها الأطفال والنساء)
ثمة من يغرق في أزماته الصعبة

---

(١) أخبار الأدب – العدد ١٤٦ بتاريخ ١٩٩٦/٤/٢٨ ص ١٩.

حاملا رفات وطن

وعاريا من زينة النصر

وطهر الشرفاء

وفي معرض التنديد بممارسات الآخر يأتي تغني الشعراء ببطولات من سطروا بدمائهم صفحات الخلود، وقدموا أروع الأمثلة في التضحية مثل سناء محيدلي وسليمان خاطر الذي يتوجه إليه الشاعر ناجي عبداللطيف بخطابه في موقف الإشادة بقيم الصمود والتحدي والمقاومة في مواجهة من يغتصبون حقوق الأمة العربية[1]:

-ربما لا تعود

أنت لا تعرف الآن

غير الصمود

راودتك الفتوحات عن نفسها

راودتك الحدود

......

لم تكن غير لحظة عشقٍ

تذوب على شفتيك

فيلهث قلبك خلف الوطن

أصدقاؤك بالباب ينتظرون

---

(١) ديوان للعصافير أقوال أخرى –ناجي عبد اللطيف- الهيئة العامة لقصور الثقافة –أصوات أدبية ١٤٧- فبراير ١٩٩٦ ص ٦٩-٧٠.

يلوكون بالصمت صرختك الغالية
(العشاء .. العشاء ..)
وسليمان يرحل دون وداعٍ
ويترك للفجر صرخة شعبٍ
ووجه النهارّ

ويتوقف الشاعر أحمد مبارك أمام العمل الفدائي الذي قامت به الشهيدة اللبنانية سناء محيدلي ويراها رمزا لشمس الصباح التي تفجرت فسكبت دماءها ضياءً على ظلمات القضية، وأعادت الروح للهوية العربية، ويراها كالغصن الذي تفجر فعطر أجواءنا وأطاح بحلم الأفاعي وشتت الرؤى الخيبرية[1]:

وحين تناثرت
غصن القرنفل فيهم
شظايا
وأعمت أماني الرؤى
الخيبرية
من الغصن هذا المشعّ
شظية
......

(١) ديوان: في انتظار الشمس – أحمد مبارك- ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب-١٩٩١ ص ٢٨وما بعدها.

وعودك لما تفجرّ

يا غنوة للصباح

أطاح

بكل قصور الرمال

التي شيدتها بأرض الهدى

والربى القدسية

-مني همجيه

وقهقه صوت الرياح

بوجه الصهاينة الحالمين

بأرض من النيل حتى الفرات

تلم الشتات

يصيح بصهيون ... ألا حياة

وألا نجاة .. على بقعة عربية

ولا يقتصر موقف الإدانة على ممارسات "الآخر" بل يتجاوزه إلى إدانة الذات ومحاكمتها بتهمة التخاذل والاستسلام والهرولة لعقد اتفاقيات يرى فيها الشعراء صورة من صور التخاذل لأنها تفضي إلى التفريط في الحقوق وتقديم تنازلات كثيرة في ظل مناخ مفعم بالتسويف والمماطلة والخداع، ويلوح الآخر في صورة الذئب الذي يرتع في كل

مكـــان باحـــثاً عـــن المزيد من الضحايا الغارقين في "أوهام التفاوض"، واستعارات البدائل[1]:

-حكامنا قد شوهوا بالأحرف الأولى خريطتنا ..

أباحوا أرضنا للذئب ..

يرتع في البوادي والحضر

وتمددوا في قبضة الوهم المراوغِ ..

واستطالوا في انكسار الظلّ ..

تاهوا بين أوهام التفاوضِ،

واستعارات البدائلِ،

والسلامِ المنتظر!

هل تعرف الأمن الذئابُ

وهل يطيق بقاءه في القيد حُرٌّ؟!

ويعـــدُّ بـــدر توفـــيق من أكثر الشعراء اهتماماً بتصوير "الآخر" باعتباره محاربا حقيقيا خاض أغلب الحروب وخبر طبيعة العدو.

وفي قصيدة بعنوان (بحران في أطلال بيروت) يحاكم الذات العربية ويدين التخاذل والخنوع ويراه خيانة في حق الأمة، ويتساءل عن جدوى القرارات والشعارات والخطب في مواجهة القراصنة الذين ينهبون الأرض ويلتهمون المدن العربية، وتتأجج نيران الغضب في أحشائه، فيدين كل من

---

(١) ديـــوان: لديّ أقوال أخرى –د. فوزي عيسى- قصيدة (أقوال أخرى للحلاج) ط. دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٩١ ص ٧٠.

أســـهم في صنع هذا الواقع المتردي، ولا يعفي نفسه وأنداده الشعراء من المسئولية، ويعبر في سخرية مريرة عن الواقع المؤلم، فكلما تضاعف حجم قصائد الشجب والإدانة، زاد مقدار الأراضي العربية الضائعة، وكأننا في سـباقٍ متكافـئ يقوم على هذا المبدأ أو هذه المعادلة: "لليهود الأرض، وللعرب القصائد"!!

يقول بدر توفيق في قصيدته[1]:

-كل صوتٍ خئونٍ يقول: اتئدْ
والمسافات تطوى، وحمى الخيال تفاقم فيها المرضْ،
مرضٌ يتوغل في الصدر منذ انتبذنا الغضبْ،
وألفنا القرارات، واستعذبتنا صهيل الخطب!
ما الذي يمكنه الشعر إذا ما ابتلع الموت المدائن
ما الذي تصنعه الأشعار في عصر اليهودي..
الذي استولى على اللد ورام الله ويافا والجولان
وصور وصيدا
اليهودي الذي استولى على القدس وصارت له العاصمة
ما الذي تفلح الحكمة الناعمة؟
منذ أعوام ثلاثين وأكثر، نكتب الأشعار عن أرضٍ تضيع
كلما ازدادت مقادير القصائد،
زاد مقدار الأراضي الضائعة

---

(١) ديوان: اليمامة الخضراء -بدر توفيق-ط. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩ ص ١٧٠.

وكأنا في سباقٍ عادل يتزايدْ!
لليهود الأرض وتكفينا القصائد!

ويقترن موقف الإدانة ومحاكمة الذات بالشعور بالإحباط وقد يهيمن على الشعراء إحساس قوي بالتشاؤم يغذيه ويشعل جذوته ما يرونه من صور التخاذل ومواقف الاستسلام وما يشيع في الواقع العربي من تناحر وتخاصم وصراعات، ويعبر الشاعر إسماعيل عقاب عن هذا الواقع الباعث على التشاؤم والإحباط في لغة تستحضر بعض رموز التراث بما تشيعه من مرارة وتحسّر:[١]

تنازعنا الأهواء فيكِ..تشاءمي ورشى على أسيافنا عطر منشمِ
وأنت لك الإذلال في كل سجدة ونحن بدرب الخوف نعدو ونرتمي
عتابك لن يجدي.. كفاك تردّما فشدّي على كفّ الغريمِ وسلّمي

وتبلغ محاكمة الذات وإدانتها غايتها في قصيدة (متى يعلنون وفاة العرب) للشاعر نزار قباني، فهي إدانة للتخاذل بكُلّ صوره، ومحاكمة صريحة للواقع العربي بكل ما يضج به من سلبيات وأدواء، وانعكاس صادق لحالة التمزق والتشرذم، وتعبير عن انكسار الحلم القومي:[٢]
-وحين أفقت.. اكتشفتُ هشاشة حلمي

---

(١) ديوان: حديث الموج للصخور -إسماعيل عقاب ط. دار غريب، وقد نشرت القصيدة كذلك بأخبار الأدب -العدد ١٣٠ سنة ١٩٩٦.

(٢) من قصيدة (متى يعلنون وفاة العرب) -نزار قباني- نشرت بمجلة روزاليوسف المصرية العدد ٣٤٦٧ بتاريخ ١٩٩٤/١١/٢١.

فلا قمر في سماء أريحا..

ولا سمك في مياه الفرات..

ولا قهوة في عدن

أمـــا الشـــاعر فوزي خضر فيتجه بخطابه إلى مصر مذكراً إياها بدورهـــا الريادي، محذراً ممّا يحاك ضدها من مخططات لعزلها أو تهميش دورهـــا أو تطويقها بل عليها أن تخلع ثوب التروّي، وأن ترتدي ثياب الغضب المتفجّر:[1]

-لست قاضيةً..

إنما أنت ثائرةٌ

فاخلعي عنك ثوب التروي

ولا تجعلي الماء يطفئ نارك،

إني لأسمعه يتسرب مختفياً

يستبيح من القاع أحشاءَ أرضٍ:

عشقنا اشتعالك فيها

فلا تتركيها

ولا تتركيني

وظلي معاندةً زاعقه

---

(١) ديـــوان: فصل في الجحيم –فوزي خضر– قصيدة (ارفعي القمر المتدلي) ط. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ٣٤-٣٥.

موقف الرفض:

وتـــتعدد صور خطاب الرفض في القصيدة المعاصرة، فهناك من يرفض مبدأ التفاوض أو التصالح من أساسه لشكه في نوايا الطرف الآخر، وإيمانه بأنه غير جاد في السلام، وبأن تصرفاته لا تخرج عن كونها محاولة لإضـــاعة الوقت وكسب الأرض وفرض الأمر الواقع إلى أن يتم له تغيير الحقـــائق الجغرافية، فالشعراء يؤمنون بالسلام ويعتبرونه هدفاً من أهداف رســـالتهم، ولكنهم يرفضون السلام بمعنى الخضوع أو الاستسلام، ولا يؤمـــنون بالســـلام القـــائم على الشعارات أو الذي يجرى فرضه بالقوة والهيمـــنة ولا يتصـــورون أن يكون هناك سلام في ظل احتلال الأرض العربـــية وعدم الاعتراف بالحقوق الشرعية، أو في ظل الغدر والتسويق حسبما يرى الشاعر الفلسطيني شفيق حبيب:[١]

نبغي السلام ولكن كيف نبلغه والأرض تحت نعال العسكر القذر

هـــل السلام شعار يهتفون له والغدر في عرفهم ضرب من الظفر؟

أمـــا الشـــاعر بدر توفيق الذي أمضى من عمره خمسين عاماً في الحـــروب دفاعاً عن الأرض يقيم في الصحاري متخذاً منها وطناً وداراً عـــلى حســـب تعبيره[٢] فإنه لا يقبل فكرة التفاوض من أساسها لخبرته الطويلـــة بنفســـية "الآخـــر" ولأنه لا يستطيع أن ينسى مشاهد الدمار

---

(١) أخـــبار الأدب –العـــدد ٤٠ بـــتاريخ ١٩٩٤/٤/١٧ من قصيدة بعنوان (يا أيها الحرم المحزون) ص ٢٢.

(٢) ديوان: اليمامة الخضراء –قصيدة (التراب) ص٣٥.

والخراب التي رآها، ولا مدفعية العدو وهي تغتال المساكن، وتذبح المدائن، ومن ثم فإن ثمة ثأراً لا تمحوه إلا الحرب، ولا يؤمن بغير السلاح بديلاً عن المواجهة، وهو الشعار الذي يردده في قصيدته (وقفة على قبر شاعر فلسطيني)[1] حيث يردد غير مرة عبارة "ليس سوى السلاح"[2] ويكاد إيمانه بتلك الفكرة يهيمن على خاطره، ويوجه رؤيته الشعرية، ففي قصيدة بعنوان "العهن المنفوش"[3] يؤكد هذه الفكرة ولا يتخيل أن هذه الجيوش التي تعودت على القتال يمكن أن تعود إلى ثكناتها أو أن يلقي الجنود بأسلحتهم ويخلعوا أرديتهم العسكرية ويتخلوا عن الثأر وتتحول سيوف الجدود إلى محاريث":[4]

-هل يضيع الدم في البحر، وفي الأرض المدائن،
وحقول القمح، والنخل، ومأوى الذكريات:
حين ترتدّ هذي الجيوش الغفيرة يوماً إلى الثكنات
وتلقي السلاح وتخلع عنها رداء معاركها السابقات،
فتستلّ رجعتها للقرى المجدبات،
سيوف الجدود محاريث تفلح أرض اليباب؟

---

(١) ديوان: اليمامة الخضراء –قصيدة (التراب) ص ١٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٣) المرجع السابق ١٦٥.

(٤) المرجع السابق ١٦٥.

ويـــرفض شعراء آخرون مجرد القبول بفكرة الجلوس حول مائدة واحـــدة للـــتفاوض، ويـــبدو الأمـــر في نظرهم أقرب إلى "العبثية" أو "الكومـــيديا السوداء"، لأنهم لا يتخيلون أن يصادق القاتل المقتول أو أن تقـــبل العصافير مصاهرة الصقور، وهي الفكرة التي يرددها الشاعر محمد أبو دومة في إحدى قصائد ديوانه (الوقوف على حدّ السكين):[1]

(القاتل يتلاقى بالمقتول
الصقر يصاهر أبناء العصفور،
دماء الأثداء منابعه الدم
والشجر اليابس،
سيلين ويخضر
قد يشفيك الصبّار المرّ
تلك صروف الدهر..)!!

ويصـــدر بعض الشعراء في موقفهم الرافض للمصالحة عن إيمان عمـــيق بعدم مصداقية الطرف الآخر، وتشككهم في نواياه الحقيقية، وفي مـــدى التزامه بشروط السلام وعناصره، وفي قصيدة بعنوان (هل تبيض الديوك في مدريد) يقدم الشاعر أيمن صادق صورة بالغة الدلالة يشبه فيها

---

(١) ديوان: الوقوف على حد السكين –محمد أبو دومة– ط. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ ص ٧٢-٧٣.

الآخر بالديك الذي لا يمكن أن يبيض في إشارة موحية إلى قناعة الشاعر بعدم جدوى التفاوض وفهمه الواعي لمراوغة الآخر ومخاتلته:[1]

يـــا أم قرطبة.. من خان قرطبة   يبـــيع إخوتهـــا بـــالوعد والخلفِ
فكـــيف تهتف للنخاس ساحتها   وتجلس الإبن مبهوتا..كما الضيفِ
ممـــدودة كفه للديك في شغف   لأن يبيض. فبال الديك في الكفِ
ولم تزل ترقب البيضات حسرته   يقامر الخطو بين الوهم .. والزَّيف

ويعـــبر شـــعراء آخرون عن صدمتهم في نتائج هذا السلام الهش الـــذي افتقد العدالة ولا يعدو أن يكون سلام إذعان طبقاً لرؤية "الآخر" فلـــيس له مـــن ثمارٍ سوى أنه تكريس لواقع الاحتلال، ويؤكد الشاعر الفلســـطيني المتوكل طه هذه المعاني في قصيدة بعنوان "باختصار شديد" يقول في مقطع منها:[2]

-بعد أن وقع الساسة الطيعون الوثيقة
أعلن أن السلام أتى بالسلام، فقام صغير
من المقعد الخشبي إلى لوحة الدرس يسأل..
أستاذه عن مدينة أم أبيه التي كان يوما لها
اسم عروس؟ فقال المعلم:
أنا لم أر غير "يافو" و"ريحو" بهذي الدروس

---

(١) ديوان : سمريات -أيمن صادق، الإسكندرية- الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ٨٠-٨١.
(٢) أخبار الأدب -العدد ٧٤ بتاريخ ١٩٩٤/١٢/١١ ص ٢٢.

وكـــان طبيعياً في هذا المناخ المفعم بالتوجس ، والمشحون بالتوتر والإحباط أن يعلن الشعراء رفضهم التطبيع بكل صوره وأشكاله، فكيف يفسحون للآخر مكاناً بينهم وهو لم يتخل عن ممارساته القمعية وأساليب القهـــر في تحدٍّ واضح للقوانين الدولية، وانتهاك فاضح لحقوق الإنسان، وفي ظل سياسة المحاصرة ومصادرة الأراضي والتوسع الاستيطاني حتى إنّ إريل شارون يجعل ذلك هدفه الأساسي ويعلن في المؤتمر الصحفي الأول الذي عقده بعد توليه الوزارة أن على الحكومة الحالية "أن تعود إلى فكرة الصـــهيونية الأصـــيلة الـــتي أقامت الدولة الإسرائيلية على أساس إنشاء تجمعـــات سكانية متكاملة البنية الاقتصادية والاجتماعية ثم تطويرها على الأرض التي تقوم عليها"[(١)].

لم يكـــن غريـــباً في هـــذه الأجواء العدوانية أن يقابل الشعراء إجـــراءات التطبيع بالرفض بعد أن استفزتهم ممارسات الآخر وسياساته، فعـــبروا عن استنكارهم واستيائهم لتواجده وأعربوا عن صدمتهم وهم يشاهدون تلك "الوجوه القبيحة" وهي تسير في الطرقات تتحدى مشاعر الناس، ولا تأبه بنظرات الرفض والاستنكار:[(٢)]

-الوجوه القبيحة تغزو الميادين،

تحمل ريح العفونة،

تفسد هذا الهواء النقيّ،

---

(١) جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٦/٨/١١ ص ٩.

(٢) ديوان: لديّ أقوال أخرى –د. فوزي عيسى ص ٦٣-٦٤.

وتشرب من نيلنا ظامئات
رأيتهُم:
يملأون الشوارع،
يغشون كل الأزقّة،
يستترفون الحوانيت،
يلتقطون المناظر للناس
والواجهات
عرايا يسيرون،
تلفظهم ردهات الشوارع
ترمقهم نظرات الخناجر،
تحرقهم همهمات الملايين والحوقلات

ويبلغ الإحساس بالمذلة مداه حين يشاهد الشاعر العربي تلك النجمة المسدسة وهي ترتفع في السماء وكأنها تناطح أبا الهول والأهرامات:[1]

-يخالجني العار حين أشاهد رايتهم
وهي تغزو السماء
تشدّ أبا الهول من أذنيه
تناطح أهرامنا في ازدراء
وتسخر منا صباح مساء

---

(١) ديوان: لديّ أقوال أخرى —د. فوزي عيسى ص٦٤

ثكلتك يا زمن الإنحناء

أمـــا الشـــاعر ناجي عبد اللطيف فلا يملك إلا أن يمارس طقوس الحـــزن ويتحسر على "الدم العربي المهان" وهو يرى تلك الأنجم البغيضة تمنح تأشيرة الموت وتسبح في بحيرات الدماء، ولا شيء يلوح في الأفق غير بـــوح الحمام ونوح المآذن على نحو ما يبدو في قصيدته (صياغة جديدة لاســـم الوطن) حيث تستثير أحاسيسنا بإيقاعها الرومانسي الذي يشفّ عن حزن دفين:[1]

-دمي يعبر النهر

(إن الفرات هنا يحترق)

فها هي ذي الأنجم السابحات

على صفحة الدم

توشك أن تمنح الكون

تأشيرة الموت

ختم الخروج إلى القارعة

لها أن تجود بأنفاسها

الزهرة اليانعة

لنا وحدنا

أن نمارس أحزاننا

---

(١) ديوان: للعصافير أقوال أخرى -ناجي عبد اللطيف ص١٠١.

وفي قصيدة بعنوان (بيني وبين البحر) يؤكد فاروق شوشة استحالة أن يحدث تطبيع حقيقي في ظل تلك الوعود المراوغة بالسلام، التي تخدع الحمقى والمهرولين عن حقيقة الآخر، وفي مواجهة هذا السدّ المنيع الذي تراكم عبر الزمن من دماء الضحايا وجماجم الموتى:[١]

-من يسقط السدَّ المنيع
وقد تراكم بامتداد العمر؟
إنّ دم الضحايا يستحيل حجارة
وجماجم الموتى تطالعنا
وتنبت في حنايانا شجيرات من الشوك العصيّ
ويدلف الوعد المراوغ بالسلام
ليسحر الحمقى
يهرول نحوه الجمع الشتيت
وقد تمرّغ في الرغام
ويسقط الشرف الرفيع
ولا مناص

وتتعدد أساليب خطاب "الآخر" في القصيدة المعاصرة فقد يتوجه الخطاب الشعري إليه بشكل مباشر رافضاً محاولاته اختراق الحياة العربية وإيهام الشعب العربي بالرغبة في السلام على النحو الذي نراه في قصيدة

---

(١) ديوان: وقت لاقتناص الوقت –فاروق شوشة- دار غريب – القاهرة –الطبعة الأولى ١٩٩٦ ص ١٧-١٨.

أخــرى لفــاروق شوشة بعنوان "كلام عن السلام" يوجهها إلى "العدو الذي كان .. وما يزال" وينعي عليه فيها مكابرته وخداعه وسعيه الحثيث لاقــتحام حياتــنا اليومية، وإيهامنا بأنه صار من "زمرة الأهل" بينما هو يمارس لعبة اللصوص العتاة في التمويه والتضليل:[1]

-كم تكابر؟
بل تتوقع مني الذي لا أطيق!
تدقّ على الباب
ينفتح الباب
تصبح من زمرة الأهل
متشحا بالأمان
ومختلطاً بنجاوى العروق
ومتكئاً حيث كان لجدّي مكان
لترشف قهوتنا
وتغني حكاياتنا
ثم تحمل أسماءنا
وتسابقنا في الحنين الذي لا يجف
وفي فوحات ندىً لا يفيق!

---

(١) ديوان: وقت لاقتناص الوقت لفاروق شوشة ص ٢١.

ويحـــذر فاروق شوشة من مخاتلة هذا العدو الغادر الذي ينصب شباكه بإحكام في المنطقة العربية ليحقق أحلامه في توسيع خريطته ويخلو له الشرق الأوسط ليشكله حسب مطامعه:(١)

-وأنت تلاحقني..
وتحاول غرس السلام الذي لا ينيل
تحاول صيد القلوب التي تستميل
ليمتدّ في الشرق ملك ظليل
ويخلو لك الأوسطيُّ
ومن قبل تخلو العقول

ويؤكد الشاعر في القصيدة ذاتها موقفه الحازم الذي صدر عنه في القصـــيدة السابقة، فمن المحال أن يتحقق سلام أو تطبيع حقيقي في ظل ماضٍ حافل بالدماء، وحاضر مفعم بمراوغة العدو وممارساته القمعية:(٢)

-فكيف تصدّق أنك وجه الزمان البديل
وما بيننا ما تزال الدماء
الدماء التي ما تزال تسيل
وما بيننا فخ شكٍّ، وسدّ
وخارطة تستطيل
وها أنت، ها

---

(١) ديوان: وقت لاقتناص الوقت لفاروق شوشة ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧-٢٨.

تتوقع مني الذي لا أطيق

يداً لك تمتدّ،

أو بسمة في العيون،

ولمعة ودّ تألق فوق الجبين

وفنجان شاي يدور عليه الكلامُ

ومتكئاً في بيت أهلي..

فيحلو السلامُ

وهذا هو المستحيل!

وقد يتوجه الخطاب الشعري إلى الآخر بالتبصير والتحذير على النحو الذي نجده في قصيدة بعنوان "غلاف رسالة إلى نيتانياهو" للشاعر عبد العزيز النعماني يبصّره بعواقب سياسته المتشددة التي تهدد باغتيال السلام، ويحذر من طيشه وصلفه وما يمكن أن تتركه تصرفاته من عواقب وخيمة على المنطقة بأسرها:(١)

-نتنياهو..

تباهي باغتيال السلم..

تلغم خضرة الأيام

وتقتل في عيون صغارك

الأحلام

تبصّر.. يا نتنياهو

(١) الأهرام بتاريخ ١٩/٧/١٩٩٦.

فليس لطائش صولة

وما للزهو في أيامنا جولة

وثمة ضرب آخر من الخطاب الشعري يقوم على التهديد والوعيد والتلويح بالثأر والقصاص، ويمتاز هذا الخطاب بالحدّة والغضب واقترابه من لغة الهجاء بمفرداتها المألوفة، ومن أمثلته ما جاء في قصيدة (أشهد ألا عـــدلا) للشاعر السعودي على أحمد عسيري الذي يخاطب الآخر مهدداً ومتوعداً بقوله:[1]

-مهلاً صهيون فلا غالب إلا الله

والزمن الآتي طوفان

والسمّ الناقع من فمكم

في دمكم

يا أشلاء النازيه

يا أرباب الساديه

....

مهما شرّدتم

مهما قتّلتم

مهما أثكلتم

فالنطفة في صلب الرجلِ الأعزل

ينبوع يجري في شلال الوطنِ الأول

---

(١) ديوان: قصائد من الجبل –مطبوعات نادي أبها الأدبي ص ٧٠-٧١.

ويـــتوجه الشاعر أحمد مبارك بخطابه -على لسان فلسطيني- إلى الغاصـــبين مؤكـــداً أنه لن يحيد عن النضال والكفاح لاستعادة القدس واسترداد حقوقه المشروعة في أرضه المحتلة مهما شيدوا من قلاع وسدود، فلابد للشمس أن تشرق من جديد، ولابد أن يعود الحقّ لأصحابه:[1]

يا غاصبي حقي: أنا مهما أعاني لن أحيد

عن غايتي، مهما أقمتم في طريقي من سدود

القدس لي سأعيدها، وسأرجع الماضي المجيد

وأخط قصة عودتي بالنور في صحف الخلود

ابنوا القلاع وحصّنوها.. سوف أجعلها تميد

سأشق حصن الليل أرفع راية الفجر الجديد

وسأنثر البسمات في وجنات أرضي والورود

فالشمس مهما شرّدت فلسوف ترجع من جديد

ويتكئ فريق من الشعراء في خطابهم للآخر على البعد الحضاري فيقارنوا بين الدور الحضاري للعرب وما أسهموا به من أثر فعّال في حمل مشاعل المدنية والتطور إلى الغرب في العصور الوسطي التي كانت سادرة آنـــذاك في ظلمات الجهل وبين ما آل إليه حال العرب في الوقت الراهن مـــن ضـــعف وتشتُّت ممّا هيأ للقراصنة فرصة الانقضاض، وتتردد هذه الفكـــرة في قصـــيدة (القدس.. ياعنترة) للشاعر إسماعيل عقاب حيث

---

(١) ديوان : في انتظار الشمس -أحمد مبارك ص ٣٤.

يــرتدي قناع عنترة بن شداد ويتوجه بخطابه إلى الآخر مذكراً بالماضي العــربي التليد والأمجاد العربية وما أسهم به العرب من إنجاز حضاري في تقدم البشرية:(١)

ويا من سبيتم حين غبت خليلتي — وكيف استبحتم خيمتي والمضاربا
أنـــا من رأت فيه المشارق عزّها — وزلــزل أعراشــاً وهــزّ المغاربا
وجئت وكان النور إلفاً وصاحباً — وكان الدجى قد بات فيكم مغالبا
وأسقطت غيثى حين جفّت بحاركم — فهــلّ عــلى الشطآن ما كان غاربا
فضجت عروق الأرض نبعاً وحنطةً — وفاحت شذى واخضرّ ما كان شاحبا

وعــلى الرغم ممّا ينطوي عليه الواقع السياسي من قتامة وجهامة فإن بعض الشعراء يتجاوزون هذا الواقع وينفذون منه بحدسهم وبصيرتهم إلى المســتقبل، فيصــدروا عن روحٍ متفائلة على النحو الذي نجده عند الشــاعر عبد المنعم عواد يوسف الذي يتوجه بخطابه إلى "الآخر" مبشراً بــأن المستقبل في صالح القضية العربية وأن الحق لابد أن يعود لأصحابه مهما طال الزمن:(٢)

ليكن لكم ما تشتهون
لنا الربيع القادم
متبرعما ينمو على ظمأ، وتخرج بالحياة مواسم

---

(١) ديوان:هي والبحر – إسماعيل عقاب- ط. أخبار اليوم- الطبعة الأولى ١٩٨٩ ص ١٧٦.
(٢) ديــوان: لكم نيلكم ولي نيل- عبد المنعم عواد يوسف-ط. الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣ ص ٣٥.

ليكن لكم ما تشتهون
لنا اندلاع العاصفة
في حينها تأتي، فتقذف بالقلوب الواجفة
ليكن لكم ما تشتهون
لنا الصباح، لنا الغد
يأتي به يوماً، وإن طال الزمان الموعد

وفي سياق الخطاب الشعري إلى الآخر نرى من الضروري أن نتوقف أمام قصيدة (عابرون في كلام عابر) لمحمود درويش وهي أكثر القصائد دلالة على موقف الشعراء الفلسطينيين من الآخر فضلاً عمّا أحدثته من ضجة كبرى في أوساط الإسرائيليين "الذين بادروا إلى ترجمة هذه القصيدة أربع ترجمات على الأقل، ونشرتها الصحف الإسرائيلية، فثارت بعد ذلك ثائرة الإسرائيليين، وتوالت المقالات والمعارضات ضد القصيدة، وتكلم إسحاق شامير بانفعال متشنج في الكنيست وهاجم القصيدة والشاعر الفلسطيني ومنظمة التحرير، وتابعه في ذلك كُتّاب مشهورون من كتّابهم مثل يائيل لوتان، وعاموس كنعان مثلما ضجّ ضجيج زعماء كافة أحزاب إسرائيل المعتدل منها والمتطرف، ومن الصفات التي أسبغوها على القصيدة ما قاله لوتان "إنها قصيدة مجنونة، وخالية من الذكاء ومغيظة" وقد ردَّ عاموس كنعان على القصيدة بتشنُّجٍ وفزع مؤكداً على إشارات محمود درويش حول الأسماء والقمح، ولم

يـــنس كاتب آخر أن يشير للمدافع والصواريخ وأنها جاهزة لضرب كل القصائد والمتظاهرين"[١].

والقصـــيدة تنقسم إلى خمسة مقاطع، يبدأ كل منها بعبارة (أيها المـــارون بين الكلمات العابرة) وهو خطاب شعري ذو مغزى عميق إذ يوحـــي بعـــدم الاعتراف بكيان الآخر أو وجوده كما أن دالة المنادي (المـــارون) تؤكد أن الآخرين ليسوا أصحاب حق في الأرض أو المكان، وأنهـــم ليسوا سوى قافلة من المسافرين أو العابرين الذين لا يملكون حق الإقامـــة في الوطن الفلسطيني وتأتي دالة (الكلمات) المنعوتة بـــ(العابرة) لـــتؤكد هذه الحقيقة، فالكلمات تنفي الفعل ونعتها بـــ(العابرة) يؤكد هشاشـــتها وفسولتها وعدم استنادها إلى براهين أو دلائل قاطعة، ومن ثم فإن كل ما يطنطن به الآخر من مزاعم أو كلمات لابد أن تذهب أدراج الرياح، ثم يأتي المقطع الأول ليؤكد من خلال تردد أفعال الأمر الستة قوة الوجـــود الفلسطيني المقترنة بالرغبة الملحة في تغييب هذا الآخر (العابر) ونفـــيه ومحـــوه من الأرض والذاكرة، وتنجح كذلك في كشفه وتعريته وإثـــبات جهله بحقائق التاريخ وإرادة الشعوب التي تعرف كيف تسترد حقوقها المغتصبة:[٢]

أيها المارون بين الكلمات العابرة

---

(١) ثقافة الأسئلة-د. عبد الله الغذامي -ط. النادي الثقافي الأدبي -جدة -السعودية -الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢ ص ٧٢.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤-٤٦.

احلموا أسماءكم وانصرفوا

واسحبوا ساعاتكم من وقتنا، وانصرفوا

واسرقوا ما شئتم من صورٍ، كي تعرفوا

أنكم لن تعرفوا

كيف يبني حجرٌ من أرضنا سقف السماء

ويتكئ محمود درويش في المقطع الثاني على بنية "التضاد" من خلال حشد حزمة من الدلالات المتباينة التي تلح على تأكيد ثنائية (المحو/ الوجود)، ويحتشد الحقل الدلالي بدوال التقابل، فالسيف وهو دالة القتل والسفك في مقابل دماء الفلسطينيين، والفولاذ والنار في مقابل اللحم الفلسطيني، والدبابة اليهودية في مقابل الحجر، وقنبلة الغاز مقابل المطر، وإذا كان الحقل الدلالي الذي يرمز للعابرين أو الأعداء يحتشد بدوال القمع والسفك، وهي دوال طارئة ترتبط بالفناء والزوال، فإن الحقل الآخر الذي يرمز للوجود الفلسطيني يحتشد بدوال الوجود والبقاء والاستمرارية والعطاء (اللحم-الدم-المطر) وهي ترمز إلى التشبث بالأرض والوطن:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

منكم السيف —ومنا دمنا

منكم الفولاذ والنار–ومنا لحمنا

منكم دبابة أخرى —ومنا حجر

منكم قنبلة الغاز —ومنا المطر

وعلينا ما عليكم من سماء وهواء
فخذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا
وعلينا نحن أن نحرس ورد الشهداء
وعلينا نحن أن نحيا كما نحن نشاء!

وتـــتعدد مستويات اللغة في تأكيد ثنائية (المحو/ الوجود)، فيعتمد الشـــاعر في المقطـــع الثالث على ضمائر الجمع –نا الفاعلين) التي تؤكد الملكية والوجود حيث يتكرر الضمير (لنا) ست مرات، وفي مقابل ذلك تتردد الضمائر التي تؤكد غياب الآخر ورفض وجوده كما في بنية النهي أو الأمـــر المـــنفي (لا تمـــروا بيننا) أو باستخدام الأخيلة الدالة كتشبيه الآخرين بـــ"الحشرات الطائرة" و"الغبار المر" كما تتردد إشارات ورموز الـــزمن الماضي التي تشير إلى أوهامهم التاريخية كالتلويح بإشارة الهيكل والهدهد في مقابل الدوال التي تؤكد امتلاك الفلسطينيين المستقبل:

-أيها المارون بين الكلمات العابرة
كالغبار المر، مروا أينما شئتم ولكن
لا تمروا بيننا كالحشرات الطائرة
فلنا في أرضنا ما نعمل
ولنا قمح نربيه ونسقيه ندى أجسادنا
ولنا ما ليس يرضيكم هنا:
حجر أو حجل
فخذوا الماضي إذا شئتم إلى سوق التحف

وأعيدوا الهيكل العظمى للهدهد، إن شئتم على صحن خزف
فلنا ما ليس يرضيكم : لنا المستقبل
ولنا في أرضنا ما نعمل

وفي المقطع الرابع تلعب مجموعة أفعال الأمر التي تمثل العصب الشعري للقصيدة كلها دوراً حيوياً في تأكيد الرغبة في محو الآخر ونفيه بما تشيعه من دلالات التهكم والسخرية (كدسوا أوهامكم- أعيدوا عقرب الوقت) كما تستمر خاصية التقابل أو التضاد في أداء دورها المحوري سواء على مستوى الضمائر أو التراكيب أو الأزمنة أو الإشارات التاريخية:

-أيها المارون بين الكلمات العابرة
كدّسوا أوهامكم في حفرة مهجورة وانصرفوا
وأعيدوا عقرب الوقت إلى شرعية العجل المقدّس
أو إلى توقيت موسيقى المسدس
فلنا ما ليس يرضيكم هنا، فانصرفوا
ولنا ما ليس فيكم، وطن يترف شعباً يترف
وطناً يصلح للنسيان أو للذاكرة

ويأتي المقطع الأخير ليكثّف الرؤية المحورية في رفض الآخر ونفيه من خلال غابة الأوامر المباشرة بالخروج من الأرض ومن حياة الفلسطينيين وذاكرتهم وحاضرهم ومستقبلهم:

-أيها المارون بين الكلمات العابرة

آن أن تنصرفوا
وتقيموا أينما شئتم، ولكن لا تقيموا بيننا
آن أن تنصرفوا
ولتموتوا أينما شئتم، ولكن لا تموتوا بيننا
فلنا في أرضنا ما نعمل
ولنا الماضي هنا
ولنا صوت الحياة الأوّل
ولنا الحاضر، والحاضر والمستقبل
ولنا الدنيا هنا والآخرة
فاخرجوا من أرضنا
من برّنا.. من بحرنا
من قمحنا .. من ملحنا.. من جرحنا
من كل شيء واخرجوا
من ذكريات الذاكرة
أيها المارون بين الكلمات العابرة

وبقدر ما تعكس القصيدة موقف الشاعر الرافض لوجود الآخر في أرضه التي اغتصبها في غفلة من الزمن، فإنها لا تخلو من مغزى يؤكد تمسك الشاعر بالقيم الإنسانية، ففي الوقت الذي ينادي فيه بحتمية خروج الآخر من الأرض التي احتلّها فإن القصيدة –خاصة في مقطعها الأخير– لا تحمل أية رغبة في القضاء على الآخر أو تدميره باعتباره جنساً

بشـــرياً له حق الحياة والوجود ولكن دون افتئات على حقوق الآخرين، وهـــذه الـــرؤية لا تقتصر –في تقديري- على محمود درويش وحده بل تنسحب على الشعراء العرب جميعاً.

خاتمة

بــدأ الاتصال بالآخر منذ العصر الجاهلي، فاتصل العرب بالروم والفــرس عن طريق التجارة والجوار والحروب. ومال العرب إلى الروم وتعــاطفوا معهم على النقيض من الفرس الذين كانوا يمقتونهم بوصفهم وثنيين، ولما كانوا يمثلونه من تهديد وخطر. وكان الأعشى أكثر الشعراء الجاهلــيين تصــويراً للصراع الفارسي، فسجل في شعره هزائم الفرس وأطلــت في بعض قصائده صورة القيل هارمر قائد الفرس المنهزم في يوم ذي قار.

ويعدُّ الأعشى أكثر شعراء العصر الجاهلي استحضاراً لصورة "الآخر" في شــعره وذلك لكثرة أسفاره ورحلاته إلى بلاد العجم طلباً للتكسب مما أتــاح له الاتصال بحضارة العجم وثقافتهم ومعرفة عاداتهم وطبائعهم عن قــرب، واســتطاع أن يصور ذلك في شعره، فاستحضر صورة ساسان مؤســس دولة ساسان الفارسية، وصورة كسرى شاهنشاه ملك الملوك عــند الفــرس وأكثر من استحضار معالم الحضارة الفارسية كالقصور الــباذخة. كما وصف مظاهر الحياة الفارسية كالأعياد والأزياء والطعام والأزهار وأدوات الطرب ومجالس الغناء والشراب.

ولم يكــن للروم حضور قوي في الشعر الجاهلي، ولكن صورتهم أخــذت تــبرز في الشــعر العربي منذ عهد الخلفاء الراشدين من خلال

الغــزوات والفتوحات، فبرزت صورة القائد الرومي (أرطبون) وترددت أسماء أماكن الغزوات مثل (فلطاس) و(طرندة).

واتخذ الصراع بين العرب والروم أبعاداً خطيرة في العصر العباسي وظهــر أثــر هــذا الصراع في الشعر العربي بصورة واضحة، ووجدت الدراســة حضوراً مكثفاً للروم في شعر ثلاثة من كبار شعراء هذا العصر هم: أبو تمام والمتنبي وأبو فراس الحمداني.

أمــا أبــو تمــام، فقد عاصر الخلافة العباسية في عصرها الذهبي واستطاع أن يصور في شعره انكسار الروم أمام قوة العباسيين، ووصف معــارك الثغور وحصار القسطنطينية وخليج البسفور، وافتنَّ في تصوير الحالة النفسية للروم وما أصابهم من ذعر وفزع، وسخر من (منويل) قائد الروم المنهزم، وخاطبه في غير موضع من شعره خطاباً ينطوي على تهكم وسخرية.

وتــرددت أسمــاء الأمــاكن الرومية بكثرة في شعر أبي تمام مثل (درولــية) و(فروق) و(القبذبوق) ووادي عقرقس و(ميمذ) و(صاغرة) وأرض الــبقلار والناطلوق (الأناضول) وغيرها. وصوَّر انهزام (البطريق) قــائد الروم ووصف هزيمة (توفيل) امبراطور بيزنطة على يد المعتصم في معــركة (عموريــة)، وصوَّر -إلى جانب ذلك- أضواء الشتاء القاسية والصقيع والجليد في بلاد الروم وأشار إلى عادة الروم في إنفاذ الكتب إلى العباسيين طلباً للصلح أو الهدنة.

وعلى النقيض من ذلك، فقد كان للفرس حضور واضح في شعر البحتري، فأطال الوقوف أمام معلم بارز من معالم حضارتهم هو (إيوان كسرى) الذي رآه شاهداً على ما بلغته الحضارة الفارسية من رقي وعظمة. ولم يستنكف البحتري –وهو العربي أرومة– أن يقارن بين حياة الفرس الناعمة المتحضرة وحياة العرب الخشنة القاسية، ولم يجد حرجاً في أن يعترف بتفوق الفرس الحضاري، ورأى أنه لا مجال للمقارنة بين حضارة الفرس القديمة وما خلفته من آثار وبين حضارة الصحراء، وذهب البحتري إلى أبعد من ذلك في معرض مفاضلة بين الفرس والعرب، فرأى أن مفاخر الفرس ومكارمهم لا تنهض بها القبائل العربية المتناحرة كاشفاً بذلك عن سلوك متحضر ونزعة عقلانية تتجرد من الأهواء والعصبية.

وقد وصف البحتري انبهاره ببراعة الفنان أو النحات الفارسي وأبدى إعجابه بالنقوش والصور التي ازدان بها الإيوان والرسوم التي سجّلت أمجاد الفرس وانتصاراتهم لاسيما معركة أنطاكية التي قهروا فيها الروم سنة ٥٤٠م وظلت هذه النقوش تحتفظ بألوانها وخطوطها التي أبدعتها عبقرية الفنان الفارسي. وبلغ من افتتان البحتري بالحضارة الفارسية أنه تخيل نفسه شاعر كسرى ونديمه.

وأغلب الظن أن موقف البحتري من الحضارة الفارسية كان رد فعل لموقفه الرافض للترك وهيمنتهم على الحياة السياسية في عصره وكأنه يرى أن الترك لا حضارة لهم ولا حظٌ من الفن والرسم والغناء والمعمار على نحو ما كانت عليه حضارة الفرس.

أما أبو فراس الحمداني، فكانت له تجربة خاصة مع الروم، إذ وقع في الأسـر وسيق إلى بلادهم، فخالطهم واتصل بهم عن قرب وعبر عن تجربة الأسر في رومياته وصدر فيها عن كراهية شديدة للروم ورسم لهم صوراً مزرية، ونظر إليهم بوصفهم كفاراً، وهو ما جعل علاقته بهم تقوم على الإنكار والرفض والرغبة في استئصال شأفتهم.

وصـوَّر أبو فراس المقابلات الشخصية التي جمعته بالدمستق ملك الروم وقد أنكره وكأنه ينكر الحضارة العربية مما جعل أبا فراس يتبارى في التذكير بإنجازات قومه والفخر بمآثرهم.

واحـتفى أبو فراس في رومياته بجانب من أنضر ما نقع عليه في الشـعر، ونعـني بذلك المناظرات التي جرت بينه وبين الدمستق (رومان السناي) وقـد دارت هذه المناظرات حول العقيدة وإجادة فنون الحرب والقـتال، ورسم أبو فراس صوراً مزرية للبطارقة ذوي العثانين الضخام، وسـخر من الدمستق فوصفه بأنه "ضخم اللغاديد" واستحضر كثيراً من أسمـاء القـواد الـروم والبطارقة أمثال بردس وآل برداليس وقرقواس والشميشـق وآل بهرام وآل بلنطس وآل منوال وغيرهم. وهكذا قامت علاقـة الـذات بالآخر في شعر أبي فراس الحمداني على العداء والإنكار والتعالي، فكلا الطرفين يسعى إلى محو الآخر.

وكـان للآخر تجليات عديدة في شعر المتنبي، وقد أسهم في هذا الحضور المكثف عدة عوامل، منها كثرة أسفاره ورحلاته واتساع ثقافته ومعاصرته للصراع المحتدم بين العرب والروم.

وينطلق موقف المتنبي من الآخر من حقيقة مؤداها أن هناك تبايناً واضحاً بين العرب وهذا الآخر في العقيدة والعادات والطبائع واللغة والثقافة، وكانت نظرته إلى هذا الآخر سلبية في مجملها، ولكنه اعترف بحضارة الروم ومهارتهم في الفنون وحذقهم في الصناعة، كما عبَّر في غير موضع عن إعجابه بحضارة الإغريق وما أنجبته من علماء أفذاذ في الطب والفلسفة. واستحضر أعلام الحضارة اليونانية أمثال أرسطاطاليس والإسكندر وبطليموس، كما استدعى شخصية الإسكندر وشخصيتي خوفو وخفرع صاحبي الهرمين وذلك في سياق العظة والاعتبار.

وكان للفرس حضور واضح في شعر المتنبي حيث كانت له رحلة إلى بلاد فارس، فزار أرجان وشيراز مادحاً ابن العميد وعضد الدولة ونظر إلى الفرس نظرة إكبار وتقدير وعبَّر عن إعجابه بالحضارة الفارسية ووصف أعياد الفرس كالنيروز وأشاد بأكاسرة الفرس ورآهم نماذج للمجد والكرم والفخار.

وكان للأكراد حضور في شعر المتنبي فجعلهم أفصح الناس في قومهم وشبههم في الفصاحة بالأعراب معبراً عن إشكالية ثقافية تتصل باللغة بوصفها أداة للتعبير والتفاهم، فالممدوح الذي يمثل نموذج الفصاحة اللغوية العربية يقف في مواجهة مع نموذج آخر للفصاحة ممثلاً في لغة أخرى هي لغة الأكراد.

وأظهر المتنبي تعاطفه مع الترك والتفت إلى بعض صفاتهم الجسدية الموروثة مثل بياض الوجوه وضيق العيون.

كمـــا حضر (الديلم) في شعر المتنبي من خلال شخصية ملكهم (وهشوذان) الذي هزمه عضد الدولة هزيمة ساحقة.

واستحضـــر المتنبي كذلك صورة اليهود فرآهم أهل زور ووشاية وعداوة ومكيدة وهي الصورة التي تستند إلى الواقع -في رأيه- وتؤكدها الحقائق التاريخية.

ويُعدُّ حضور الروم الأكثر كثافة في شعر المتنبي، فتحتشد قصائده بوصـــف معارك الحمدانيين مع الروم وتصوير هزائمهم ووصف جيوش الـــروم وقوادهـــم وجـــنودهم وبطارقتهم ومدنهم وسباياهم وحصونهم وقلاعهم، فجمع بذلك -إلى جانب القيمة الفنية- قيمة تاريخية جغرافية عالية القدر.

وقـــد عبَّر المتنبي عن رأيه في الصراع بين العرب والروم فتجاوز الـــرؤية الفردية الضيقة، ولم ير هذا الصراع حرباً بين ملك الروم ونظيره العربي بل رآه حرباً عقائدية بين التوحيد والشرك.

وأشار المتنبي في شعره إلى قوة الروم وحسن استعدادهم للحرب، وبـــرزت صـــورة (ابـــن ليون) ملك الروم الذي حشد جمعاً من الروم والصقالب والبلغار. ورسم المتنبي في شعره صوراً للسفراء والرسل الذين أوفدهـــم ملوك الروم إلى البلاط الحمداني يطلبون الهدنة وافتداء أسراهم، ووصف استقبال سيف الدولة لسفراء الروم الذين تملكهم الخوف والرهبة وهم ماثلون أمام الحاكم العربي، وسجَّل المتنبي في شعره سفارة إلى سيف الدولـــة أرســـلها ملك الروم قسطنطين السابع برئاسة رسوله (رودس)

وكان هدف السفارة فك أسر ابن ملك الروم ووصف المتنبي مراسم استقبال سفير ملك الروم في لقطات تسجيلية وثائقية نادرة.

واهتمت الدراسة بحضور الأماكن الأجنبية في شعر المتنبي الذي كان كثير الأسفار والترحال جرياً وراء طموحه الشخصي في الثراء والمجد، فاحتفى بوصف الأماكن التي شاهدها وكثر دورانها في شعره حتى بذَّ الشعراء الآخرين في ذلك، وأصبحت هذه الأماكن تمثل معجماً طريفاً اعتمد عليه ياقوت الحموي في وصف تلك الأماكن في معجمه كما عكست رؤية المتنبي لتلك الأماكن وامتزاجها بعاطفته في حالتي الرضا والسخط، والحب والكراهية، والسلم والحرب.

وكان للأماكن الفارسية حضور واضح في شعر المتنبي حيث ارتحل إلى بلاد فارس وشاهد بعض مدنها ووصف الأماكن التي زارها ومن أشهرها شعب بوان حيث وصف جمال المتنزهات والوجوه الشيرازية الشقراء وإحساسه بالغربة. كما وصف المتنبي (دشت الأرزن) وهو موضع بأرض فارس بالقرب من شيراز كان موضعاً للتنزه والصيد.

وكان للأماكن الرومية في شعر المتنبي حضور فاق حضور الأماكن الفارسية نظراً لارتباطها بالصراع بين العرب والروم، وقد تنوعت هذه الأماكن بين المدن والجبال والحصون والقلاع والثغور والأنهار، فمن المدن التي ذكرها (أنطاكية) وكان قد شاهدها خلال غزوات سيف الدولة ووصف بعض معالمها وتساقط الثلج على ربوعها. وذكر مدينة (سمندو) في وسط بلاد الروم ومدينة صارخة وخليج

البسفور وملطية واللقان. وأكثر من ذكر الثغور الرومية التي كانت مسرحاً للغزوات والمعارك مثل عرقة وموزار وسجل أسماء الحصون والقلاع مثل (الران – مرعش- الحدث- خرشنة- تل البطريق) وأشار إلى بعض الأنهار مثل آلس وأرسناس.

وتتبعت الدراسة صورة الآخر في الشعر الأندلسي حيث برزت صورة الممالك المسيحية بشكل واضح نتيجة للصراع الذي احتدم في الأندلس بين هذه الممالك والمسلمين، وبرزت صورة الروم والفرنجة والنصارى بوصفهم أعداء يمثلون خطراً على الإسلام، وصوَّر الشعر الأندلسي ما دار من غزوات ومعارك وحروب وعني بتسجيل الوقائع التاريخية والأماكن الجغرافية والسفارات المتبادلة.

ويعدُّ ابن دراج القسطلي من أبرز شعراء الأندلس استحضاراً للآخر، ولعله نافس المتنبي في هذا المجال، فكان النموذج المقابل له في الغرب، وقد صنع ابن دراج في شعره صنيع المتنبي، فسجل الوقائع والغزوات والأماكن التي دارت حولها المعارك ووصف الروم وملوكهم وقوادهم والسفارات المتبادلة، وكان شعره في بعض جوانبه وثائق تاريخية وجغرافية على قدر كبير من الأهمية.

ولم تكن الحروب والمعارك هي الوجه الوحيد للعلاقة بين المسلمين والإسبان وإنما كانت هناك صور أخرى تعكس الجوانب الإيجابية والسلمية لعلاقة الطرفين، ومنها تبادل السفارات والسفراء والوفود فيما يشبه العلاقات الدبلوماسية حيث اضطلعت قرطبة بدور

كـــبير في هذا المجال واستطاع الشعراء لاسيما ابن دراج أن يصوروا هذا الجانب تصويراً دقيقاً.

وفي شعر ابن دراج ما يكشف عن بعض الجوانب الطريفة النادرة فـــيما يتصـــل بالعلاقـــات الودية بين الطرفين وتمثل ذلك في السياسة الحكـــيمة التي انتهجها منذر التجيبي حاكم سرقسطة مع جيرانه الأمراء النصارى، وكان من ثمار هذه السياسة أن الحاكم المسلم تولى بنفسه عقد الصـــهر بين جارية الأميرين المسيحيين (ريمند بن بريل) قومس برشلونة و(شانجة بن غرسية بن فرذلند) قومس قشتالة حيث تزوج ابن الأول من ابنة الثاني. وكان هدف الأمير المسلم من ذلك هو توطيد علاقاته بجيرانه النصارى وإشاعة جوّ من الأمن والسلام لبلده، وكان لهذا الحدث صداه في شعر ابن دراج فسجّله في وثيقة فنية تاريخية نادرة.

وفي السياق ذاته جاءت سفارة يحيى بن الحكم الغزال الجياني إلى بلاد الروم، وكان للغزال مع الروم في رحلته مواقف مشهورة جادل فيها عـــلماءهم وحاور ملوكهم. وكان أطرف ما في رحلته إعجابه بزوجة ملك الروم ومحاولة التقرب منها وإعجابها بوسامته وشخصيته. وقد سلك في ســـفارته مسلكاً حضارياً وسجَّل وقائعها في شعره في لقطات شعرية نادرة.

ووجـــدت الدراسة في الشعر ما يصور التسامح مع الآخر وتمثل ذلـــك في اتجاه بعض الشعراء المسلمين إلى مدح بعض ملوك الفرنجة ممن عرفوا بالسيرة الحسنة وهو ما نجده عند بعض ملوك صقلية من النورمان،

بل إنَّ من الشعراء من رثى ابن الملك روجار استجابة لموقف إنساني خالص لا يفرق بين مسلم ومسيحي أو بين جنس وآخر ويؤكد الأجواء الحضارية التي ذوَّبت العصبية للجنس والدين ووحدت المشاعر والأحاسيس.

وخلصت الدراسة إلى أن العلاقة بين المسلمين والروم في العصور الوسطى لم تكن كلها قائمة على التصادم والصراع وإنما كان فيها مساحات من التلاقي والتواصل والحب، وتمثل ذلك في زواج المسلمين بمسيحيات أو روميات وشيوع قصص حب وعشق بين الطرفين مثل قصة حب الشاعر المسلم ابن الحداد شاعر المرية في عصر ملوك الطوائف لفتاة نصرانية من مستعربي المرية. وقد أضفى على غزله أجواء مسيحية خالصة وصوَّر من خلاله احتفال النصارى بأعيادهم وصدر عن روح مفعمة بالتسامح، فشاطر حبيبته النصرانية الفرحة بعيدها وأغراه حبها بالتردد على الكنائس ليؤدي فيها طقوس الدين المسيحي.

وتتبعت الدراسة صورة الآخر في الشعر الحديث وركزت على ثلاثة شعراء برزت صورة الآخر في شعرهم بشكل واضح وهم شوقي وعمر أبو ريشة وإبراهيم العريض.

وقد احتفت الدراسة باستجلاء صورة الغرب في شعر شوقي، فيتتبع المؤثرات العامة والخاصة التي أسهمت في تشكيل هذه الصورة ومن هذه المؤثرات العامة انفتاح مصر على أوربا منذ القرن التاسع عشر واهتمامها بإرسال البعثات ودور المبعوثين في تعميق صلة مصر بالغرب

وإسهام حركة الترجمة في ذلك مما أدى إلى وجود تيار غربي واضح في أدبنا العربي، وقد عاش شوقي في تلك الأجواء وتأثر بها بالإضافة إلى المؤثرات الخاصة التي تمثلت في اتصاله الوثيق بالغرب من خلال بعثته إلى فرنسا التي أتاحت له التزود بالثقافة الفرنسية والتنقل بين دول الغرب ومشاهدة معالمه والوقوف على إنجازاته الحضارية.

وقد أطلت صورة الغرب في شعر شوقي إطلالات قوية وكان لها حضور مكثف، فنجد فيه صوراً للبلدان والمجتمعات والمدن التي زارها ومنها فرنسا وانجلترا وإسبانيا وبلجيكا، كما نجد فيه وصفاً للمعالم الحضارية التي شاهدها في بعض دول الغرب واحتفاء بمدينة باريس بصفة خاصة إذ اهتم بتقديم صورها الحضارية والعلمية والأدبية وأشاد بما أرسته من مبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة وأثني على بعض أعلامها وأدبائها ومفكريها ووصف بعض معالمها مثل ميدان (الكونكورد) وتغنى ببعض متنزهاتها ومنها (غاب بولون).

وتتبع البحث صورة إسبانيا كما رآها شوقي خلال منفاه، وقد عبر عن إعجابه بها وطبيعتها الساحرة وانبهر بحضارة الأندلس ووصف معالمها وآثارها وقصورها وتوقف أمام قصر الحمراء بغرناطة ووصفه وصفاً بديعاً. وقد احتفى شوقي كذلك بمدينة (روما) بوصفها عاصمة الحضارة الرومانية القديمة وحاضرة العالم القديم وانجذب حين زارها إلى آثارها القديمة ومعالمها التاريخية. كما أشاد بحضارة اليونان وما أنجزته في مجال العمران والفلسفة ورسم صورة مضيئة لمدينة (أثينا) التي وصفها

بـــــ"مدينة الحكمة في الدهور الخالية". أما صورة انجلترا فلها وجهان في شعر شوقي أحدهما ينطوي على مدح وإعجاب بحضارتها والآخر يدين فيه سياستها الاستعمارية.

وكان للطبيعة الأوربية حضور بارز في شعر شوقي لاسيما طبيعة سويسرا التي أفاض في تصويرها .

وتمثل اهتمام شوقي بالغرب في جانب آخر من شعره هو الاحتفاء بعباقرة الغرب ونوابغه من ساسة وعلماء وفلاسفة ومفكرين وأدباء وفنانين وغيرهم وقد شغل هذا الجانب مساحة واسعة من شعر شوقي، فاختص من فلاسفة اليونان القدماء كلا من سقراط وأرسطو وعبر عن إعجابه بـــ(هومير) شاعر الإلياذة، وأشاد بـــ(تولستوي) أديب روسيا العظيم، وأثنى على (شكسبير) ثناء عظيماً وعبر عن إعجابه بفكتور هوجو واستدعى شخصية الرسام العالمي (رفائيل) وشخصية الموسيقار العالمي (فردي) وأشاد بأديسون مخترع المصباح الكهربائي، واحتفى بنوابغ الغرب من الساسة والزعماء لاسيما (نابليون)، كما التفت إلى ساسة آخرين منهم (روزفلت) وإدوارد السابع وغليوم الثاني واللورد كرومر وغيرهم.

وتفاعل مع الأحداث الكبرى التي شهدها الغرب وتعاطف مع كل نموذج إنساني أسهم في خدمة البشرية وأكد إيمانه بالحضارة التي تحقق الخير والتقدم للإنسانية.

وخصصنا مبحثاً كذلك لصورة "الآخر" في شعر عمر أبي ريشة، حيث أتاحت له ثقافته وكثرة أسفاره وتنقلاته في دول العالم المختلفة من خلال عمله الدبلوماسي سفيراً لبلاده أن ينفتح على العالم ويتصل بحضارته وثقافته اتصالاً مباشراً جعل صورة "الآخر" تبدو في شعره بشكل واضح وتمثل تياراً بارزاً فيه، فرسم مشاهد عديدة للناس الأجانب رجالاً ونساء، ووصف المعابد التي زارها، والمعالم السياحية والأماكن التاريخية ومشاهداته في الأرجنتين وأسبانيا والهند والنمسا وكشمير ونيبال وغيرها.

أما إبراهيم العريّض فهو أحد هؤلاء الفرسان الثلاثة الذين يمثلون همزة الوصل بين الحضارة العربية والحضارات الأجنبية، حيث تعددت منابع ثقافته، فتأسس وعيه الثقافي في الهند التي عاش فيها طفولته وصدراً من صباه وأجاد اللغة الإنجليزية وعاد إلى وطنه ليعمل مدرساً لها في مدارسها في إحدى مراحل حياته، وكتب بها شعراً إلى جانب كتابته الشعر بالعربية وأجاد لغات أخرى غيرها مما أتاح له ترجمة رباعيات الخيام وهيأه للانفتاح على الآخر الثقافي.

وختمنا الدراسة بمبحث عن صورة "الآخر" في القصيدة العربية المعاصرة وتتبعنا فيه موقف الشاعر العربي المعاصر من هذا "الآخر" الدخيل الذي أغتصب أرضه وانتهك مقدساته، وهو موقف عام ينطلق من الرفض ويعكس توجه الوجدان الجمعي للأمة العربية.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر:

١- أخـــبار أبي تمام للصولي، تحقيق محمد عبده عزام وآخرين، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧.

٢- أزهـــار الـــرياض في أخـــبار القاضي عياض، المقري، تحقيق السقا والإبياري وشلبي، القاهرة ١٩٤٢/٣٩.

٣- البـــيان المغـــرب في اختصـــار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ابن عذارى، القسم الثالث، تحقيق هويس مراندة، ط. تطوان ١٩٦٠

٤- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني، تحقيق د. إحسان عباس،

٥- خريدة القصر وجريرة العصر، العماد الأصفهاني:

أ.الطبعة المصرية تحقيق عمر الدسوقي، مطبعة الرسالة ، مصر .

ب. الطبعة التونسية تحقيق محمد المرزوقي وآخرين، تونس ١٩٧٣.

٦- ديـــوان الأعشـــى الكبير، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، ط. دار الكتب العلمية، بيروت

٧- ديوان أبي إسحاق الإلبيرى، تحقيق د. محمد رضوان الداية،

٨- ديـــوان أبي تمـــام، تحقيق محمد عبده عزام، ط. دار المعارف، الطبعة الثانية

٩- ديوان أبي فراس الحمداني ، ط. دار صادر، بيروت.

١٠- ديـــوان البحترى، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط. دار المعارف، الطبعة الثالثة ١٩٧٧/٧١.

١١- ديوان ابن الحداد الأندلسي، جمعه وحققه د. يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

١٢- ديـــوان ابن خفاجة، تحقيق د. السيد مصطفى غازي، ط. منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثانية ١٩٧٩

١٣- ديـــوان ابـــن دراج القسطلي، تحقيق د. محمود على مكي، الطبعة الثانـــية، منشـــورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠٠٤.

١٤- ديوان ابن الزقاق البلنسي، تحقيق عفيفة محمود دبراني، دار الثقافة- بيروت.

١٥- ديوان الشعر الصقلي، جمع وتحقيق د. فوزي عيسى، ط. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الطبعة الأولى ٢٠٠٧

١٦- ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، ط. درا الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٠.

١٧- ديـــوان الـــنابغة الشيباني، ط. دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى ١٩٣٢.

١٨- ديوان ابن هانئ الأندلسي، ط. دار صادر، بيروت.

١٩- الذخـــيرة في محاســـن أهل الجزيرة، ابن بسام، تحقيق د. إحسان عباس،دار الثقافة ، بيروت ،١٩٧٩ .

٢٠- فهرسة ابن خير الإشبيلي، مكتبة المثني، بغداد، الطبعة الثانية ١٩٦٣.

٢١- كتاب الأمالي لأبي على القالي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢- المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، تحقيق إبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي ، ط. دار العلم للجميع، بيروت.

٢٣- معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط. دار صادر، بيروت.

٢٤- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، تحقيق د. شوقي ضيف، ط. دار المعارف.

٢٥- المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ابن حيان القرطبي، تحقيق د. عبد الرحمن على الحجي، ط. دار الثقافة، بيروت.

٢٦- المقتبس، ابن حيان القرطبي، السفر الثاني، تحقيق د. محمود على مكي، ط. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

٢٧- المن بالإمامة على المستضعفين، ابن صاحب الصلاة، تحقيق التازي، بيروت ١٩٦٤.

٢٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، تحقيق د. إحسان عباس، ط. دار صادر، بيروت ١٩٦٨.

٢٩- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، ط. بيروت.

ثانياً: المراجع:

٣٠- أبــو تمام الطائي –حياته وحياة شعره، د. نجيب البهبيتي، ط. دار الكتب المصرية ١٩٤٥.

٣١- أحمــد شــوقي والأدب العــربي الحديث، د. طه وادي، مؤسسة روزاليوسف، القاهرة١٩٧٣.

٣٢- أدب السياســة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، د. علي لغزيوي، مكتبة المعارف، الرباط ١٩٨٧.

٣٣- الأدب العربي المعاصر في مصر، د. شوقي ضيف، ط. دار المعارف.

٣٤- أبو عبادة البحتري، د. أحمد بدوي، ط. دار المعارف.

٣٥- الأعمــال الشــعرية الكاملــة، إبراهيم العريض، وزارة الإعلام، الكويت ١٩٧٩.

٣٦- الأعمــال الشعرية الكاملة، عمر أبو ريشة (مجلدان)، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.

٣٧- أمراء الشعر في العصر العباسي، أنيس المقدسي.دارالعلــم للملايين

٣٨- تاريخ الأدب الأندلسي –عصر سيادة قرطبة، ط. إحسان عباس، ط. دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٩.

٣٩- تــاريخ الأدب العربي –العصر العباسي الأول- د. شوقي ضيف، ط. دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة عشرة.

٤٠- تاريخ الأدب العربي –العصر العباسي الثاني- د. شوقي ضيف، ط. دار المعارف ، مصر، الطبعة السادسة.

٤١- تـــاريخ الشـــعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، د. نجيب البهبيتي، ط. دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٢.
٤٢- ثقافـــة الأســـئلة، د. عبد الله الغذامي، ط. النادي الثقافي الأدبي، جدة، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـــ-١٩٩٢م.
٤٣- حافظ وشوقي، د. طه حسين، ط. مصر ١٩٣٣.
٤٤- حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٤٨.
٤٥- ديوان أرض الشهداء، إبراهيم العريض، مكتبة فخراوي، البحرين، الطبعة الرابعة ١٩٩٦.
٤٦- ديـــوان أقـــوال جديدة عن حرب البسوس، أمل دنقل، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت ١٩٨٥.
٤٧- ديـــوان حديـــث المـــوج للصخور، إسماعيل عقاب، دار غريب، القاهرة.
٤٨- ديـــوان حسن الفلسطيني وثورة الحجارة، عائشة الرازم، دار ابن رشد للنشر والتوزيع -عمان- الأردن ١٩٨٨.
٤٩- ديوان سمريات، أيمن صادق، الإسكندرية ١٩٩٦.
٥٠- ديـــوان شموع، إبراهيم العريض، مكتبة فخراوي، البحرين، الطبعة الرابعة ١٩٩٦.
٥١- ديوان العرائس، إبراهيم العريض، مكتبة فخراوي، البحرين، الطبعة الرابعة ١٩٩٦.

٥٢- ديـــوان فصـــل في الجحيم، فوزي خضر، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.

٥٣- ديـــوان في انتظار الشمس، أحمد مبارك، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١.

٥٤- ديـــوان قبلتان، إبراهيم العريض، مكتبة فخراوي، البحرين، الطبعة الرابعة ١٩٩٦.

٥٥- ديوان قصائد من الجبل، مطبوعات نادي أبها الأدبي ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤.

٥٦- ديـــوان لـــديّ أقـــوال أخرى، د. فوزي عيسى، ط. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٠.

٥٧- ديوان وقف لاقتناص الوقت، فاروق شوشة، دار غريب، القاهرة ١٩٩٦.

٥٨- ديوان الوقوف على حد السكين، د. محمد أبو دومة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣.

٥٩- ديـــوان الـــيمامة الخضـــراء، بدر توفيق، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩.

٦٠- ساعات بين الكتب، العقاد، ط. دار القلم.

٦١- سينية البحتري، البعد النفسي والمعارضة، د. عبد الله التطاوي، ط. دار غريب، القاهرة.

٦٢- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس، ترجمة د. الطاهر مكي، ط. دار المعارف، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

٦٣- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، د. فوزي عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩.

٦٤- شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة، د. زكي المحاسني، ط. دار المعارف، الطبعة الثانية.

٦٥- شعر الجهاد عند ابن هانيء الأندلسي، د. محمد بن علي الهرفي، ط. دار الإصلاح، القاهرة ١٩٨٢.

٦٦- الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة، ط. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٥.

٦٧- شعر المتنبي دراسة فنية، د. مصطفى أبو العلا، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة.

٦٨- شعراء البحرين المعاصرون، د. علوى الهاشمي، البحرين، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

٦٩- شوقي شاعر العصر الحديث، د. شوقي ضيف، ط. دار المعارف.

٧٠- الشوقيات، أحمد شوقي، الطبعة الأولى بمقدمة د. محمد حسين هيكل.

٧١- الشوقيات الصحيحة، نشرها على نفقته الخاصة د. مصطفى أمين الرفاعي (أربعة أجزاء).

٧٢- الشـــوقيات المجهولة، تحقيق محمد صبري، ط. الهيئة العامة لقصور الثقافة، (ذاكرة الكتابة) ٢٠٠٣.

٧٣- العرب في صقلية، د. إحسان عباس، ط. دار المعارف.

٧٤- عصـــر الــدول والإمـــارات (الشام)، د. شوقي ضيف، ط. دار المعارف.

٧٥- عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى، د. عباس عجلان، ط. دار المعارف، الطبعة الأولى ١٩٨١.

٧٦- في الأدب الأندلسي، د. جودت الركابي، ط. دار المعارف.

٧٧- في رحـــاب شـــوقي، تألـــيف د. مصطفى أمين الرفاعي، مطبعة الانتصار، الإسكندرية ١٩٩٦.

٧٨- قصائد مختارة للشاعر إبراهيم العريض، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠٠٢.

٧٩- كتاب الخياميات –رباعيات الخيام- ترجمة ونظم إبراهيم العريض ١٩٩٧.

٨٠- مســـرح إبراهـــيم العريض، د. إبراهيم غلوم، دار سعاد الصباح ١٩٩٦.

٨١- مسرحية وا معتصماه، إبراهيم العريض، المطبعة التجارية، القاهرة.

٨٢- وثـــيقة أندلسية عن سقوط غرناطة مع دراسة تحليلية للمستشرق جـــيمس. ت. مونرو، ترجمها وعلق عليها د. محمد عبد الله الشرقاوي، ط. دار الهداية، القاهرة ١٩٨٤.

فهرس

العنوان	الصفحة